

ول ديورانت

مباهج الفلسفة

الكتاب الثاني

ترجمة: أحمد فؤاد الأهواني
تقديم: سعيد توفيق



ميراث الترجمة

1946

مباهج الفلسفة

الكتاب الثاني

المركز القومي للترجمة
تأسس في أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور منيف

سلسلة ميراث الترجمة
المشرف على السلسلة: مصطفى لبيب

- العدد: 1946
- مباحج الفلسفة: الجزء الثاني
- ول ديورانت
- أحمد فؤاد الأهواني
- اللغة: الإنجليزية
- 2015

هذه ترجمة كتاب:
Pleasures of Philosophy
(Part II)
by: Will Durant

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة
شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

مباهج الفلسفة

الكتاب الثاني

تأليف : وول ديورانت

ترجمة : أحمد فؤاد الأهواني

تقديم : سعيد توفيق



2015

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

ديورانت؛ ول
مباحج الفلسفة (الكتاب الثانى) / تأليف: ول
ديورانت، ترجمة: أحمد فؤاد الأهوانى.
القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١٥
٣٤٠ ص، ٢٤ سم
١- الفلسفة
(أ) الأهوانى، أحمد فؤاد (مترجم)
(ب) العنوان
١٠٠

رقم الإيداع ١٥٤٨٨ / ٢٠١١
الترقيم الدولى : 978-977-704-729-6
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب
الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى
اجتهادات أصحابها فى ثقافتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

مباحح الفلسفة

الكتاب الثاني

تأليف
ول ديورانت

ترجمة
الدكتور أحمد فؤاد الأهواني

محتويات الكتاب الثاني

الجزء السادس

فلسفة التاريخ

صفحة

اعتراف ١

الفصل الرابع عشر : معنى التاريخ

١ - مدخل في بومانوك	٥
٢ - التفسير الديني للتاريخ	١١
٣ - التفسير الجغرافي للتاريخ	١٦
٤ - التفسير الجنسى للتاريخ	٢٥
٥ - التفسير الاقتصادى للتاريخ	٣٥
٦ - التفسير النفساني للتاريخ	٤٣
٧ - التاريخ المركب	٥٢

الفصل الخامس عشر : هل التقدم وهم ؟

١ - التقدم في شبابه	٥٩
٢ - التقدم في أوجه	٦٣
٣ - الدعوى ضد التقدم	٦٦
٤ - اعتبارات صغيرة	٧١
٥ - عرض عام للتاريخ	٧٤

الفصل السادس عشر : مصير الحضارة

١ - الاضطرابات العصبية بعد الحرب	٨٧
٢ - فناء الأمم	٩٠

٩٣	...	...	...	...	٣ - الاقتصاد والحضارة...
٩٧	...	...	...	...	٤ - علم الحياة والحضارة
١٠١	...	...	...	...	٥ - علم الاجتماع والحضارة
١٠٤	...	...	...	...	٦ - استمرار الحضارة
١٠٦	...	...	...	...	٧ - المستقبل في أمريكا

الجزء السابع

الفلسفة السياسية

الفصل السابع عشر : في امتداح الحرية

١١٥	...	...	...	...	١ - الشراب والحرية
١١٨	...	...	...	...	٢ - دين الحرية
١٢٢	...	...	...	...	٣ - الفوضوية
١٢٥	...	...	...	...	٤ - صعوبات الحرية
١٢٨	...	...	...	...	٥ - الدولة الحيفرسونية

الفصل الثامن عشر : هل أخفقت الديمقراطية ؟

١٣٣	...	...	...	...	١ - أصول الديمقراطية
١٣٧	...	...	...	...	٢ - فساد الديمقراطية
١٤٢	...	...	...	...	٣ - أساليب الديمقراطية
١٤٩	...	...	...	...	٤ - حول أنفسنا

الفصل التاسع عشر : الأرستقراطية

١٥٥	...	...	...	...	١ - الأرستقراطية المنقذة
١٥٦	...	...	...	...	٢ - أشكال الحكومة
١٥٩	...	...	...	...	٣ - فن الحكم
١٦٢	...	...	...	...	٤ - المحافظة

١٦٤	...	...	...	...	...	٥ - الحكومة والثقافة
١٦٧	...	...	...	...	...	٦ - الديمقراطية والقوضى
١٦٨	...	...	...	...	...	٧ - أخطاء الأرستقراطية
١٧٢	...	...	...	...	...	٨ - حول أنفسنا مرة أخرى

الفصل العشرون : كيف صنعنا المدينة الفاضلة

١٧٧	...	...	...	...	...	١ - في مزايا المدن الفاضلة
١٨٠	...	...	...	...	...	٢ - العمدة يستيقظ
١٨٢	...	...	...	...	...	٣ - المجلس الكبير
١٨٦	...	...	...	...	...	٤ - الحكم بالتربية
١٨٩	...	...	...	...	...	٥ - اشتراكية أصحاب الملايين
١٩٠	...	...	...	...	...	٦ - تمويل المدينة الفاضلة
١٩٢	...	...	...	...	...	٧ - ولكن في الواقع

الجزء الثامن

الدين : محاورة

١٩٧	...	...	...	...	...	الفصل الحادى والعشرون : تكوين الدين
١٩٧	...	...	...	...	...	١ - الأنيمية
٢٠٣	...	...	...	...	...	٢ - السحر
٢٠٩	...	...	...	...	...	٣ - الطوطم والمحرّم
٢١١	...	...	...	...	...	٤ - عبادة الأسلاف
٢١٣	...	...	...	...	...	٥ - الوثنية

الفصل الثانى والعشرون : من كونفوشيوس إلى المسيح

٢٢٣	...	...	...	...	...	١ - كونفوشيوس
٢٢٧	...	...	...	...	...	٢ - التصوف

٢٣٠	...	...	...	...	٣ - اليهودية
٢٣٦	...	...	...	...	٤ - المسيحية
٢٤٤	...	...	...	...	٥ - الكاثوليكية والبروتستانتية

الفصل الثالث والعشرون : الله وخلود النفس

٢٥٣	...	...	...	...	١ - خلود النفس
٢٦٢	...	...	...	...	٢ - الإله الميت
٢٧٢	...	...	...	...	٣ - وظيفة الدين
٢٨١	...	...	...	...	٤ - الإله الحديد

الجزء التاسع

خاتمة

الفصل الرابع والعشرون : حول الحياة والموت

٢٩١	...	...	...	...	١ - الطفولة
٢٩٣	...	...	...	...	٢ - الشباب
٢٩٧	...	...	...	...	٣ - وسط العمر
٣٠٣	...	...	...	...	٤ - الموت
٣٠٩	...	...	...	...	المراجع
٣١٧	...	...	...	...	ثبت بالمصطلحات

اعتراف

هذا الكتاب ، على الرغم من عنوانه الجديد المرح ، طبعة منقحة من كتاب « صروح الفلسفة Mansions of Philosophy » الذى طبع عام ١٩٢٩ ، ونفدت طبعته منذ عشر سنوات ، وتهافت الطلب عليه إلى الحد الذى يغتفر معه إصدار طبعة جديدة . وفى الكتاب صفحات تدل على أن تأليفها كان منذ ربع قرن مضى ، وسوف يبتسم القارئ عند كثير من الأفكار التى تحويها . ومع ذلك فقد رأيت من الأسلم أن أكتب عن الماضى لا عن المستقبل . وهناك بعض صفحات تفيض بالعاطفة ، ولكنها لا تزال تعبر عن ذات نفسى أصدق تعبير ؛ وصفحات أخرى ساخرة أو متشائمة بغير حق ، وبخاصة فى الفصل الثامن عشر . وإذ كشفت أذى غير معصوم من الخطأ ، فقد ينبغى اليوم أن أكون أشد رفقاً بالزملاء والحكومات . وإنى لأعتقد أن فى الكتاب — على الرغم من هذه الأخطاء — صفات تعين على النجاة . لهذا السبب ألقيته مرة أخرى فى بحر المداد حتى يلتمس من هنا ومن هناك صحبة الأرواح الموءلفة فى دولة العقل .

ول ديورانت

نيويورك فى ١٥ نوفمبر ١٩٥٢

المجزء السادس

فلسفة التاريخ

الفصل الرابع عشر

معنى التاريخ : ندوة

شخصيات المحاور

أناطول فرانس	فردريش نيتشه
فرانسوا ماري أروى دي فولتير	جورج ولهم فردريش هيجل
جاك بنين بوسويه	لستر وارد
هنرى توماس باكل	كارل ماركس
توماس كارليل	جوزيف آرثر كونت دي جوبينو
فردريش راتزل	ماديسون جرانت
وليم جيمس	فيليب
جابريل تارد	اريل
شازل لويس دي سكوندا بارون دي	راوى الحوار
منتسكيو	

المنظر : حديقة فى مملكة العقل

١ — مدخل فى بومانوك^(١)

بينما كنا نمشي فى أحد وديان بومانوك أخذنا نتحدث بحماسة عن اعتقاد كروتشى بأن التاريخ لا ينبغى أن يدونه إلا الفلاسفة ، وأن الفلسفة لا يجب أن يكتبها إلا المؤرخون . وانتشت حواسنا بخضرة الأرض ، وظل الأشجار الكثيفة الظليل ، وصفاء ماء البحيرة ، وضوء الشفق الذهبى عند الغروب ، وكانت أفكارنا تسبح مع الكتب التى كنا نقروها ذلك الصيف بعد الأصيل .

(١) بومانوك Paumanok هو الاسم الهندى لجزيرة لونج أيلاند ، وهى التى استخدمها الشاعر الأمريكى والت هويتان فى قصيدته « أوراق الحشائش » (المترجم) .

قالت آرييل : ما أعظم سرورى بما نفعله الآن من دراسة التاريخ .
لقد أخذت أسام منطقك ونظرية معرفتك وميتافيزيقاك ، التى انتزعت منى
ما كنت أعرفه من قبل من حقائق بدلا من أن أتعلم منها حقائق جديدة .

فأجاب فيليب : ليس من الخير أن يسرف المرء فى تحصيل كثير من
الحقائق .

فقلت : لعل تلك الدراسات المملة جدية بشىء من الاعتبار ، ولو لم
تمنحنا أكثر من عادة التفكير الفلسفى : أعنى عادة البحث فى المسائل الكلية
الكبرى : وتطبيق النظرة الشاملة على أمورنا الصغيرة .

فقالت آرييل بابتسامة سمحة : أراك مغرماً بهذه العبارة : « النظرة
الشاملة » أليس كذلك ؟

فقلت : نعم أنا من أخلص الناس للنظرة الشاملة وأشدهم للتكامل حماسة ،
لأنى أريد رؤية الأشياء كلاً .

فقال فيليب بخبرة : حسنا . ولكن هذا بالضبط ما لا يحفل المؤرخون
بعمله ، إذ فى إذهابهم بعض العقائد الدينية يرغبون فى إثباتها ، أو برنامج حزب
سياسى يودون إعلاء شأنه ، أو وهم وطنى يريدون فرضه . فهم لا يجسرون
على رؤية وطنهم ، أو حزبهم ، أو عقيدتهم ، فى ضوء النظرة الشاملة . إن
ثمانين فى المائة من جميع التاريخ المدون أشبه بالكتابات الهيروغليفية ، فهو
موجود لتمجيد جلائل أعمال الملوك والكهنة .

وتساءلت آرييل قائلة : وحتى مؤرخنا المحبوب جيبون يتحدث كثيراً
عن الملوك . ألا تظن ذلك ؟

فقلت : أجل ؛ ومع ذلك فإنه يرسم لوحات عظيمة كلوحات ميخائيل
أنجلو ، ويؤلف موسيقى كألحان باخ . لذلك لن أبيع لنفسى سماع كلمة تسمى
إليه . هلا ذكرت وودرو ولسن الذى عرّف التاريخ بأنه « سياسة الماضى » —
هذه سقطة أقدمها إليك ، كما لو كان فى السياسة شىء تحفل الإنسانية بذكره .

قالت آريل : لقد كانت الحكومة الصينية أكثر أمانة ، إذ ظلت مدى ستة وعشرين قرناً وإلى سنوات قليلة مضت تستأجر المؤرخين ليسجلوا لها فضائل وانتصارات الإمبراطورية ، ويزيفوا رذائلها وهزائمها .

فقال فيليب : هذا التاريخ المثالي يقدم لإذكاء الحماسة الوطنية بين تلاميذ المدارس ؛ ومع ذلك لم تكن الأمور في الصين القديمة أسوأ منها في أوروبا الحديثة . حقاً قدم لنا العصر الوسيط والنهضة والتنوير تواريخ عن العالم ، ولكن القرن التاسع عشر اكتشف الوطنية ، وأفسد جميع المؤرخين تقريباً . فتمد كان تريتشكى ، وفون سيل ، وميشليه ، ومارتن ، وماكولى ، وجربن ، وبنكروفت ، وفسكه ، وطنيين أولاً ومؤرخين بعد ذلك ، وطهم هو وطن الله ، وسائر العالم فيما عداه مملوء بالأوغاد والمتبريرين . وليس ثمة فرق كبير بين مثل هؤلاء الكتاب وبين محترفي السياسة الذين كانوا يصفون شعب جوته بالهون ، وأهل شوبان بالبولاك ، وشعب اسينوزا باليهود المخادعين ، وأهل ليوناردو بالإيطاليين الأوباش . أصدق وصف لهؤلاء المؤرخين أنهم صخنيون يعملون لحساب الساسة لتجنيد ضباط للجيش والبحرية .

عندئذ تساءلت آريل قائلة : من ذلك الذى اقترح أن يكون إلغاء التاريخ لا المعاهدات أو التجارة أفضل طريق للسلام العالمى ؟ (١)

وتجاسرت فقلت : ولكن القرن العشرين ليس بأفضل من التاسع عشر . فلست أستسيغ هذا الأسلوب العصرى الذى يثبت أن جميع عظماء الرجال صغار ، وأن أهم صفاتهم الإسراف فى الحلف والكذب والشراب والحب . ولن أغفر لويلز أنه أنزل نابليون وقصر إلى مستواه . فأنا متعلق بدينى الأخير ، وهو عبادة العظماء .

فقال فيليب : لست متفقاً وإياك ، فهؤلاء الكتاب للسير الذين يظهرنا على الجانب المعكوس من العبقرية ، أو يلتصمون فى قصيدة « الغراب » أو

« مغامرات هكلبرى فن » ^(١) جميع عقد فرويد النفسية ، متحيزون كأي كاتب سيرة بطل بأساوبه وجه الشخصية . وعلينا أن نجتمع بين هذين النوعين لنظفر بشيء من الحقيقة . وأقبح منهم أولئك المؤرخون من أساتذة الجامعات الذين ينفون أعمارهم في إظهار عظمة الصغائر ، ويكتبون رسائل تشبه في حذلقها وعدم جدواها رسائل الدكتوراه في الفلسفة . انظر إليهم وهم يتجولون في المكتبات حيث يقبرون أنفسهم متخصصين في الدقائق ، ويقفون أنفسهم في صبر التمل على جمع الحقائق من أجل الحقائق . يدفنون أنفسهم في الوثائق والإحصاءات ، ويبرهنون بجد ودأب على صدق الصغائر صدقاً لاشك فيه . إنهم يرون الأشجار ولا يحلمون أبداً برؤية الغابات . ولا يخطر ببالهم أن الماضي ميت ، إلا بمقدار ما يعيش ويؤثر في أخلاق وغايات الناس اليوم ، وأنه لقيمة للتاريخ إلا بمقدار ما ينير الحاضر ، ويعين على توجيه المستقبل . إنهم المدرسون في التاريخ ، أصدق إخوة لأولئك الإيستولوجيين الذين تكرههم أشد الكراهية . إنهم أشبه بعلماء الحياة الذين يقتلون الحشرة ويحفظونها في الكحول ويشرحونها على مهل ويقطعون جهازها الهضمي ، ثم يحسبون أنهم يدرسون علم الحياة . أو هم كالسنور الذي يختبئ في جحره ، يعتكفون في معامل علم النفس التجريبي ليبينوا بأقصى ما يمكن جمعه من المقاييس والرسوم البيانية ومعاملات التغير ما عرفه كل إنسان عن السلوك البشري منذ آلاف السنين .

وابتسمت آربيل لحماسته وصاحت : فليستقظوا جميعاً .

واقترحت قائلاً إنهم في حاجة إلى نسمة من ريح الفلسفة تضيء في أنفسهم الإحساس بالمجموع .

قالت آربيل : أجل ، إنى أود أن أرى التاريخ كما تسميه متكاملًا ، وأود أن أعرف هل توجد فيه قوانين أو على الأقل دروس ، وهل التقدم شيء حقيقي أو ليس إلا وهمًا للذيذا من أوهام عصرنا ، وهل يستطيع الماضي هدايتنا

(١) قصيدة الغراب أفضل قصائد الشاعر الأمريكي إدجار آلان بو، ومغامرات هكلبرى فن قصة لمارك توين (المترجم)

كلما ألقينا بأنفسنا في أحضان المستقبل . لن أنسى عبارة قالها نابليون في أواخر حياته : « إني لأرجو أن يتعلم ابني التاريخ لأنه الفلسفة الوحيدة » . إني متأكدة أننا سنعرف من التاريخ إذا كتب كما ينبغي حقيقة الطبيعة البشرية معرفة أفضل من أى كتاب في علم النفس والفلسفة في العالم . إني أود معرفة الرجال كما عرفهم عظماء الحكام ، دون إسراف أو تقصير .

فقلت : هذه عبارة بديعة يا آرييل .

قال فيليب : حسناً ، لم لا نفعل كما يقول كروتشي فنجمع بين الفلسفة والتاريخ ؟ ففي عصرنا نوع من ضيق العقل وضآلته يجعلنا ندرى ما تعودنا تسميته « فلسفة التاريخ » . وكما أن الخطط الواسعة بعيدة المدى تختفى من صناعة الحكم التى تقتصر على السياسة فقط ، كذلك تختفى تلك القبضة الفلسفية القديمة التى نجدها عند جيبون وفولتير من التاريخ المدون . الحق لقد أصبحت النظرة التركيبية بدعة قديمة .

فاعترضت قائلاً : قد يكون هذا نتيجة حيطة بصيرة ، فالتاريخ الفلسفى يعانى من الأمراض التى تنتاب كل تأمل : إذ يعمم بسرعة سريعة ، ويحسم الفكرة ويغالى في تصويرها ، ويصوغ في قانون أو في عبارة الماضى كله .

ولم نستطع تجاهل فيليب الذى قال : لولا الفلسفة لكان التاريخ مجرد نبش عن الوقائع ، يقيس الأمور بالرجل والفرجار ، ويدس أنفه في الماضى للماضى . ولولا التاريخ لأصبحت الفلسفة إستمولوجيا ، أو قصراً يبنى في الهواء ، لا يصلح للناس من أهل الابتكار . ثم أشار بيده نحو الشفق في السماء وقال : التاريخ هو الأرض التى يجب أن تقف الفلسفة عليها وهى تنسج سائر ألوان المعرفة في نسيج واحد لينير ويحسن طريق الحياة الإنسانية .

فقلت آرييل : مرحى (برافو) فيليب .

ولم تكد تنهى كلامها حتى طلع النجم ، وقطع الهلال السماء كالسيف الأحذب اللامع . وكنا قد تسلقنا تلا صغيراً ، ووقفنا لحظة في ذهول ، فلم نر قط القمر في مثل هذا البياض ، أو السماء في مثل هذه الزرقة . ثم خيل إلينا

ننا نسمع أصواتاً هادئة تحت أقدامنا . ومددنا أبصارنا من خلال الغسق فرأينا حديقة غناء واسعة الأطراف ، حسنة الزينة ، يخط وسطها جدول من الماء له تحرير موسيقى متصل . وكان يجلس على الحشيش أو على مقاعد خشبية حول بركة من الرخام جماعة غريبة متباينة الزى من العطاء ، كانوا يلبسون أزياء تمثل عصوراً مختلفة انقضت ، ولكن بعض الوجوه كانت مألوفاً لنا كما لو كنا نعرفهم منذ بدأت عقولنا تدرك .

وهمست آرييل : لا ريب أن هذا هو حبيبنا فولتير .

فقال فيليب . . . وهو عظيم التأثير : بحق حياتي ، إنه قرد فرني^(١) Ferney المقدس .

فقلت : وهذا هو حفيد حفيده أنا تول فرانس ؛ إنه أقصر مما كنت أظن قائم . ثم أى وجه إن نصف حكمة الدهور وسائر شفقتها تبدو في عينيه . وأخذنا نقلب النظر في الواحد بعد الآخر ، فعرفنا كثيراً منهم . لحت أسقفاً مهيباً يلبس شرائط متدلّية تناسب رتبته ، يجلس جلسة المتفكر ، وقد عقد يديه في حجره . إنه بوسويه الواعظ الجريء في بلاط لويس الرابع عشر ، ومعلم لويس الذي لقب يوماً ما بالملك المحبوب . وكان يجلس بالقرب من فولتير نبيل فرنسي ، في زى عصر الإقطاع فيما أظن ، وخيل إلى أنه مونتبنيي . وثمة رجل في الأربعين مستغرق في التفكير كان يبدو كالصور التي رأيتها عن باكل مؤرخ الحضارة .

وهمس فيليب يقول : يا إلهي هذا معلّمى القديم ليستر وارد .

وذكرني رجل ألماني قبيح الحلقة جاد الهيئة بهيجل ، وبالقرب منه كان يجلس نيتشه بشارب البارز وعينيه الوادعتين يلوك بين شفتيه حكماً قصيرة . وجلس في ركن متواضع توماس كارليل حزيناً وحيداً لا يمكن أن يخطئه النظر ،

(١) يسمى فولتير فيلسوف فرني لأنه قضى العشرين السنة الأخيرة من حياته في قرية بالقرب من جنوا تعرف بهذا الاسم ، وكتب من هناك نقداً ضد الحكومة الفرنسية والكنيسة والنبله والقساوسة وسائر الطبقات (المترجم)

إنه رجل ضخم الجثة، غزير شعر الحاجبين ذو عيني كعيني جندي وقع في الأسر . وكان يقف إلى جانب البركة رجل طويل لطيف السميت عرفت فيه وليم جيمس ، فيه حيوية الأمريكي ومرح الفرنسي . وكان يقف أمامه وجهاً لوجه حتى تكاد لحيتهما تتلامسان وهما في مناقشة حامية كارل ماركس ، ولكنه قصير أسمر جاد . وكان مع هذه الحلقة أربعة لا أعرفهم : ألماني طويل القامة من أهل العلم ، ومحام أمريكي ، وقاض فرنسي ، ونيل فرنسي .

وكان أناتول فرانس يتكلم بصوت كصوت الراهب ، ومرح يشبهه مرح مسيو برجرية (١) Bergeret . فتقدمنا يلغنا الظلام الذي أخذ ينشر سريعا ، والتسنا على مسمع منهم مقاعد فوق الحشيش ، وأنصتنا في صمت حتى لا يفوتنا من هذه المتعة الروحية شيء .

٢ — التفسير الديني للتاريخ

أناتول فرانس : إن أعظم كتبك يا عزيزي أرويه Arouet (٢) هو ذلك الذي يحمل عنوان : « رسالة في أخلاق الشعوب وروحها ووقائع التاريخ الرئيسية منذ شلمان حتى لويس الثالث عشر » (٣) . لقد كان ذلك العنوان جديراً بهذه الدرة الثمينة الضخمة ، فقد أحدث انقلاباً عظيماً في كتابة التاريخ .

فولتير : لم أكن الأول ، فقد مهد الأسقف بوسويه الطريق بكتابة مؤلفته المسمى التاريخ العام (٤) Histoire Universelle ، ولم يكن التاريخ قبل ذلك إلا مجرد حوليات chronicles . ولعل الأسقف يشرفنا فيتحيل أننا في بلاط لويس الرابع عشر ويلي علينا عظة صغيرة في موضوع التاريخ .

بوسويه : إنكم أيها السادة مجمع من الشكاك ، وإني لأخشى أن تضحكوا

(١) مسيو برجرية هو الشخصية الرئيسية في قصص أناتول فرانس الأربعة (المترجم)

(٢) هو الاسم الأصلي لفولتير ، وفولتير هو تبديل حروف أرويه مع إضافة حرفين هما : ف ، ل ، V ، L ، فشاع عنه واشتهر به (المترجم)

(٣) Essai sur les mœurs et l'esprit des nations et des principaux faits de

l'histoire depuis Charlemagne jusqu'à Louis XIII — 1756

(٤) التاريخ العام ، سنة ١٦٨١ .

من رجل عجوز يعتقد في الإله الأب، وفي التاريخ أنه مظهر للعناية الإلهية .
لقد رغبت في تعليم ولي العهد Dauphin (١) معنى التاريخ ، فألفت له
كتاباً يصلح أن يكون لجميع الأمم والعصور بمثابة خريطة العالم بالنسبة للقارات
والبحار والدول . ذلك أنى رغبت في بيان كل جزء في صلته بالمجموع .

أناتول فرانس : لقد كان ذلك غرضاً بديعاً لوحقق لأصبح التاريخ فلسفة
كاملة .

بوسويه : كان التاريخ في نظري دراما الإرادة الإلهية المقدسة ، وكل
حادثة فيه هي درس من السماء تعلمه للإنسان . وقد حذرت لويس الخامس
عشر من الثورات ، وأنها من تدبير الإله لتعلم الأمراء الخضوع .

أناتول فرانس : إنك تذكرني يا عزيزي الأسقف ، وأرجو أن تغفر لي
هذا القول ، ببرناردين الطيب تابع القديس بطرس حيث قال عن البطيخة :
« إنها مقسمة من الخارج إلى أقسام لأن الطبيعة قصدت إلى ذلك كي تكون
طعاماً للأسرة » . إني أؤكد لك أن تلميذك الملكي انقلب ندلاً لا يصلح لشيء ،
فاتخذ محظيات كثيرة ، وأذل الفقراء . ومع ذلك عاش حتى بلغ الشيخوخة .
أما خليفته لويس السادس عشر فكان رجلاً على تواضع واعتدال وفضيلة ،
وبذل وسعه لخدمة وطنه والوقوف في وجه الظلم والبؤس ، ولكنه أعدم بالمقصلة
سنة ١٧٩٢ .

بوسويه : إن أعمال الرب فوق مداركنا ، ومع ذلك علينا أن نثق بالله .

أناتول فرانس : ومع ذلك فإن ما أعجبني في كتابك هو تفسيرك لتفسير
المستيقن لكثير من الغوامض ، مثل خلق حواء ، واخن الشديدة التي نزلت
بشغب الله المختار . إني آسف حين أرى مقدار ما تبدد من العالم من معرفة
ويقين ، ومقدار الأمور التي أصبحت غامضة وكانت من قبل واضحة . الحق
أننا لن نعرف قط مقدار ما كنا نعرف مرة أخرى .

(١) الدوفين لقب ولي العهد ووريث العرش في أسرة بوربون - ويعرف أكبر أبناء لويس
الرابع عشر ، وولي العهد باسم الدوفين الأكبر Grand Dauphin ، وغودوق دي بورجوني (المترجم)

باكل : لقد تأثرت بمعرفة الأسقف بالتاريخ ، إذ اكتشفت عنده
التواريخ الصحيحة لمقتل هابيل ، والطوفان ، وبعثة إبراهيم^(١) ، ولم أستطع أن
أجد في جميع مكتبتى أى شيء مؤكد عن هذه الأمور .

بوسويه : هذا شيء بسيط جداً يا بنى . إنى مؤمن بما جاء فى الكتاب
المقدسة من وحى ، إذ لا معرفة بلا إيمان .

كارليل : هذا محتمل يا سيدى ، محتمل جداً .

أناتول فرانس : ومع ذلك يا صاحب الفضيلة فنحن ندين لك بالشىء
الكثير . فقد أرجعت التاريخ لإرادة الله ، ولكنك علمت تلميذك الذى لم يكن
يستحق تعليمك أن الإرادة الإلهية تنفذ فى الغالب بوساطة أسباب ثانوية وطبيعية ،
واقترحت أنه يجب على المؤرخ بحث تلك الأسباب الثانوية التى حددت تنابع
الحضارات وتقلب الدول . إن وضع مسألة التاريخ الفلسفى بهذا الوضوح يعد
فضلاً كبيراً ، وإن هى إلا خطوة واحدة لتلحق بخصمك اللامع فولتير .

فولتير : ولكنك تضيف إلى مرة أخرى شرفاً عظيماً ، لأننا ننسى فضائل
جيوفانو باتستا فيكو . إنى آسف لأنى لم أستطع زيارة إيطاليا فى شبابه وأتحدث
إلى هذا الإيطالى العالم ؛ ولعل باكل يخبرنا شيئاً عنه .

باكل : إنه يقف فى منتصف الطريق ، فى الزمن وفى النظريات ،
بينك وبين الأسقف ؛ فقد كان يعترف بوجود عناية إلهية قادرة وخبرة .
ولكنه بعد أن قدم ذلك الاعتراف أمام المجمع المقدس شرع يبنى ما سماه « العلم
الحديد Scienza Nuova »^(٢) على أساس أرضى خالص ، وتساءل لم لا يكون
ثمة علم للتاريخ كما يوجد فى الأمور الأخرى ورأى أنه قد يكون للمجتمعات
الفاسدة التى يظهر أنها لا تخضع لقانون ، قوانين صادقة صادق قوانين نيوتن
على أكثر الحركات انحرافاً .

أناتول فرانس : واأسفاه على نيوتن المسكين ، لا بد أن أخبره عن أينشتين .
ولكن تفضل فأكمل يا سيدى .

Buckle, H.T., Introduction to the History of Civilisation, vol. i, p. 570. (١)

Principles of a New Science, 1725 (٢)

باكل : لقد بدا لفيكو أن بعض الأحداث المنتظمة توجد بارزة في التاريخ ، وذهب إلى أن جميع الثقافات تمر بمراحل ثلاث .

هيجل : مراحل ثلاث ؟ لقد كان من المهارة أن يسبقني على هذا النحو .

باكل : المرحلة الأولى هي الممجبة savagery ، وتمتاز بوجود الشعور . ولا فكر فيها ، والمرحلة الثانية البربرية barbarism وفيها خلقت المعرفة المتخيلة أمثال هوميروس ودانتى ، وصنعت عصر الأبطال . والمرحلة الثالثة هي الحضارة وفيها تبدع المعرفة الفكرية العلم والقانون والدولة . وكان فيكو يعتقد أن الإمبراطورية الرومانية شيدت أشمخ الحضارات . وكما أن البرابرة تغلبوا عليها بتسليط القوة العشوم والجموع الغفيرة ضد رفاهية منحلة وسكان يتناقص عددهم ، كذلك مصير كل ثقافة في المستقبل أن ترتفع إلى مرتبة الفلسفة والشعر ، ثم يخطمها أقوام بدائيون لم يفسدهم الإحساس والفكر . ورأى في السياسة تنابعا شبيهاً بذلك : فالبربرية تولد زعماء يصبحون طبقة أرستقراطية ، ثم يفضى استبداد الأرستقراطية وتطرفها إلى الثورة والديمقراطية ، وتجلب فرضى الديمقراطية العديمة القيادة البربرية مرة أخرى . إن شعار التاريخ "da capo" أي « التاريخ يعيد نفسه » .

أناتول فرانس : جميع الفلاسفة تعادوهم مسحة من الكآبة . ولقد قلت دائماً إن التفكير بلية عظمى ، وكان القدماء يعدون القوة على اختراق حجب المستقبل أفنك هبة يمكن أن تمنح للإنسان (١) . وأنت نفسك يامسيو أرويه لم تكن مبتهجا في النتائج التي استخلصتها في آخر تاريخك العظيم .

فولتير : لقد كنت أبحث في مرحلة وحشية ، فتغلغلت في المسرح الهائل للثورات التي شهدها العالم منذ أيام شرلمان . ترى إلى أى شيء كانت ترمى ؟ إنها كانت تتجه إلى الدمار وإلى فقدان ملايين الأرواح ، فقد كانت كل حادثة كبيرة كارثة عظيمة . لعل هذا التفسير يرجع إلى خطأ المصادر التي اعتمدت عليها ، إذ لم يكتب المؤرخون شيئاً عن أيام السلم والاستقرار ، ولم يرووا إلا أنواع

الدمار والكوارث وبذلك لم يبد التاريخ لى إلا صورة للجريمة والبؤس . وكانت القوى المحركة للتاريخ هى الخرافات الباطلة ، والعادات البعيدة عن العقل ، والغزوات المفاجئة للقوة العشوم . ولعلما كنت أجد أثراً للعقل البشرى فى تسيير الحوادث ، بل على العكس كانت تبدو أصغر الأسباب وأتفهها هى صاحبة أعظم النتائج وأشدها أسى ، والعناية الإلهية الوحيدة التى وجدها هى « الحظ » (١).

باكل : لم يكن تلميذك تيرجو Turgot متشائماً هذا التشاؤم . فأنت تذكر أنه استعرض فى المحاضرات المشهورة التى ألقاها فى السوربون عام ١٧٥٠ تاريخاً للحضارة ، وأعلن إيمانه بتقدم العقل البشرى .

قولتير : يسعدنى يا سيدى أن أسمعك تثنى عليه ، فقد كنت أحب ذلك الرجل ، وانفطر قلبى حين طرده الملك من وزارة المالية ، وخيل إلى منذ ذلك الوقت أننا فقدنا كل شىء . أما فكرة التقدم فقد كانت شائعة جداً فى عصرى ، وأثارت بوجه خاص صديق الشاب الماركيز دى كوندورسيه فى الوقت الذى كانت الحضارة الفرنسية سائرة إلى الخراب . ولكن تيرجو كان على صواب ، فالتاريخ لا يمكن أن يطاق إلا حين يكون تسجيلاً للحضارة . والفلاسفة وحدهم هم الذين يجب أن يكتبوا التاريخ ، لأنهم يعرفون كيف يميزون بين التافه والجليل فى المادة التى يشغلون بها ، ويتجنبون التفاصيل التى لا تسفر عن شىء ، ومثلها من التاريخ مثل مهمات الجيش حمل ثقيل . إنهم سينظرون إلى الأمور نظرة واسعة . وليس تقدم التنوير العقلى والانتعاش المادى والسمو الأخلاقى مظاهر فى تاريخ الأمة فقط ، بل هى التى تكون ذلك التاريخ ، أما سائر الأمور الأخرى فليس لها قيمة تاريخية حقيقية ، اللهم إلا من جهة أنها تلقى ضوءاً على هذا التقدم الاقتصادى والعقلى والحلقى . من أجل ذلك كان غرضى من كتابة «رسالة فى الأخلاق» Essai sur les Moeurs الكشف عن تاريخ العقل البشرى . كنت أرغب فى معرفة الخطوات التى اجتازها الإنسان من البربرية إلى المدنية (٢) .

(١) Works of Voltaire, St. Hubert Guild, ed., vol. XVI, p. 133.

(٢) Pellissier, G., Voltaire Philosophe, p. 213 ; Morley, J., Voltaire, pp. 215, 223 ; Buckle, op. cit., vol. i, p. 580.

أنا أتول فرانس : لقد وصفت بالضبط ، أيها المعلم ، التاريخ المثالي . إني لمعجب بالخيال الذي أمكن أن ينتج كتابك « رسالة في الأخلاق » ، و « روح الشرائع » لمنتسكيو ، والمجلدات البليغة لحييون . فأنتم جميعاً قد حررتم التاريخ من اللاهوت ، وألقيتم به في أيدي الفلسفة والعلم . وحين أتأمل كيف أن جنسنا المكون من قردة متفلسفين قد ارتقى أربع مرات صوب الحكمة والمدنية — حين أعود بالذكر إلى عصر سقراط ، وعصر هوراس ، وعصر رابليه ، وعصرك أنت يا سيدي الذي يجب أن يسمى دائماً باسمك — أتعزى بعض الشيء عن الحروب والجرائم وألوان البؤس والمظالم الموجودة في التاريخ .

الحق أن ما يسوغ وجود الجنس البشري هو مافيه من عظماء .

٣ — التفسير الجغرافي للتاريخ

باكل : إني مسرور يا سيدي أنك ذكرت منتسكيو ، لأننا إلى هذا الوقت لم نتحدث إلا عن منهج كتابة التاريخ ، ولم ننظر في الأسباب التي يجب أن نعزو إليها عظمة الدول وتدهورها . فبعد أن انتقلنا بمركز التاريخ من السماء إلى الأرض ، ومن الملوك إلى الإنسانية ، ومن الحرب إلى الحضارة ، بقي أن نسأل عن العوامل التي تحدد التاريخ . أهى ، كما بدا من ملاحظتك الأخيرة ، عبقرية عظماء الرجال ؟ — أو قوة المعرفة المتجمعة ؟ — أو اختراعات العلماء ورجال الصناعة ؟ — أو دماء الأجناس الراقية ؟ — أو ظروف الإنتاج والتوزيع الاقتصاديين ؟ — أو خصائص الجو ، والأرض ، والظروف الجغرافية ؟ إن منتسكيو هو الخلق بأن يكون أول الباحثين عن الأسباب النوعية لعظمة الدول وانهارها .

منتسكيو : ما أكرمك حين ذكرتنى . وإني لأخشى يا مستر باكل أن يذكرنى أهل وطنك أكثر مما يذكرنى أهل بلدى . وحتى قولتير الذى كان يمكن أن يكون عظيم الكرم لم يعن كثيراً بكتبى .

قولتير : من العسير على ياسيدي حتى اليوم أن أغفر لك إشراق «الخطابات الفارسية L'Esprit des Loies» ، وسعة اطلاع «روح الشرائع L'Esprit des Loies»

منتسكيو : إني لأعرف أن العطاء يتصرفون دائماً بعضهم إزاء بعض كالصغار . وقد وصف المعاصرون لى أول وثانى مؤلفاتى - « الخطابات الفارسية » و « نظرات فى أسباب عظمة الرومان وتأخرهم » بأنهما : « عظمة منتسكيو وتأخره » . كانوا يحبون السخرية أكثر من الفلسفة . وقد دعوت فونتيل وهلفتيوس وغيرهما من الأصدقاء المثقفين إلى لا بريد La Brède حيث كنت أعيش لنستمع إلى بعض فصول « روح الشرائع » ذلك الكتاب الذى عكفت على تأليفه فى عشرين عاماً . وكانوا مجمعين على نصيحتى ألا أطبع الكتاب .. حملة القول لقد كنت ذائع الصيت فى إنجلترا .

باكل : إني أعد « روح الشرائع » أعظم إنتاج أدبى فرنسى فى القرن الثامن عشر . فأت أول من بين ألا حساب للشخصيات فى التاريخ ، وأن الأحداث المنعزلة - حتى المعارك العظيمة مثل فيليبى وأكتيوم - ليست هى أسباب نهضة الدول وسقوطها . لقد علمتنا أن عطاء الأفراد ، والأحداث العظمى ليست إلا رموزاً ونتائج لعمليات شاسعة وباقية ، وأن بعض هذه العمليات يبلغ من البعد عن التأثير الشخصى مبلغ شكل الأرض أو حرارة الجو . منتسكيو : فى القرن الرابع قبل المسيح كتب أبقراط كتاباً اسمه : « الأهلية والمياه والأماكن » تكلم فيه بإيجاز عن أثر البيئة الجغرافية فى تكوين السكان الطبيعى ، وتكوين الدول القانونى . وقد أرجع أرسطو نجاح الإغريق ، بل وامتيازهم العقلى ، إلى مناخهم « المتوسط » - ولو أنى لا أظن أننا يجب أن نستعمل هذا الاصطلاح فى وصف جو أثينا .

أناطول فرانس : هناك شخص آخر يا سيدى ممن سبقوك فى هذا الميدان ، وهو بودان Bodin ، الذى كتب فى القرن السادس عشر عن العلاقات بين الجغرافيا وبين الشجاعة ، والذكاء ، والحصل ، والأخلاق . وحتى العذارى يختلفن باختلاف خطوط العرض .

منتسكيو : لا ريب أنه من الخطأ افتراض أنى أود إرجاع التاريخ للجغرافيا ، فقد ثبت أن ثمة أسباباً متعددة تحدد الحوادث بتعدد الدول ، وفى بعضها تؤثر القوانين ، وفى بعضها الآخر الدين ، وفى بعضها الثالث التقاليد

والأخلاق ، وفي غيرها أيضاً الطبيعة والمناخ ، وهذان يتحكما فقط في الجمع ، على حين حكمت التقاليد الصينيين ، والقوانين اليابانيين ، والأخلاق أهل إسبرطة . أما مبادئ الحكم وبساطة العوائد القديمة فقد صاغت لعدة أجيال أخلاق الرومان (١) .

باكل : ولكن ما أثار اهتمامي في كتابك يا سيدي أكثر من أى شيء آخر هو مناقشتك العلاقة بين المناخ والتاريخ .

منتسكيو : أعترف أن الموضوع أثار اهتمامي كذلك ، وأعتقد أن الفوارق في الخلق والمزاج التي تؤثر أثراً عظيماً في مصير الشعوب يرجع شطر كبير منها إلى أثر المناخ ، ففي المناطق الباردة مثلاً يميل الناس إلى النشاط على حين أنهم يميلون في المناطق الاستوائية إلى الكسل . وهذا شيء بديهي ، ومع ذلك فانظر كم أثمر من نتائج . ويعتقد الهندوس أن السكون والعدم هما أساس جميع الأشياء ، والغاية المثلى التي تنتهي إليها ، ولذلك يعدون عدم الحركة أكمل جميع الأحوال وغاية آمالهم . وعندهم أن الكسل هو الخير الأسمى ، ويكون في نظرهم جوهر الجنة بالذات ، أما الحرارة على العكس فهي العنصر الأساسي في تصورهم للنار . وأصبح الكسل في كل مكان نتيجة لهذا النظر القديم دليلاً على منزلة عالية ، حتى إن أولئك الذين لا يعملون يعتبرون أنفسهم سادة الذين يعملون . ويترك كثير من الناس في بقاع كثيرة أظافرهم تطول وتنمو حتى يظهر لكل امرئ أنهم لا يعملون (٢) .

أناتول فرانس : لقد كانت الكعوب العالية في فرنسا تحقق الغرض نفسه عندنا ، إلى أن أدى التمسك بالزهو على مر الزمن إلى شيوعها .

منتسكيو : ولماذا يبدو أن الشعوب الجنوبية مقدور عليها شعباً بعد شعب أن تغزوها القبائل الشمالية ، إلا أن يكون ذلك بسبب أن الشمال يبعث القوة والجنوب يثير الأعصاب ؟ فالعبيد يجيئون من الجنوب ، والسادة من الشمال . وقد خضعت آسيا لبرابرة الشمال إحدى عشرة مرة .

Spirit of Laws, vol. i, p. 294. (١)

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٢٥ ، ٢٩٦ .

قولير : لعلك تعرف يا سيدى أن لفظة « عبد » Slave مشتقة من لفظة « سلاف » Slav ، وهذا يرجع إلى الزمن الذى كانت الكنيسة المقدسة تنهى عن استعباد المسيحيين . ولم يكن السلاف قد تحولوا إلى المسيحية بعد ، وكان من الممكن أسرهم وبيعهم بضمير مستريح ، ومن هذا الباب جاء أن تلك اللفظة التى كانت تدل على المجد أصبحت تفيد العبودية . وقد يمكن أن يستثنى هؤلاء العبيد الشماليون من قاعدتك ، ولكنه ليس استثناء أساسياً .

منتسكيو : شكراً لك على تصحيح خطئى ؛ ولكنى أفهم يا مستر باكل أنك أنت نفسك قد درست صلة المناخ بالتاريخ دراسة مستفيضة .

باكل : لم أكن أستطيع التوسع فى الدرس يا سيدى ، لأنى حينما ولدت كنت بين الحياة والموت ، وظللت طول عهد الطفولة واهناً لا أستطيع مشاركة غيرى من الأطفال فى اللعب ، ولم أعرف خلال الأربعين عاماً التى عشتها يوماً تخلو من المرض والألم ، وأصبت بضعف البصر حتى إن والدتى التى لم تكن تحفل بمواهب العصر ، علمتني شغل الإبرة بدلا من القراءة ، ولم أعرف الأبجدية حتى سن الثامنة .

كارليل : صه ، صه ، أيها الرجل ، فكلنا يعرف أنك كنت فى الأربعين أعلم قزم فى إنجلترا . وأخبرنى هكسلى أنك لا تستطيع حمل رأسك مرفوعاً ، من كثرة ما كانت تحمله ، فكنت تعرف اللغات الفرنسية والألمانية والدنماركية والإيطالية والأسبانية والبرتغالية ، والهولندية ، والوالية ، والفلمنكية ، والسويدية ، والأيسلاندية ، والفريزية ، والمايورية ، والروسية ، والعبرية ، واللاتينية والإغريقية ، وكنت تكتب الإنجليزية . وسمعت دارون يقول فى أحد محالسه عن تطور القردة إن أسلوبك أروع ما قرأ على الإطلاق . لست أدري ، ولكن هوامشك أعجبتنى .

باكل : كنت أحلم بكتابة تاريخ كامل للحضارة فى إنجلترا ، إلا أنى بعد عشرين عاماً من العمل فيه لم أكتب إلا المقدمة التى استوعبت أربعة مجلدات . ثم ماتت أمى ولم أستطع أن أكتب شيئاً بعد ذلك . ولعلنى لو كنت رجلاً قوياً لاستطعت أن أتم شيئاً .

منتسكيو : ألا تخبرنا عن نتائجك ؟

باكل : لا بد أنك تعرف يا سيدى أن الاقتصادى البلجيكى كويتليه Quetelet بين انتظاماً إحصائياً مدهشاً فى هذه الأعمال الإرادية فى الظاهر مثل الزواج ، وفى أمور عرضية تعد من التوافه مثل وضع رسائل بدون عنوان فى صناديق البريد . وقد استخلصت من هذه الإحصاءات وغيرها مما يماثلها أن السلوك البشرى ولو أنه يبدو حراً حين ننظر إليه بالتفصيل ، إلا أنه يتضح حين ننظر إليه فى الجملة محدوداً بقوى تخرج عن إرادة الفرد . فى الخضم العظيم للأمور الإنسانية ليس للخصائص الفردية حساب ، وليس للمؤرخ أن يشتغل بها . وليس التقدم ثمرة عطاء الأفراد ، بل نتيجة تجمع المعرفة وانتقالها . وقد لاحظت أنه لا يوجد تقدم فى الأخلاق ، ولا تحسن من عصر إلى آخر فى دوافع الإنسان ومشاعره ، بل العلم الطبيعى وحده هو الذى ينمو ، وهو الذى يغير رويداً رويداً من وجه الأرض (١) .

منتسكيو : هذه نتيجة معقولة جداً ، وقد سمعت ذات مرة فونتنيل العجوز يقول شيئاً شديد الشبه بهذا (٢) .

باكل : إني مهتم مثلك يا سيدى بأثر الجغرافيا فى التاريخ . فقد أثر المناخ والطعام والأرض والمظهر العام للطبيعة فى حياة كل جنس من الأجناس . وغلبت عظمة المناظر الطبيعية فى الهند على عقل الهندوس وشجاعتهم ، وجنحت بهم نحو الخرافة والعبادة . أما مناظر أوروبا الأكثر بساطة فلم تبعث فى الناس الخوف ، ويسرت نمو ميلهم إلى السيطرة على الطبيعة بدلا من عبادتها (٣) .

أناطول فرانس : من الواضح أنك لم تعبر قط المحيط الأطلسى يا مستر باكل . ويوجد بين المتبربرين الذين يسكنون الآن شمال أمريكا تقدم لم يسبق من قبل فى العلم الطبيعى والتطبيق يسير جنباً إلى جنب مع جنوح شديد للتقوى . كان يجب أن تهتم بالأمريكان يا مستر باكل .

Buckle, vol. i, p. 593 (١)

Nordau, M., Interpretation of History, p. 286. (٢)

Buckle, vol. I, pp. 29, 47. (٣)

باكل : لم أجد عندى فسحة من الوقت ، كما لم تشجعنى كثيراً تقارير
المستر ديكنز . ومع ذلك فقد درست تاريخ أمريكا بعناية ، واكتشفت فى
فى نصف الكرة الأرضية الغربى مزيجاً خاصاً من الظروف الجغرافية . فى شمال
المكسيك يمتاز الشاطئ الغربى بحرارة خالية من الرطوبة ، والشاطئ الشرقى
برطوبة تملأ من الحرارة . ولذلك انحصرت الحضارة الأمريكية قبل كولومبس
بوجه خاص فى المكسيك ووسط أمريكا ، إذ فى هذا الشريط الضيق من الأرض
فقط وجدت فى النصف الغربى من الكرة الأرضية تلك الوحدة بين الرطوبة
والحرارة الضرورية للنبات والحيوان والإنسان . وفيما بعد أخذت هجرة الأوربيين
وإدخال المحترقات والإكثار منها تقلل من اعتماد الإنسان على الظروف الطبيعية (١)

منتسكيو : أقصر التأويل الجغرافى إذن على المراحل الأولى فى تاريخ الشعوب ؟

باكل : كلما ازدادت سيطرة الإنسان على البيئة فقدت الظروف الموضوعية
والطبيعية قوتها أكثر فأكثر على تحديد الحوادث (٢) .

وليم جيمس : يسرنى أن أسمعك تقول ذلك أيها الرجل الشيخ ، فقد
تضايقت بعض الشئ خشية أن تردنا جميعاً لخطوط الطول والعرض . ولكن
سيلد لك أن تعلم أن التفسير الجغرافى للتاريخ قد طبق حتى على الدول المتقدمة
بوساطة الهر فريدريك راتزل الذى كان ينصت فى تواضع لهذه المناقشة .

باكل : إني شغف لسماع أحدث المباحث تقدماً .

راتزل : إن الفيلسوف الأمريكى العظيم يغالى فى أهميته ، لأن بحثى لم يكن
إلا جزءاً صغيراً من الدراسة الجغرافية فى زمانى ، ولقد كان ريتز ، وكول ،
وبيشل ، وريكلوس Récus أساتذة هذا الميدان . بل فى وطنك أنت
يا مستر جيمس قام الأستاذ هنتنجتون بأروع المباحث .

باكل : أخبرنا يا مستر راتزل عما وجدته .

راتزل : يمكن أن نعدل بعض الشئ النتائج التى انتهت إليها وكذلك

(١) المرجع السابق ص ٦٩ ، ٧١

(٢) المرجع السابق ص ٣٣

ما انتهى إليه منتسكيو بصدد المناخ ، إذ لا ترجع صعوبة الحياة في المناطق الإستوائية إلى الحرارة بمقدار ما ترجع إلى المخاطر ، كالزلازل والأوبئة والزوايع والوحوش والحشرات . أما في البلاد نصف الاستوائية فالحرارة نافعة ، إذ تؤدي إلى المعيشة خارج الدور ، وإلى الحياة الاجتماعية ، وإلى رغبة جنسية قوية وما يتبع ذلك من ميل إلى الفن والثقافة . أما في الشمال الأكثر برودة فإن الدأب على الصناعة والانغماس في العمل للطبقة الغالبة — إذا حق لي هذا التعبير — ولذة النشاط والعمل والكسب ، كل ذلك يفضي إلى نمو العلم أكثر من الفن ، وإلى الثراء لا الفراغ . هذا إلى أن الحياة داخل الدور تقود إلى ضرب من التحفظ البعيد عن الروح الاجتماعية ، كما يثمر التنافس النشيط نوعاً من الفردية الشديدة .

ماركس : سأبين لكم فيما بعد أن سائر هذه النتائج التي تعزونها للمناخ هي ثمرة التغيرات الاقتصادية .

باكل : فلتعض يا أستاذ في حديثك ، حتى لو كنت لا تحب إنجلترا كثيراً .

راتزل : قد يحدد المناخ القوام أو السحنة ، ويقرر كثير من الباحثين أن الأمريكيان آخذون في اكتساب بشرة نحاسية اللون أشبه بالهنود الذين حلوا محلهم . وقد بين الأستاذ بوس Boas أن مناخ أمريكا يتجه — بصرف النظر عن اختلاط الزواج — إلى تقصير قامة نسل المهاجرين الطوال ، وإطالة قامة المنحدرين من المهاجرين القصار . على حين أن (بغير اختلاط الزواج أيضاً) تبين هيئة المهاجرين ينتهي إلى التوحد كلما قلت الهجرة . أما البروفسور هنتنجدون متابعاً لمباحث الأمير كروبتكن

أناطول فرانس : هذا القديس الفوضوي ، لقد عرفته حق المعرفة .

راتزل : لقد بين البروفسور هنتنجدون أن كمية المطر قد تقرر مصير الأمة . فأحواض البحيرات الخافتة تكشف عن أسرار الهجرات الشاسعة ، وتنتقل المواسم دورياً في آسيا من المطر إلى الجفاف ، وتنتعش الحضارات وتموت .

وليم جيمس : لا ريب أنها مهمة لطيفة إذا أمكن تتبع الهجرات الكبرى

والغزوات والامبراطوريات التي عرفها التاريخ ، وإرجاعها آخر الأمر إلى ظهور دورات خاصة في بقع الشمس .

راتزل : كل شيء ممكن . انظر إلى تأثير الأنهار ؛ فالنيل والكنج ، والخوانجهو واليانج تسي ، والدجلة والفرات ، والتير والبو والدانوب والإلب ، والسين والتاميز ، والهدسون وسانت لورانس ، والأوهيو والميسيسيبي ، لقد قامت على شواطئها الحصبة مهد جميع الحضارات تقريباً . ثم الدانوب — آه أيها السادة لو استطاع أن يتكلم الدانوب الأزرق ، فكم من قصة يرويها عن آلاف الشعوب المتباينة التي تبعت مع مياهه من آسيا الحدية الميتة إلى حقول أوروبا التي كانت عندئذ قليلة السكان . ولو كانت أنهار روسيا تجري نحو الشمال لا الجنوب أفتظن أن روسيا كانت تتطلع هذا التطلع إلى القسطنطينية ، تحارب من أجلها حرباً إثر حرب ؟ ثم لأن أنهار روسيا تصب في البحر الأسود وبحر قزوين ، خلق الدينير منها أمة بيزنطية ، وجعل نهر الفولجا منها أمة أسيوية . وظلت روسيا كذلك حتى أنشأ بطرس مدينة سانت بطرسبرج ، وفتح النيقا Neva للملاحة فاتجهت روسيا غرباً وأخذت تصبح جزءاً من أوروبا (١) .

باكل : هذا شيء بديع للغاية أيها الأستاذ ، فلتمض في حديثك .

راتزل : انظر إلى الدور الذي لعبته الشواطئ في التاريخ ، فقد ربط البحر الأبيض المتوسط عدداً من الحضارات إلى مياهه إلى أن قاد المحيط الأطلسي أوروبا إلى أمريكا وغير جميع طرق التجارة .

هيجل : لقد لاحظت في كتابي « فلسفة التاريخ » ، الذي لم يذكره أحد حتى الآن ، أن تاريخ القدماء لا يمكن أن يفهم بغير البحر الأبيض ، إذ يكون ذلك أشبه بروما أو أثينا في القديم بدون الساحة (فورم Forum) التي كانت تتجمع فيها سائر حياة المدينة (٢) .

راتزل : إنني أذكر هذه الفقرة جيداً ، يا هر دكتور . فالشاطئ الممتاز

Semple, E.C., Influence of Geographic Environment, p. 348. (١)

Hegel, G.F.W., Philosophy of History, p. 87. (٢)

وبجانبه آلاف الجزر هيا لليونان طريقاً مائياً لفارس وللشرق ، وجعلها محور التجارة فى البحر الأبيض . كما أن انخفاض نسبة الساحل إلى مساحة الأرض آخر تقدم الثروة فى آسيا لما كان له من أثر فى إعاقه التبادل . وفى أفريقيا الآن ظرف شبيه بذلك . بل إن الولايات المتحدة لاتساع رقعة أرضها بين المحيطين قد كان يمكن أن تبقى دولة متأخرة لولا أن السكك الحديدية قربت جميع المناطق الداخلية من البحر .

أناتول فرانس : فى أثناء الحرب الكبرى ، يا دكتور ، حاربت روسيا من أجل ميناء على البلطيق ، وألمانيا للحصول على مصب الرين ، وفرنسا لتضع يدها على الرين كله ، والنمسا لتستولى على تريستا وفيومى ، وإنجلترا لتأخذ جميع العالم ، وأمريكا فى سبيل الديمقراطية . ومع ذلك فأنا أميل إلى الظن أنك تغالى فى قيمة الدور الذى تلعبه الجغرافيا . إن ما فعلته يا سيدى الفاضل هو أنك جمعت بعض مظاهر الماضى التى تسمح بأن تندرج تحت الجغرافيا . ولكن ثمة مظاهر أخرى كثيرة لا تقل عنها أهمية ، وإنى لأخشى ألا تخضع حياة ومصائر الشعوب لقانونك . ذلك أن الدول العظمى تكاد تكون قد ظهرت فى كل مكان على وجه الأرض ، وكان لها مع اختلاف مناخها ارتفاعات وانخفاضات متشابهة من الازدهار والانحلال .

راتزل : لا تسيئوا فهمى أيها السادة . فليس قصدى تفسير كل شىء فى التاريخ بالجغرافيا ، بل كل ما فى الأمر أننى أفسر بعض ظواهره فقط .

وليم جيمس : إنك شديد التواضع يا دكتور . فقد كان أحد كبار الأساتذة الأمريكان : يقول « هناك حركة فى التاريخ تبدأ قوية ثم تضعف فيما يتعلق بالآثر النسبى للبيئة الطبيعية » (١) .

باكل : يجب أن أقول إن هذا صحيح ، فالجغرافيا تقدم ظروفاً محددة ، ولكنها قلما تهبط قوى حاسمة . إنها دائرة مسحورة تعمل القوى الأخرى داخلها على رفع الأمة إلى مصاف الزعامة أو خفضها إلى الفناء . مثال ذلك أن تغير

تيار الخليج قد يجلب الخراب لإنجلترا ، ولكن ليس تيار الخليج هو الذى جعل إنجلترا عظيمة . فالعوامل المحددة فى جميع الحضارات الراقية هى عوامل اقتصادية أو عقلية .

فولتر : هذه نتيجة معقولة جداً . فقد كنت أقول دائماً إن الإنجليز قوم معقولون ، وهذه هى النقطة الوحيدة التى أتفق فيها مع منتسكيو .
نيتشه : لعلكما مخطئان أنما الأثنان .

٤ — التفسير الجنسى للتاريخ

أناطول فرانس : لعله كان يجدر بك يا مستر باكل أن تقول إن العوامل المحددة هى إما اقتصادية أو عقلية أو جنسية racial . فى زمانى كان عدد كبير من الباحثين يرجعون ارتفاع الأمم وسقوطها إلى الجنس ، وبهذا الطريق أمكن للأساتذة أن يصبحوا علماء ووطنيين فى آن واحد . أما الكونت جوينو فهو استثناء من هذه القاعدة : إذ لم يكن أستاذاً ولا كان وطنياً .

جوينو : عندما كنت يا سيدى فى العاشرة فقط من عمرك ، نشرت كتاباً بعنوان « تفاوت أجناس البشر » شرحت فيه اعتقادى بأن كل شىء فى طريق الاختراع الإنسانى كالعلم والفن والحضارة — أى كل ما كان عظيماً وشريفاً ونافعاً على وجه الأرض — يشير إلى أصل واحد ، ويتفرع عن جذر واحد : هو الجنس التيوتونى ، وأكبر الظن أن هذا الفرع العظيم من الأسرة الإنسانية يرجع إلى أصل يختلف تمام الاختلاف عن الجنس الأصفر والأسود ، فقد نشأ عنه نسل خاص من الناس حكمت فروعه المختلفة كل منطقة متحضرة فى العالم^(١) . إنه الجنس الذى يفسر التاريخ ، أو كما يقول صديقى الشاب الهرنيتشه : تحتاج الرعاية إلى الدم لا العقل .

نيتشه : إني معجب بك كثيراً ، أها الكونت جوينو ، ولكن لا شأن لى بخدعة الجنس ، لأنى وجدت دماء نقية فى كل جنس ، ولعلها أفضل فى عروق صاحب الحندول بالبندقية منها فى الأستاذ برلين^(٢) .

Todd, A.J., Theories of Social Progress, p. 275. (١)

Salter, W., Nietzsche the Thinker, p. 469. (٢)

أناطول فرانس : لم يضق الإنجليز والألمان يا عزيزى الكونت بنظرينك .
فهذا البرفسور فريمان Freeman أسرع إلى اعتناقها ، واصطنعها البرفسور
ترتشكى Treitschke جذلاً ، وسلم الدكتور برناردى بأن الألمان أعظم
شعب متحضر عرفه التاريخ . أما المستر تشمبرلين الذى هجر إنجلترا ليصبح
ألمانياً ، فقد ألف كتاباً ضخماً سماه « أسس القرن التاسع عشر » أثبت فيه أن :
« التاريخ الصحيح يبدأ من اللحظة التى قبض فيها الألمان بيد قوية على ميراث
القدماء » . وإنى لأزعم أن الذين خلقوا ذلك الميراث لم يصنعوا التاريخ . وكان
مستر تشمبرلين يعتقد أن العبقريّة إذا ظهرت فى إنسان فهذا دليل على الدم
التيوتونى ، وقد لفت نظره وجه دانتى لما فيه من ملامح جرمانية . وظن أنه
سمع لجة ألمانية لا شك فيها فى رسالة القديس بولس إلى أهل غلاطية . ومع
أنه لم يكن متأكداً تمام التأكد من أن المسيح ألماني إلا أنه كان على ثقة أن كل
من يزعم أن المسيح كان يهودياً فهو إما جاهل أو مخادع^(١) . وطبق ريتشارد
فاجنر هذه النظرية على الموسيقى . وبعد أن قاسى من الفقر خمسين عاماً اكتشف
هذا البربرى العظيم أنه باصطناع التفسير التيوتونى للتاريخ والرجوع إلى تقوى
طفولته قد يمكن إقناع الطبقة الأرستقراطية فى وطنه بدفع قوائم دبونه فى بايرويت
Bayreuth^(٢)

نيتشه : كنت أحبه كثيراً ؛ ولكنك على حق فقد كان مهرجا .
أناطول فرانس : هذا شأن كل عبقري ، ولولا شيء من الدجل لمات
العبقري جوعاً ، وهو دجل لازم بوجه خاص فى البلاد الديمقراطية .

وليم جيمس : كان روح العصر « Zeitgeist » فى جانب نظرية
الجنس فى أيامنا وكان جالتون يرد العبقريّة للميراث ، وأخذ علم الأجنة يشن
حملة يطالب بأطفال أرستقراطيين ، وأحيا ما كس مولر فقه اللغة بنظريته عن
الجنس الآرى الذى جاء من الهند وحكم أوروبا ، و« أثبت » فايسمان (أنهم

(١) In Todd, p. 276.

(٢) بايرويت مدينة فى سكسونيا عاش فيها فاجنر فى أواخر حياته ، وأنشأ فيها مسرحه
للأوبرا (المترجم)

يثبتون كثيراً من الأمور في العلم — لمدة يوم واحد) أن الجرثومة الحية Germ-plasm مخفية بإحكام في بعض أعضاء الإنسان الداخلية ، وأنها محصنة ضد كل تأثير من البيئة . كان علماء الحياة يراهنون على الوراثة ، أما المؤرخون فيراهنون على الجنس .

أنا تول فرانس : لعلكم لا تعلمون أيها السادة أن ماديسون جرانت الذي لم يكذب يصل إلينا من نيويورك حجة في هذا الموضوع . وقد رأيت وأنا كبير السن نسخة من كتابه « زوال الجنس العظيم » The Passing of the Great Race وظننت أنه يعنى الفرنسيين ، فلما تبين لي أنه يقصد الألمان والإنجليز انتهيت إلى أنه ليس من الضروري أن أمضى في القراءة لأعلم أنه مخطئ .

فولتير : أخبرنا عن آرائك يا مستر جرانت . ولا تنزعج إذا كان أنا تول فرانس لا يوافقك عليها ، فهناك دائماً احتمال بسيط أننا نحن الفرنسيين مخطئون ، وأن بقية العالم على صواب .

جرانت : تختلف نظرتي عن نظرية تشمبرلين ، أو عن نظرية جوينو . فأنا أرفض الجنس « التيوتوني » باعتبار أنه خليط من أجناس مختلفة لم تترج بعد لتكون وحدة . ولذلك أقصر حجتى على ما أسميه الجنس الشمالى Nordic ، الذى يظهر بوضوح في أيامنا هذه في أولئك الألمان المنحدرين من أصل بلطيق ، وفي أولئك الإنجليز والأمريكان المنحدرين من نسل الأنجاوساكسون . غير أن هذه سلالات متنوعة حديثة ، أما الجنس فقديم قدم التاريخ . فالشاليون يظهر أولاً أنهم السكاي Sacae الذين أدخلوا اللغة السنسكريتية إلى الهند ، وكانوا غزاة من البيض انحدروا من الشمال ، واخترعوا نظام الطبقات لتحريم الزواج من غيرهم حتى لا يهبطوا بمستوى نوعهم . ولفظة « طبقة Caste » تعنى اللون ، ووظيفتها حيوية لا اقتصادية ، وغايتها حماية الدم لا احتكار الثروة .

ثم نجد بعد ذلك من الجنس الشمالى السيميرين Cimmericians^(١) الذين تدفقوا من القوقاز إلى فارس ، والآخيين ، والفريجيين ، والدوريين الذين غزوا

(١) السيمرى قبيلة تزعم الخرافات أنها كانت تعيش في ظلام دائم (المترجم)

آسيا الصغرى واليونان ؛ والأومبرين والأوسكان الذين اجتاحتها إيطاليا . وحيثما ذهبوا فهم رجال الحرب ، والمغامرين ، ورواد البحار ، وقرصان الشمال Vikings (١) ، والحكام ، والمدبرين ، والمنظمين ، وهم مختلفون اختلافاً عظيماً عن الأجناس الأوربية الأخرى - الجنس الألبى الهادىء المسالم ، وجنس البحر الأبيض الوجدانى ، ذى المزاج الحاد ، القلق ، والكسول (٢) . وهذا التباين أوضح فى إيطاليا ، فالإيطاليون الجنوبيون ، وهم من جنس البحر الأبيض ، متحدرون فى الغالب من أنواع العبيد من كل جنس ، وعلى الأخص من البلاد الجنوبية والشرقية حيث استوردتهم الرومان أيام الإمبراطورية للعمل فى مزارعهم الواسعة . أما الإيطاليون الشماليون فهم من جنس أرقى لأنهم فى الأغلب من نسل الغزاة الألمان من زمان قيصر إلى شربلمان ، وهؤلاء القوم هم الذين أحدثوا النهضة فى فلورنسا ، ثم حملوها معهم إلى روما . لقد كان ذاتى ، ورفائيل ، وتيتيان ، وميخائيل أنجلو ، وليوناردو دافنشى ، من الجنس الشمالى (٣) . أما فى اليونان فقد تزواج الآخيون الشماليون بالسكان الذين انتصروا عليهم ، فأنتجوا الأثينيين اللامعين البارعين أصحاب عصر بركليس .

أناطول فرانس : لقد كان الآخيون فى غاية الإهمال حين تزاجوا على ذلك النحو ، ألا تظن ذلك ؟

فولتير : لا تحفل به ، وامض فى حديثك فنظرياتك خلافة .

جرانت : وكان تزواج الدورين أقل ، وأصبحوا الإسبرطيين ، وهم جنس شمالى محارب حكم طبقة العبيد helots من البحر الأبيض . وكان أهل الطبقة الراقية فى الإغريق ذوى شعر أشقر ، أما الطبقات الدنيا فشعورهم سوداء . ويكاد جميع آلهة أوليمبوس يصورون شقراً ، ومن العسير أن نتخيل فناً إغريقياً يرسم فينوس داكنة الشعر . وفى جميع صور الكنيسة اليوم يظهر جميع الملائكة شقراً ، بينما سكان المناطق الأدنى يصورون بلون شديد الداكنة . وتجد

(١) الشيكنج قرصان من الشمال كان ينهب غرب أوروبا فى العصر الوسيط (المترجم)

(٢) Grant, M., the Passing of the Great Race, pp. 155, 158.

(٣) المرجع السابق ص ٦٥ ، ١٩١ .

فى كثير من الأقمشة المزركشة القديمة صورة سيد « إيرل » أشقر الشعر ممطياً
صهوة جواد ، وإلى جانبه فلاح داكن الشعر يمسك بالبحام . ولا يتردد أى فنان
حين يصور الصلب فى أن يجعل اللصين داكنين بالتباين مع شقرة المسيح ؛
وفى هذا الأمر شىء أكثر من مجرد الاصطلاح ، لأن مثل هذا التقليد الذى
يكاد يكون صحيحاً مما نجده عن المسيح يدل على صفاته الجسمية والحلقية الشمالية ،
ومن المحتمل أن تكون إغريقية .

أنا تول فرانس : من سوء الحظ أن يكون المرء عظيماً . فأنت تعيش
على الكفاف طول حياتك ، ويصورونك بعد موتك فى كل صورة ما عدا
صورتك الحقيقية ، ومع ذلك فلتمض فى حديثك ، ولندع المسيح للشمالين
ما دام اليهود لا يريدونه .

جرات : لقد انهزمت اليونان أمام مقدونيا حين امتزج الجنس الإغريق
بالكثير من الزواج المختلط ، أما المقدونيون فكانوا شمالين خالصاً ، وانتصروا
على فارس كذلك عندما ضعف الفرس بسبب اختلاط دمائهم بأجناس أسيوية
غير شمالية . ولن نشهد الشمالين منتصرين مرة أخرى إلا فى عصر الغزوات
الكبيرة ، فقد شقوا طريقهم إلى البلطيق ، وسكنوا اسكنديناوه وانتشروا من
هناك فى شتى الجهات ، وخرجوا فى مئات من الغزوات باسم القوط ، والاسترقوقوط
وفيزيقوط ، والكيماوى ، والكيمبرى ، والغال ، والتوتون ، والسوينى ،
والفندال ، والسكسون ، والآنجلز ، والجوطس ، والفريزيان ، والدنماركيين ،
واللومباردين ، والفرنجة ، والنورمانيين ، والفارانجيين . ولا تكاد توجد دولة
فى أوربا لم يعث فيها هؤلاء البواسل فساداً ، ولا يزالون يحكمونها حتى اليوم .
وكانت روما أول مدينة قهرت ، وكان الدوقات العظام فى عصر النهضة من
الجنس الشمالى . وغزيت بلاد الغال أكثر من مرة . وكان الفرنجة من التوتون
الشمالين ، وهم الذين أعطوا فرنسا اسمها الألماني . وكان شرلمان امبراطوراً
ألمانياً ، واتخذ عاصمة مدينة آخن ، واصطنع اللغة الألمانية لغة رسمية فى بلاطه ،
وظلت أوربا حتى حرب الثلاثين خاضعة لألمانيا . وإذا نظرنا إلى الفروسية ،
والفتوة ، والإقطاع ، والتمييز بين الطبقات ، والاعتزاز بالجنس ، والتمسك بالشرف

الشخصى وشرف الأسرة ، والمبارزة ، وجدنا أنها عادات وخلال شمالية . هذا الجنس المتفوق نفسه هو الذى انتصر على فرنسا وصقلية وإنجلترا . وهو الذى غزا باسم الـ *Varangians* النورنجهين روسيا وأخضع وحكم أهلها حتى سنة ١٩١٧ . وهذا الجنس نفسه هو الذى استعمر أمريكا وأستراليا ونيوزيلند . وهو بعينه الذى فتح أبواب الهند والصين للتجارة الأوربية ، ووضع مراكز الحراسة فى كل ميناء أسيوى كبير . وهذا الصنف من الرجال هو الذى يتسلق الجبال ، ويتخذ من الألب ملاعب ، ويذهب فى رحلات لا جدوى منها إلى القطبين (١) .

إنى لأسف أن يكون هذا الجنس السيد آخذاً فى الزوال ، فقد فقد مركزه فى فرنسا عام ١٧٨٩ ، أو كما قال كاميل ديمولان لسامعيه فى المقامى إن الثورة كانت انبعاث السلالة الفرنسية الأصلية (الفرنسيين الألبين ، كما يقال) ضد الحكام التوتون الذين تغلبوا عليهم بقيادة كلوفس وشرلمان ، وظلوا محتفظين بالنظام الإقطاعى ما يزيد على ألف عام . وقد استنزفت حروب الشماليين الانتحارية الصليبية ، وحرب الثلاثين ، وحروب نابليون ، والحرب العظمى ، الجنس الشمالى فى كل مكان . ويبدو أن الجنس الشمالى فى إنجلترا وألمانيا مقضى عليه بالفناء لضعف نسبة المواليد . أما فى روسيا فقد سقطوا أمام المتبربرين بقيادة مغولى ويهودى . وهم يفقدون بسرعة فى أمريكا القوة والنفوذ بسبب الهجرة من جنوب أوربا ، وارتفاع نسبة المواليد بين منافسيهم ، والنفوذ الديمقراطي العددي ، وسلطة الجماهير (٢) .

أنا تول فرانس : هذا كلام جيد يا سيدى ، كلام جيد .

جرائت : ونتيجة ذلك تدهور الثقافة ، وهبوط مستوى القيم والذوق فى إنجلترا وأمريكا على السواء . فالأغاني والموسيقى والرقصات والتمثيليات والساسة وكل ما يسود الآن يأتى من حثالة القوم . وكنت أظن منذ بضع سنين أن الرقابة الدقيقة على الهجرة ، والقضاء التام على التزاوج بين الجنس الشمالى وغيره من

(١) المرجع السابق ص ١٤٦ ، ١٦٥ .

(٢) المرجع السابق ص ١٧٣ .

الأجتاس قد ينقذ الجنس العظيم في أمريكا ، ولكن الأوان قد فات ، فالقوارير في نسبة المواليد سوف تكمل المهمة التي قامت بها الهجرة والتزاوج ، ولن تأتي سنة ٢٠٠٠ حتى تكون قوة الشماليين قد انهارت في كل مكان ، ونختفي معهم حضارة أوروبا وأمريكا في بربرية جديدة تنبع من أسفل .

أنا تولى فرنسا : هذه صورة للمستقبل بشعة . ولكن الفرنسيين من الجنس الألبى ، والإيطاليين ، والنمساويين ، والروس ، سيتخلفون ، وفي هذا عزاء لأنفسنا . ومن الواضح أنه ليس في نية الروس أن يتركوا الديمقراطية تهلكهم . الحق ما أعظم شر أولئك الإنجليز الشماليين حين اخترعوا سلطان الأعداد ! ولكن قل لي يا سيدى : أعتقد حقاً أن هؤلاء الشماليين يمثل تلك البراعة ؟ فقد كانوا من عظام المحاربين ، والقرصان ، وقطاع الطرق ، وجماع الضرائب ؛ ولكن أتعبد هذه حضارة ؟

جرائت : لقد نظموا دول أوروبا الحديثة وجعلوا حضارتنا ممكنة .

نيتشه : إذا كانوا قد نظموا دول أوروبا الحديثة فالدعوى ضدهم شديدة جداً . فمن الأفضل ألا تكون هذه الدول قد نشأت أصلاً ، وعندئذ كان من الممكن أن يحكم البابوات أوروبا الموحدة ، وأن تزدهر الكنيسة وهى آمنة ، كما حدث في عصر النهضة في إيطاليا ، نحو الفن والحرية ، وأن تكون الطبقات المتعلمة حرة كما هى حالها في باريس وفيينا اليوم ، أو في روما تحت ظل ليو العاشر ، بينما يتلقى الشعب عزاء الأسرار المقدسة ؟

جرائت : إنك لوثنى يا سيدى .

نيتشه : بكل تأكيد . كيف أكون غير ذلك وقد تعلمت اللغة الإغريقية ؟

أنا تولى فرنسا : لقد عقد منذ أيام فريق من أصحابنا اجتماعاً صوتوا فيه كما يفعل الأمريكيون لاختيار أعظمنا في هذا العالم الذى طالت فيه حياتنا زمناً . وأعتقد أنى أستطيع تذكر المرشحين . كان هناك شكسبير بالطبع ، فلن يجروا أحد أن يغفله ، ولو أنى واثق أن مستر شو سيشرح لكم ذات يوم أمر ذلك

الشقاق الكبير^(١) . وكان هناك بيتوفن المحنون ، وميخائيل أنجلو صاحب تمثال موسى . ثم المسيح ، وهو شاب محبوب حقاً إذا عرفته . وكان أفلاطون يمثل الفلاسفة ، وليوناردو الفنانين . ولم أسمع لهم بإغفال قولتير ، وأصر نيتشه على ترشيح نابليون ، وألح علينا براندس في قبول قيصر . وأردت أن يكون العاشر رابليه ، ولكن المنتخبين بما تتميز به الجمعيات من غباء اختاروا داروين بدلا منه . ما رأيك في هذه القائمة يا مستر جرانت ؟

جرانت : لا بأس بها .

أناتول فرانس : لم يكن ينبغي أن تجيب قبل أن تنظر إلى أى حد تسمى هذه القائمة إلى قومك الشماليين ، ففيها ثلاثة أسماء من عشرة ، والباقي من اليهود والإغريق واللاتين . وهذا يجعلنى أستنتج أن الشماليين فى الفنون والآداب والفلسفة والدين وفى أمور العقل والقلب لم يبرزوا برونزهم فى صناعة قتل أحدهم الآخر ، والسطو على جيرانهم ، وجبى الضرائب .

جرانت : إنك تجعلنى شديد القلق يا سيدى ، وسأعيد الكرة عندما يصل

بروسون Brousson

أناتول فرانس : سوف أشرى له تذكرة عودة .

جرانت : ومع ذلك ، فقد تكون على صواب بعض الشيء ، فجنس البحر المتوسط مع أنه أضعف فى قوته البدنية من كلا الجنسين الشمالى والألبى فهو فى أكبر الظن أرقى منهما فى الأمور العقلية ، وامتيازه فى ميدان الفن ليس موضع شك . وقد جاءت الثقافة فيما يختص بأوروبا الحديثة من الجنوب لامن الشمال ، ويتصل عالم البحر الأبيض القديم بهذا الجنس الذى خلق حضارة قدماء المصريين الطويلة الأمد ، وإمبراطورية كريت المينوية المشرقة ، وإمبراطورية إتروريا الغامضة (سلف روما ومعلمتها) ، والمدن والمستعمرات اليونانية المنتشرة على سواحل البحر الأبيض والأسود ، وقوة فينيقيا البحرية والتجارية ومستعمراتها

(١) فى الأصل Bombasto Furioso ، نسبة إلى شخصية هى بطل رواية وليم بارنس رودس ، وكان البطول قائداً لجيش ملك الحبشة ، وكان القائد مغروراً شقشاقا ، وقتل الملك . . . الخ (المترجم)

ذات البأس قرطاجنة . وإلى هذا الجنس أيضاً يرجع الفضل الأكبر في حضارة أوروبا القديمة (١) .

أناطول فرانس : إن ما تسلم به عظيم جداً ، ولن ألح عليك في امتياز الاثنينين في كل شيء ما عدا الحرب ، وهم الذين كانوا ثمرة الزواج بين الجنس الشمالى وجنس البحر الأبيض ، على الإسبرطيين الذين كانوا كما تقول شماليين خلص . ولكنى سأسألك فقط أن تتأمل اسكندناوة التى أنتجت إبسن العظيم وجائزة نوبل (نعم ، ما أعظم فضلهما على) (٢) . وازن بين ما ساهم به هؤلاء الشماليون « الخالص » في الحضارة ، وبين فن وأدب وعلم وفلسفة أولئك الإيطاليين في عصر النهضة الذين — إذا كان لى أن أصدقك — كانوا ثمرة الزواج. ألا تقول بناء على ذلك أن تزاوج الشماليين بغير الشماليين ينتج أعظم الثمرات ؟

جرانت : في بعض الأحيان .

نيتشه : ولكن ما الجنس ؟

جرانت : الجنس شيء لا يمكن تعريفه كأى شيء آخر بين نفسه . إنه على وجه التقريب جماعة من الناس من أصل متشابه ، وبلدهم — أو لغابلية أفراد هذه الجماعة — لون خاص ، وكذلك لون الشعر ، وشكل الرأس ، وهئية البدن .

أناطول فرانس : عندما كنت في إنجلترا أخبرني المستر هيلير بلوك (٣) عن رجل اكتشف أنه من نسل الشماليين ولكن هيئة رأسه وقوامه ولونه وشعره من الجنس الألبى . وأكد لى أن امرأة معينة كان لها خمسة بنين ، اثنان منهم من جنس البحر الأبيض ، وواحد ألبى ، وواحد شمالي ، وخامس خليط من الأجناس الثلاثة . وقد توجد الأجناس الثلاثة في إنجلترا ، ولكن مستر بلوك أشار أنه ربما كانت السيدة قد سافرت (٤) .

(١) المرجع السابق : ص ١٤٧ - ١٤٨ ، ١٩٨ .

(٢) نال أناطول فرانس جائزة نوبل عام ١٩٢١ (المترجم) .

(٣) Hilaire Belloc ، كاتب انجليزى ، ولد في فرنسا ، له كتب عن الرحلات والتاريخ

والسير والخرافات والمقالات (المترجم) .

(٤) Langdon-Davies, J., The New Age of Faith, p. 244. (٤)

جرات : سأسلم أنه لا يوجد جنس نقي ، وأن في كل فرد دماء أصول كثيرة . ولكن مما لا ريب فيه أن الأرستقراطية الإنجليزية أتت نشأة من الأمريكيان الذين جاءوا من « الدم المختلط » الموجود اليوم في الولايات المتحدة .

باكل : إني أفهم أن الإنجليز ثمرة اختلاط الكلت Celts ، والرومان ، والانجليز Angles ، والسكسون ، والحوت Jutes ، والدنماركيين Danes ، والنورمندين Normans ...

جرات : ولكن معظم هؤلاء كانوا فروعاً للجنس الشمالى ، وهم في النهاية من جنس واحد .

راتزل : أسمحون لى أيها السادة باقتحام المناقشة ؟ لقد درست الموضوع بعناية وانتهيت إلى أن الأجناس الثلاثة الأوروبية فروع لجماعة واحدة أصلية جاءت من الشرق ، وكانت في بدايتها تشبه الجنس الألبى ، ولكنها حين انتشرت شمالاً وجنوباً تشكلت إلى جنسين مختلفين : «شمالى» و«جنس « البحر الأبيض » نتيجة ظروف جغرافية واقتصادية (١) . وتنشأ فوارق الجنس من فوارق البيئة ، ولذلك من العسير أن يقال إن عامل الجنس هو العامل الحاسم في التاريخ . وسرعان ما تكتسب الشعوب الشمالية مميزات الشعوب الجنوبية حين يعيشون عدة أجيال في المناطق الحارة . ويميل سكان الجبال في جميع أنحاء العالم إلى الطول بصرف النظر عن جنسهم . وقد لاحظت أن أولئك الألمان الذين طالت معيشتهم في جنوب البرازيل قد فقدوا قوتهم « الشمالية » ، وهم يشبهون الإنجليز في جنوب أفريقيا فيجاسون تحت شجرة ويستأجرون رجلاً ملوناً ليستغل لهم (٢) . إن المميزات الجنسية هي على مر الزمن ثمرة البيئة الجغرافية (٣) .

(١) انظر Ripley, W.Z., The Races of Europe.

(٢) Inge, Dean R.W., Outspoken Essays, Second Series, p. 225.

(٣) زعم الدكتور دافنبورت Davenport في بحث قرأه في ٢١ نوفمبر ١٩٢٨ باجتماع الأكاديمية الوطنية للعلوم ، أنه أثبت وجود فوارق أصلية بين البيض والسود ، ولكن تقريره لم يقدم التأكيدات الكافية على أن النتائج لم تكن متأثرة بفوارق في التدريب العقلي وفي الفرص .

٥ - التفسير الاقتصادى للتاريخ

ماركس : لا تتسرع هكذا يا هر راتزل . لماذا « البيئة الجغرافية » فقط ؟
لم لا تحدد القامة بالغذاء كما تحدد بالمناخ أو الجنس ؟ إنى مندهش أن تمتد هذه
المناقشة إلى هذا الحد دون ذكر للتفسير الاقتصادى للتاريخ .

فولتير : (مخاطباً أناتول فرانس) من هذا الشخص ذو الحية الكالحة
كأنها لحية إله ؟

أناتول فرانس : (مجيباً فولتير) إنه سقراط المتاريس^(١) ، كارل ماركس .
لقد كتب كتاباً شنيعاً يثبت فيه أن القوى يستغل الضعيف .

فولتير : هذا كشف جديد جداً . ألا نخبرنا كيف يمنع ذلك ؟
أناتول فرانس : على الضعفاء أن ينهضوا فى قوة ويخلعوا الأقوياء .
فولتير (مخاطباً ماركس) : ما هى نظريتك يا سيدى ؟

ماركس : لن تجد أبسط منها ، فالعامل الأساسى فى التاريخ هو فى كل
زمان العامل الاقتصادى : طريقة الإنتاج والتوزيع ، تقسيم الثروة واستهلاكها ،
علاقة صاحب العمل بالعامل ، حرب الطبقات بين الأغنياء والفقراء ؛ فهذه
الأمر تحدد على مر الزمن كل مظهر آخر للحياة ، سواء أكان مظهراً دينياً
أم خلقياً أم فلسفياً أم علمياً أم أدبياً أم فنياً . إن مجموع علاقات الإنتاج تكون
البناء الاقتصادى للمجتمع ، وهذا البناء هو الأساس الحقيقى الذى يقوم عليه
البنيان القانونى والسياسى ، وتقابله الصور المحدودة للوعى الاجتماعى^(٢) .

فولتير : هذا كلام شديد التجريد صدع رأسى . ولعل سيدى يقدم لنا
بعض التوضيحات .

ماركس : حسناً جداً ، سأستعرض سائرتاريخ الإنسانية من خلال نظريتى .
أناتول فرانس : أعتقد أنك ستذكر قصتى عن الملك والمؤرخين .

(١) هذه استعارة فرنسية كناية عن الشعب الذى كان يقيم المتاريس فى الشوارع ضد الطغاة
من الحكام (المترجم) .

Marx, K., Critique of Political Economy, preface. (٢)

ماركس : أول كل شيء ، أنا لا أقسم التاريخ إلى قديم ومتوسط وحديث ، فهذا تقسيم من العصر الوسيط . بل أقسم تاريخ الإنسان إلى مرحلة الصيد والرعى ، ومرحلة الزراعة والصناعة اليدوية ، ومرحلة الصناعة والآلات . إن الأحداث العظيمة ليست سياسية بل اقتصادية ؛ ليست هي موقعة ماراثون ، أو مقتل قيصر ، أو الثورة الفرنسية ، بل الثورة الزراعية — أى الانتقال من الصيد إلى الفلاحة — والثورة الصناعية ، أى الانتقال من الصناعة المنزلية إلى نظام الصناعة فى المصنع .

فولتير : معنى ذلك أن صور الفقر والثراء تتغير من زمن إلى آخر .

ماركس : ليس هذا فقط ، فالظروف الاقتصادية تحدد قيام الإمبراطوريات وسقوطها ، أما الظروف السياسية والأخلاقية والاجتماعية فليس لها إلا مدخل بسيط ، لأن انحلال الأخلاق ، والرفاهية ، والتهديب — هذه كلها ليست أسباباً بل نتائج . وفى أساس كل شيء توجد طبيعة الأرض : أهى صالحة للزراعة أم للصيد والرعى فقط ؟ أنتهى على معادن مفيدة ؟ لقد أصبحت مصر قوية بسبب ما فيها من حديد ، وبريطانيا قديماً بسبب ما فيها من صفيح ، وبريطانيا حديثاً لما فيها من حديد وفحم . ولقد أخذت أثينا فى الضعف حين نضبت مناجم الفضة فيها ، على حين قوى ذهب مقدونيا فيليب والإسكندر . وقد حاربت روما قرطاجنة للاستيلاء على مناجم الفضة فى أسبانيا ، وانهارت عندما فقدت أرضها خصوبتها .

أناطول فرانس : أنا لا أعرف شيئاً عن التاريخ إلا المبرقشات عديمة الجدوى فى الأدب والفلسفة . ولكنى أستطيع أن أؤيدك يا سيدى معتمداً على الحروب التى وقعت فى زمانى ، فقد نشبت كلها من أجل الموارد الطبيعية ، أو أسواق التجارة فى أرض أجنبية .

ماركس : شكراً لك . إنك تتحدث عن المنافسة التجارية ، فهذه أيضاً تلعب دوراً عظيماً فى التاريخ . لماذا حارب الإغريق حرب طروادة ؟ أذلك لحمال امرأة مستهتره ؟ كلا ؛ لو فرضنا أن هيلين وجُيدت حقاً فإنما هى أسطورة تحجب الاعتبار الاقتصادية ، فقد كان الإغريق يتحرقون شوقاً لطرد منافسيهم

من الفينيقيين وحلفائهم من المدينة التي كانت تشرف على الطريق المائي إلى آسيا . وحتى أجمعنوا عرف كيف ينتحل عبارات تسوِّغ مسلكه .

وليم جيمس : إذن لم يؤد وجه هيلين إلى إنزال ألف سفينة ؟

ماركس : لا فيما أعلم . . وأنت تعرف بالطبع أن الأسطول البحري الذي شيده ثمستوكليس ضد إجزر سيس كان أساس قوة أثينا التجارية في القرن الخامس قبل المسيح ، وأن أموال حلف ديلوس جعلت أثينا من الثراء بحث زينت الأكروبوليس بالمعابد ، فكان الذهب المسروق هو الذي صنع ذلك الفن الكامل . إن أغلب عصور الفن العظيمة جاءت عقب تكديس الثروة الوطنية . ولكن أثينا أخطأت في التعويل على الغذاء المستورد ، وكل ما فعلته إسبرطة هو ضرب الحصار عليها ، فجاءت أثينا ، واستسلمت ، ولم تقم لها بعد ذلك قائمة .

ثم انظر بهذه المناسبة كيف أدى استعباد العبال في اليونان إلى الوقوف في وجه الاختراعات الصناعية والتقدم ، وكيف أفضى استعباد المرأة إلى الحد من نمو الحب الطبيعي ، مما أدى إلى الشذوذ الجنسي الذي أثر على فن النحت الإغريقي . إن طريقة إنتاج الأشياء المادية تصوغ المظهر العام لأساليب الحياة الاجتماعية والسياسية والروحية . ليس وعى الناس هو الذى يصوغ حياتهم ، بل على العكس حياتهم الاجتماعية هي التي تشكل وعيهم . ولقد يظن الفرد أنه هو الذى ابتدع أفكاره ، وأنظمته الفلسفية ، وآراءه الخلقية ، ومعتقداته الدينية ، وأهواءه الحزبية ، وأذواقه الفنية ، بالتفكير المنطقي البريء عن التحزب ، دون أن يخطر بباله أبداً إلى أى مدى عميق تصوغ الظروف الاقتصادية القائمة وراء حياته كل فكرة من أفكاره .

منتسكيو : وكيف تطبق نظريتك على روما ؟

ماركس : لقد كانت روما في أساسها جماعة تقوم على تسخير العبيد ، وكان السادة في غاية الاستهتار والفساد . ولكن ماذا كانت نتيجة هذا كله ؟ اضطرت الفلاحون بالتدريج إلى الإفلاس ، واشترى الأغنياء الأرض وجلبوا العبيد لزراعتها فكانوا يفلحونها بفتور وإهمال ، فخربت الأرض ، واضطرت

روما أن تستورد طعامها من الخارج . ومزقت ثورات العبيد أوصال البلاد ، وفي الوقت نفسه أخذت التجارة بين أوروبا وآسيا يقل مرورها عن طريق روما وأخذت حركة التجارة تزداد عن طريق البوسفور ، فنمت القسطنطينية ، وتأخرت روما .

بوسويه : لا تستطيع أن تنكر أن الدين في أثناء العصر الوسيط هو الذي كان يسير حياة الناس ، لا الشؤون الاقتصادية .

ماركس : ليست هذه إلا نظرة سطحية ، فقد نشأت قوة الكنيسة من فقر الشعوب المحطمة أو المستعبدة المتطلعة إلى الراحة والأمل في الآخرة . واشتد ساعد الكنيسة على أنقاض الجهل والخرافات التي تسير مع الفقر جنباً إلى جنب ، وعلى التراجع من الحياة المدنية إلى المعيشة الريفية . وثبتت قواعد الكنيسة مع الهبات والوصايا ، والأملاك التي تشبه « منحة قسطنطين » ، والعشور والضرائب والإعانات البابوية ، وهذا كله أفضى إلى أن تكون ثلثا أرض أوروبا المزروعة من أملاك الكنيسة ، فكان ذلك هو الأساس الاقتصادي لقوتها . وهذه هي الحال في مظاهر العصر الوسيط الأخرى ، التي كان لها أسبابها الاقتصادية . وكانت الحروب الصليبية محاولة لاسترداد طريق تجارى من « الكفار » ؛ وكانت « النهضة » ثمرة تدفق الذهب الذى غمر شمال إيطاليا نتيجة تجدد التجارة بين أوروبا والشرق عن طريق موانئ شمال إيطاليا ؛ وظهر « الإصلاح الدينى » Reformation حين عزم أمراء ألمانيا على الاحتفاظ لأنفسهم بالمال الذى كان يذهب من جيوب الشعب للفايكان .

بوسويه : إنك على خطأ شديد يا سيدى .

ماركس : لم تظهر الثورة الفرنسية لفساد البوربون ، ولا لأنك يا قولنير كتبت سخرياتك البارعة ، ولكنها قامت لأن طبقة اقتصادية جديدة هي الطبقة البورجوازية (المتوسطة) كانت آخذة في النهوض خلال ثلثمائة سنة إلى مستوى الطبقة الأرستقراطية من أصحاب الأرض ؛ وأخيراً لأن هذه الطبقة اكتسبت ثروة أكبر وقوة اقتصادية أعظم من ثروة وقوة أولئك السخفاء الأغنياء الذين كانوا يتسكعون في بلاط لويس السادس عشر . فالسلطان السياسى يُعْتَمَد

القوة الاقتصادية إن قريباً أو بعيداً ، وليست الثورات الناجحة إلا مجرد توقع سياسي لانتصارات اقتصادية سابقة . ويعتمد شكل الحكومة على توزيع الأرض ، كما قال هارنجتون^(١) منذ سنوات كثيرة ، فإذا امتلك شخص واحد معظم الأرض قامت الملكية ، وإذا امتلكها قلة من الناس ظهرت الأرستقراطية ، وإذا امتلكها الشعب فهذه هي الديمقراطية .

جرانت : في هذا الكلام صواب كثير ، ولعل التفاوت في النسبة بين ملاك الأرض في الريف وبين سكان المدن الذين لا يملكون شيئاً سبب من أسباب انهيار الديمقراطية في أمريكا .

ماركس : لم كشفت أمريكا ؟ أذلك من أجل المسيحية ؟ كلا ، بل من أجل الذهب . ولماذا استخلصها الإنجليز من أيدي الأسبان والهنولنديين والفرنسيين ؟ لأن الإنجليز كان عندهم المال الذي يبنون به الأساطيل المتفوقة . ولماذا ثارت المستعمرات على إنجلترا ؟ لأنها لم ترغب في دفع ضرائب غير معقولة ، ولأنها أرادت أن تضع حداً لاستبداد الأرستقراط الإنجليز الذين كانوا يفرضون سلطانهم عليهم بحق منح الأراضي ؛ ولأنها أرادت أن تتجر بغير قيود سواء في التنبذ أو العبيد ؛ ولأنها رغبت في دفع ديونها بعملة مخفضة .

وليم جيمس : ما هذا ؟

ماركس : بكل تأكيد يا سيدى ، فأنت على علم بالمباحث التي كشف بها مواطنك الأستاذ بيرد Beard^(٢) عن الأسباب الاقتصادية في الدستور الأمريكي وفي الديمقراطية الجيفرسونية ؟ أألم تقرأ ما قاله دانييل وبستر Webster

(١) جيمس هارنجتون Harrington كان معاصراً لكرومويل ، وصاحب مذهب سياسي يعتمد على الاقتصاد ، وكتب مدينة فاضلة (طوبيا) مشهورة اسمها أوسيانا Oceana وصدر الكتاب في لندن عام ١٦٥٦ (المترجم)

(٢) هو شارلس أوستن بيرد (١٨٧٤ - ١٩٤٨) مؤرخ أمريكي مشهور بآرائه الحرة وتفسيره للتاريخ الأمريكي على أساس اقتصادي ، وله كتاب بعنوان «التفسير الاقتصادي للدستور» صدر عام ١٩١٣ ، وآخر بعنوان «الأصول الاقتصادية للديمقراطية الجيفرسونية» صدر عام ١٩١٥ - ويشير في هذا الكتاب إلى جيفرسون ثالث رئيس جمهورية الولايات المتحدة (١٨٠١ - ١٨٠٩) وهو مؤسس الحزب الديمقراطي الذي فاز بالرياسة (المترجم) .

خطيب أمتكم العظيم : « كان أجدادنا في نيويانجلند على قدم المساواة فيما يختص بالملكية . وكان موقفهم يقتضى تجزئة الأراضي وتقسيمها ، ويمكن القول دون أن نعدو الصواب إن هذا العمل الضرورى ثبت شكل حكومتهم وهيئتها . إن القوانين الأساسية الخاصة بالملكية حددت صفة نظمهم السياسية فأشد الحكومات حرية لن يطول الرضا عنها إذا كانت وجهة القوانين تميل نحو خلق تجميع سريع للملكية فى يد عدد قليل من الناس ، وإلى جعل جمهرة السكان عاجزين ومعدمين . وفى مثل هذه الحالة لابد إما أن تثور القوة الشعبية على حقوق الملكية ، وإما أن يحدد نفوذ الملكية نشاط القوة الشعبية ويضبطها . فلاقتراع العام مثلاً لا يمكن أن يعيش طويلاً فى جماعة تتفاوت الملكية فيها تفاوتاً عظيماً » (١) .

قولتير : هذا كلام بارع منكما أنما الاثنان .

أناتول فرانس : وليس فيه إلا عيب واحد من وجهة نظر ماركس : ذلك هو الزعم غير الدقيق الذى قاله الخطيب المذكور من أن القوانين يمكن أن تخلق تغييرات فى توزيع الملكية ، فلو كان الأمر كذلك لما استقامت نظريتك يا سيدى . فأنت تعتقد أن النظم السياسية تحددها الظروف الاقتصادية ، وأن الثورات لا يمكن أن تنجح إلا إذا أيدتها جماعة فى يدها من قبل ميزان القوة الاقتصادية . أفلا تنقض الثورة الروسية رأيك ؟

ماركس : كلا قطعاً . بل سينقض رأي الثورة . فالذى يحدث أن الشكل السياسى إما أن ينحى رويداً رويداً أو ينهار أمام الواقع الاقتصادى : فالثورة الشعبية proletarian فى دولة من الفلاحين لابد أن تجلب ، إن حاضراً أو مستقبلاً ، حكومة لعلها تحتفظ بصورة شعبية ولكنها فى أساسها آلة فى يد أولئك الذين يسيطرون على الأرض .

أناتول فرانس : إنى لأخشى أن يكون هؤلاء البلشفيك الشجعان قد انخرفوا عن الماركسية .

ماركس : لقد كنت أقول دائماً إنى لست ماركسياً .

فولتير : ألا يبدو لك يا مسيو ماركس أن الدكتاتورية العسكرية يمكن فى بعض الأحيان أن تحسن الاحتفاظ بكيانها بأساليب شيطانية ولو أنها لا تمثل قوة اقتصادية كبيرة — كما كان الحال فى أيام الحرس البريتورى^(١) .

ماركس : هذا لا يكون إلا لفترة قصيرة يا سيدى .

أناطول فرانس : لست أدرى أتعرف يا سيدى ما نسميه ، نحن المحدثين ، تحديد النسل ، وأعتقد أنك لا تمارس ذلك . الحق أن تحديد النسل يفيد الكنيسة الكاثوليكية فائدة عظيمة ، لأن تلك الكنيسة بحكمها القديمة تمنع تحديد النسل بين المؤمنين ، وتنتظر فى صبر أن يعيد انخفاض نسبة المواليد بين البروتستانت والفلاسفة شيئاً فشيئاً ألمانيا أولاً ، ثم أمريكا ثانياً ، شعوباً كاثوليكية مرة أخرى . فإذا نجحت سياسة الكنيسة (وقد انتصرت بصيرتها الصامتة فى كثير من المواقع) وإذا فسد الإصلاح الدينى ، بل وربما التنوير بسبب تحديد النسل ، أفلا تعد هذا من الحوادث العظيمة الأهمية ؟ ومع ذلك فمن العسير أن يدخل هذا تحت باب التفسير الاقتصادى للتاريخ . ولعلنا فى حاجة إلى تفسير حيوى للتاريخ ؟

ماركس : أنت مخطئ يا سيدى . ما هى أسباب تحديد النسل ؟ إنها أسباب اقتصادية : مستوى مرتفع من المعيشة ، وازدحام المدن بالسكان ، وقوانين للأرض كتلك التى تسود بلادك ، وهى قوانين ترغب الآباء على تقسيم أملاكهم بالتساوى بين أبنائهم .

جرانت : ولكنك سوف تسلم بكل تأكيد أن العوامل الجنسية كثيراً ما ترجح العوامل الاقتصادية .

ماركس : أبداً .

جرانت : وكيف يمكن بغير ذلك أن تفسر غزو أهل شمال أوروبا لآسيا ؟

ماركس : بسبب سبقهم فى الثورة الصناعية . ثم راقب أهلك الشماليين كيف يخرجون من آسيا عندما تصبح الصين دولة صناعية .

(١) الحرس البريتورى هو الذى أنشأه الامبراطور أغسطس الرومانى ، وأصبح لذلك الحرس نفوذ كبير حتى جعل الأباطرة العوبة فى يده (المترجم) .

جرانت : كثيراً ما رأيت جماهير الشعب ، كإضراب العمال الأمريكيين ، أو الشعب الأمريكي كله في انتخابات الرئاسة ، ينقسم على أساس جنسى لا على أساس اقتصادى .

ماركس : يتحرك الأفراد والجماعات فى الغالب بدوافع غير اقتصادية... جنسية racial ، دينية ، وطنية ، تناسلية sexual (١) ؛ ولكن هذه الأفراد والجماعات تسيرها أشخاص على وعى تام بالقيمة الاقتصادية . هل الساسة الذين يوفدون الحند للمعارك بالخطب الحماسية والموسيقى العسكرية بريئون البراءة كلها من الدافع الاقتصادى ؟ يقال إن كولومبس بحث عن الهند ليقدّم إلى البابا مسيحيين جددًا ؛ وهذا محتمل جداً ، ولوأنه بعيد الاحتمال أن تدور مثل تلك الأفكار فى ذهن ذلك الرجل ؛ ولكن هل تظن أن فرديناند وإيزابلا ساعدها لمثل هذه الأسباب ؟ قد يتصرف الأفراد طبقاً لدوافع غير الدوافع الاقتصادية ، وقد يضحون بأنفسهم فى سبيل أبنائهم أو أهل بلدهم أو ألهتهم ، ولكن هذه الأعمال العابرة من البطولة أو الحنون ليس لها أهمية فى تحديد قيام الدول وسقوطها . إنى لا أطبق الحتمية الاقتصادية على الأفراد .

وليم جيمس : إنى مسرور أن أسمع ذلك . فقد درجت على الظن بأن القوى الأخلاقية كالنفور من استعباد الرقيق بقيادة ولبرفورس وجاريسون لها شىء من الصلة بالتاريخ ؛ ولست أشك فى أنك ستصحح فكرتى فى هذه المسألة .

ماركس : ليس ثمة قوى أخلاقية فى التاريخ ، فالعوامل الاقتصادية تكمن وراء كل حادثة عظيمة . إن جاريسون (٢) لم يرفع علم الثورة ضد الاسترقاق بالمواظظ الخلقية . وحين حرر لنكولن العبيد كان ذلك إجراء حريياً القصد منه إضعاف الجنوب ، ولقد صرح بأنه لا يرى بأساً أن يتركهم عبيداً لو أدى ذلك

(١) درجنا فى اللغة العربية حديثاً على ترجمة لفظة Sev بقولنا « جنس » ، وأصبحنا ننسب إليها فنقول الدوافع الجنسية ، والكبت الجنسى ، والشذوذ الجنسى ، وهكذا . وهذه اللفظة ترجمة أيضاً للفظ race . فلما وردتا فى عبارة واحدة اضطررنا لتمييز بينهما (المترجم) .

(٢) ولیم لویڈ جاریسون Garrison (١٨٠٥ - ١٨٧٩) زعيم أمريكى قاده حملة تحرير العبيد (المترجم) .

إلى السلم . فقد أراد الجنوب الانفصال عن الشمال لما أصابه من أضرار من جراء الضريبة ، وفقدانه كل أمل في السيطرة على الكونجرس ، وأراد الشمال الاحتفاظ بالجنوب سوقاً للمصنوعات ومورداً للطعام والمواد الخام . كانت « المثل » في كلا الحانين عبارة عن أوراق التين ^(١) . فالمثل الأعلى في كل حال حاجة مادية تسترها عبارات لفظية في هيئة غاية أخلاقية .

أناطول فرانس : أتقول ذلك أيضاً عن المثل الاشتراكية ؟

ماركس : أجل .

أناطول فرانس : واأسفاه .

٦ — التفسير النفساني للتاريخ

هيجل : أظن يا سيدى أن آراءك انتهاك للحرمت ، وأنا حين أنظر في سائر هذه النظريات بجملتها أجد فيها كل عامل سوى عامل العقل البشرى . إن من يسمعك يظن ألا قيمة للعقل والشجاعة في هذا العالم ؛ وأنه ما دامت نفس الظروف الجغرافية والاقتصادية والجنسية تؤثر في الأفراد ، وفي الدول أحياناً ، فكذلك لا فرق بين أن يكون الفرد عبقرياً أو مغفلاً ، أو أن يكون المواطنون أذكاء أو جهلاء . لقد أغفلت نظرتك البطل .

ماركس : لا يوجد أبطال . فالفكر آلة الرغبة ، والرغبات في الجماعات والأمم هي على الدوام رغبات اقتصادية . أو كما قال بسمارك : ليس ثمة أخلاق بين الأمم . والعظيم من الرجال كذلك ليس إلا آلة وبوقاً وعاملاً للحرركات الشعبية أو للقوى غير الشخصية . وإذا لم يكن أمره كذلك فهو متهور لا أثر له يمر به التاريخ دون أن يلحظه . والأفكار بالنسبة إلى التاريخ كالفكر بالنسبة للعمل الفردي ، وفي كلتا الحالتين ليست الفكرة هي السبب الحقيقي للنتيجة ، بل رغبة من الرغبات ليس الفرد في حاجة لأن يشعر على الإطلاق بها . الحق أن سائر ثقافة

(١) استعارة في اللغة الإنجليزية تطلق على من لا يكاد يستر ضميره ، لأنهم يتخلون من ورقة التين ستراً للأعضاء التناسلية في التماثيل الدارية (المترجم)

عصر من العصور تتصل بحياته الاقتصادية بمثل الصلة التي توجد بين الفكر والبدن ، فهي تأويل وتعبير لعمليات وقوى تعتمد عليها .

هيجل : إني في دهشة أن يتكلم ألماني على هذا النحو . ومن الظاهر أن ألمانيا منذ تلك الأيام العظيمة أيام كانط ، وليسنج ، وهردر ، وجوته ، وشرلر ، وبيتهوفن ، وأنا ، قد وضعت همها في الصناعة ، فهي تنتج الآن كيمايين وميكانيكيين ولا تخرج فلاسفة وفنانين . وبذلك تفسر سائر العالم وجميع التاريخ في هيئة آلات . إني أود أن أسمع جوته يخبرك عما يراه فيما يختص بنظريتك . أو أسمع هردر Herder الذي هز مشاعرنا جميعاً سنة ١٧٨٧ بكتابه « أفكار عن فلسفة لتاريخ البشر » ، وهو الذي كان يرى سائر التاريخ تثقيفاً للجنس البشري .

أناتول فرانس : حدثنا عن رأيك الخاص في التاريخ أيها الأستاذ . لقد كان اسمك عندما كنت صبيّاً ملء السمع في بلدي ، وكان كوزان Cousin يقسم بك . إن شئت الحق لم يستطع أحد منا أن يتبين شيئاً مما كنت ترمي إليه . والآن ونحن هنا في هذا الفردوس Elysian Fields ^(١) قد اجتمعنا وجهاً لوجه فالفُرصة سانحة أخيراً كي نفهم هيجل .

هيجل : لقد لجأت يا سيدي إلى الإبهام حتى لا يفهمني الحق ، فلم يكن من اليسير أن أكشف للجيل الذي أعيش فيه أن العقل لا يوجد في هذا الكون إلا بمقدار ما نضعه فيه . وأن الله ليس العلة الأولى بمقدار ما هو العلة الأخيرة . كان عليّ أن أتكلم بأسلوب يسمح بتأويل الأمور تأويلاً حسناً حين أرى الجلال مقبلاً في الطريق .

فولتير : إني أفهمك يا سيدي ، إذ بعد موت فردريك ^(٢) أصبح التفكير في ألمانيا غير مشروع .

هيجل : ولكن الحق يقال كانت فلسفتي بسيطة جداً . فالله هو المطلق Absolute

(١) الاليزيوم Elysium في الميثولوجيا اليونانية هو مسكن السعداء من الناس ، ومنه أرض الاليزيوم ، أي فردوس شعراء اليونانيين (المترجم) .

(٢) يشير إلى فردريك الثاني الذي حكم ألمانيا من ١٧٤٠ إلى ١٧٨٦ ، ورفع شأن أمته ، واستدعى فولتير إلى بلاطه (المترجم) .

والمطلق هو المجموع الكلى لجميع الأشياء فى تطورها . الله هو العقل Reason ، والعقل هو ذلك النسيج وذلك البناء للقانون الطبيعى الذى تتحرك الحياة أو الروح Spirit فى داخله وتنمو . الله هو الروح ، والروح هى الحياة Life والتاريخ هو نمو الروح Development of Spirit ، أى إن التاريخ نمو الحياة . فى البدء تكون الحياة قوة غامضة لاتعى نفسها ، وعملية التاريخ انتقال «الروح» أو «الحياة» إلى الوعى الذاتى والحرية . والحرية جوهر الحياة كالحاذية التى هى جوهر الماء . والتاريخ هو نمو الحرية ، وغايته أن تكون «الروح» (١) حرة حرة كاملة واعية .

قولثير : هذه يا مسيو هيغل هى حقاً لغة الثورة .

هيغل : بكل تأكيد ، فقد كنت أعنى ذلك . لقد رأيت التاريخ يمر فى مراحل ثلاث : الأولى المرحلة الشرقية التى لم يكن فيها إلا فرد واحد حر ؛ والثانية المرحلة اليونانية الرومانية التى كان فيها قلة من الأحرار ؛ والثالثة المرحلة الحديثة التى أصبحت فيها الروح واعية بحريتها التى تنظمها فى الدولة ، وبذلك تجعل جميع الناس أحراراً .

ماركس : إننا نحن أبناء ألمانيا الفتية لم نستطع أن نغفر لك إعلاءك من شأن بروسيا — وهى أشد دول أوروبا رجعية ، ولكننا أبصرنا المعنى الخفى فى ميتافيزيقاك ، وقدرنا جدلك . إن أذن لا تزالان ترنان بصدى ذكرى « القضية ، ونقيضها ، والقضية التركيبية . » thesis, antithesis, synthesis وكان كراوس Krause يخبرنا أن : « العالم القديم هو القضية ، والعالم الحديث نقيضها ، وبولنيزيا القضية التركيبية » . أما نحن الطلبة فكانت تجرى على ألسنتنا صيغة أحسن : « الظمأ هو القضية ، والنبيذ نقيضها ، والقضية التركيبية على الأرض تحت المائدة » (٢) .

(١) الروح فى فلسفة هيغل ، والتى نجدتها فى الترجمة الإنجليزية Spirit هى بالفلسفة الألمانية Geist ، ولا يقصد بها المعروف عندنا من معنى الروح أو النفس ، بل هى صورة متصورة من الوعى الذى يكن فى المجتمع ويكون علة تطوره وحياته . وهذا الوعى يعبر عنه بالروح ثمرة التآلف بين وعى الفرد ووعى المجتمع (المترجم) .

(٢) Hegel, Philosophy of History, pp. 18-21.

(يشير المؤلف فى هذه القضية التركيبية أن الشخص يكون لعبت برأسه الخمر حتى وقع على الأرض — المترجم) .

هيجل : اضحك إذا شئت أنت الناشئ تحت جناحي الأيسر. ولكن انظر كيف أن سائر التاريخ ، كسائر الميتافيزيقا ، تسطع تحت أضواء جدلي ؟ إن كل عصر يطوى في نفسه بعض المتناقضات الدقيقة تشبه بالضبط ما يوجد في الرأسمالية عندكم ، ويساعد النمو على جعل هذا التناقض واضحاً وحاداً ، حتى ينتهي الأمر بالانقسام ، والحرب ، والثورة ، والانفجار ؛ ثم تلتئم العناصر المتقابلة كتلك الصبغيات التي يبتئها لنا باتيسون Bateson ذلك اليوم في مكونات جديدة ، وهكذا يبدأ عصر جديد . ويعينك على التنبؤ بالمستقبل هذا القانون : « لن تحصل من مرحلة واحدة على نقبضها بل على المركب منها ومن نقبضها » . وعلى هذا النحو فإن الرأسمالية في صراعها مع الاشتراكية لا تقضي إلى الاشتراكية بل إلى رأسمالية الدولة State capitalism : ذلك أن الثوار ينقلبون رأسماليين ، ويسمون أنفسهم الدولة ، ومع أن كثيراً من الناس يقاسون ، إلا أن الأمور تتقدم لتبلغ مرحلة أرقى .

ماركس : فإذا كان الأمر كذلك فلم لم ترحب بشباب الثوار في زمانك باعتبارهم رسل المستقبل ؟ لم زعمت أن الحرية كانت موجودة في بروسيا أكثر مما كانت في اليونان قديماً ؟ لقد كنت تظن أن بروسيا تمثل أرقى حضارة عرفت في التاريخ . وحيث كانت بروسيا ملكية ، وكنت لسانها الناطق ، فقد خلطت التاريخ لتبين أن الطغيان يوجد في المرحلة الدنيا حيث لا يوجد إلا فرد واحد حر ، وأن الأرستقراطية أو الديمقراطية توجد في المرحلة الثانية حيث يكون ثمة أقلية حرة ؛ وفي المرحلة العليا حيث يكون جميع الناس أحراراً توجد الملكية . يا إلهي ! ملكية ؟ لقد صنفت الشعوب وسميتها كما يفعل الصبي الذي يرتب طوابع البريد . لقد صغت القانون الذي يجعل عملية التطور تدفع الحضارة إلى الغرب أكثر فأكثر ، ويجعل الحضارة كلما كانت غربية كانت أرقى . ونتيجة ذلك أنك رفعت أشور على الصين ، وكان ينبغي أن تضع أمريكا فوق ألمانيا ، وكذلك آثرت أن تكون وطنياً .

هيجل : إذا كنت في روما فافعل كما يفعل الرومان .

ماركس : كلا يا سيدي ؛ سواء أكنت في روما أم في غيرها ، فلا يوجد إلا حق واحد .

أنا تول فرانس : إنك تتحدث يا سيدى كأنك تملك هذا الحق الذى لعله لا يوجد أصلاً ، فلا تكن شديد الثقة إلى هذا الحد .

كارليل : أرجو أن تفسحوا صدركم لسماع كلمة من رجل شيخ
نكم ما زلتم تغفلون العبقريّة من التاريخ ، فلم تقدم بعد حواركم كله عما كنا عليه من قبل . وعندى أن التاريخ العام ، تاريخ ما قام به الإنسان فى هذا العالم ، إنما هو فى أساسه تاريخ عطاء الرجال الذين أثروا فيه ، فقد كان هؤلاء العطاء قادة الناس ، وكانوا القدوة والنماذج ، وبمعنى أوسع المبدعين لساثر ما ست جموع الشعب إلى عمله أو بلوغه . وكل ما نراه ماثلاً محققاً فى هذا العالم هو ولا ريب ثمرة المادية الخارجية ، والتجسد والتحقيق العمليين للأفكار التى استقرت فى رءوس العطاء المرسلين إلى هذا العالم . فروح تاريخ العالم كله إنما هو بحق تاريخ هؤلاء الأبطال . فإذا تيسر لنا حسن البصر بهم فقد نستطيع أن ننفذ إلى لب تاريخ العالم (١) .

وليم جيمس : بنخ ، بنخ ، هذا كلام نادر فى جودته يا كارليل . ولقد حان الوقت الذى يجب علينا أن نبليغ فيه منبع « الأفكار » التى تحرك العالم .

هيجل : اهدءوا أيها السادة ، فالأفكار هى التى سميتها « روح العصر Zeitgeist » ، وجميع ألوان التفكير والشعور السائدة فى زمان ما تكون « روح العصر » ، وكل شىء فى التاريخ ثمرة لذلك (وقد سمعت أن الهر لا مبرحت Lamprecht بعيد الكلام نفسه اليوم ، ولكنه يغطى سرقته بعبارة جديدة هى « النفس الاجتماعية Social psyche ») . لا يؤثر عطاء الرجال إلا حين يكونون آلات غير واعية لروح العصر . وإذا لم يكن الفذ من العطاء مؤثلاً مع روح العصر ضاع ، ولعل الأولى به ألا يظهر إلى الوجود . إن العبقري الذى يبنى الشهرة والنجاح قد لا يكون أعظم من أسلافه الذين وضعوا هم أيضاً لبناتهم فى البناء ، غير أن حسن حظ ذلك العبقري أنه جاء آخرهم ، فلم يكده يضع حجره فى البناء حتى استقام العقد . وليس لمثل هؤلاء الأفراد وعى بـ « الفكرة Idea » عامة التى يسطونها ، ولكنهم ينفذون ببصيرتهم إلى احتياجات زمانهم ،

فيعرفون ما تهيأ نضجه للنمو^(١) . فليس عظماء الرجال مبدعين ، بل شأنهم في ذلك شأن القابلة التي تساعد الزمن على توليد ما هو موجود في الرحم من قبل .

كارليل : لا أعرف شيئاً عن قابلاتك يا هر هيجل ، ولكني أعرف أن التاريخ لولا كرومويل لتغير وجهه ؛ ولاختلف كذلك بدون فردريك ؛ ولم تكن البشرية لتغفر للثورة الفرنسية لولا ظهور نابليون . إن الكفر بالأبطال هو أقصى ما يمكن من الإلحاد .

نيشه (كأنه يخاطب نفسه) : إن عبارة الأبطال بقية تخلفت عن عبادة الآلهة . ومع ذلك . . . ومع ذلك لم يعد أحد يعرف التبجيل ، فقد مات جميع الآلهة ، ونود الآن أن يحيا السوبرمان .

قولتير : أهو مجنون ؟

أنا تول فرانس : إنه ملهم يا أستاذ .

وليم جيمس : ولكني مهتم بهذه النظرية عن عظماء الرجال في التاريخ . ما هي الأسباب التي تجعل المجتمعات تتغير من جيل إلى جيل والتي تجعل إنجلترا تحت حكم الملكة حنة Anne مثلاً مختلفة هذا الاختلاف الشديد عن إنجلترا تحت حكم إليزابيث ؟ يقول الهر ماركس إنه لا صلة للتغيرات بالأشخاص . وأنها مستقلة عن سلطة الأفراد . ولست أعتقد في ذلك ، إذ أن الاختلاف يرجع إلى تجمع أثر الأفراد ، وأمثلتهم ، وقدرتهم على الابتكار ، وقراراتهم . كلا يا مستر ماركس ، لا تؤثر الجماهير كثيراً في التاريخ ، ولكنهم يتبعون قيادة الأفاذا من الرجال . ففي جيل واحد قلب بسمارك ألمانيا الفلسفية إلى ألمانيا العسكرية والاستعمارية . وتلقى نابليون فرنسا جانحة إلى السلم بسبب الإنهساك والاشمئزاز ، فلأها بحمي السعى إلى الحد . وقد انساق وراء مثاله واستسلمت لعبقريته . وكاد تيودور روزفلت يفعل مثل ذلك بالولايات المتحدة . إني أفتق مع إمرسون في قوله : « أوافق على قول منشيوس Mencius^(٢) الصيني : الحكيم

(١) المرجع السابق ص ٣٠ .

(٢) ويسمى منج تسي ، عاش في القرن الرابع ق . م وشرح الكتب المقدسة وألف كتاباً عن العالم (المترجم) .

هو معلم مائة عصر . فعندما يسمع المغفل سيرة لُو Loo يصبح ذكياً ، ويصبح المتردد حازماً » . وأعتقد أن صديقي مستر تارد يتفق معي ، لأن فكرتي الخاصة عن التاريخ لا تكمل إلا إذا أضفت إليها مذهبه في التقليد (١) .

تارد : نعم أيها الزميل العزيز ، إنني متفق معك بكل تأكيد ، هناك في العلم عمالقة وأقزام ، والعمالقة فقط هم الذين يغيرون وجه الأشياء . وإذا فرضت وجود جميع الظروف الجغرافية والجنسية والاقتصادية التي تريدها ، فلا بد من وجود شخص يتقدم الصفوف في كل حادثة وفي كل تغيير . إن القزم من الرجال لن يبدأ بالابتكار ، فهو خائف وأكبر الظن أنه لا يحلم أبداً بوجود حاجة لأي شيء منهم إلا أنواع السلوك المتوارثة ، وتكفيه في ذلك العادات والتقاليد . أما العمالق من الرجال فإنه يشعر بالحاجة ، إنه « يفكر » ، فيتغير كل شيء . قد نحقق هذا العظيم ، ولكنه إذا نجح ، فإن قلة من الناس في النادر أيضاً تحاكيه . فإذا نجحوا تدفقت في المجتمع موجة من التقليد كالتيار الجارف . حدث أن تاحراً يابانياً واحداً حاكى طرق الغربيين وأفكارهم ، وقلده عشرة ، والآن يسير على منواله مائة ألف ، وبذلك تغيرت اليابان كلها . وأنا لماذا نشأت كاثوليكيّاً ؟ بالتقليد . ولماذا نشأت فرنسياً ؟ أعني لست رجلاً يختلف عنك يا هر هيجل في الدم أو الجنس بل في العادات واللغة ، وفي أساليب الشعور والفكر ... بسبب التقليد . إن طريق التقليد هو على الحملة الشيء الوحيد الهام في التاريخ . وتقوم وراء العوامل الاقتصادية والجغرافية العملية الأساسية الحيوية وهي عملية الانتخاب الطبيعي للتغيرات الملائمة . فالعبرى هو المتغير variant ، وفكرته هي التغير variation ، و « روح العصر » والظروف الطبيعية هي البيئة التي تسمح للتغير أن ينجح . والتاريخ هو الحرب بين التفاهة mediocrity والعبقرية .

كارليل : إنني أشكرك يا سيدى ، فقد أحسنت أى والله القول .

لستروارد : لو سمحتم لي أيها السادة فثمة أمر واحد ينبغي أن يضاف ، وهو أن التاريخ هو تاريخ الاختراعات العظيمة . إذ تقوم وراء التغيرات الاقتصادية تغيرات

Barnes, H. E., The New History and the Social Sciences, p. 87 ; (١)

Emerson, Representative Men, p. 17.

ميكانيكية ، ويقوم وراء هذه التغيرات تقدم العلم الطبيعي ، ويقوم وراء هذا العلم التفكير المنعزل للفرد من الرجال . قد لا يكون عظماء الرجال علة الأحداث التي تصور عادة في التاريخ ، كالحروب ، والانتخابات ، والهجرات ، وغير ذلك ، ولكنهم علة الاختراعات والاستكشافات التي تصوغ العالم صياغة جديدة ، وتغير كل جيل عن الجيل السابق . إن نمو المعرفة هو جوهر التاريخ .

باكل : إنك على حق ، إذ يجب أن يفسر التاريخ السياسي في كل أمة بتاريخ تقدمها الفكري .

وارد : كنت تود يا ميسيو فولتير أن تعرف أى خطوات اتخذها الإنسان لينتقل من البربرية إلى المدنية . فاعلم أن ذلك بالاختراعات . وليس أهم الرجال في تاريخ أمريكا هم الساسة ولا رؤساء الجمهورية ، بل المخترعون — فالتون (١) Fulton ، هويتني (٢) Whitney ، مورس (٣) Morse ، ماكورميك (٤) McCormick ، إخوان رايت (٥) Wright Brothers ، إديسون (٦) Edison وستستمر آثار ما عمل هؤلاء الرجال قروناً طويلة بعد أن تنسى أسماء رؤساء الجمهورية . إنها الآلة البخارية التي صنعت القرن التاسع عشر ؛ وإنها الكهرباء والكيميا والطائرة التي ستصنع القرن العشرين (٧) .

ماركس : إنني أسلم بقيام الاختراعات الحديدية وراء التغيرات الاقتصادية .

(١) فالتون (١٧٦٥-١٨١٥) مخترع أمريكي ومهندس .

(٢) هويتني (١٧٦٥-١٨٢٥) مخترع أمريكي لمخاليج القطن ، وسجل اختراعه عام ١٧٩٤ (المترجم) .

(٣) مورس (١٧٩١-١٨٧٢) مخترع أمريكي لشفرة الإشارات التلغرافية ، وتعرف باسمه حتى اليوم (المترجم) .

(٤) ماكورميك (١٨٠٩-١٨٨٤) مخترع آلة الحصاد .

(٥) الأخوان ولبور رايت (١٨٦٧-١٩١٢) وأورفيل رايت (١٨٧١-١٩٤٨) من رواد الطيران الأمريكي ، وقد طارا لأول مرة بعد إجراء عدة تجارب على عمل محرك للطائرة في عام ١٩٠٣ ، ثم استعمل بعد ذلك جيش الولايات المتحدة طائرتيهما عام ١٩٠٩ ، وفي ذلك العام أسسوا شركة رايت للطيران (المترجم) .

(٦) إديسون (١٨٤٧-١٩٣١) من أشهر المخترعين لأكثر من ألف اختراع حديث كالصوتوغراف والسينما فإنه احتسب إلى عمل أول عرض للصور المتحركة عام ١٩١٣ (المترجم) .

(٧) بارنس ، المرجع السابق ، ص ١٨

ولكن أنواع التقدم الفنى ، بل والبحث العلمى ، مدينة للحاجات والمطالب الاقتصادية . إن حاجة صناعية فنية تكون حافزاً على العلم أكثر من عشر جامعاته وكل اختراع هو الخطوة الأخيرة فى طريق بحث طويل ، لأن الاختراع يتم بخطوات صغيرة قد تكون غير محسوسة فى بعض الأحيان ، وهو راجع على مر الزمن إلى الضروريات والحاجات الاقتصادية (١) .

أنا تولى فرانس : ترجع الاختراعات إلى حاجات حياتنا يا سيدى ، وليست الاحتياجات الاقتصادية إلا جزءاً منها ؛ فبعض الاختراعات ، وكثير من التاريخ ، يرجع إلى الحاجة إلى الحب وليس له أساس اقتصادى . حقاً إن الحب حين يلمس الاقتصاديات يشرع فى الموت . ولماذا طبقاً لنظريتك كتب الناس الموسيقى ؟

ماركس : إنها فضل ، وعرض ، ونتاج فائض كقطران الفحم أو الصابون . نيتشه : لو جرت الحياة بغير موسيقى لكان هذا خطأ .

أنا تولى فرانس : فلنقف باب هذه المناقشة . نعم ، يا مسيو منتسكيو ، ويا مستر باكل ، ومستر راتزل ، نحن نعيش على ظهر الأرض ، وسنظل على الدوام مقيدين بها ، ولو أننا سوف نتخطى حدودها ، بل ونطير حتى فوق الهيمالايا بين حين وآخر . ولعل بعض الأجناس يا مستر جرانث مع حسن حظها فى الوقوع على بيئة طيبة تتفوق فى الجسم والدم بل وفى القدرة العقلية على غيرها من الأجناس . ولكن دع هذه الأجناس الفاضلة تتبادل المعيشة فى البيئة مع الأجناس الأدنى منها بضعة آلاف من السنين ، ثم انظر ماذا يحدث بعد ذلك . أما عن مسيو ماركس فلا أتوقع أن أقنعه بأنكم جميعاً على صواب ، كما أنه هو أيضاً على صواب لأننى أعرف أن ذلك لا يقنعه . ولكنك أنت يا أستاذ هيجل فإنك سترضى بقبول نظرية « الرجل العظيم » إذا قبل مسيو جيمس وتارد وكارليل نظريتك فى « روح العصر » باعتبار أنها البيئة العقلية التى تنتج . جملة القول أنى أرى أننا سنحسن الاتفاق إذا ارتبنا فى أنفسنا بعض الشيء .

(١) انظر بارنس ، المرجع السابق ، فردريك إنجلز ص ٣٩٢ ، فى الهامش .

أما أنا فستمر فقط في العناية بعظماء الرجال ، سواء أكانوا أسباب التاريخ أم لم يكونوا ، وإني لأؤثر وجود عشرة من أبطال الفكر الفرنسيين على سائر فرنسا بدونهم . ثم اذكروا حين تكتبون التاريخ أن الأحداث الحليّة تتحدث على السنة عظماء الرجال مهما تكن أسباب تلك الأحداث . لا تتناولوا جميع العباقرة من صفحات كتبكم ، وإني لأؤكد لكم أن خرائطكم ورسومكم البيانية لن تمكنني من الشعور بالماضي كما أراه خلال عيون العباقرة ، كأن جميع الخيوط التي نسجت الماضي تتجمع في عظماء الرجال وتلتحم في وحدة هدايتنا . كيف يمكن أن نفهم ألمانيا ونغفر لها بدون جيته ، أو إنجلترا بغير شكسبير ، أو فرنسا بغير فولتير ؟

فولتير : تعال ، فالوقت متأخر ، وحتى الخالدين يجب أن يناموا .

٧ — التاريخ المركب

قال فيليب ، وقد صعدنا التل إلى الطريق الذي يفضي بنا إلى البيت : « إن الرجل الشيخ على صواب ، فجميع هذه النظريات في التاريخ خرقاء حين تؤخذ منفصلة ، وليس لها معنى إلا حين تجتمع . لقد سئمت التحليل وأصبحت متلهفًا على التركيب » .

فاقترحت قائلاً : « أحكم ما قيل الليلة إشارة فولتير — ومن الواضح أنها مسروقة من كروتشي — إن التاريخ لا يجب أن يكتبه إلا الفلاسفة ، لأنهم سينظرون إلى الأشياء نظرة واسعة » .

فاحتجت آرييل : « ولكنكما تنسيان أن التاريخ شيء كبير ، ولن تجد أحداً يمكن أن يطول عمره حتى يراه في نظرة كلية — حتى لو عاش على غذاء نباتي » .

فقلت : « هذا حق ، فنحن في حاجة إلى إحصائيين يمدون الفلاسفة بالمعلومات — في التاريخ كما هو الحال في العلم . ولكن في كلتا الحالتين ينتهي الأمر إلى عبث مخرب إذا لم تجمع الوحدة بين أطراف هذين الجزأين الخاصين معاً . يجب أن تكون الفلسفة بالنسبة إلى التاريخ ما يجب أن تكون عليه بالنسبة إلى العلم — أي الربط الكلي » .

ثم مشينا صامتين بعض الوقت تملأنا نشوة الآلهة والنجوم . وخرج فيليب
عن صمته قائلاً :

« هذه المناقشة توحى بطريقة جديدة كل الحدة لكتابة التاريخ . فى العادة
حين يكتب شخص عن « تاريخ الإغريق » مثلاً ، فإنه يعنى تاريخ الحيسة
السياسية للإغريق — أو على أكثر تقدير الاقتصادية والسياسية ، ثم يأتى شخص
آخر ويكتب تاريخ الصناعة والتجارة عند الإغريق ، كذلك العرض الاقتصادي
الذى قام به زيمرن Zimmern . ويقدم لنا مؤلف آخر تاريخ الديانة
الإغريقية ، وثالث الفلسفة اليونانية ، ورابع الأدب اليونانى ، وخامس حياة
الإغريق الاجتماعية ، وسادس الفن اليونانى . ومن المنتظر منا ، نحن الطلاب ،
أن نجتمع أطراف هذه الأجزاء معاً ، وأن نكوّن صورة لسائر حياة الإغريق
المعقدة . فمن المفروض أننا نعمل ما يعد مهمة أكبر مما يستطيع أعلم المؤرخين
الاضطلاع بها . إن حياة الشعب تمزق إلى عدة أجزاء يعزل كل جزء منها عزلاً
صناعياً عن الأجزاء الأخرى ، ثم ندرسها فى قطاعات طويلة بحيث لا ننظر إلا
فى علاقات التتابع والزمان ، ضاربين صفحاً عن سائر العلاقات الخاصة بالآثر
المتبادل ، بالصراع المشرق ، بالتعاون . فما أغرب هذه الطريقة فى وصف الماضى !! »
قالت آرييل : « هذا تاريخ ممزق » .

فقلت شاكياً : « لقد فقد الفلاسفة الشجاعة فى الوقت الحاضر ، فهم يؤثرون
المهام الصغيرة — إنهم يناقشون مثلاً أكان أفلاطون يقصد هذا رأى أم ذاك ؟
وهل الشمس فى السماء أو فى رءوسنا ؟ وهل البرتقالة ذات لون أصفر فى الظلام ؟
إلى آخر ذلك . إنى أعتقد أنهم يخشون الكون منذ أن توقفت الكنيسة عن إخبارهم
عما يجب عليهم التفكير فيه » .

فقال فيليب : « حسناً ، عندى فكرة جديدة . فالتاريخ كما هو مدون
عبارة عن قطاعات طويلة ، إذ يستعرض أحدنا موضوعاً واحداً كالسياسة أو
الفلسفة أو العلم ويتتبع تحوله ونموه وغير ذلك خلال فترة طويلة من الزمن .
نسعى هذا التاريخ بالتاريخ الممزق ، كتسمية آرييل له . والآن ، ولماذا
لا يكون عندنا إلى جانب هذا (ومع التسليم بالحاجة إلى هذه الدراسات الخاصة)

ضرب من القطاع العرضي للتاريخ ، يتناول فيه الباحث عصراً واحداً مثل عصر
بركليس ، أو عصر فولتير ، ويحدد نفسه بقرن واحد ، وإذا وجب بحيل واحد ،
حتى يجعل مهمته ممكنة ، ثم يشرع في كتابة تاريخ سائر وجوه حياة الأمة في
تلك الفترة — الوجوه الاقتصادية ، والسياسية ، والحربية ، والعلمية ، والفلسفية ،
والدينية ، والخلقية ، والأدبية ، والدراماتيكية ، والفنية ؟ إن ما يزعجنا هو أننا
خاضعون إلى حد كبير لتأثير فكرة التطور ، فنظن أن كل شيء يجري كأنه
في خط من التتابع والعلية . إننا نظن مثلاً أن فلسفة أفلاطون نتيجة لفلسفة
سقراط ، وأن فلسفة أفلاطون علة لفلسفة أرسطو ، وأن فلسفة اسبينوزا نتيجة
لفلسفة ديكارت . ولكن ثمة علية عرضية أيضاً ، فليست الحوادث ثمرة الظروف
السابقة في ميدانها الخاص فقط ، بل نتيجة الظروف المحيطة بها في ميادين أخرى .
ولعل فلسفة أفلاطون لم تتأثر بسقراط بمقدار ما تأثرت بالتطور العام السياسي
والثقافي في عصره — كالخطب التي سمعها في الساحة ، أو التمثيلات التي رآها في
الملاعب ، أو التماثيل التي شهداها في المعابد والميادين . ولعل أرسطو قد اصططح
تفكيره بصحبة أصدقائه في مقدونيا أكثر من أثر معلمه في الأكاديمية .
فقلت آرييل : « حسن جداً يا فيليب ، لقد أحسنت الكلام » .

— « لا تسخرى مني ، يا آرييل ، فأنا جاد ، وأود أن أرى التاريخ
مكتوباً كمثل ، أريد أن أرى سائر نشاط الرجال والنساء في عصر واحد وقد
نسج في وحدة ، وأن يبرز نشاطهم في العلاقات بينهم ، واعتماد بعضهم على
بعض ، وتأثيرهم المتبادل . أريد أن يعرض الماضي كما كان — كلا مجتمعاً .
خذ مثلاً عصر نابليون ، وانظر إلى أي حد اعتمدت الظروف السياسية على
الظروف الاقتصادية ، وكيف تقرر مصير حروب نابليون بالذهب الإنجليزي .
وكيف اختفى روتشلد وراء ولنجتون . تأمل كيف عكس الأدب مظاهر العصر
السياسية والدينية ، كما هي الحال في شيللي ، وبيرن ، وشاتوبرياند . وكيف
حاكت الفنون في الثورة الفرنسية روما ، فذرع تالما Talma^(١) خشبة المسرح

(١) فرنسوا جوزيف تالما (١٧٦٣ - ١٨٢٦) ممثل فرنسي مشهور أسس تياترو الثورة
برعاية ديمولان ودانتون ، وكان نابليون من المعجبين به (المترجم) .

على طريقة روسكيوس Roscius^(١) . وكيف اتخذت الموسيقى نغمة بطول وإبداع ، وكيف يعكس بيتهوفن ، وفي بعض الأحيان عن وعى ، أهسوا ، « الثورة » وعظمة نابليون . كان العصر كله واحداً لا في فرنسا وحدها بل في سائر أوربا إلى الغرب من روسيا . إنى أريد تاريخاً لذلك العصر يظهرنى على الماضى موحداً فى جميع مظاهره كما كان عليه عندما كان حياً » .

فقالت آرييل : « إنك تطلب شيئاً كثيراً ، فهذا مستحيل » .

فأفترحت قائلاً : « قد يكون من الممكن دراسة جميع الموضوعات فى عصر واحد كما هو ممكن دراسة جميع العصر فى موضوع واحد . يجب أن يكونه من المؤلف كتابة تاريخ عصر فولتير كما كتبنا عن « الاضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية » ، أو « محاولة فى فهم الأخلاق » أو كتاب جرون Grote « تاريخ الإغريق » . لقد فعل سيموندس Symonds من بعض الوجوه يا فيليب ، ما تطلبه ، حين كتب مجلداته السبعة عن عصر النهضة » .

« أجل ، لقد كان ذلك رائعاً ، ولكنى أريد أن يدون كل عصر على هذا النحو . تأمل كم تكون فكرتنا عن التاريخ والحياة الإنسانية أفضل إذا ظفرنا بتمثل هذه التآليف . بل أفضل من ذلك ، . . . تأمل كم نكون علماء أكمل إذا درسنا تاريخ بهذه الطريقة المركبة المحيطة . رحم الله أمثال جوته ، وليوناردو ، وأرسطو ، أرباب النظرية الكلية » .

وتساءلت آرييل : « لماذا لا تكتب أنت يا فيليب مثل هذا التاريخ ؟ إن المثال هو كل شىء . فإذا أمكن هذا العمل ، فاعمله » .

« إنى أحب أن أكتب تاريخ القرن التاسع عشر بهذه الطريقة ، قاصراً إياه فى حدود طاقتى على أوربا . ومع ذلك لن يتسع عمر شخص واحد لتحقيق هذا المشروع ، ولعل ثلاثتنا معاً يستطيعونه . أترغب فى التعاون معنا ؟ ما أعظم مأساة ذلك القرن ؟ »

(١) من مثلى روما المشهورين ، وكان ذا صوت حسن ، وإلقاء بارع ، وحركة لطيفة (مترجم) .

الفصل الأول : عصر نابليون : الثورة ، حكومة الإدارة ، الانقلاب السياسي ، شاتوبرياند ، مدام دي ستال ، دافيد ، إنجرس ، جوته ، فشته ، هيجل ، بيتهوفن ، وردسورث ، كولردج ، سكوت ، شللي ، كيتس ، بيرون ، البابا بيوس السابع ، دي ميستر ، فالتون ، أوسترليتز ، نلسون ، ترافلجار ، همبولدت ، لافوازييه ، لابلاس ، لامارك ، الإسكندر الأول ، بوشكين ، ولنجتون ، ووترلو ، سانت هيلانة . ثم تنزل الستار .

الفصل الثاني : العصر الرومانتيكي : فشته ، شلنج ، نوفاليس ، شلينج ، دوروثيا مندلسون ، جان بول ، هوجو وهرناني ، جوتييه ، بلزاك وستندال ، دي موسيه وجورج ساند ، كفيفيه وسانت هيلير ، هرشل ولييل ، شوبنهور وكومت ، نيومان وحركة اكسفورد ، ستيفنسون والآلة البخارية ، كارليل وماكولي ، ترنر ودلاكروا ، فير ومندلسون ، شوبرت وشومان ، هيني وشوبان ، روبرت أوين وأصحاب المواثيق ، الاشتراكيون المثاليون ومحطمو الآلات ، روتشلد ولويس فيليب ، لويس بلان ولويس نابليون ، ١٨٤٨ ، والثورة في كل مكان . وهنا يبلغ هذا الفصل الذروة .

الفصل الثالث : العصر الواقعي : نابليون الثالث ، جلادستون . دزرائيلي ، بسمارك ، كافور ، طرق السكك الحديدية والمائية ، ديكزنوثاكري . تينسون وبراوننج ، جورج إليوت وآل بروتي ، وفوق ذلك كله دارون وسبنسر ، هكسلي وتندال والحرب مع الأساقفة ، رينان ، فلوپير ، زولا . دي موباسان ، سان بييف وتين ، كورو وميليه ، لينباخ وكونستابل ، لست وفاجنر ، جوجول وهرزن ، باكونين ولاسال ، ماركس وإنجلز ، الدولية (الأنترناسيونال) ، مازيني ، جاريبالدي ، تحرير إيطاليا ، الحرب الفرنسية الألمانية ، سيدان والهزيمة ، الجمهورية الثالثة ومجلس الشعب Commune وقوع ١٠.٠٠٠ عامل صرعى بالرصاص في شوارع باريس .

الفصل الرابع : العصر الإمبريالي : الاختراعات - الكهرباء ، التليفون . التلغراف ، الأسلاك ، اللاسلكي ، الصلب ، أشعة إكس ، باستير ، لستر . مندل ، الصناعات الكبيرة ، الثقافات ، الاتحادات ، الغزو الأوروبي لآسيا .

الاستعمار ، المنافسة البحرية ، الحيوش المسلحة ، جامبنا ، سيزان ، فان جوخ .
 أناطول فرانس ديبوسى ، ماترلنك ، روسيتى ، هولمان هنت ، برن جونس ،
 سوينبرن ، أرنولد ، وايلد ، هاردى ، شو ، دستوفسكى ، تورجينيف ،
 تولستوى ، جوركى ، كروبتكين ، مسورجسكى ، تشايكوفسكى ، رمسكى
 كورساكوف ، جريج ، بيجسورنسون ، إبسن ، فردى ، براخمس ،
 نيتشه ، براندس ، لوازى Loisy والمحددون ، ليو الثامن عشر وساره برنارد ،
 هوبمان ودانزىو ، جراى والقيصر ، بوانكاريه وإسفولسكى ، الأرشديوك ،
 سيراغيفو ، ١٩١٤ ، الجنون والاحتراق . آه ، لو اجتمع هذا كله فى حكاية
 واحدة ، وصورة واحدة — هذه القوضى الكبرى المعقدة العجيبة لحياة أوروبا
 فى القرن التاسع عشر . »

آريل : « فلنفعل ذلك ، وسأقوم بالكتابة عن السيدات . متى نبدأ ؟ » .
 فقال فيليب : « غداً » .

ثم أضافت آريل : « ولكنَّ ثمة أمراً واحداً يجعلنى غير راضية عن رؤيتنا
 لخالدين الليلة . فإنهم لم يخبرونا أبوجد تقدم فى التاريخ ، وهل يمكننا التنبؤ
 بالمستقبل . »

فقال فيليب : « حسناً ، لعلنا نلتقى بهم مرة أخرى » .

الفصل الخامس عشر

هل التقدم وهم؟

١ — التقدم في شبابه

لم يخلف لنا الإغريق الذين يبدو أنهم مع سحر الزمن البعيد قد تقدموا أسرع من أى شعب آخر في التاريخ أى مناقشة عن التقدم في سائر ألوان كتاباتهم المتعددة . وثمة فقرة بديعة في رواية أسخيلوس Aeschylus ^(١) المسماة : (برومثيوس ، ٤٥١ — ٥١٥) نخبرنا فيها برومثيوس عن كشفه النار وكيف أدى ذلك إلى حضارة البشر ، ويقدم لنا في خمسين بيتاً من الشعر خلاصة مراحل التقدم الثقافي ، قد تعدها بعض الولايات الأمريكية مسرفة في عصريتها . وثمة إشارة عابرة إلى التقدم عند أوربيدس (المتوسلات Supplices ، ٢٠١ — ٢١٨) . غير أننا لا نجد أى ذكر لهذه الفكرة عند زينوفون صاحب سقراط ، ولا عند أفلاطون . أما نزعة أرسطو المحافظة الباردة فإنها تخرج ضمناً هذه الفكرة عن نطاق فلسفته . ذلك أن الإغريق كانوا يتصورون التاريخ في أغلب الأمر كالحلقة المفرغة ، يتكرر ويعيد نفسه ، وليس ما انتهى إليه أرسطو من أن جميع الفنون والعلوم قد اخترعت وفقدت « عدداً لا يحصى من المرات » إلا توقيعاً على قيثارة الرأي القديم عن الموضوع منذ طاليس حتى مرقص أوريليوس . ونصح الرواقيون الناس ألا يتوقعوا من المستقبل شيئاً . بل لقد انغمس الأبيقوريون في ملذاتهم في كتابة ، ويبدو أنهم أحسوا ، مثل برادلي ، بأن : « هذا العالم أفضل العوالم الممكنة ، وكل شئ فيه هو شر ضرورى » ^(٢)

(١) أسخيلوس (٥٢٥ — ٤٥٦) مؤسس الدراما الإغريقية ، ألف روايات كثيرة لم تبز منها إلا سبع عشرة (المترجم) .

(٢) Appearance and Reality, p. XIV.

وأعلن هيجسياس Hegesias القورينائي أن الحياة لا قيمة لها ، ونصح بالانتحار ؛ ومع ذلك فلا ريب أنه عاش عمر شوبنهاور^(١) .

وأصبح من المتوقع أن يسود مذهب التشاؤم مدينة مثل أثينا فقدت حريتها ، ولكن هذا اليأس ذاته يتردد في الرسائل اللاتينية في كل مرحلة من مراحل التاريخ الروماني . فيتحدث لوكريتيوس عن قوم يتقدمون خطوة خطوة *pederentim* و *progredientes* ومع ذلك فإنه يجيب عن سؤالنا الذى وضعناه على رأس هذا الفصل إجابة شديدة الاختصار قائلا : « جميع الأشياء هى دائماً *eadem omnia semper* » . أيمكن إذا عاد الشاعر والفيلسوف العظيم إلى الحياة مرة أخرى أن يستعمل اللفظة نفسها فى وصف حضارتنا المعاصرة ؟ لا ريب أنه يتأثر بالتضاعف الهائل لميكانيكياتنا وآلاتنا المسخرة لتحقيق كل رغبة . ولكنه فى أكبر الظن سيسأل بأسلوبه القاتم ، أيكون الرجال والنساء الذين يستخدمون هذه الآلات البديعة أرق حالا عقلياً وجسمياً وخلقياً من أولئك الأسلاف التعساء الذين كان عليهم أن يمشوا على أقدامهم . ولعله يسره أن يعلم بأن زوجة شابة قد قتلت زوجها ببديعة النافذة ، وسوف ينتهى إلى التسليم بأن الإنسانية قد اجتازت قروناً كثيرة لتكشف عن فائدة هذه الحوادث البديعة فى هذا الصدد . ومع ذلك فسوف يقترح بلا نزاع أن هذا الأمر خلاف على الوسائل لا الأغراض — وأن مهمة قتل الأزواج صناعة قديمة جداً . فكلمها تغيرت الصور فالأمر واحد . وما الأمر لو كان تقدمنا كله تحسباً فى الأساليب لا فى الأغراض ؟

أما رأى عند غير لوكريتيوس من الرومان فهو أسوأ ؛ فهم لا يشكون فى المستقبل وحسب ، بل يمتدحون الماضى . كان هوراس يمتدح أعمال القدماء ؛ ونعى تاسيتوس وجوفينال على فساد عصرهما ؛ وعدل فرجيل عن الأخيلة اللطيفة التى كان يمتاز بها الأدب اللاتينى إلى أسلوبه الغنائى يصور به المنظر القاتم للتكرار الأزلى ، وهو دورة دائمة وتكرار لا هدف له للأحداث المتشابهة . وفى ذلك يقول :

(١) عاش شوبنهاور من سنة ١٧٨٨ إلى ١٨٦٠ أى ٧٢ عاماً (المترجم) .

سيعود تيفيس Tiphys آخر (نبي قديم) وآرجو^(١) Argo أخرى يحملان الأبطال المحبوبين . وستقع حروب أخرى ، وسيذهب أخيل العظيم مرة ثانية إلى طروادة^(٢) . وستظل ساعة الزمان تدور وتصب الماضي الثابت في حاضر جديد فارغ ووهي . فلا جديد تحت الشمس ، وكل شيء باطل وقبض ريج . وهذا مرقص أوريليوس ، بعد أن كاد يتم أسمي الحياة الإنسانية ، أى اجتماع السياسى والفيلسوف في شخص واحد ، يكتب قائلا :

« تهيم النفس العاقلة حول العالم كله وخلال الفضاء المحيط ، وتخلق إلى اللانهاية ، وتتأمل أنواع فساد الكون وميلاده من جديد ، فترى أن ازدهارنا لن يكون جديداً ، وأن أجدادنا لم يروا شيئاً أعظم مما قد رأيناه . ويمكن أن نقول إن الرجل في الأربعين من العمر إذا كان على قدر متوسط من الذكاء ، فقد رأى كل ما مضى وكل ما سيكون . فما أشد ما يجرى العالم على نسق واحد »^(٣)

فما أسباب عداوة الإغريق أو نفورهم من فكرة التقدم ؟ أذلك يرجع ، كما يظن الأستاذ بيرى ، لقصر تجربتهم التاريخية ، وهذا القصر نفسه هو السرعة التي بلغت فيها حضارتهم الأوج ثم ذبلت مرة ثانية ؟ أم أن ذلك يرجع إلى فقرهم النسبي في المدونات المكتوبة عن الماضي ، وما يترتب على ذلك من غياب النظرة الكلية التي كان يمكن أن تجعلهم يتحققون من مقدار تقدمهم ؟ فقد كان لهم أيضاً عصر وسيط ، وقد ارتقوا خلال ألف عام من البربرية إلى الفلسفة ؛ ولكن الكتابة لم تتدرج من تقيد (بوالص) الشحن إلى تسجيل ألوان الأدب إلا عند نهاية ذلك التدرج . فقد كانت رقائق الجلود Parchement^(٤) من الغلاء

(١) تحكى الأساطير اليونانية أن بلياس بن بوزيدون اغتصب عرش إيسون من أعمال تساليا فأخفى أصدقاء إيسون ابنه جيسون في الغابات حتى شب وأصبح قوياً بطلا ، ثم طالب بملك أبيه . وأقنعه بلياس بأن يأتي عملا من أعمال البطولة ، حتى يستحق العرش . فابتلى لذلك السفينة أرجو ، ومعناها السريعة ، وصحب معه من الأبطال هرقل وهيلاس وأورفيوس وغيرهم (المترجم) .

(٢) Fourth Eclogue, quoted by Bury, J.B., The Idea of Progress, p. 12.

(٣) Bury, p. 13.

(٤) البرشمان نسبة إلى مدينة برجام Pergame اليونانية حيث أنشئ فيها أول مصنع لدبغ جلود الأغنام الخاصة بالكتابة (المترجم) .

بحيث يصعب التفريط فيها بكتابة التاريخ المخرد . أو أن ذلك يرجع ، نعى هذا الإغفال للتقدم ، إلى النمو المقيد للصناعة الإغريقية ، وإخفاق الإغريق فى التقدم المحسوس عن فنون الكريتين الصناعية ، أو فى الإنتاج الكمى لوسائل الراحة للمادية ، وهى أساس الاعتقاد الحديث فى التقدم ؟

وإذا نظرنا إلى العصر الوسيط وجدنا أن الفقر المائل فى ألوان الترف هو الذى وقف فكرة التقدم ، على حين أن الأمل فى الآخرة أصبح محور الحياة . ويبدو أن الاعتقاد فى عالم آخر يتغير مباشرة مع الفقر فى هذا العالم ، وهو اعتقاد يحصل فى الفرد غالباً ، وفى الجماعة دائماً . فعندما تنمو الثروة تبتعد الآخرة عن مركز الاهتمام ، وتصبح فكرة ضئيلة لا معنى لها . ومع ذلك فقد سيطرت فكرة الآخرة ألف عام على عقول البشر .

ثم جاءت الثروة لغرب أوروبا تحمل معها « النهضة » و « الثورة الصناعية » ، وكلما تضاعفت استبدلت بالأمل فى الآخرة فنة التقدم . وقد جعل ذلك الحادث العظيم الفريد فى التاريخ الحديث — نعى الكشف الكوبرنيق لعدم أهمية الأرض من الناحية الفلكية — كثيراً من النفوس الرقيقة غير سعيدة . ولكن هذا الحادث الذى رد السماء الآخرة إلى مجرد سماء وفضاء أرغم روح الإنسان المزنة على تكوين إيمان فى جنة أرضية يعوض بها لنفسه عما فقدته . وكتب كامبانيا ، ومور ، وبيكون مدناً فاضلة ، وأعلنوا اقتراب السعادة الكلية . وأخذت أوروبا المحدثثة الثراء تستورد ألوان الترف ، وتصدر الزهاد والقديسين . وصنعت التجارة المدن ، وشيدت المدن الجامعات ، وخرجت الجامعات العلم ، وأنتج العلم الصناعة ، وأفضت الصناعة إلى التقدم . وكتب جارجانتوا إلى بانتاجرويل ^(١) يقول : « جميع العالم مملوء بالعلماء ، والمدرسين المتعلمين ، والمكتبات الواسعة » . ويقول بيير دى لاراميه ^(٢) Pierre de la Ramée : « فى قرن واحد — أى من ١٤٥٠ إلى ١٥٥٠ — شهدنا تقدماً فى الناس والمؤلفات أعظم مما شهده أجدادنا خلال

(١) جارجانتوا Gargantua وبانتاجرويل Pantagruel ، قصة كتبها رابليه عام ١٥٣٢ ، تصور فيها أن جارجانتوا يكتب إلى ابنه بانتاجرويل عن العلوم التى يجب عليه أن يتعلمها (المترجم) .

(٢) ١٥١٥ - ١٥٧٢ .

القرن الأربعة عشر السابقة جميعاً . ولهذا الكلام وقع تهكمى معاصر ؛ إذ أى قرن لم يضع فوق هامته إكليلاً عظيماً من هذا النوع ؟ ولكن مثل هذه الثمنة بالنفس كانت النعمة الأساسية فى عصر النهضة : فنحن نسمعها فى سطر من كتب فرانسيس بيكون تعزف على وتر الأوربيين الحساس ضد الروح الأسبوى . ومن الواضح أن فكرة التقدم تمثل بالنسبة إلى الحضارة الصناعية والدينىة ما كانت تمثله فكرة الأمل فى الآخرة بالنسبة للعالم المسيحى فى العصر الوسيط . إن أعز معتقدات المفكر الحديث ، وهى على رأس سائر الفلاسفة الاجتماعية عندنا ، هى الاعتقاد فى التقدم والديمقراطية . ولو اضطررنا إلى هجر كلتا هاتين الفكرتين لتعربنا فكراً وتخلفنا فى سخرية وراء أى جيل فى التاريخ .

٢ — التقدم فى أوجه

لقيت فكرة التقدم أول تعبير محدود فى ذلك التفاؤل القوى الذى ساد فى القرن الثامن عشر . وشذ روسو عن الركب ، وفضل متوحشى أمريكا الذين لم تقع عينه عليهم ، على الباريسيين القساة الذين أرققوا أعصابه . وظن أن التفكير ضرب من الانحلال ، وبشر بعصر ذهبي سالف يردد صدى جننة الفردوس وخطيئة الإنسان . حتى إذا أقبلنا على فولتير المندفع الجريء استنشقنا أول نسمة من الهواء المنعش لعصر التنوير Enlightenment . ولم يتوهم « سيد العقل العظيم » أى أوهام باطلة عن الهنود ، إذ كان يعلم أن الإنسان أفضل فى ظل الحضارة منه فى حياة التوحش . وكان معترفاً بفضل الاستثناس البطيء والناقص للوحش البشرى ، وآثر باريس على جنة الفردوس .

أما تلميذه تيرجو وكوندورسيه فهما اللذان جعلوا فكرة التقدم الروح المحرك للعصور الحديثة . وفى عام ١٧٩٣ كان ينجى نبيلى فرنسى اسمه كوندورسيه (أو إن شئت الحق ، مارى جان انتوان نيقولاس كارينات ، ماركيز دى كوندورسيه) من المقصلة (الخيلوتين) فى فندق (بنسيون) صغير فى ضواحي باريس . ذلك أن روبسبير الزيه المتعصب الدائم لمذهب روسو دعاه إلى التسليم كى يتخلص منه ، لأنه كان قد صوت ضد الحكم على الملك ، مثل توم بين Tom Paine . وهناك فى حجرة منعزلة ، بعيداً عن أى صديق ،

وبغير أى كتاب يستعين به . وفى مركز كان يمكن أن يدفع المرء إلى نظم أنشودة فى التشاؤم واليأس ، كتب كوندورسيه أعظم كتاب يمتاز بالتفاؤل دبحته يد إنسان ، وهو الكتاب المشهور فى التأليف الخاصة بالتقدم واسمه : تخطيط لصورة عن تقدم العقل البشرى *Esquisse d'un tableau des progrès de l'esprit humain* فلما فرغ كوندورسيه من كتابة هذه الرسالة العلوية العظيمة عن المستقبل المجيد للبشرية ، هرب من باريس إلى فندق بعيد فى الريف ، وهناك ألقى بحجمه المتعب فوق السرير ، وهو يظن نفسه آمناً ، واستغرق فى النوم . واستيقظ ليجد نفسه محوطة برجال « الحنطرة » الذين قبضوا عليه باسم القانون . وفى صباح اليوم التالى وجدوه ميتاً على أرض الزرانة فى سجن القرية ، ذلك أنه كان يحمل معه دائماً قنبلة من السم ليقادى المقصلة .

ويكنى أن تقرأ كتابه كى تتحقق أى جبل بعيد عن الوهم ، زاخر بالشك ، نعيش فيه . فهو لما رجل فقد - كما هو واضح - كل شىء ، وضحي بالمرلة والمنصب والمال فى سبيل « الثورة » ، ثم أصبح فى تلك اللحظة مطارداً حتى الموت من أجلاف أسكرتهم القوة ، وقد كتب عليه أن يتحمل بمرارة رؤية الثورة وهى أمل العالم تنتهى إلى الفوضى والإرهاب . ومع هذا كله فإن كتابه يمثل نهاية ما يبلغه أمل إنسان فى الإنسانية ، فلم يؤمن الناس هذا الإيمان بالإنسانية من قبل ، ولعلمهم لن يؤمنوا بها مثل هذا الإيمان من بعد . انظر مثلاً إلى البلاغة التى يكتب بها كوندورسيه عن موضوع الطباعة . إنه على يقين أنها السبيل إلى خلاص البشر وتحرير الإنسان . ولكن لم يخطر بباله ظهور الصحافة المثيرة . وهو فى ذلك يقول : « لقد ربطت الطبيعة برباط لا فكاك فيه بين نمو المعرفة ، وتقدم الحرية والفضيلة ، واحترام حقوق الإنسان الطبيعية » ^(١) ويقول فى موضع آخر إن الازدهار : « سيفتح الطريق أمام الناس للإنسانية والإحسان والعدل » . ثم يعلن بعد ذلك مذهباً من أشهر مذاهب عصر التنوير وأعظمه دلالة عليه فيقول : « لا توجد حدود ثابتة لتقدم الملكات الإنسانية ، لأن قبول الإنسان للكمال لا حده على الإطلاق ، ولذلك فإن تقدم هذا الكمال وهو أعلى

من أى قوة تعوقه ليس له حد آخر خلاف الزمن الذى تزول فيه الكرة الأرضية التى أسكنتنا الطبيعة على ظهرها » (١) .

ثم يرسم فى الختام صورة مغرية عن المستقبل ، وهو يقصد بها التعبير عن العصر الذى نعيش فيه . فكلما انتشرت المعرفة تناقصت العبودية سواء بين الطبقات أم بين الأمم . « ثم يأتى زمان لا تشرق الشمس فيه إلا على الأمم الحرة وحدها ، تلك التى لا تعترف بسيد آخر خلاف عقلها ، ولن يوجد فيها ظنة أو عيب ، ولا كهنة وتوابعهم الأغبياء المنافقون ، اللهم إلا فى صفحة التاريخ وعلى خشبة المسرح » (٢) . سيضاعف العلم مدى سعة الحياة الإنسانية مثلى وثلاثاً ، فتحرر المرأة من سلطان الرجل ، والعامل من سيطرة صاحب العمل ، والرعية من حكم الملك . ومن يدري لعل البشرية تنسى الحرب . ثم يختم كلامه متحمساً :

« ما أبدع ما نسقت هذه النظرة إلى الجنس البشرى تنسيقاً يعزى الفيلسوف الذى يندب الأخطاء وأعمال الظلم الفاضحة والجرائم التى لا تزال الأرض تتدلس بها . إن تأمله لهذه الصورة مكافأة له عن جميع الجهود التى يبذلها فى العون على تقدم العقل وإرساء قواعد الحرية . ويحق له أن يعد هذه الجهود جزءاً من سلسلة القدر الأزلية التى تجرى فيها البشرية . وهو يرى فى هذا الإقناع البهاء الصحيح للفضيلة ، ولذة تحقيق مهمة باقية لن تفسدها صروف الزمان . . . هذا الشور هو المآل الذى يطوى نفسه عليه ، ولا تستطيع ذكرى من يضطهدونه أن تابعه إليه . إنه يجمع نفسه فى الخيال بمن استعاد حقوقه ، وتخلص من الاستبداد ، وسار بخطى سريعة فى طريق السعادة . إنه ينسى خطوبه ذاتها . . . فلا يعيش بعد فى الضيق والسعاية والحقد ، بل يصبح مرتبطاً بهذه الكائنات الأحكم والأسعد حظاً ؛ تلك التى ساهم بشغف شديد فى خلق ظروفها المرموقة » .

ألا ما أسنى هذا التفاؤل ، وما أشجع هذه المثالية ، وما أعمق هذه العاطفة نحو البشرية . ترى أيهما أحق منا بالازدراء : حماسة كوندورسييه الساذجة ، أم الإحجام الفكرى فى عصرنا الذى أصبح بعد تحقيق كثير من أحلامه لم يعد يجرؤ على الاضطلاع بما تبقى منها ؟

(١) المرجع السابق ص ٩ . (٢) المرجع السابق ص ٢١٦ .

وتقوم خلف هذه الفلسفة الزاهية الثورة التجارية والثورة الصناعية ، حيث نجد عجائب جديدة تسمى الآلات القادرة على إنتاج الضروريات وبعض أدوات الترف في الحياة بسرعة لم يسبق لها مثال ، وبكميات لم تكن تخطر بالبال . ولن يطول انتظار الناس إلا ريثما تصنع جميع الحاجيات المطلوبة حتى يتبدد الفقر . وظن بنتام ومل^(١) الأكبر ، حول عام ١٨٣٠ ، أنه في استطاعة إنجلترا في ذلك الوقت القيام بالتعليم العام لجميع السكان ، فلا يكاد القرن يشرف على النهاية حتى يحل التعليم العام جميع المشكلات الاجتماعية . وتصور كومت جميع التاريخ كتطور في ثلاث مراحل تبدأ من المرحلة الدينية إلى الميتافيزيقية وتنتهى بالعلم . وبعث كتاب باكل « تاريخ الحضارة » (١٨٥٧) الأمل في أن يقضى انتشار المعرفة على جميع الشرور . وتكلم دارون بعد ذلك بعامرين قائلاً : لقد اصطبغ العقل الحديث بصبغة النظر في أمور الدنيا اصطباعاً شديداً ، ولم تحتل فكرة « طوبيا » مقبلة مكان جحيم دانتي فقط ، بل حلم روسو في العودة إلى الماضي الذهبي . ووجد سبنسر بين التقدم والتطور ، وعدهما شيئاً لا مناص منه . وفي أثناء ذلك تدفقت الاختراعات الصادرة عن ذوى العقول اليقظة ، فنمت الثروات بشكل واضح ، وخيل إلى الناس أنه لا يوجد صعب أو مستحيل أمام العلم الذى تحرر في النهاية من القيود الدينية . لقد تأمل الناس في النجوم وعرفوا أسرارها ، وقبلوا في شجاعة تحدى الطيور الأرنى في طيرانها . فماذا عجز الإنسان عن فعله ؟ وماذا لم نتوقعه منه في تلك الأيام الحالية من الشك قبل الحرب ؟

٣ — الدعوى ضد التقدم

ومع ذلك فقد ارتفعت أصوات تتساءل عن حقيقة التقدم أو قيمته ، حتى في نغمات تلك الثروة الهائلة ، والقوة النامية ، والسرعة المتزايدة ، مما تميزت به حضارة الغرب . ولقد قال مكيافللى وهو في أوج ازدهار عصر النهضة : « كان عالم الإنسان في جميع العصور واحداً ، يختلف حقيقة من أرض إلى أخرى ،

(١) جيمس مل Mill ولد ١٧٧٣ وتوفى ١٨٣٦ ، وابنه جون ستوارت مل ولد ١٨٠٦ وتوفى ١٨٧٣ ، والاثنان أشهر ، وله مؤلفات في المنطق وفي مذهب المنفعة (المترجم) .

ولكنه يقدم على الدوام المظهر نفسه عن بعض المجتمعات المتدرجة نحو الازدهار وبعض المجتمعات الأخرى المنحدرة إلى الانحلال»^(١). وصور فونتنل Fontenelle في كتابه : « محاورات عن الموتى » (١٦٨٣) سقراط ومونتيي يتناقشان في مسألة التقدم ، وذلك في الجحيم فيما يظهر وهو مصير جميع الفلاسفة . وكان سقراط في شغف إلى سماع ما حققته البشرية من تقدم منذ أن تجرع السم القاتل . ولكنه حزن حين علم أن الناس لا يزالون في الأغلب متوحشين . وأكد له مونتيي أن العالم قد فسد ، فلم يعد هناك هذا الطراز القوي من الناس مثل بركليس ، وأرستيدس^(٢) وسقراط نفسه . فهز الفيلسوف الشيخ كتفيه وقال : « كنا في زماننا نبجل أجدادنا أكثر مما يستحقون ، واليوم بقدرنا الخلف أكثر مما نستحق . الحق ليس ثمة فارق بين أجدادنا وبين أنفسنا وبين خلفنا » . وعندئذ لخص فونتنل الموضوع تلخيصاً قوياً في هذه الكلمات : « القلب هو هو على الدوام » ، والعقل يسعى إلى الكمال ، العواطف والفضائل والردائل لا تتغير ، والمعرفة أبداً في ازدياد »^(٣) .

ولقد قال إيكerman Eckermann^(٤) : « يبدو أن نمو الإنسانية أمر يرجع إلى آلاف السنين » فأجابه جيته : « من يدري ؟ لعله يرجع إلى ملايين » . ولكن دع الإنسانية ما شاءت أن تدوم ، فسيكون هناك على الدوام عقبات في طريقها ، وكذلك جميع أنواع الكوارث ، حتى تنمى قواها . سيصبح الناس أعظم مهارة وأوفر ذكاء ، ولكنهم لن يكونوا أفضل ، أو أسعد ، أو أعظم أثراً في العمل ، على الأقل لفترة محدودة . إنى لألمح زماناً مقبلاً لا يعنى الله فيه بالجنس البشرى ، ويرى من اللازم أن يعيد الخلق ثانياً^(٥) . وقال شوبنهاور : « يجب أن يكون شعار التاريخ : ليس « هذا أو ذاك » eadem, sed aliter —

(١) انظر Bruy المرجع السابق ، ص ٣١ .

(٢) أرستيدس Aristedes سياسى أثينى ، وقائد حربى عاش من ٥٣٠ إلى ٤٨٠ ق.م . وكان يسمى العادل (المترجم) .

(٣) Nordau, Interpretation of History, p. 286 ; Bury, p. 99

(٤) يوحنا بطرس إيكerman (١٧٩٢ - ١٨٥٤) كان صديقاً لجيته ومساعداً له ، وهو الذى أعانه في نشر مؤلفاته للنشرة الأخيرة . وله كتاب بعنوان « محادثات مع جيته » في ثلاثة أجزاء . يعد سمبلاً لأحدث جيته اليومية مع إيكerman .

(٥) Bury, p. 259.

وهى القضية ذاتها مع بعض الخلاف . وقال نيتشه : إن الإنسانية لا تتقدم ، وأكثر من ذلك أنها لا توجد ؛ أو هى عبارة عن معمل فسيولوجى شاسع تجرى فيه الطبيعة التى لا تحفل بشيء تجاربها ، فتنتج بعض الأشياء فى كل عصر ، ولكن معظم الأشياء تفشل . هذه هى النتيجة التى تنتهى إليها الرومانتيكية الألمانية .

وكان دزرائيلى من أوائل الذين أحسوا بالفرق بين التقدم الطبيعى والأخلاقي ، بين ازدياد القوة وبين تحسين الأغراض . وفى ذلك ينقل عنه دين إنج : « يتحدث الأوربى عن التقدم لأنه استطاع بمعونة بعض الاكتشافات القليلة أن يقيم مجتمعاً يحسب خطأ أن الراحة هى الحضارة » (١) . ويقول دزرائيلى : « ليست أوربا المستنيرة سعيدة ، فحياتها حى تسميها تقدماً . . . تقدماً إلى أى شىء ؟ » (٢) . وتساءل رسكن (٣) ، وهو من أغنياء القوم ، عن التوحيد بين التقدم والثروة فقال : أهؤلاء الأغنياء من أصحاب محلات الأحذية والسفن نماذج للإنسانية أفضل من نماذج جونسون أو شكسبير أو شوسر ؟ لقد اعترف كارليل وتولستوى بالتقدم الهائل فى وسائل الإنسان لتحقيق أغراضه . ولكن أى نفع لهذه القوى التى لم يسبق لها مثيل ما دامت قاصرة على مضاعفة قدرة الناس على تحقيق أغراض تبلغ من التناقض والغباء والضرر الذى يبلغ حد الانتحار ما لم تبلغه قط من قبل .

لقد ذهب السير أرثر بلفور حول عام ١٨٩٠ ، وبطريقته الفكهة والهادمة ، إلى أن سلوك الإنسان ونظم المجتمع لا تقوم على الفكر الذى يتقدم ، بل على الشعور والغريزة الثابتين ثباتاً يكاد ألا يصيبهما أى تغيير منذ آلاف السنين ، ولن تتغيرا بعد آلاف السنين . وفى هذا كما كان يعتقد سرفشلنا فى تحويل معرفتنا النامية إلى سعادة أعظم أو سلام أدام . بل إن ازدياد المعرفة

(١) Dean Inge, p. 179.

(٢) تنكريت Tancred ، الكتاب الثالث ، الفصل السابع - (تنكريت قصة كتبها دزرائيلى عام ١٨٤٧ ، حيث يتصور فيها تنكريت يهجر المجتمع فى لندن ويرحل إلى الشرق ، وفى البلاد المقدسة تحدث له تجربة صوتية تؤدى إلى إحياء الغرب - المترجم) .

(٣) جون رسكن (١٨١٩ - ١٩٠٠) مصور وأديب إنجليزى كان أبوه من أغنياء تجار الخمر فى لندن (المترجم) .

قد يكون علة من علل التشاؤم السائد في زماننا . وقد جاء في سفر الجامعة من كلامه : « الذى يزيد علماً يزيد حزناً » (١) . ويؤيده خليفته الحديث أناتول فرانس (إذا أخذنا بما يقوله السكرتيرون) : « الإنسان أشقى مخلوق على ظهر الأرض . ولقد قيل إن الإنسان سيد المخلوقات ؛ كلا يا صديقي ، الإنسان هو سيد العذاب » (٢)

وقد أدى النقد الاشتراكي للصناعة الحديثة إلى فساد إيماننا بالتقدم بعض الفساد ، ذلك أن السعى إلى حمل الناس على تبين مظالم الزمن الحاضر قد اصطبغ بصبغة تمجيد قناعة الماضي وما امتاز به من هدوء . فهذا رسكن ، وكارليل ، وموريس ، وكروبتكين قد رسموا للعصر الوسيط من الصور ما يجعل المرء يشاق إلى أن يصبح عبداً مرتبطاً بالأرض وتابعاً لسيد يضاف إلى ميله وزوجه . وفي أثناء ذلك كان نقد الأحرار للسياسة الحديثة يكشف عن الفساد والعجز في كل ناحية من نواحي الحياة تقريباً فيدفعنا إلى الشك في قدسية الديمقراطية التي ظلت قرناً من الزمان أقدس معبود لنا . ذلك أن تقدم الطباعة وسرعة انتشارها أدى فيما يبدو إلى الخط من قدر الممتازين من المفكرين أكثر من رفع المغمورين وانتصرت التفاهة mediocrity في السياسة والدين والأدب بل وفي العلم . وأصبحت الأثر وبولوجيا عند أهل الشمال وإرادة الاعتقاد في الفلسفة تنافسان علم التناسليات في الزرائب وعلم النفس التماسوى ؛ وحلت الصحافة محل الأدب ، واتخذ « فن » الصور المتحركة الدراما ، ودفع التصوير الشمسي التصوير الزيتي من الواقعية إلى التكعيبية ، إلى المستقبلية Futurism (٣) ، إلى النقطة (١) Pointillisme ، إلى غير ذلك من الانحرافات الحنونية . وأخذ النحت عند رودين يتوقف عن الحفر ليتبع النقش ، وفي القرن العشرين أخذت الموسيقى تنافس آنية الصينيين الدقيقة ومراوحهم .

(١) سفر الجامعة ابن داود - انظر ١ - ١٨ (المترجم) .

(٢) Brousson, p. 61.

(٣) المستقبلية futurism حركة في الفن ظهرت بإيطاليا بعد الحرب الأولى ، وهي نزعة متطورة عن التكعيبية Cubism ، تعتمد على بعدين فقط في الرسم (المترجم) .

(٤) النقطة مذهب ابتدعه الرسام جورج سيورات الفرنسي في القرن التاسع عشر ، وكان يرسم على القماش (الكانفاس) (المترجم) .

ويرجع تزعر إيمان هذا القرن في التقدم إلى انحدار الفن ونشوب الحرب ؛ ذلك أن انتشار الصناعة والخلال الأرستقراطية تعاونا على إفساد الأسلوب الفني Artistic form . فعندما تفوقت الآلة على الصانع اليدوي ذهبت المهارة معه ، وعندما اضطرت الآلات إلى البحث عن أسواق واسعة لما تنتجه من سلع ، ولأمت بين منتجاتها وبين حاجات الأغلبية من الناس وأذواقهم ، حلت النماذج الموحدة والكمية والشعبية محل النماذج البديعة والجمال . ولو أن الأرستقراطية بقيت منبعاً للأحكام الجمالية التي يتخذها سواد الناس ، فقد يمكن أن نفهم اتخاذ الصناعة والفن طريقاً للعيش في سلام . ولكن كان على الديمقراطية أن تدفع ثمن السيادة الشعبية في الفن والسياسة على السواء . فأصبح ذوق الملايين من أوساط الناس مرشد الصانع ، ومؤلف التمثيليات ، وكاتب السيناريو ، والقصصى ، وأخيراً المصور والنحات ومهندس البناء . وأضحى الثمن والحجم معيار القيمة ، وحلت محل الجمال والصناعة الدقيقة بدع جديدة عجيبة كغاية للفن . وبعد أن فقد الفنانون الباعث إلى ذوق أرستقراطي تكوّن على مرّ الأجيال من ثقافة ممتازة ، لم يحتفلوا بالتماس كمال التصور والتنفيذ ، بل أخذوا يهدفون إلى تحقيق تأثير مذهش يمكن أن يقال عنه بلا ريب إنه أصيل . وأصبح التصوير مَرَضِيّاً ، وتوقف البناء عن نموه البديع إزاء الاضطرار إلى تشييد الأبنية لبضع سنين لا لعدة قرون ، وهبطت الموسيقى إلى مستوى الأماكُن المحتشدة بالناس وإلى المصانع تحاول إيجاد ألحان تلائم هذه المجتمعات العصبية المؤلفة من الجزائين المثقفين ، والخدامات المتحررات . وانحط النحت على الرغم من التخفف من الثياب ، والحصول على آلاف الدروس في التشريح من المسارح . ولولا شيوع السيارات ووسائل التجميل لكان القرن العشرون فيما يبدو بشيراً بانطفاء شعلة الفن انطفاء تاماً .

ثم جاء « الجنون الأكبر » Great Madness ، واكتشف الناس كم كان رداء الحضارة رقيقاً ، وإلى أي حد كان أمنهم قلقاً ، وحرّيتهم مزعزعة الأركان . لقد قلّ عدد الحروب ، ولكنها ازدادت انتشاراً . أما العلم الذي كان عليه أن يكون سبيل التقدم ، فقد أصبح ملك الموت الذي بلغ من سرعة إصابته مقاتل الناس ما يجعل معارك العصر الوسيط أشبه بمباريات المدارس الرياضية . وألقى

الطيارون البواسل القنابل على النساء والأطفال . وشرح علماء الكيمياء فضائل الغازات السامة . وتبددت جميع الصداقات الدولية التي قامت خلال قرن نقل المترجمون فيه الآداب ، وتعاون العلماء ، وتوثقت الصلات التجارية ، وتداخلت العلاقات المالية . ثم انعزلت أوروبا إلى مئات من القوميات المتعادية . فلما وضعت الحرب أوزارها انضح أن الغالب والمغلوب قد فقدوا الأشياء التي تحاربوا من أجلها ، وأن الإمبريالية imperialism الجشع انتقل من بوتسدام إلى باريس : وأن الدكتاتوريات العنيفة أخذت تحل محل الحكم المنظم والدستورى ، وأن الديمقراطية آخذة في الانتشار والموت . وتبدد الأمل ، لأن الجيل الذى عاش خلال الحرب لم يعد يعتقد فى أى شىء . وطمغت موجة من الاستخفاف والاستهزاء على جميع الناس ما عدا قلة قليلة من ذوى التجارب العميقة . واليوم أصبحت فكرة التقدم تبدو من أنفه الأفكار التى سخرت من شقاء الإنسان ، أو رفعت إلى مثالية باطلة وخيافة عظيمة .

٤ — اعتبارات صغيرة

قال فولتير : « إذا شئت أن تحاورنى فلتحدد ألفاظك . ماذا تعنى بـ « التقدم » ؟ اعلم أن التعريفات الشخصية لن تصالح ، فليس لنا أن نفهم التقدم فى اصطلاح أمة واحدة ، أو دين واحد ، أو قانون أخلاقى واحد . فلو قلنا مثلاً إن التقدم هو تزايد الشفقة Kindness فقد يزعج هذا أتباع فلسفة نيتشة الصغار . وليس لنا كذلك أن نعرف التقدم باصطلاحات السعادة ، لأن البلهاء أسعد من العباقرة ، وأولئك الذين نحترمهم أكثر من غيرهم ينشدون العظمة لا السعادة . أفيمكن أن نجد تعريفاً موضوعياً لهذا الاصطلاح ؟ — تعريفاً يصالح لأى فرد ، وأى جماعة ، بل وأى نوع ؟ فلنعرف التقدم مؤقتاً بأنه رقابة الحياة رقابة متزايدة على البيئة . ونعنى بالبيئة جميع الظروف التى تكون شروط تناسق الرغبات وتحقيقها . فالتقدم هو السيطرة على الفوضى بالعقل والغاية ، وعلى المادة بالصورة والإرادة .

وليس من الضرورى كى يكون الواقع واقعاً أن يكون متصلاً ، فقد توجد « هضبات » فى الواقع ، وعصور مظلمة ، وتراجع مخيب للأمال . ولكن إذا كانت المرحلة الأخيرة هى أسمى المراحل ، فلنا أن نقول إن الإنسان يتقدم .

هذا وينبغي أن نتجنب التفكير المبسّر عند تقدير العصور والدول ، فلا ينبغي الموازنة بين دول في عهد شبّانها وأخرى في زهرة نضوجها الثقافي ، ولا ينبغي كذلك أن نوازن بين أرذل الدول أو أفضالها في عصر ، وبين الممتازة أو المتأخرة في العصور السوالف . فإذا رأينا أن طراز العبقريّة السائد في الدول الناشئة كأمریکا وأستراليا يتجه إلى التنفيذ والارتياح والعلم أكثر من رسم الصور أو قرض الشعر ، ونحت التماثيل أو صوغ الألفاظ ، أدركنا من ذلك أن كل زمان ومكان يصبو إلى مزاج خاص من العبقريّة ويحتاج إليه أكثر من غيره من الأزمنة والبقاع ، وأن نوع الثقافة المطلوب لا يتم إلا حين يعبد القدماء له الطريق ويرفعون من سبيله العقبات . وإذا رأينا أن الحضارات تنشأ وتزول ، وأن الفناء مكتوب على جميع أعمال الإنسان ، فسوف نقر بأن الموت شيء لا فرار منه ، ونتعزى بأننا في أثناء حياتنا وحياة شعوبنا نرتفع قليلا قليلا إلى أعلى ، ونصبح أفضل بعض الشيء مما كنا عليه . وإذا رأينا أن الفلاسفة اليوم أدنى إلى الأقزام منهم إلى العالقة أيام أفلاطون عريض الأكثاف ، وسقراط قوى البنية ، وأن النحاتين أضال من دوناتيلو أو أنجلو ، وأن المصورين أقل في مستواهم من فلاسكويز ، وأن الشعراء والمؤلفين لا يذكرون إلى جانب شللي وباخ ، فليس لنا أن نياس ، لأن هذه النجوم لم تسطع كلها في ليلة واحدة . صفوة القول تنحصر المشكلة التي نبحثها في هذا الأمر وهو : هل ارتفع متوسط قدرة الإنسان بين الناس جميعاً بحيث يبلغ اليوم ذروته أو لم يرتفع ؟

الحق أننا إذا نظرنا نظرة شاملة ووازننا بين حياتنا الحديثة على الرغم مما فيها من نقص وفوضى ، وبين جهل البدائيين وما عندهم من خرافات وقسوة وتوحش وأمراض ، ارتاحت أنفسنا بعض الشيء . وإذا كانت الطبقات الدنيا من الجنس البشري اليوم قد لا تختلف إلا قليلا عن مثل أولئك الأقوام ، فيوجد فوق هذه الطبقة الدنيا آلاف وملايين بلغوا من السمو العقلي والخلق مبلغاً لا يمكن في أكبر الظن أن يتصوره عقل البدائي . قد نلوذ بالخيال أحياناً تحت ضغط الحياة المعقدة في المدينة فننعم ببساطة أيام التوحش الحادثة ، غير أننا حين نستيقظ من هذه اللحظات الرومانتيكية نعرف أن هذا الخرب رد فعل على أعمالنا الحاضرة ،

وأن هذا الشغف بالبربرية ككثير من آرائنا الناشئة إنما هو تعبير متعجل نشأ عن سوء الملاءمة لحياة الشباب ، وهو بعض الآلام المتخلقة في الوقت الحاضر عن نضوج الفرد . وبين البحث في مثل هذه القبائل المتوحشة التي تعيش الآن ارتفاع نسبة الوفيات بين أطفالهم ، ونقص متوسط أعمارهم ، وبطء سرعتهم ، وقصر قاتمهم ، وضعف إرادتهم ، وانتشار الأوبئة بينهم ^(١) . إن المتوحش المسالم صافي القلب ، وهو كالطبيعة لا تبتهج به إلا الحشرات والقاذورات .

ومع ذلك فقد يرد علينا المتوحش الحجة ويسأل كيف نستمتع بما عندنا من سياسة وحروب ، وهل نظن أنفسنا أسعد من القبائل التي يتردد صدى أسمائها العجيبة في كتب الأنثروبولوجيا . سيسلم المؤمن بالتقدم أننا قطعنا أشواطاً كثيرة في فن الحرب ، وأن ساستنا ، فيما عدا بعض الاستثناءات المزعجة ، لا بد أنهم يمجدون الساحة الرومانية Roman Form في أيام ميلون وكلوديوس - ولو أن مستر كوليدج Mr. Coolidge امتاز على نيرون امتيازاً محسوساً. أما السعادة فلا أحد يمكن أن يعرف عنها شيئاً ، فهي سراب خادع يحطمه البحث ولا يخضع للقياس . ومن المفروض أن السعادة تعتمد على الصحة أولاً ، وعلى الحب ثانياً ، وعلى الثروة ثالثاً . أما الثروة فقد قطعنا في التقدم بها شوطاً عظيماً يثقل على ضمير المفكرين . وأما الحب فنحاول التعويض عن فقدان أغواره بألوان من الابتكارات والتنويع لم يسبق لها مثيل . ثم إن آلاف وصفات الغذاء والعقاقير التي نتناولها تهيب لنا الاعتقاد أن المرض يركبنا بالإضافة إلى بساطة الناس في الأزمنة البسيطة . ولكن هذا وهم ، فنحن نظن أنه حيث يوجد أطباء كثيرون فلا بد أن الأمراض قد ازدادت عن ذي قبل . الحقيقة أن أوجاعنا لم نزد عما مضى ، ولكن كثر في أيدينا المال الذي يسمح بعلاج الأمراض وتخفيف وقعها والتغلب عليها ، وهي تلك الأمراض التي كان البدائيون يموتون بها دون أن يعرفوا أسماءها الطبية .

وهناك معيار واحد للصحة ، ومن ثمَّ للسعادة بعض الشيء ، يصلح أن يكون موضوعاً ويعتمد عليه : إنه إحصاء الوفيات الذي تجرده شركات التأمين

وهى التى تعلم أن عدم الدقة فى الحساب يكيدها خسائر أكثر لو عولت على الفاسفة . وبعض هذه الإحصاءات تمتد إلى ثلاثة قرون ، فى جنيف مثلاً يتضح أن متوسط العمر كان عشرين سنة عام ١٦٠٠ ، وأربعين عام ١٩٠٠ . وفى الولايات المتحدة كان متوسط العمر للبيض عام ١٩٢٠ ثلاثاً وخمسين ، وفى عام ١٩٢٦ ستاً وخمسين (١) . فإن صح هذا كان أمراً يصعب تصديقه . ومع ذلك فهناك تقارير مماثلة عن ألمانيا . هذا مكتب الإحصاءات فى برلين ينبئ بأن متوسط العمر فى ألمانيا كان عشرين فى ١٥٢٠ ، وثلاثين فى ١٧٥٠ ، وأربعين فى ١٨٧٠ ، وخمسين فى ١٩١٠ ، وستين فى ١٩٢٠ (٢) . فلو سلمنا بهذه الأرقام فلنا أن نستنتج ، مع استئذان المتشائمين ، بأن الحياة إذا كانت نعمة على الإطلاق فلنا نقطع فيها أشواطاً عظيمة من حيث الكم ونسعى إلى الاحتفاظ بها . وقد ناقش اللخادون (الحانوتية) أخيراً فى اجتماع سنوى المخاطر التى تهدد مهنتهم من زيادة تأخير الناس موعد لقاءهم بالموت (٣) . وإذا كان البؤس قد أصاب اللخادين ، فالتقدم واقع لاريب فيه .

٥ — عرض عام للتاريخ

بعد أن أدلينا بهذه الآراء وما نراه من تعديلات فلنحاول أن نبصر مشكلة التقدم فى نظرة شاملة . وليس من اللازم أن نرفض نظرة المتشائم ، بل من واجبنا أن نضم حقائقه إذا استطعنا إلى حقائقنا . وإذا نظرنا إلى التاريخ نظرة شاملة رأينا أنه يشبه خطأً ببيانياً يسجل ارتفاع الدول وسقوطها — شعوب وثقافات تختفى وكأنها فى فيلم هائل . ومع ذلك تبرز فى تلك الحركة غير المنتظمة للممالك ، وتلك الفوضى فى البشر ، بعض الحركات الكبرى تمثل ذروة تاريخ البشرية وجوهره ، وهى بعض أنواع من التقدم لا نفقدها متى بلغناها . لقد تدرج الإنسان خطوة خطوة من متوحش إلى عالم . وهذه هى مراحل النمو :

(١) Fisher, I., National Vitality, p. 624.

(٢) New York Times, Sept. 7, 1928.

(٣) انظر Sigfried, America comes of Age, p. 176 . وانظر تفصيلات عن تقدم الصحة المقالة القيمة التى كتبها .

C.—E. A. Winslow in Prof. Beard's splendid symposium, Whither Mankind? New York, 1928.

الأولى : الكلام — تأمل الكلام لا على أنه عمل ظهر بغتة ، ولا على أنه هبة من الآلهة ، بل على أنه نمو بطيء للتعبير المنطوق خلال قرون من الجهد ابتداء من نداء الحيوان للتسافد إلى أغاني الشعراء . ولولا الألفاظ ، أو الأسماء العامة التي تجعل الصور الخاصة قادرة على تمثيل النوع ، لتوقف التعميم في بدايته ، ولبقى العقل حيث نجده في الوحوش . لولا الألفاظ لاستحالت نشأة الفلسفة والشعر ، والتاريخ والنثر ، وما بلغ الفكر ما بلغته براعة أينشتاين أو أناطول فرانس . لولا الألفاظ ما أصبح الرجل رجلاً أو المرأة امرأة .

الثانية : النار — لأن النار جعلت الإنسان لا يعتمد على المناخ ، وهبات له محيطاً أوسع على الأرض ، وجعلت الآلات التي يستعملها صلبة وممتينة ، ووهبته من الأطعمة آلافاً من الأشياء لم تكن تؤكل من قبل . ولا يقل عما ذكرناه أهمية أن النار جعلت الإنسان سيد الليل ، وأضفت على ساعات المساء والفجر حياة وبهاء . تصور حال الظلام قبل أن يبدده الإنسان . . . حتى الآن لا تزال مخاوف تلك الحوة البدائية تعيش في تقاليدنا ، ولعلها تسرى في دماغنا . فعند كل غسق كانت تبرز مأساة : فيزحف الإنسان إلى كهفه عند غروب الشمس وهو يرتعد خوفاً ، أما الآن فنحن لا نزحف إلى كهوفنا إلا عند مطلع الشمس . ومع أنه من الحماسة أن نتجاهل الشمس ، إلا أنه من الخير أن نتحرر من مخاوفه القديمة . فهذا الليل قد رشقته يد الإنسان بملايين من الأنجم الصناعية فأضاءت النفس البشرية وأضفت على الحياة الحديثة المرح والخفة . الحق لن نستطيع توفية الضوء حقّه من الشكر .

الثالثة : الانتصار على الحيوانات — إن ذاكرتنا عظيمة النسيان وخيالنا شديد العجز ، مما لا يسمح لنا بتحقيق النعمة الحاصلة لنا من الأمن من الوحوش المفترسة الضخمة القريبة الشبه من الإنسان . أما الحيوانات الآن فإنها ألعبوبة في أيدينا ، وهي طعامنا الذي لا مهرب لها منه . وقد أتى على الإنسان حين من الدهر كان يصاد كما يصيد ، وكانت كل خطوة يبتعد فيها عن الكهف أو الكوخ مغامرة ، وكان سلاطانه على الأرض لا يزال محفوفاً بالمكاره . فهذه الحرب التي أحالت الكوكب إنسانياً هي ولا نزاع أكثر الأمور أهمية في تاريخ الإنسانية ،

وليست سائر الحروب الأخرى إلى جانبها إلا مشاجرات عائلية لا تفضى إلى شيء . وقد استمر ذلك الكفاح بين قوة البدن وسلطان العقل خلال سنين طويلة لا تعيها الذاكرة . حتى إذا انتصر الإنسان أخيراً في تلك الحرب ، انتقلت ثمرة انتصاره ، نغى أمنه على الأرض ، عبر آلاف من الأجيال ، مع هدايا أخرى كثيرة يقدمها لنا الماضي لتكون جزءاً من ميراثنا عند الميلاد . فما قيمة جميع انتكاساتنا المؤقتة ضد مثل هذا الصراع وهذا الظفر ؟

الرابعة : الزراعة — لم تكن الحضارة ميسورة في مرحلة الصيد ، لأنها كانت تستدعى سكاناً دائمين وأسلوباً مستقراً في الحياة . وقد نشأت الحضارة مع نشأة البيت والمدرسة ، ولم يظهر بيت ولم تقيم مدرسة إلا حين حلت محاصيل الحقل محل حيوانات الغابة أو القطيع طعاماً للإنسان . فقد كان الصيد يقتنص ما يصيده بمشقة عظيمة ، على حين كانت المرأة التي يتركها في الدار تستغل أرضاً أعظم ثمرة ، وقد هددت اشتغال الزوجة الصابرة على الفلاحة باستقلالها عن الزوج ، فأثر من أجل سيادته آخر الأمر أن يرغم نفسه على أعمال الزراعة . ولا ريب أن هذا الانتقال العظيم الذي يعد أعظم انتقال في تاريخ البشرية قد استغرق قروناً طويلة ، حتى إذا تم في نهاية الأمر بدأت الحضارة . وقد قال مريدث^(١) Meredith إن المرأة هي آخر مخلوق يحضره الرجل ، وفي هذا القول من الخطأ ما يوجد عادة في الأمثال السائرة ، لأن الحضارة نشأت عن طريق أمرين أساسيين : البيت الذي طوّر تلك الاستعدادات الاجتماعية التي تكون الملائمة النفساني للمجتمع ، والزراعة التي أخذت بيد الإنسان من جولاته التي كان يهيم فيها صائداً وراعياً وقاتلاً وجعلته يستقر في مكان واحد فترة تبلغ من الطول ما يسمح له ببناء البيوت ، والمدارس ، والكنائس ، والكليات ، والجامعات ، والحضارة . ولكن المرأة هي التي وهبت الرجل الزراعة والبيت ، فاستأنست الرجل كما استأنست الماشية والخنازير ، فالرجل هو آخر حيوانات المرأة التي استأنسها ، ولعلنا آخر الكائنات التي ستحضرها المرأة . وبعد فالمهمة لم تكن تبدأ : وتكفي نظرة واحدة إلى قائمة الطعام لتكشف لنا أننا لا نزال في مرحلة الصيد .

(١) جورج مريدث (١٨٢٨ - ١٩٠٩) روائي إنجليزي وشاعر ، اشتهر بمعالجته للمشكلات الاجتماعية في رواياته (المترجم) .

الخامسة : التنظيم الاجتماعي — ها هنا رجلان يتنازعان : أحدهما يطرح الآخر أرضاً ، ويقتله ، ثم يقول : إن الحى لابد أنه كان في جانب الحق ، وإن الميت كان في جانب الباطل . . . وهذا ضرب من البرهان لا يزال مقبولاً في المنازعات الدولية . وها هنا رجلان آخران يتنازعان ، فيقول أحدهما لصاحبه : « فلنترك القتال . . . فقد نصرع معاً . ولكن دعنا نحمل خلافنا إلى كبر القوم ، ولنقبل حكمه » . لقد كان هذا التفكير لحظة حاسمة في تاريخ الإنسانية . فلو أن الجواب كان « لا » ، لاستمرت البربرية ، أما إذا كان الجواب « نعم » ، فقد شقت الحضارة لها طريقاً آخر في ضمير الإنسان ، هو إحلال النظام محل الفوضى ، والقضاء العادل مكان الوحشية ، والقانون بدلاً من العنف والإكراه . وهذه أيضاً منحة لا نشعر بها لأننا ولدنا في حماية دائرتها السحرية ، دون أن نعرف كيف قيمتها حتى نهيم في أقطار الأرض المنعزلة أو التي تسودها الفوضى . والله يعلم أن مؤتمراتنا وبرلماناتنا هي اختراعات مربية ، وهي خلاصة التوسط في البلاد ، ولكننا نحاول على الرغم منها أن ننعم في الحياة والميلك بأمن سنقدره حق قدره حين تنشب حرب أهلية أو ثورة فتردنا إلى الظروف البدائية . وازن بين السفر المأمون اليوم وبين الطرق التي كان يقطعها اللصوص في العصر الوسيط بأوروبا . فلم يسبق في أى وقت من التاريخ أن ساد مثل هذا النظام وهذه الحرية مما نجده اليوم بانجلترا . . . وقد يوجدان ذات يوم بأمريكا ، عندما يتيسر إيجاد طريقة لافتتاح مكاتب للبلدية تشغل بالكفاءة والمحترمين . ومع ذلك فلا يجب أن نزعج كثيراً من الفساد السياسى أو سوء الإدارة في الديمقراطية . فالسياسة ليست الحياة ، بل تطعيمها ، إذ يقوم وراء تمثيلاتها السوقية ذلك النظام التقليدى للمجتمع في الأسرة ، والمدرسة ، وفي هذه الآلاف من التأثيرات المنحرفة التي تحبل ما عندنا من فوضى وطنية إلى شيء من التعاون والخير . ونحن نشارك بغير وعى منا في تراث مجيد من النظام الاجتماعى شيدته لنا مئات من الأجيال أنفقت في التجارب وتجنب الأخطاء ، وجمع المعرفة ، ونقل الثروة .

السادسة : الأهموم — وهنا نفوذ إلى قلب مشكلتنا — هل الناس أفضل في أخلاقهم مما كانوا ؟ إذا اعتبرنا العقل عنصراً من عناصر الأخلاق فقد تقدمنا :

ذلك أن مستوى الذكاء أعلى . وقد ازداد عدد ما يمكن أن نسميه بالعقول الراجحة زيادة كبيرة . أما فيما يختص بالخلق فأكبر الظن أننا تأخرنا ، إذ تمت براعة التفكير على حساب هدوء النفس . ونحن المفكرين نحس في حضرة آباءنا إحساساً مضطرباً أننا على الرغم من امتيازنا عليهم في كمية الأفكار التي نرحم بها رؤسنا ، وعلى الرغم من تحررنا من الأوهام اللبذبة التي لا تزال تجلب لهم العون والراحة فنحن أقل منهم في الشجاعة الثابتة ، وفي الإخلاص للعمل والأهداف ، وفي بساطة قوة الشخصية .

أما إذا كانت الأخلاق تنطوي على الفضائل التي مجدها شريعة المسيح ، فقد تقدمنا تقدماً محدوداً على الرغم من معيشة الناس عندنا في المناجم والأحياء القدرة ، وما عندنا من فساد ديمقراطي ، وانغماس أهل المدن في الدعارة .

ولكننا أصبحنا أرق نوعاً مما كنا : فنحن أقدر على الرحمة ، وعلى الكرم للأغراب عنا أو غير الموالين لنا حتى لو لم نكن نعرفهم . ففي عام واحد (سنة ١٩٢٨) بلغ ما ساهمت به دولتنا في الإحسان الخاص والبذل في خير الإنسانية أكثر من ألفي مليون دولار . . . وهو نصف جميع المال المتداول في أمريكا . إننا لا تزال نشقى القتلة إذا حدث أننا قبضنا عليهم وحاكمناهم ، غير أن هذا القصاص التقليدي الذي يأخذ الحياة بالحياة لا يزال يتلاقى بالناس بعض الشيء ، وقد هبطت الجرائم التي تقضى فيها بالإعدام هبوطاً عظيماً . كان الناس في « مري إنجلترا » منذ مائتي عام يشقون بحكم القانون إذا سرق أحدهم شيئاً ، ولا تزال الأحكام قاسية على من لا يسرق الشيء الكثير . ومنذ مائة وأربعين عاماً كان المعدّنون في اسكتلندا عبيداً بالوراثة ، وكان المحرمون في فرنسا يعذبون قانوناً وعلانية حتى الموت ، وكان المدينون يسجنون في إنجلترا مدى الحياة ، وكان ناس محترمون يغزون شواطئ أفريقية للحصول على العبيد (١) . وكانت سجوننا منذ

(١) انظر Haldane, J. B., Possible Worlds, p. 302.

وانظر Spengler, Decline of the West, pp., 110-111

حيث يقول : « بلغ عدد المحكوم عليهم بالإعدام للزندق في أثينا وحدها في أثناء سنوات الحرب البلوبونيزية عدة مئات » . وعلى القارئ الذي لا يزال يشك في تقدمنا الأخلاقي أن يقرأ ما كتبه

خسب عاماً كهوفاً ملأى بالقاذورات والخاوف ، ومعاهد يتخرج فيها صغار
المجرمين ليصبحوا من كبار المجرمين . أما الآن فسجونا عبارة عن أماكن يرتاح
فيها القتلة الذين أدركهم التعب . ونحن لا نزال نستغل الطبقات الدنيا العاملة ،
ولكننا نريح ضمايرنا بأعمال البر . ويسعى علم تحسين النسل أن يوازن بالانتخاب
الصناعي بين الرحمة والإحسان وبين القسوة والإفناء للضعيف والعاجز مما كان في
الزمن السابق أساس الانتخاب الطبيعي .

وقد نخيل إلينا أن العنف أصبح أكثر انتشاراً في العالم عما كان من قبل ،
ولكن الواقع أن الصحف هي التي أصبحت أكثر انتشاراً، فهناك مؤسسات
كبيرة وقوية تدرع الأرض بحثاً عن الجرائم والفضائح التي تسرى عن القراء
ما يلقونه من عناء الكتابة بالاختزال والاقتصار على زوجة واحدة . وهكذا تتجمع
كل المساوىء والسياسات من القارات الخمس في صفحة واحدة لتفتح لنساء
الشبهة عندما نتناول الإفطار . وننتهي من ذلك إلى أن نصف أهل الأرض يقتل
النصف الآخر ، وأن نسبة عظيمة من هذا النصف الباقي مقدمة على الانتحار .
ولكننا نزل إلى الشوارع ، وندخل البيوت ، ونحضر الاجتماعات ونركب آلافاً
من وسائل النقل فندعش حين لا نجد قتلة ولا منتحرين ، بل نجد أدباً صريحاً
ديمقراطياً ، ومروءة قلبية أكثر واقعية مما كان يصدر عن الناس من عبارات
الشهامة ، وحين كان الرجال يستعبدون نساءهم ويستوثقون من عفتهم بأقوال
من حديد عندما كانوا يحاربون من أجل المسيح في البلاد المقدسة .

وتمثل طريقتنا في الزواج على ما فيها من فوضى وميوعة تهدياً بديعاً أفضل
من الزواج بالأسر أو الشراء ، وما كانوا يسمونه « بحق السيد » . فالوحشية أقل
بين الرجال والنساء والآباء والأبناء والمعلمين والتلاميذ مما سجله أى جيل في الماضي .
ويعد تحرير المرأة وصمودها أمام الرجل دليلاً على رقة لم يسبق لها مثيل في الذكور
الذين كانوا فيها مضى سفاكين للدماء . وازدهر الحب الذي كان مجهولاً عند

== « لي إلبا » عن محاكم التفتيش الأسبانية ، أو « تين تاي » عن الاضطهاد في حكم الملكة
ماري (History of English Literature, pp., 255-6). قد نجعل الذكاء في بعض المجتمعات
غير مشروع ، ولكننا لا نحكم عليه بالإعدام .

البدائين ، أو لم يكن إلا إشباعاً لرغبة الجسد ، وأصبح حديقة تمتلئ بالغناء والعاطفة ، وارتفع فيها غرام الرجل بالمرأة وكأنه بخور يحترق في قصائد الشعر ، على الرغم من امتداد جذور الحب في ثنايا الحاجات الطبيعية . أما الشباب الذى ترزعج أخطاؤه الآباء المكثرون أعظم إزعاج ، فإنه يكفر عن رذائل الصغيرة بهذا الشغف الفكرى وهذه الشجاعة الخلقية ، وهى أمور لن تقدر حق قدرها حتى تثمر التربية ثمارها وتنمى جو حياتنا العامة .

السابعة : الآلات — إننا نغنى الآن في وجه الرومانتيكيين ، وخصوص الآلات من المفكرين ، وطلاب الرجوع إلى الحالة البدائية (القذارة ، والتعابن ، وبيوت العناكب ، والبق) أغنية الآلات والمساكينات والمحركات ، التى استعبدت الإنسان ثم أخذت في تحريره . لا يجب أن نخجل من ازدهارنا ، فمن الخير أن تصبح وسائل الراحة والإمكانيات التى كانت من قبل وقفاً على البارونات وأمثالهم مزية لجميع الناس ، فقد كان من اللازم نشر الفراغ — حتى إذا أسىء استعماله في أول الأمر — قبل أن تتحقق الثقافة الواسعة . فهذه الاختراعات المتزايدة هى الأعضاء الجديدة التى نسيطر بها على البيئة المحيطة بنا . ولسنا فى حاجة إلى تنمية هذه الأعضاء على أبداننا كما ينبغي أن تفعل الحيوانات ، بل نصنعها ونستخدمها ثم نضعها جانباً حين الحاجة إلى استخدامها مرة أخرى (١) . إننا نضع أذرع هائلة تبني في شهر الأهرامات التى كانت تستنفد مليون رجل . ونصنع لأنفسنا عيوناً عظيمة تكشف عن النجوم الخفية في السماء ، وأخرى صغيرة تنفذ إلى دقائق خلايا الحياة . إننا نتكلم إذا شئنا بأصوات هادئة تعبر القارات والبحار . إننا نتحرك على الأرض ونطير في الهواء بحرية الآلهة الخالدين . ولو سلمنا بأن مجرد السرعة أمر لا قيمة له ، فإنها رمز للشجاعة البشرية والإرادة الثابتة ، وهذا هو أعظم معنى للطائرات في نظرنا . فقد تحررنا في النهاية بعد أن طال قيودنا بالأرض مثل بروميثيوس (٢) ، حتى أصبحنا الآن نواجه عيون الصقر في كبد السماء .

(١) برجسون .

(٢) في الأساطير اليونانية أن بروميثيوس سرق النار من السماء ووهبها للإنسان . فعاقبه زيوس بأن كبله بالسلاسل في جبال القوقاز حيث كان الصقر يأكل كبده طول النهار ، وتمرد الكبد إلى النمو ليلاً . وأخيراً خلصه هرقل ، وذبح الصقر (المترجم) .

لا . . . لن تقهرنا هذه الآلات . أما هزيمتنا الحاضرة أمام الماكينات من حولنا فهي أمر مؤقت ، ووقفه في تقدمنا البصير نحو عالم لا عبودية فيه . وقد ارتفعت عن كواهلنا تلك الأعمال الدنيئة التي حَقَّرت من شأن السيد والعامل على السواء ، ووضعت في عضلات الحديد والصلب التي لا تكل . ولن يمضي زمن طويل حتى يصب كل مسقط مائى وكل رياح طاقتها التي تجلب الخير في المصانع والبيوت ، ويخلص الإنسان إلى أعمال العقل . إن ما يحرق العبيد هو الاختراعات لا الثورات (١) .

الثامنة : العلم — لقد كان باكل على حق إلى حد كبير في قوله : إننا لا نتقدم إلا في المعرفة ، وتعتمد هذه المواهب الأخرى على التنوير البطيء للعقل . وهنا في مجال البحث النبيل الصامت ، وفي معارك المعامل قصة تصلح أن توازنه خداع السياسة وعبث الحرب البربرية . هنا نجد الإنسان في أحسن أحواله ، يرتفع سموًا خلال الظلام والاضطهاد نحو النور . انظر إليه واقفًا على هذا الكوكب الصغير يقيس ، ويزن ، ويخلل الأبراج التي لا يراها ، ويتنبأ بدوران الأرض والشمس والقمر ، ويشاهد مولد الأكوان وفنائها . أو هنا نجد عالمًا رياضيًا يبدو غير عملي يتتبع قوانين جديدة معقدة أعظم التعقيد ، فينير الطريق لسلسلة لانهاية لها من الاختراعات التي تزيد في قوة جنسه . وهنا نجد قطرة تزن مائة ألف طن من الحديد معلقة بأربعة حبال من الصلب وتمتد بشجاعة من شاطئ إلى الآخر تحمل عددًا لا يحصى من المارة . لعمرى إن هذا لشعر يبلغ في روعته أسمى ما كتبه شكسبير . أو تأمل هذا البناء الذي يشبه المدينة والذي يضرب عاليًا في السماء ، تحميه شجاعة حسابنا من أى صدع ، ويتألق كحجر الماس في الليل . وهنا في علم الطبيعة نجد أبعاداً جديدة ، وعناصر جديدة ، وذرات جديدة ، وقوى جديدة . وهنا في الصخور نجد الحياة قد سطرت سيرتها ، وفي المعامل تعد البيولوجيا العالم العضوى للتغيير كما بدلت الفيزيكا المادة . ففي كل مكان تلقى هؤلاء الرجال المتواضعين يبحثون بغير مكافأة ، ومن العسير أن نفهم من أين

(١) لقد توقفت الصناعة في أمريكا عن الاعتماد على السواعد بما بلده تنظيم العمل من كمال وباستخدام الآلات إلى درجة لا تصورها في أوروبا . انظر

Siegfried, America Comes of Age, p. 149.

ينبع إخلاصهم ويتغذى ، ومع أنهم سيموتون قبل أن يثمر الشجر الذى يزرعونه للإنسانية فإنهم سائرون فى طريقهم .

الحق أن هذا النضر الإنسانى على المادة لا يضارعه حتى الآن أى نصر آخر من جانب الإنسان على نفسه . وهنا نجد أن حجة التقدم لا تزال مضطربة ، ذلك أن علم النفس لم يكد يبدأ فى فهم السلوك الإنسانى والرغبة الإنسانية ، وسيطرته عليهما أقل . وهذا العلم مختلط بالتصوف والميتافيزيقا ، بالتحليل النفسانى والسلوكية (١) Behaviorism ، بالأساطير الخاصة بالغدد ، إلى أمراض أخرى خاصة بالبلوغ . هذا والملاحظات الدقيقة والحالات المعدلة لا يقوم بها إلا علماء نفسانيون لا يسمع بهم أحد ، وفى بلادنا تحيل الزعة الديمقراطية إلى المبالغة كل علم إلى « بدعة عجيبة » . ولكن علم النفس سيعيش على الرغم من هذه الأمراض والأعاصير ، وسينضج كغيره من العلوم بما يتحملة من مسئوليات . واول ظهور سيكون (٢) آخر يستعرض ميدانه ، ويوضح مناهجه وأهدافه الصحيحة ، ويبين « الثرات والقوى » التى نحصل عليها — فأينا يجروء ، وهو يعلم مفاجآت التاريخ ومثابرة البشر ، على وضع حدود للأعمال التى يمكن أن تنشأ عن معرفتنا المطردة للعقل ؟ فقد بدأ الإنسان فى هذه الأيام يولى عن البيئة التى صنعها ، وأخذ يصنع نفسه صنعاً جديداً .

التاسعة : القريبة — إننا نقل الآن نقلاً أحكم إلى الجيل المقبل التجارب التى تجمعت عن الماضى . فهذا الإنفاق العظيم فى المال والجهد لإعداد المدارس وتزويد جميع الناس بالتعليم أمر يكاد يكون ابتكاراً معاصراً ، ولعله أبرز ملامح هذا العصر . فقد كانت الحمامعات فى الزمن الماضى ترفاً والقصد منها تعليم الذكور من الطبقة الفارغة Leisured class . وأصبحت الحمامعات اليوم من الكثرة

(١) ليست السلوكية ذائعة لأنها منبج فى علم النفس بل لأنها فلسفة ميكانيكية ، عبارة عن سلسلة من الفروض الجريئة والجذابة عن الشعور والفكر . ومع ذلك فالسلوكية فى نظر نفسها علم موضوعى دقيق . ويعلن مؤسسها الألمعى — الفيلسوف على الرغم منه — أن الفلسفة قد ماتت . وفى هذا الكلام شئ من التناقض ، ويظهر أنه يؤيد ما يذهب إليه الدكتور واطسن من أن السلوكية تتخلو من الشعور .

(٢) يشير المؤلف إلى فرانسيس بيكون الذى فتح باب العلم الحديث (المترجم) .

بحيث يتيسر لكل من ينقطع للدرس الحصول على إجازة الدكتوراه . حقاً لم تنفوق على عباقرة الماضي الممتازين ، ولكننا رفعنا مستوى المعرفة الإنسانية ومتوسط تلك المعرفة إلى درجة لم يسبق لها مثيل في أى عصر من عصور التاريخ . لا تنظر الآن إلى أفلاطون ولا إلى أرسطو ، بل إلى المجلس الأثيني المتعصب المغفل القاسى ، إلى الشعب المتعصب وشعائره الأورفية ، وإلى النساء المنعزلات المستعبدات اللاتي لم يكن يستطعن الحصول على التعليم إلا إذا أصبحن محظيات .

ولو قيل إن العالم في الوقت الحاضر لم يتغير بعد تغيراً تاماً مع انتشار هذه المدارس ، ومع تكاثر هذه الجامعات التي تعلم الجنسين معاً ، فلن يكون قائله إلا طفل غرير . الحق أن تجربة التعليم الكبرى في النظرة الشاملة للتاريخ تأخذ في البدء ، ولم تستنفد بعد الوقت الكافي لتثبت نجاحها ، ولا يمكن في جيل واحد أن تمحو جهل وأوهام عشرة آلاف سنة . حقاً قد ينتصر الجهل المنتشر وتعصب الجمهور للعقائد على التعليم في النهاية ، وليست هذه الخطوة من خطوات التطور مما يمكن وصفها بالثبات في أعمال البشرية ، ومع ذلك فهناك نتائج طيبة تبدو للعيان . فلا مرمٍ مآ كان التسامح وحرية الفكر أيسر ازدهاراً في الولايات الشمالية عنهما في الجنوبية إذا لم يكن ذلك بسبب قلة المال في أيدي أهل الجنوب لبناء ما يكفي من المدارس (١) ؟ ومن يدري لعل إيثارنا الوظائف البسيطة والرياسات المحدودة يرجع إلى أننا جيل نشأ من طبقات أثقلها عبء الحاجة الاقتصادية والاستغلال السياسى إلى حد لا يسمح بفسحة من الوقت لتعهد العقل بالرعاية ؟ ترى أى ثمار ناضجة نجنيها من التعليم حين يستمر كل منا في المدرسة حتى العشرين فتسنع له الفرصة لتحصيل كنوز الجنس الفكرية ؟ أو تأمل مرة أخرى غريزة الحب الأبوى ، هذا الدافع العميق الموجود عند كل أب سوى ليرفع أبنائه فوق نفسه ، تجد فيه الدفعة البيولوجية للتقدم الإنسانى ، والقوة التي يجب أن نطمئن

(١) تزداد نسبة الأمية في الولايات والأقاليم التي تفرض أو تقترح قوانين مضادة للتطور منها في غيرها . مثال ذلك أنها تبلغ ٢٦.٦٪ في ماكون بولاية تينيسى موطن مؤلف قانون سكوبس (Scopes) ، ولكنها تبلغ في تينيسى كلها ٩.٦٪ (إجمالاً Scientific American, Sep., 1927) (سكوبس مدرس كان يعلم داروين في تينيسى ، فحوكم سنة ١٩٢٥ ، وكان للمحاكمة صدق كبير في ذلك الحين - المترجم) .

إليها أكثر من أى تشريع أو أى نصيحة أخلاقية ، لأنها مفطورة فى صميم جيلة الإنسان . لقد امتدت فترة البلوغ ، بحيث نبدأ الآن أكثر عجزاً ، ولكننا ننمو أكثر كمالاً صوب ذلك الإنسان الأعلى الذى يكافح للتخلص من أنفسنا المظلمة . صفوة القول نحن مادة الحضارة الحام .

إننا نبغض التربية لأنها لم تقدم إلينا فى شبابنا كما ينبغى أن تكون عليه . انظر إلى التربية لا على أنها تكديس كبريه للحقائق والتواريخ ، بل على أنها صلة نبيلة بالعطاء . ولا على أنها إعداد الفرد « لكسب المعاش » ، بل على أنها تنمية ما فيه من قدرة كامنة لفهم العالم الذى يعيش فيه ، والتحكم فيه ، وتقديره . وفوق هذا كله انظر إلى التربية فى أكمل حدها : إنها الفن الذى ينقل أكمل نقل ما استطاع إلى ذلك سبيلاً إلى أعظم عدد ممكن من الناس ذلك التراث الصناعى والفكرى والخلقى والفنى ، الذى يصوغ الجنس عن طريقه الفرد النامى ويسويه إنساناً . ولو سألت لماذا نتصرف كالبشر لو وجدت أن العلة فى ذلك هى التربية . فنحن لا نكاد نولد بشراً ، إذ نخرج إلى العالم حيوانات ممسوخة وقذرة ، ثم « نصبح » بشراً ، فتلقى الإنسانية علينا خلال مئات من المسارب التى يصب فيها الماضى إلى الحاضر ذلك التراث العقلى والثقافى الذى يرفع حفظه وجمعه ونقله الإنسانية اليوم بكل ما فيها من نقائص وجهل إلى مستوى أعلى مما بلغه أى جيل من قبل .

العاشرة والأخيرة : **الكتابة والطباعة** - ومرة أخرى نجد خيالنا قاصراً عن حملنا على أجنحته حتى يرفعنا إلى الحد الذى نلتقط فيه نظرة شاملة ، فليس فى استطاعتنا تصور أو تذكر عصور الجهل الطويلة وعصور العجز والخوف التى سبقت ظهور الكتابة . فى تلك القرون الخوالى لم يكن فى استطاعة الناس نقل حكمهم التى حصلوها بالمشقة إلا بالألفاظ المنطوقة الصادرة من الآباء إلى الأبناء . فإذا غفل جيل أو ضل ، فقد وجب أن يرتقى الناس سلم المعرفة من جديد . أما الكتابة فقد خلعت على ثمرات العقول نوعاً جديداً من الدوام ، إذ حفظت آلافاً من السنين ، وعبر آلاف من السنوات فى الفقر والحرافة ، الحكمة التى اهتمت إليها الفلسفة ، والجمال البادى فى الدراما والشعر . لقد ربطت الكتابة

بين الأجيال بالتراث المشترك ، و خلقت تلك المملكة المسماة دولة العقل حيث
تجد العبقريّة بفضل الكتابة أداة تستمد منها الحياة .

واليوم كما وحدث الكتابة الأجيال ، فقد أمكن للطباعة على الرغم من كثرة
مبازلها أن توحد بين الحضارات . فلم يعد من الضروري أن تحتفى الحضارة قل
فناء كوكبنا الذى نعيش على ظهره . ستغير الحضارة من موطنها ، إذ لا نزع
فى أن الأرض فى كل أمة ستأبى فى النهاية أن تهب ثمارها لحرث عابث أو ملك
مهمل . ولا بد أن مناطق جديدة ستفتن بما فيها من أرض بكر الجهود المتطوعة
للمعرفة فى كل جنس . ولكن الحضارة ليست شيئاً مادياً مرتبطة ارتباطاً لا فكاك
فيه كعبيد الأرض قديماً ببقعة معينة من الأرض ، بل هى تراكم للمعرفة النسيّة
technical وخلق للثقافة . ولو أمكن نقل هذه المعرفة وهذه الثقافة إلى الأساس
الاقتصادى الحديدى فلن تموت الحضارة ، بل تتخذ لنفسها وطناً آخر . ولا شيء
يستحق الخلود سوى الجمال والحكمة ، وليس من الضرورى فى نظر الحكميم
أن تخلد بلده إلى الأبد ، فسترضى نفسه إذا انتقلت آثارها لتصبح جزءاً من
مقتنيات الإنسانية .

لسنا فى حاجة إذن أن نقلق من أجل المستقبل . إن ما يشغل بالنا هو كثرة
الحرب ، فنقع فريسة فى هذه الحالة العقلية لأمثال شبنجلر حين أعلن سقرط
العالم الغربى . الحق أن هذا الترتيب المتعالم لمولد الحضارات وموتها فى دورات
منظمة ، ترتيب دقيق أكثر مما ينبغى ، وأكبر الظن أن المستقبل سيعبث عبثاً شديداً
بهذا اليأس المنتظر من الحساب الرياضى . فقد وقعت حروب فى قديم الزمان ،
وهى حروب أسوأ من « حربنا (١) الكبرى » . وقد عاش الإنسان وعاشت
الحضارة بعدها . ولم يكده يمضى خمسة عشر عاماً على موقعة واترلوحى أنتجت فرنسا
المنهزمة ، كما سرى ، من العباقرة ما ملأ كل بيت فى باريس . ولم يسبق لراثنا
من الحضارة والثقافة أن كان مستتباً بهذا القدر ، ولا كان بمثل هذه الثروة .
ونستطيع أن نسهم بنصيب قليل فى تنمية هذا التراث ونقله على ثقة منا أن الزمان
سيبلى ما فيه من نفاية ، ويبقى ما يثبت أنه حق وقيم ليضىء أجيالاً كثيرة .

(١) نلاحظ أن المؤلف كتب هذا الكتاب بعد الحرب العظمى التى نشبت من ١٩١٤ إلى ١٩١٨ ولم يتناول فى طبعته الثانية آثار الحرب الأخيرة الذرية (الترجم) .

الفصل السادس عشر

مصر الحضارة

١ — الاضطرابات العصبية بعد الحرب

كتب شوبنهاور سنة ١٨١٨ كتابه « العالم كإرادة وفكرة » ، فكان أقرى هجوم وأشمله وجه إلى إيمان الإنسان بالتقدم والحضارة . وفي عام ١٨٢١ مات كينس Keats بالسل واليأس بعد أن كتب شعراً رائعاً يفوح بعبير أوراق الحريف المتساقطة ، وقد بنه مأساة الأوهام المفقودة . وغرق شللى سنة ١٨٢٢ دون أن يبذل في أكبر الظن أى جهد لإنقاذ نفسه ، وقد « عاش أمداً طويلاً ، كما قال قيصر ، ولم يحفل بأن يعمر حتى يشهد الهزيمة العامة للحرية في أوروبا . ومات بيرون عام ١٨٢٤ بالصرع راضياً بالاختفاء من عالم وصفه بذلك التهكم اللادع في « دون جوان » . ونشر دى موسيه سنة ١٨٣٥ « اعترافات طفل في هذا القرن » وصف فيه عالماً منهاراً وشعباً بغير أمل . وفي عام ١٨٣٧ مات بوشكين في روسيا وليوباردى في إيطاليا بعد أن نظما التشاؤم شعراً مثبوراً لم يرتفع إليه أى قلم من قبل ، لقد امتزج اليأس بدماء ذلك الحيل .

ولم يكد ينتصف القرن التاسع عشر حتى استرجعت حيوية أوروبا مكانتها ، وعادت حركة الحياة والآداب تسير إلى الأمام . وأخذت الاختراعات ترسي قواعد الانتصارات الصناعية في ذلك القرن ، وشرعت الآلات تحرر الإنسان ليستمتع بالفراغ ، وبدأت السكك الحديدية والبواخر توحد بين الأمم والثقافات مع تبادل السلع والأفكار من كل مكان . وقد شهد العقد نفسه ، الذى رأى النصر الثورى للدراما الحديثة « هرنانى » من قلم هوجو ، مولد إبسن في ١٨٢٨ ، وبراعة بلزاك وستندال في القصة ، وروعة هيبنى وهوجو في الشعر الغنائى ، وستوسانت بيف وتين في النقد ، كما نشر تينسون وبراوننج الأجزاء الأولى من آثارهما ،

ونزل ديكنز وناكرى إلى ميدان المنافسة ، وبدأ تورجنيف ودستوفسكى وتولستوى يظهران فى روسيا . وفى ذلك الحين كان ديلاكرواه يحارب فى أول معركة ضد اللون البنى فى التصوير ، وكان ترنر^(١) يُغرق حتى انجلترا بأشعة الشمس . وكان داروين يجمع المادة لأروع أثر فى العلم الحديث ، وسبنسر يعد فلسفة جديدة ، وكان رينان يكتب « مستقبل العلم » شعلة تنير السبيل لعالم أكثر إشراقاً . صفوة القول كان البعث سارياً فى كل مكان .

وعلى هذا الأساس من الموت والحياة ، من التدمير والتجديد ، يجب أن نفهم تشاؤم مابعد الحرب فى عصرنا ، وأن نغفره ، فالنظرة الشاملة هى كل شئ . ليس معنى ذلك أن الحرب العظمى هى العلة الوحيدة أو الأساسية لنظرتنا الفلسفية القائمة . كل ما فى الأمر أنها أبرزت الأفكار والمشاعر التى كانت آخذة فى التجمع منذ نهاية القرن . فقد تصور كسندرا شبنجلر^(٢) أروع كتبه وهو « انحطاط الغرب » وأبرزه سنة ١٩١٤ ، قبل نشوب نار العداوات . ولكن ألمانيا لم تعرف حتى ذاقَت الهزيمة قدر الكتاب باعتبار أنه أعظم مساهمة فى ميدان الفلسفة منذ نيكتشه (لو سئل أحد الفرنسيين لقال منذ برجسون) . ولم يكن للمستمر ممكن^(٣) Menken أى هوى لعصره أو أى أمل فى المستقبل ، حتى إذا أسفرت الحرب عن وحشتها — وأسوأ من ذلك فى أكبر الظن مهزلة السلام — قبله آلاف من شباب أمريكا على أنه الناطق بلسانهم عما يشعرون به من ألم نحو العالم Weltschmerz وعن احتقارهم للحضارة الآخذة فى الزوال . ولم يكن يمكن لأوروبا أن تستمع ، إلا بعد أن أفاقت من هموم العالم عقب الحرب ، لترجمة كسر لنج الروحية لبوذا وكونفوشيوس ، أو تنصت فى مثل هذه الثورة الفاترة لحزمه الهادىء بأن : « الحضارة القديمة فى مخاض الزوال »^(٤) . ولا يتفق دين إنج مع هيلير بللوك إلا فى اعتقاد واحد هو أن الحضارة محكوم عليها بالزوال^(٥) .

(١) ترنر (١٧٧٥ - ١٨٥١) مصور إنجليزى اشتهر بالتلوين المائى وألوانه الزاهية (المترجم)

(٢) اسمه أوزفالد شبنجلر ، ولقبه المؤلف باسم كسندرا إشارة للمتنبئة الأغريقية (المترجم)

(٣) هنرى لويس مكنز صحنى أمريكى وكاتب وناقد ولد عام ١٨٨٠ ، واتهم فى أثناء الحرب

العظمى بأنه يمالئ الألمان حين يرأس الصحف من الميدان (المترجم) .

Keyserling, Count H., The World in the Making, P. 118 ; Europe, (٤)

pp. 371, 378.

Outspoken Essays, pp. 265, 269. (٥)

وثمة عوامل كثيرة كانت تعد الغرب لهذا المزاج غير المألوف من الامتهان . وكان هنرى آدمز يبشر بتشاؤم عميق يستند إلى عدم تحول الطاقة و « انحطاطها degradation » . وأحسن ماديسون جرانت البرهنة على أن السلالة « النوردية (الشمالية) Nordic » قد استنزفتها الحروب ، وأضعفها الزواج ، وتفرق عليها جنس البحر الأبيض المتوسط ، وأنزلتها من عرش الزعامة الطويلة الثيرة في آسيا ، والديمقراطية في موطنه . ثم صيغ لوثر ووب ستودارد^(١) Lothrop Stoddard هذه الآراء بصيغة شعبية في كثير من المهارة وقليل من الحذر . وضم الأستاذ مكيدو جل صوته إلى أصوات الرثاء الجارية . وفي أثناء ذلك أعلن الأستاذ فلندز پترى عالم الآثار المصرية المشهور ، دون أن يستشير هؤلاء القضاة العظام ، أن امتزاج السلالات هو التمهيد الذى لا بد منه نحو حضارة جديدة . ولكنه رأى كذلك فى الامتزاج الجارى بين الشعوب انحلال الحضارة الأوربية ، وذهب إلى أن الثقافة قد بلغت أوجها حول سنة ١٨٠٠ ، وأنها أخذت فى الموت مع الثورة الفرنسية . ولا بد من انقضاء أربعة أو خمسة قرون قبل أن تنتج هذه البوتقة الإنسانية سلالة ثابتة وتعود بذلك دورة جديدة من الحضارة (٢) .

ويلتفت شبنجلر كذلك متأسفاً إلى الوراء نحو الأيام التى سبقت الدكتور جيلوتن^(٣) Guillin ، دون أن يشعر كما شعر روسو بأسواط وندوب النظام الإقطاعى على ظهره . وفى ذلك يقول : « لتقدير كيان الغرب تعدد سنة ١٨٠٠ حداً فاصلاً يميز من جهة بين الحياة التى تشعر بنفسها شعوراً كاملاً مؤكداً ، وهى حياة كان نموها من الداخل فى تطور لا انقطاع فيه منذ طفولة الغوط حتى جوتة و نابليون ، ومن جهة أخرى بين حياة مدننا الكبرى وهى حياة خريف صناعية لا أساس لها تتخذ أشكالا أبدعها العقل . . . أصبحت مهمتنا اليوم مهمة الحفظ والتهديب والتشذيب والاختيار ، بدلا من الخلق الديناميكي العظيم ، والعناية بالتفصيلات مما كان يميز رياضة العصر الإسكندري فى العصر

(١) كاتب أمريكي ولد ١٨٨٣ اختص بالسياسة الأوربية (المترجم) .

(٢) The Revolutions of Civilisation, p. ١٢٨ .

(٣) الدكتور جيلوتن (١٧٣٨ - ١٨١٤) هو الذى أشار باستعمال المفصلة (الجيلوتين) سنة ١٧٨٩ فى الثورة الفرنسية (المترجم) .

الهلينستى المتأخر . وإذا لم يستطع أحدنا أن يدرك أن هذه النتائج لازمة وغير قابلة للتغيير فعليه أن يغفل من حسابه كل رغبة في فهم التاريخ (١) .

فنحن مقضى علينا ، أو نجد عبارة هذا الألماني العنيد ، نحن مقضى علينا بحكم الضرورة الميتافيزيقية ، ذلك أن شبنجلر ليس فيلسوفاً برهانياً ، فهو لذلك لا يعرف أن الحياة قد يكون فيها من الأسباب ما لا يستطيع المنطق أن يفهمها .

٢ - فناء الأمم

ومع ذلك فقضية شبنجلر قوية إلى حد كبير ، فهي لا تعتمد في أساسها على الميتافيزيقا التي يمكن دائماً نقضها بهزة من الكتفين ، بل تقوم على التاريخ الذي لا يمكن دحضه حين لا يكون كاذباً . التاريخ الذي نجد الفناء مسطراً على صفحاته . التاريخ الذي يبدو أن قانونه الأسمى هو تلك القاعدة التي يحفظها صبية المدارس من أن لكل شيء إذا ما تم نقصان . هذه المناحة على الرجال والدول ، وهذه الحنازة التي تسير في موكب من الأجناس والحكومات ، هي الصورة التي تتكشف لنا في تفصيل قاس من بحوث المفكرين في القرن التاسع عشر . فلم يسبق للناس من قبل أن نقبوا مثابرين هذا التنقيب الكامل في الماضي كما فعلوا في المائة السنة الأخيرة . . . نابشون حضارات ميتة ، كاشفين عن أجساد عباقرة منسيين متخيلين أنهم يخاطبون ملايين من الجماجم المحترمة كما كان يقول هملت : « أو أنساه يا يورريك (٢) المسكين » . لقد خلف لنا هذا القرن الذي امتاز بالتقدم والمؤرخين طعماً من الحقيقة البعيدة عن الوهم ، ورائحة من الانحلال ، كبراث لقرن الطائرات والمذيع والغازات السامة .

أى منظر من مناظر القضاء والقدر يكشفه التاريخ . هنا نجد مصر العزيزة تبني على الرمال إمبراطورية أعظم دواماً من أى عالم آخر متأخر ، وتقيم هياكل أفخم من معابد أوربا ، وتحكم جميع شعوب البحر الأبيض ، وتضرب ظهور الملايين من العبيد بالسياط ، وتحنط أجساد كهنتها وأمرائها في « منازل الخلود » .

(١) Decline of the West, pp. 38, 90, 353.

(٢) Yorick هو مضحك ملك دنمارك في رواية هملت ، وكان شخصاً واسع الخيال ، وكان هملت يخاطب جميعته (المترجم) .

أيتها العبارة المسكينة ! فلم يبق شئ من سائر ذلك الخاود سوى شعور بيضاء نابتة على عظام خاوية . بل إن الأهرامات لتجمل معنى الموت . وأنت تجد الرمال تهب من الصحراء فتغرق تلك « الملاعب » playhouses القائمة على الجرفات والمشيقة من الحجارة ، وعلى الحكومة أن تنفق كثيراً من المال كل عام لإزالة تلك الرمال . حتى إذا عاد السائح من رحلته بعد أن يسمح الحبات الثقيلة التي نفذت إلى مسام وجهه ، تعجب ماذا يحدث لو أن الحكومة توقفت عن بذل المال في تلك الأنحاء قرناً أو قرنين من الزمان ، وتصور الرمال تعطى تلك الآثار طبقة فوق طبقة إلى أن يختفى أعلى حجر في أعلى هرم ، ولا تبقى بعد ذلك أى علامة من علامات العظمة والاستبعاد مما كان يدل على مصر . ولعل هذا السائح يسعيد قصيدة شاللى الرائعة الخليفة المسماة « أزمندياس Ozymandias » :

أخبرنى يا عائداً من دولة الزمان الغابر
ما ذارأت ؟ حجران كبيران فى القفر الهاجر
بالقرب منهما تمثال يغوص فى الرمال ويرقد
يعساوه عبوس وتجهم والأمر وفم جامد
بوركت أيها المثل أحسنت درك المشاعر
أبرزتها مطبوعة فى الميت المتحجر
بقلب شغوف ويد الفنان الساخر
عبارة فى قاعدة التمثال نور تسطع
« أنا أزمندياس ملك الملوك الأرفع
انظر إلى آثارى أيها الجبار واخشع »
ولم يبق جنب بقية الحطام العارى المعبر
إلا الرمال وحيدة مبسوطة على مد البصر

أو اذهب إلى اليونان ، واصعد التل الذى يقضى إلى البارثينون . ثم استعد فى صفحة خيالك كيف أشرف إكستينوس ومنسيكليوس مدة تسعة أعوام على بناء ذلك الهيكل المتواضع الرائع ، البالغ أقصى حدود التناسب والفن ، وقد صيغ كل خط فيه فى الحناة تكاد تشاكل حرارة الحسد البشرى وإنشاءه . واذكر

فيدياس وتلاميذه وكيف ظلوا تسعة أعوام يحفرون فى الرخام العصى صوراً تتشكل فى الأفاريز . . . صور قوم يبلغ من روعتها أن الناظر إليها لا يملك إلا التسمى قليلاً فى العقل والخلق . صور أرباب فيها من العظمة والصفاء بحيث لا يعتقد من ينظر إليها أن قدماء الآلهة كانوا يسرون سيرة العدوان والاعتصاب . وقد ظل ذلك الهيكل عدة قرون يتوج الأكروبوليس ، تزهر ألوانه فى ضوء الشمس . وكم من أجيال ارتفعت بالنظر إليه ، شاعرة أن الناس هنا كانوا كالآلهة ، ولو بعض الوقت .

ثم نشبت الحرب عام ١٦٨٧ ، واستولى الأتراك على أثينا ، فاتخذوا من البارثينون مخزناً لبارودهم ، وأرسل أهل البندقية السفن الحربية إلى الميناء فى يريه ، فخربت المدافع البارثينون . وحين تبلغ قمة ذلك التل الذى يشبه الحرم المقدس كى تقدم فريضة تلك الصغيرة على ذلك المذبح الغابر من الجمال والعقل ، فلن تشهد البارثينون فى تمامه ، إذ لم يبق منه إلا أجزاء من الأعمدة العظيمة فى انتظار زلزال يعيدها إلى استوائها . غير أن معظم البارثينون يقع تحت أقدامك ، فى ملاين من الشطوف من الحجر الأبيض اللامع المقطوع من جبل بنتاليكوس . حتى إذا انصرفت عن المكان عجبت : أهذا هو درس التاريخ — أن يبنى الإنسان آلافاً من السنين بشقاء يده وعرق جبينه كى يحطم الزمان المجنون الباطش كل ما يبنيه ؟ ذلك أن الزمان طويل الأمد ، والفن سريع الزوال ، وأروع الأشياء هى أسرعها إلى الفناء .

وذهب البارثينون ، واختفت اليونان ، وظهرت روما فتربعت على عرش الأرض كالمارد العظيم ولم يدر بخلد أحد أنها تهوى . ومع ذلك فقد حطمتها أمور غير حسية مثل نسبة المواليد وإجهاد التربة ، ولم يبق منها إلا ذكرى الحكام المستبدين لنحاكيمهم . وذهبت كريت ، وأرض الميعاد ، وقرطاجنة ، وأشور ، وبابل ، وفارس — وأصبحت تلك الدول أشبه بالآلهة الذين فقدوا عبادهم ، أو بالمعابد التى يزورها السواح دون أن تسمع قط أى صلاة . لقد حل الموت بها جميعاً .

ثم ظهرت أوربا — إيطاليا ، وأسبانيا ، وفرنسا ، وإنجلترا ، وألمانيا —

فخلقت حضارة بلغت من القوة حداً لم يعرفه التاريخ من قبل ، وشيدت كنائس تنافس البارثينون ، وأبدعت علوماً أعظم من علوم اليونان ، وعزفت موسيقى لم تحلم بها العهود الغابرة ، وحصلت معرفة وقوة ونقلتهما من جيل إلى جيل بما لم يسبق له مثيل . وإذا شبنجلر يظهر فيعلن لأوروبا المفتونة بالحرب : « إنك ميتة . إنى لألمح فيك كل وصمة من وصمات الانحلال . فأنتظمتك ، وديمقراطيتك ، وفسادك ، ومدنك الهائلة ، وعلمك ، وفنك ، واشتراكيته ، وإلحادك ، وفلسفتك ، بل ورياضياتك ، هى بالضبط تلك التى ميزت عصور الأبول فى الدول الغابرة . ولن يمضى قرن آخر حتى تلتهمس الحضارة لها مركزاً بعيداً عنك . هذا هو عصر ك الإسكندري » .

ثم تظهر أمريكا ، وتبنى حضارة على أساس أوسع مما رآه العالم من قبل ، وتهدف إلى بلوغ مراقي أعظم مما بلغه العالم قبل ذلك . ولكن إذا كان لنا فى التاريخ أى ثقة ، وكان للماضى أى ضوء يلقى على الحاضر فهذه الحضارة أيضاً ، تلك التى نرفع عمدها بهذا الكد المحموم والعناية الملهوفة ، سوف تفنى ، وبعد آلاف من السنين ستجد الوحوش تتجول مرة أخرى فى الأرض التى نعمل فيها اليوم . هذه هى الصورة التى يراها المؤرخ فى المستقبل كما رآها فى الماضى . فهو ينتهى إلى هذه النتيجة : وهى أن هناك حقيقة واحدة مؤكدة فى التاريخ ، هذه الحقيقة هى الانحلال ، كما أن ثمة أمراً واحداً مؤكداً فى الحياة ، وهو الموت .

٣ — الاقتصاد والحضارة

إنها صورة كئيبة . فهلم بنا نر إذا كانت صادقة .

ولكن ما الحضارة ؟ إنها مزيج مركب من الأمن والثقافة ، من النظام والحرية : أمن سياسى قائم على الأخلاق والقانون ، وأمن اقتصادى يستند إلى استمرار الإنتاج والتبادل . وثقافة تنبت من تسهيل المعرفة والعادات والفنون ونقلها من جيل إلى جيل . والحضارة شىء معقد مزعزع يعتمد على عشرات العوامل التى قد يحدد أى عامل منها العظمة أو التدهور . وسنبذل جهدنا فى تحليل هذه الشبكة المعقدة ، فندرس العوامل واحداً بعد الآخر .

والعوامل الاقتصادية أساسية ، فالأرض تأتي قبل الإنسان ؛ ومع أن الإنسان يعدل بيئته بمقدار ما يغيره البيئة ، فيجب أن توجد البيئة أولاً. والعوامل المناخية تقييد واضح يحدد إمكان الانتفاع بالأرض ، فتناقص سقوط المطر بشكل غير محسوس على مرّ الأجيال قد يقضى على حضارة ما ، كما حدث في آشور وبابل ، أو في الثقافة البدائية التي اكتشفها أندروز في منغوليا . فالأرض الخصبة تنشأ عن مناخ معتدل . ومع ذلك فليست خصوبة الأرض شيئاً لا غنى عنه ، لأن اليونان والرومان شيدتا في الأغلب على صحور ومستنقعات ورمال . ثم جاء فرسان روما فانتصروا على اليونان . وكان إجهاد الأرض هو الذى هزم الرومان . وكان استغلال التجار للفلاحين ، وما تبع ذلك من حاول المستأجرين محل ملاك الأرض ، وما نجم عن ذلك من إهمال الزراعة ، ما مزق كيان روما ، كما هو آخذ في إصابة أمريكا . وعلى العكس من ذلك فإن أرض الصين التي تظهر غير مجعدة — ولعل ذلك يرجع إلى طريقة تسميدها الممتازة ولكنها غير العلمية — تفسر استمرار عودة الحضارة والثقافة إلى تلك الأرض القديمة والتي لا تزال بكرّاً . وليس من الضروري أن تسير الحضارة في طريق الغرب ، بل في اتجاه الحقول البكر . ولما كان الإنسان يبدأ مسيره من المناطق الحارة ، فإن طريق الدول العظمى يتجه في الأغلب شمالاً وجنوباً . ولعلها اليوم تسخر من كل القوانين وتعود مرة أخرى إلى الشرق . ولكننا نرى في كل مكان أن زراعة الأرض تسبق تهذيب النفس وتكون شرطاً له .

وتنتج الأرض المعادن كما تنتج الطعام . وقد يكون الذهب والفضة والحديد والنفخ في بعض الأحوال أعظم لمصير الأمة خطراً من القمح والغلل . وإنجلترا أعظم شاهد على ذلك . وقد ضعفت اليونان عند انضوب مناجم الفضة في لوريوم ، وضعفت روما بنفاد مناجم فضتها في أسبانيا . وستشرق إنجلترا في الفناء عندما ينقل الفحم إلى نيوكاسل . ولعل الصين تزعم حضارة العالم حين تستغل ثروة مناجمها المدفونة في باطن أرضها . وقد لاحظ بروكس أدامز انتقال الرعامة الاقتصادية من إنجلترا إلى ألمانيا بعد الاستيلاء على الألزاس واللورين (بما فيهما من فحم وحديد) عام ١٨٧١ ، ونهضة الصناعة الأمريكية وتفوقها عقب اكتشاف

مناجم الفحم فى بنسلفانيا سنة ١٨٩٧ . وفى ذلك الحين انتفضت أوروبا على الصين لاقتسام فحمها ، واستولت أمريكا على الفلبين لتقوية سياسة « الباب المفتوح » . فالفحم ملك ، والبترول هو وارثه الظاهر ، وقوة الكهرباء هى المرشح للعرش^(١) .

وبيلغ الوضع التجارى والقوة التجارية من الأهمية مبلغ أى عامل من هذه العوامل الاقتصادية فى الحضارة ، إذ ينبغى أن تخترق الدولة بعض الطرق التجارية الهامة ، ويجب أن تقدم مراكز تتجمع فيها الأعصاب التجارية العالمية إذا شاءت أن تتمتع بالتسهيلات لذلك التبادل الخاص بوسائل الراحة والثقافة مما يحرك همة الشعب ويدفعه إلى الإنتاج . وقد نهضت اليونان بسبب الاستيلاء على طروادة والسيطرة على بحر إيجه . وارتفع شأن روما بهزيمة قرطاجنة والتحكم فى البحر الأبيض . وظهر فى أسبانيا سرفانتس وفلاسكويز^(٢) لأنها تقع فى الطريق إلى العالم الجديد . وظهرت النهضة فى إيطاليا لأنها كانت محط التجارة بين أوروبا والشرق . ونمت روسيا تدريجاً لأن الطرق البرية حلت محل الطرق البحرية بعد العصر الوسيط ، ولم تستطع أن تظفر بالسياسة أو الحرب بالسيادة على البحار الداخلية التى تصب فيها أنهارها . وأخذت روما تموت حين اتخذ قسطنطين القسطنطينية عاصمته ، وأصبحت بيزنطة القديمة المركز المتوسط بين الطرق الكبرى الوافدة من روسيا وألمانيا والنمسا إلى الشرق الأوسط . وشرعت إيطاليا بأفل نجمها عندما اكتشفت كولومبس أمريكا . وكان تغير الطرق التجارية هو الذى نقل قبل أى اعتبار آخر زعامة الحضارة من البحر الأبيض إلى دول الأطلنطى الشمالية . وقد تحول تبدل النقل من البحر إلى الجو ومراكز الثقافة الكبرى إلى داخل البر ، وذلك على طول الخطوط الجوية الموصلة بين المحطات التجارية . ومن يدرى لعل الطريق من « برلين إلى بغداد »^(٣) لا يصبح حلماً من الأحلام ،

(١) كتب المؤلف هذا المؤلف قبل تقدم المباحث الذرية والتفكير فى استخدام طاقها فى الأغراض السلمية اليوم (المترجم) .

(٢) سرفانتس Cervantes (١٥٤٧ - ١٦١٦) قصصى أسباني اشتهر بقصة دون كيشوت التى نشر الجزء الأول منها عام ١٦٠٥ والثانى ١٦١٥ - أما فيلاسكويز Velasquez (١٥٩٩ - ١٦٦٠) فهو مصور أسباني مشهور كان فى بلاط الملك فيليب الرابع (المترجم) .

(٣) نلاحظ مرة أخرى أن المؤلف كتب الطبعة الأولى منذ زمن طويل ، إذ لم يعد الطيران اليوم بين برلين وبغداد مشكلة ، وبذلك تحقق ما تخيله المؤلف منذ ربع قرن فقط (المترجم) .

وتزدهر أراضي روسيا القاحلة تحت سماء يملؤها الأزيز عندما تصبح الصين أعظم منافس وعميل للغرب .

وآخر العوامل الاقتصادية هي الصناعة التي لا يسمح لنا تاريخها القصير ببيان اتجاه أثرها بياناً يعتمد عليه . فالصناعة تجلب الثروة ، وتجمع عدداً عظيماً من السكان الذين يدفعون الضرائب في حيز ضيق ، وتمول العدوان الاستعماري imperialistic ، وتتهيء للسيادة السياسية . ولكن هل تفتح الصناعة الطريق للحضارة ؟ فالصناعة تعظم الكم ، وتهمل الكيف ، والمهارة الفنية ، والاختلافات الفردية . لقد كانت كل صناعة ذات يوم فناً ، واليوم أصبح كل فن صناعة . كان الناس يستخدمون قديماً في «الصناعات manufactures»^(١) «صناعاً يدويين handicraftsmen» ، وصناعاً فنيين artisans ، أما الآن فهم مجرد «أيدي hands» فهل تجعل الآلات الإنسان ميكانيكياً ، وتبعد عن النفس صقلها من الرقة الروحية والنمو الروحي ؟ فهذه انجلترا الصناعية لا تماثل بأي حال أدب عصر إليزابيث أو العلم الخالص أيام دارون ، أو الرسم في العصر الزاهي الذي بزغ على يد رينولدز وأفل مع موت ترنر . وظهر عصر ألمانيا العظيم مع ظهور فردريك ، وكانط ، وجوته ، وبيتهوفن ، وانتهى ببسمارك وفون ملتكه ، بالدم والحديد والفحم . أما فرنسا فقد كانت الصناعة فيها أقل من انجلترا وألمانيا ، وحضارتها أعظم . ومع أن عوائد الفرنسيين قد انحطت عن أيام قولنير الرقيقة الزاهية فإن العبقرية الفرنسية قد تفتحت في كل عقد منذ قولنير . والآن حيث إن فرنسا قد حصلت على فحم وحديد الألزاس واللورين فقد تهجر هي أيضاً الفن في سبيل الصناعة .

كلا ، الحق إنها التجارة ، لا الصناعة ، التي حركت عصب الحياة والفكر وأنتجت العصور السامية من الثقافة الأوروبية . ومع ذلك فالصناعة ناشئة ، ولا ينبيء الماضي (مع الاعتذار لشبنجلر) عن مستقبلها . ومن يدرى لعل الثروة التي تنمى بسرعة عظيمة تهبط أخيراً فراغاً للتفكير ، ووقتاً نتعلم فيه مرة أخرى فن الحياة ؟

(١) يلاحظ أن اسم المصنع في اللغة الإنجليزية عبارة عن الصناعة اليدوية "Manu" (المترجم)

٤ - علم الحياة والحضارة

إذا وُجدت البيئة فلا بد أن يضاف إليها لتحقيق أغراض الحضارة سكاناً حجتهم الطبيعة بتلك المبادأة والقوة مما تحتاج إليه الحياة في التغلب على البداوة وتذليل « الوسط milieu » للأغراض النامية . ولقد رأينا في نظرية الأستاذ بيتري أن الحضارة الحديدية تستمد أصلها من الامتزاج البطيء لشعوب كثيرة اجتمعت على غزو بيئة واحدة . ولهذا الامتزاج نفس التأثير المحدد للشباب ، كما هي الحال في تزواج البروتوزوا ، حيث يقوى كائنات حيان بعد فسادهما وعجزهما عن الاستمرار في الحياة ، ويعود إليهما الحصب بتبادل مادة النواة . وفي ذلك يقول بيتري : « تبدأ فترة أعظم مقدرة بعد ثمانية قرون من الامتزاج تقريباً ، وتستمر أربعة قرون أو خمسة » (١) . وهكذا نجد أن امتزاج الغال والفرنجة وغيرهما من القبائل أيام كلوفيس وشرلمان قد سبق بثمانية قرون أول ازدهار بديع للحضارة الفرنسية على يد رابليه ومونتيني . وكذلك كانت الحال في اختلاط الانجلز Angles ، والسكسون ، والجوتز Jutes وغيرهم مما كان سبباً في تكوين الشعب الإنجليزي ، وقد حدث ذلك الاختلاط قبل ظهور شكسبير وي يكون بثمانمائة عام .

وهناك دول أخرى قد لا يظهر فيها التأييد الموفق لقبول هذه النظرية ، ولكننا قد نفترض أن الامتزاج الجنسي يؤدي من حيث الحضارة إلى أثر سيء مؤقتاً ، وإلى أثر حسن في النهاية . ومن المحتمل أن يقضى تزواج العروق على الصفات الحبيثة فترة من الزمان ، ولكنه يقوى الصفات الموروثة والأساسية للجسم والعقل . هذه العملية الخاصة بإعادة النشاط تجري أسرع في البيئات الحديدية ، لأن الحجر تميل إلى اختيار أفراد باطنهم القوة وظاهرهم الضعف ، أفراد يمكن ثقافة وحيوية كثيرة ، ونحن نرى أن الحكمة من ذلك في أمريكا واضحة : « ففوضى دمائنا » هي السبيل الممهد لشعب جديد ، واستقرار جديد للروح ، وحضارة جديدة .

(١) المرجع السابق ، ص ١٢٨ .

ولكن ماذا نحن قائلون عن النظرية المضادة التي يذهب إليها جوبينو ونيتشه وتشمبرلين وجرانت ، من أن الزواج بين شعوب متميزة يقضى إلى إفساد الأخلاق وانهلال الحضارة ؟ نقول في الجواب بكل بساطة إن هؤلاء المفكرين اللامعين قد وضعوا الذنب قبل الرأس ، لأن الفساد هو الذى أدى إلى الزواج . فقد ظهر انهلال روما قبل غزو البرابرة بزمان طويل ، وتمتد جذور ذلك الانهلال في الترف الخنث أولاً ، وإنهاك قوى السلالة الرومانية القديمة ثانياً . فكان الزواج مع الألمان ثمرة استنزاف الجنس لا علة له .

أما الجانب القائم في نظرية بيترى فهو أن الجنس كالفرد له حدود تنتهى إليها حيويته الفسيولوجية ، ويجب أن يمر بالضرورة بمراحل الطفولة والبلوغ والفساد . ويذهب الأستاذ بيترى بهذه الصورة التي يفزع لها قلب كل باحث إلى أن هذه الدورة من حياة الجنس وموته لها عصور ذات أطوال متساوية في جميع الأحوال عملياً . ولكن الحياة تنفذ خلال جميع التعميمات العظمى . فالأجناس التي تغلح الأرض من الواضح أنها قد تستنفد عصوراً أطول من تلك التي تقطع العصور بسرعة لاهثة في حضارات المدن الصناعية .

ولعل هذا هو سر الإنهاك الذى أصاب السلالة الوطنية في روما ، إذ فقدت صحتها حين اقتلعت جذورها من الأرض ، وأقامت من الخاصة التي كانت تمتاز بالرجولة مدينة من الأثرياء الفاسدين ، والعامّة العاطلين . والمدن ضرورية للمدينة ، تبين حتى في كلمة « المدنية » Civilisation^(١) ، ولكنها تحمل في طياتها الكثير من بذور انهلال الجنس . فالحرف المستقرة ، والبيوت الضيقة ، والشوارع المزدحمة ، والملابس الأنيقة ، والأطعمة الدسمة ، وتيسير أسباب العدوى والانهلال ، كل ذلك يتعاون على إضعاف الصحة حتى حين تقلل وسائل الصحة العامة والطب الوقائي نسبة الوفيات بين الأطفال وتطيل الحياة . وقد حصدت الأوبئة نصف سكان الإمبراطورية الرومانية تحت حكم الأنطونين^(٢) Antonines ، فتركت روما

(١) Civis باللغة اللاتينية تعني مدينة (المترجم) .

(٢) الأنطونين اسم يطلق على سبع أباطرة حكموا روما من سنة ٩٦ إلى ١٩٢ ، وهم نيرفا ، تراجان ، اديان ، أنطونين ، مرقس أوريليوس ، فيروس ، كومودوس (المترجم) .

عاجزة أمام جمحافل الألمان . وأفنى « الموت الأسود » (١) كثيراً من سكان إنجلترا حتى قضى على الإقطاع . ومن يدرى لعل البكتريا التى تهاجمنا فى صبر شديد قد تنتصر علينا ، ذلك أن أعظم أعداء الإنسان لا يمكن أن يرى إلا بالميكروسكوب . وهناك عامل آخر أهم من هذه العوامل أثراً فى حياة المدن على مصير الجنس وهو التحكم الإرادى فى النسل . ذلك أن الأسر تصبح أقل عدداً كلما عظم اتساع المدن التى تختار مواطنيها أقل فأقل بطريق التوالد ، وأكثر فأكثر بطريق الهجرة من الريف والدول الأجنبية ، فتنقرض السلالات القديمة ، ويحل محلها أقوام أكثر شباباً . وهكذا توالد الرومان من أجناس غير أصيلة فانقرضوا ، ولم ينتصر عليهم جنود الجرمان بمقدار ما غزتهم الأمهات الجرمانيات . ومما يبعث على الفكاهة أن نجد قيصر العظم يكافح لوضع حد لهذا النضوب فى أصل الجنس بمكافأة الرومان الذين ينجبون كثيراً من الأولاد ، ومكافحة العقم بالزهو ، وذلك بتحريم المرأة العقيم لبس المجوهرات . وفرض أوغسطس عقوبات جديدة على العزاب ، ورفع معونة الأمومة إلى ألف درهم لكل طفل . وذهب قسطنطين إلى حد تقديم معونة حكومية لجميع الأطفال الذين يعجز آباؤهم عن تربيتهم (٢) . وكانت نتائج ذلك مماثلة لحملة تيودور روزفلت على « انتحار الجنس » . . . أى لا شئ . ذلك أن نسبة المواليد ستستمر فى الهبوط حيثما تجد الأسر قليلة الأبناء مزية اقتصادية على الأسر كثيرة العدد . الحق أن هذه الأمور لا تخضع للفلسفة (٣) .

أيؤدى هذا الهبوط فى نسبة المواليد إلى تدهور حضارتنا ؟ لقد سمع كل منا المتنبئين بمستقبل النسل يشيرون بأيدٍ وأصوات مرتعشة من الخوف إلى الطبقات المتعلمة فى أمريكا التى يقل عدد أبنائها نسبياً ، كما يعرف كل متعلم النكتة التى تقال عن المتخرجين فى جامعة هارفارد الذين ثبت بالإحصائيات أن لكل منهم ثلاثة أرباع بنت ، والمتخرجين فى جامعة فاسار وللواحد منهم جزء من ولد .

(١) الموت الأسود هو الطاعون (المترجم) .

(٢) Simkhovitch, V. : Toward the Understanding of Jesus, pp. 126-9 ; (٢)

Montesquieu, The Spirit of Laws, vol. ii, p. 13.

(٣) لعل عقم المدينة من النعم اليوم حيث يقلل مضاعفة الآلات الحاجة إلى الأيدي العاملة ، فيطرح ملايين العمال بغير عمل كل عام .

وليست الشكوى من أن الطب والرحمة « قد قضيا على الانتخاب الطبيعي » غريبة عن علماء البيولوجيا^(١). والنتيجة الدائمة هي أن السلالة تتوالد من أسفل، وأن النصف غير الصالح هو الذى يكاد ينتج الجيل التالى، وأن التعليم ضائع بسبب عقم الذكاء. وها هنا بعض الحق ولو أنه ليس بيولوجيا. فمن الواضح أن مهمة المربي تتضاعف لأن معظم أطفال الغد يتعلمون على أيدي أგრار الوقت الحاضر. فالتعصب والاعتقاد فى الحرافات، وضيق التفكير والرجعية، لا تزال مستمرة ومتخذة حياة جديدة عن طريق عقول الجهال الخصبية. وليس هذا من وجهة نظر البيولوجى بالمصيبة المفزعة كما تبدو للمربي. لأن المكتسبات الفكرية لا تنتقل بوساطة الصبغيات. وحتى أبناء « الدكاترة » يجب أن يعلموا، وأن يعمروا بمحنة الاعتقادات والمذاهب، ولا يستطيع أحد أن يعرف مقدار القوى والعبقورية الكامنة فى المتبرمين والعجزة من أطفال الفقراء. ومن الناحية البيولوجية، الحيوية الطبيعية آثمن من الميراث الفكرى. ومن الناحية الاجتماعية، قوة الخلق أثمن من العلم أو المال. ومن النادر أن يكون الفلاسفة أفضل الناس الذين يخرج الجنس من أصلابهم. وكان نيتشه يظن أن أفضل دماء ألمانيا هي تلك التى تجرى فى عروق الفلاحين. وكذلك الحال فيما يختص بنا^(٢): ولعله من الخير أن تكون المادة الإنسانية المقدمة للمربين صادرة عن بيوت تسود فيها قوة قد تستمر مدى الحياة وتنافس الجهل الذى يمكن تبديده بالتعليم. إن أى متحيز لن يرى الحل فى زيادة نسبة المواليد بين الأغنياء، بل فى تقييدها عند الفقراء. ينبغى أن نجعل وسائل منع الحمل مشروعة. وعلينا أن نتحارب لمنع ذوى العاهات من النسل، ويجب أن ننشر وعياً خاصاً بالنسل لتقضى على قصر النظر الموجود فى الزواج. وفى أثناء ذلك يمكن أن نلأثم بين أنفسنا وبين عقم الطبقة المفكرة، بأن نثق فى البيئة والتعليم أكثر من ثقتنا بالنسب الموروث كى ننقل الحضارة ونبسّطها. ليست الوراثة إلا عاملاً ضئيلاً فى السمو بالجنس. فالتطور ليس اليوم بيولوجياً بل اجتماعياً. عليك أن تقدم لنا سلالات صحيحة الأبدان وستحقق المدارس — إذا كانت أفضل — بقية المهمة.

(١) McCollum, E.V., The Newer Knowledge of Nutrition, p. 149.

(٢) يقصد المؤلف أمريكا (المترجم).

٥ - علم الاجتماع والحضارة

فالتقدم إذن لا يعتمد على أساليب الانتخاب بمقدار ما يعتمد على متانة نظمنا، لأن التقدم يقوم على التربية ونظام الحكم أكثر مما يستند إلى قضاء القوى على الضعيف. وأعظم شكننا في المستقبل لا ينصب على أنساب أسرة إدوارد أو الجوكز^(١) Jules بل على الحالة الحاضرة للأنظمة الاجتماعية التي نظمت وغذت قروناً طويلة نحو الإنسانية. مثال ذلك الكنيسة، والأسرة، والمدرسة، والدولة: كيف يسير التقدم معها باعتبار أنها حاملة الحضارة.

ولقد فقدت الكنيسة، كما نعرف جميعاً، شطراً عظيماً من ذلك التأثير الذي جعلها قدماً سيدة أوربا، والذي احتفظ بها حتى بعد انقساماتها المتكررة عاملاً هاماً في التربية والأخلاق ينافس أقوى الدول. واليوم لم يعد عندنا أمثال هلدبراند، أو كلفن، أو ويسلى، أو حتى بريجام يونج^(٢). ولست تجد شخصاً يزعم لنفسه الحديث عن ضمير الشعب يستطيع سياسة السلطان كما يسوسها رؤساء الحكومات والملوك. ومنذ أن حقق لوثر الإصلاح الديني بمعونة أمراء الألمان، استولت الدولة شيئاً فشيئاً على أملاك الكنيسة وسلطانها، وتأثرت قيادة الكهنوت الروحية تأثراً ملحوظاً.

هذا الذوبان للعقائد، وهذا الانهيار السريع للجزئات الدينية الخاصة بالأخلاق، يعد في نظر بحاث التاريخ ظواهر في غاية الأهمية لفهم الحاضر والبصر بالمستقبل. ولم يتدهور الاعتقاد الديني منذ أن لعب قيصر دور « الكاهن الأعظم Pontifex Maximus » كما تدهور اليوم. ولم يسبق لقانون أخلاقي في أى شعب أن تعرض للشدائد والتغيرات كتلك التي تصيب اليوم الشريعة المسيحية القديمة. أتستطيع الدولة أن تحتفظ بالنظام الاجتماعي بدون التعاون مع الكنيسة؟ أتستطيع الأخلاق أن تعيش إذا قامت فقط على التربية وانفصلت عن العقائد السماوية؟ هل المدرسة الحديثة بديل كاف عن الكنيسة والبيت؟ هل تنشر علماً بغير حكمة،

(١) دراسة عن جماعة من الأخوات عشن في نيويورك في القرن الثامن عشر، وسرن في طريق الإجماع، وصدر الكتاب عام ١٨٧٧ (المترجم).

(٢) جماعة من المصلحين الدينيين ظهروا في أوقات مختلفة (المترجم).

ومعرفة بدون فطنة ، ومهارة بغير ضمير ؟ هل الأولى أن تعلم المدرسة توافقاً
سلبياً وآلياً مع البيئة بدلا من تربية حاسة الجمال والعناية بالخلق ؟

أما الدين فسوف نتحدث عنه فيما بعد . وأما الأسرة فقد رأينا من قبل
مظاهر انحلالها . ولقد كانت الأسرة الأساس الأول في كل حضارة عرفها التاريخ ؛
كانت الوحدة الاقتصادية والإنتاجية في المجتمع التي تضم أطراف الأرض . وكانت
الوحدة السياسية في المجتمع بما كان للأب من سلطة تعتمد عليها الدولة كصورة
مصغرة . وكانت الوحدة الثقافية ، فيها تنتقل الآداب والفنون ، ويربى النشء ،
ويعلم الشباب . وكانت الوحدة الأخلاقية التي تهبيء عن طريق التعاون والتأديب
تلك الميول الاجتماعية التي تعد الأساس النفساني والملاط للمجتمع المتحضر .
كانت الأسرة من جهات كثيرة أعظم أهمية من الدولة : فقد تنهار الحكومات
ومع ذلك يقوم النظام إذا بقيت الأسرة متماسكة . ومن أجل ذلك خيل إلى علماء
الاجتماع أن الأسرة إذا انحلت اختفت الحضارة نفسها .

ولكن الدولة اليوم تنمو أقوى وأقوى ، على حين تمتحن الأسرة بتحول
خطر من مساكن إلى منازل ، ومن طفل يتعلق بأبيه إلى مجرد ربيب . حقاً لا يزال
الرجال يتصلون بالنساء ، وينسلون من وقت إلى آخر ، ولكن الصلة الجنسية
ليست هي الزواج دائماً ، وليس الزواج هو الأبوة دائماً ، وليست الأبوة هي
التربية غالباً . ذلك أن حرية الاتصال والانفصال تجعل عمر الزواج قصيراً ،
وقضت الاختراعات على نصف الأبوة ، وأخذت المدرسة الطفل من أحضان
أمه ، وسلبت الدولة سلطة الآباء . وأصبح المعلم والشرطي يبذلان وسعهما في
إعادة نظام البيت القديم . وفوق هذا كله ، حلت الصناعة محل الزراعة ، واتخذت
الحرفة الفردية مكان العمل الجمعي في الحقول . ويقوم اليوم صوت الفرد الانتخابي
مكان الجماعة في القرية ، والاجتماع في المدينة ، والوحدة الزراعية ، وغير ذلك
من صور النظم السياسية القائمة على تمثيل الأسر بوساطة رؤسائها . ولم يبق من
نظام الأسرة القديم إلا منزل للنوم ، وعاطفة لا يعول عليها تصل بين الرجل
والمرأة ، وبنين وبنات يجتمعون بماوى شباههم . لقد تركزت مسئولية النظام
الاجتماعي كلها في الدولة ، وأصبحت المسئولية واقعة عليها .

ولكن الدولة أهي من القوة ومن التمكن الاقتصادى والخلقى بحيث يمكن أن تتحمل وحدها جميع مسئولية حفظ وتنمية ونقل ذلك التراث الجنسى من المعرفة والفضيلة والفن مما يكون لحملة الحضارة وسداها ؟ أم أن الدولة بما لها من الوقت الحاضر من جهاز سياسى تقع آليا في أيدي أناس من الطبقة الثانية والثالثة المعرفة عندهم لعنة ، والفن سرغامض ؟ لم كانت أكبر المدن في أمريكا محكومة بأصغر رجالها ؟ ولماذا كان الطريق إلى الوظائف منحصرأ في «الهيئات organisations» الخالية من فن السياسة والوطنية والضمير ؟ ولماذا انتشرت الرشوة والتزوير الانتخابى وابتزاز أموال الجماهير إلى الحد الذى أصبحت فيه أى دعاية صحفية عاجزة عن إثارة الامتناع وتحرريك الهمم إلى العمل ؟ لماذا كانت وظيفة الحكومة الرئيسية اليوم هى قمع الجرائم أو الحماية منها ، والإعداد للحرب فى الفترة الوانعة بين معاهدات السلم ؟ أهذا هو النظام institution الذى يجب على الكنيسة والأسرة التسليم له برعاية الحضارة ؟

ومرة أخرى نقول : إن فى الثروة العظيمة من الخطورة بمقدار ما فيها من المعونة للجماعة . لأن قدرات الناس ما دامت متفاوتة ، فإن الثروات تصبح متفاوتة أكثر فأكثر ، عندما تضاعف الاختراعات والنظام الآلى قوة ذوى العقول الموجهة والمندبرة . ثم تتسع الفجوة بين الطبقات ، ويجهد الجسم السياسى كالحال فى انقسام الخلية . وكلما تزايدت الثروة هدد الترف حيوية الجنس الجسمية والخلقية . فيقل التماس الناس تحقيق أغراضهم بعمل أيديهم ، ويزيد التماسهم لها فى إشباع لذات الجسد ، وتحل متعة التسلية محل بهجة الابتكار . ثم تنحط الرجولة ويزيد الإقبال على المسائل الجنسية ، وتكثر الأمراض العصبية ، وتظهر طائفة المحللين النفسانيين ، وينحل الخلق ، حتى إذا أصيبت الأمة بأزمة أصبحت فى ميزان القدر . أو كما صور الأمر منذ بضعة أعوام كاتب ناشئ فى كثير من الدقة وفى مزاج من الشاؤم الرزين ، فقال :

« التاريخ عملية للعود إلى البربرية . فالشعب الذى تقويه ظروف الحياة الطبيعية ، وتسوقه مطالب العيش المتزايدة ، يترك موطنه الأصيل ، ويتحرك نحو شعب أقل قوة ، ويغزوه ، ويزيحه من مكانه أو يمتصه . ثم سرعان ما تولد

عادات العزيمية والنشاط التي كانت تنمو في بيئة أقل قسوة فائضاً اقتصادياً . ثم يولد هذا الفائض طبقة فارغة leisureed class : تحتقر النشاط الجسدى وتنغمس في فنون الترف . ثم يولد الفراغ التأمل والنظر ، ويحلل التأمل العقائد وينخرعظام التقاليد ، وينمى حساسية البصر ، ويخطم عزيمية العمل . ويكتشف الفكر المغامر في متاهة من التحليل الفرد خلف المجتمع . وينحرف الفكر عن وظيفته الطبيعية وينعطف على نفسه فيكتشف النفس . ويضعف الإحساس بالفائدة المشتركة ومصلحة الدولة . فلا يوجد الآن مواطنون بل مجرد أفراد .

وإذا بشعب آخر بعيد يعيش مكافحاً بيئة قاسية ، يرى هنا غابات اقتلعت وطرقاً معبدة ، ومحاصيل وفيرة ، وترف الفراغ ، فيحلم ، ويطمح ، ويجازف ، ويتحد ، ويغزو . وهكذا دواليك « (١) .

٦ — استمرار الحضارة

هذه هي عوامل المشكلة ، وهذه هي الشكوك المتعلقة بمصيرنا . فإذا نحن قائلون الآن حين نواجه مسألة التاريخ الكبرى ؟

فلنضيق أطراف البحث : نحن لا نسأل هل يجب أن تفتى الأرض — والمفروض أنها ستفتى . ولا نسأل أتدوم الأمة أو الجنس أو النوع إلى الأبد — والمفروض أنها لن تدوم . ولكننا نسأل أيمكن للحضارة أن تحفظ إلى الأبد ، أم أنها مقضى عليها بتكرار الفناء ؟ . ليست الحضارة شيئاً مادياً يرتبط ولا بد ببقعة معينة من الأرض ، ولكنها مزيج غير محسوس من الأعمال الفنية والمبدعات الثقافية ، التي إذا أمكن نقلها إلى الوطن الجديد للقوة المادية ، حفظت الحضارة إلى حد كبير ، وعاشت حياة حقيقية فعالة منتشرة زمنياً طويلاً بعد فناء الدولة والجيش والسياسة ورجال الأمن الذين سهروا على رفعها .

وفي ضوء هذا المعنى المحدود ليس من الصحيح أن الحضارات تموت ، بل الأمم والشعوب هي التي تموت . فالحضارة اليونانية لم تمت ، كل ما في الأمر أن الأرض التي كانت تغذى في الماضي هوميروس والإسكندر لم تعد خصبة بالعباقة . فالحضارة اليونانية ليست هناك اليوم ، ولكنها تعيش في بلد آخر ، في ذلك العالم الروحي الذي هو ذكرى ذلك الجنس : فلا يزال هوميروس ينشد سخط

أخيل ، والإسكندر يزحف إلى نهر الكنج ؛ ويوقع هز يود الشاعر عظامه الريفية ، ويتوج بندارياً كاليل من أشعاره جبين الرياضيين ؛ ويشرع سولون ويتعلم ، ويصوغ كليستينس الديمقراطية ؛ ويستمتع بركليس لأنكساجوراس ، ويجلس مع سقراط عند أقدام أسبانيا ؛ ويقذف أسيكلوس بتحدى بروميثيوس الأبدى للسماء ، ويستلر أوريديس دموع المنتصرين وأهل طروادة الذين ذبحهم المنتصرون ؛ ويمشى أفلاطون بهدوء بين تلاميذه في أكاديمية الجالدة حيث يستمع إليه اليوم مئات الألوف من الطلاب كل ساعة بشخصه الذى استحال ألفاظاً ؛ ويحمل ديوجينيس مصباحه بصبر ، ويصنف أرسطو الكون ؛ ويخاطب زينون عبر القرون أوريليوس ، ويمشى أبيقور إلى جانب لوكريتيوس ؛ وتقرض سافو اللسبوسية الشعر مع أناكريبون ، ويراقب أفليدس الإسكندري أرشميدس وهو يرسم الأشكال الهندسية في حصار سرقوسة . ليس هذا موتاً ، بل حياة الجنس وروحه ذاتهما .

إن الذاكرة لتتخطى مثل هذا الموت ، وذاكرة البشرية اليوم أوكد وأكمل من أى وقت مضى . لقد نقلت الكتابة ذاكرة الجنس نقلاً ضعيفاً ، وتقلها الطباعة نقلاً أحسن ؛ وتستغل المدارس الذاكرة وتخزنها لجميع الناس . وفى كل يوم تبتكر وسائل عجيبة جديدة لمساعدتها ، مستخرجة صوتاً من القبور يغنى للأجيال ، لاقطة مناظر أو كلمات منذ اللحظة التى حصلت أو صدرت فيها ، وتحملها بعيداً ، عبر القارة ، كى تنعش ذكرى كثير من الناس بما نطقوا به من أقوال هامة .

أجل تموت الأمم . فالمناطق القديمة تصبح جذبة أو عقيمة ، فيلتقط الإنسان آلاته وفنونه وينقل حاملاً معه ذكرياته . وإذا كان التعليم يعمق ذكرياته ويوسعها ، فإن الحضارة تهجر معه ، وكل ما فى الأمر أنها تغير موطنها ، ولا يحتاج الإنسان فى الأرض الجديدة أن يبدأ بداية جديدة كل الحدة ، ولا أن ينمو بغير معونة صديقة ، فوسائل المواصلات والانتقال تربطه بالأرض التى ولدته كأنها المشيمة التى تغذيه . وبذلك تقوم معونة الأبوة العظيمة التى تقدمها «الدولة الأم» للمستعمرات مقام المعونة الأبوية للشباب فى طفولة الإنسان : تحميه وتعلمه ، تنقل إليه أسرار الأخلاق والحكمة والفن . الحضارات هى أجيال روح الجنس .

وحتى حين نكتب ونقرأ ، فالطباعة والتجارة والأسلاك وأمواج الأثير وأرباب الهواء الخفية توحد بين الشعوب والثقافات ، وتجعل العالم كله شيئاً واحداً ، وتحفظ للجميع ما يستطيع كل أمرئ أن يقدمه .

لم تعد الحضارة فى حاجة إلى الموت ، ولعلها ستعيش حتى بعد فناء الإنسان ، فتنقل وترتفع إلى جنس أرقى .

٧ - المستقبل فى أمريكا

إذا شئنا أن نناقش الموضوع مناقشة أكثر وأخص فعلينا أن نفصل بين أوروبا وآسيا وأمريكا ، وننظر إلى مطمع كل منها على حدة ، فنجد فوارق حتى فى داخل أوروبا ؛ فالخط يلتفت بوجه متفاوتة إلى إنجلترا والقارة ، إلى روسيا والغرب ، إلى تركيا فى شبابها الثانى وإيطاليا فى زهوها الحديد والمثير . وأكبر الظن أن مجارى المياه المتدفقة فى جبال الألبين المعدة لتوليد القوى الكهربائية ستزود إيطاليا بالثروة التى تنفق منها على « نهضة » أقل من عصر النهضة . والأرجح أن روسيا ستفلس فى تحويل عدد كاف من الفلاحين إلى معدنين ، وفنيين ، وعمال السكك الحديدية ، وصناع ، لاستخراج المعادن الغنية من باطن أرضها ، وإقامة نظام ثابت من الصناعة ، لتتبوأ مكانها بين « الدول العظمى » فى العالم ^(١) . ولا بد أن تمكن صحة الفرد والمجتمع فى ألمانيا على الرغم من التعويضات المفروضة عليها من استعادة الزعامة التجارية التى كانت قد بلغت عند نشوب الحرب ^(٢) . وإذا لم يستطع ساسة إنجلترا البارعون أن يحددوا القوانين الاقتصادية ، فستفقد أكثر فأكثر تجارتها الخارجية ، وتواجه أكثر فأكثر البطالة والفقر ، وتنفق حيويتها فى الانقسامات والفتن ، وتجند نفسها وقد وقف منها « الشرق » المتجدد الشباب موقف التسامح والتجاهل .

كلا ، من المستحيل أن ننظر إلى الحطوظ جملة ، فالمستقبل له أكثر من وجه للدول الكثيرة . وإذا وجب أن نذكر مصير القارات ، فمن اليسير القول

(١) نلاحظ مرة أخرى أن المؤلف كتب هذا الكلام منذ ربع قرن ، فكأنه كان يتنبأ بمصير روسيا الذى بلغته الآن من التصنيع والقوة (المترجم) .

(٢) المقصود حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ (المترجم) .

بأن الإنجليز والفرنسيين في طريق الحضارة ، أن الألمان والروس في سبيل الكسب .
وأن أوربا تخسر ، وآسيا تكسب . وأن أمريكا في شباب عمرها . حقاً التغير بطيء ،
ومع ذلك فلن يسدل الستار على هذا القرن حتى تؤسس الصين نفسها دولة صناعية
تضاهي أى دولة في أوربا ، وحتى تنتقل أمريكا من النزعة التجارية إلى التعلق
بالثقافة ، ومن حب الغنى إلى عشق الفن ، ومن السياسة إلى صناعة الحكم .

ولست النزعة التجارية ، كما ظن شبنجلر ، نذير الانحلال ، اللهم إلا
بالنسبة للأرستقراطية الزراعية التى قد تحل الطبقة التجارية محلها . إنها فترة انتقال
من التقاليد المستقرة فى العصر الزراعى إلى الثقافة الفعالة فى مدن مثل أثينا فى
عصر بركليس ، أو روما زمان أغسطس ، أو فلورنسا أيام الميديشى ، وهى
مدن تسود فيها التجارة والصناعة ، وقد تحررت منذ عهد طويل من سلطان
أرستقراطية الأرض . فالريادة ، والتجارة ، والثقافة : هذه هى مراحل الحضارة
السائرة نحو النضوج . وإذا نظرنا إلى هذه الثلاث مجتمعاً فكل منها مغتفر ؛ لأن
كلاً منها ضرورى . فأول كل شئ يجب أن تقتلع الغابات ، وتبذر البذور ،
وتستخرج المعادن والوقود ، وتبنى البيوت ، وتعبد الطرق ، وتدار ملايين من
العجلات . ثم يجب أن يفيض فائض ، وفراغ ، قبل أن يتمهل الناس لقرض
الشعر ، أو نحت التماثيل ، أو تأليف الموسيقى ، أو التفكير فى الفلسفة . فلنعش
أولاً *Primum est vivere* ، كما يقول المثل اللاتينى . ومن الخير أن نخجل
من ازدهار لم يتعلق بعد بالفن ، فهذا الخجل هو الباعث القوى الذى لعله قد
ينقلنا من التعلق بالثروات إلى الحضارة . ولكننا لا يجب أن ننفع فى هذا الشعور
بالنقص الثقافى حتى يصبح مرضاً موهناً . ومن الخير أحياناً ألا نتأمل كنائس أوربا
ومنتدياتها فقط ، بل مذابحها ، وفرقها الدينية والجنسية ، وأسلحتها وجيوشها .
وإذا نرى فى أمريكا تلك الثروة التى يحسدها عليها جميع الأوربيين والتى يطمع
كل المفكرين فى اقتسامها ، بل سناء أغنيائنا الذى لم يسبق له مثيل على التعليم ،
وشغف شعبنا شغفاً لا يبارى بالمعرفة والآداب ، وتطلعه إلى كل باب يفضى إلى
التراث الثقافى لحضنتنا .

ولم يزر شبنجلر أمريكا قط ، فهو يكتب مستنداً إلى جدار قارة محمولة

ولعلها جرحت جروحاً مميّنة بالحرب ؛ وهو لا يستطيع أن يرى في أمريكا أن علامات الشباب وأخطأهم تزيد على علامات الانحلال . ويعرف كل مثقف من النظر إلى التواريخ الماثلة أننا لا نزال في شباب أمتنا : فلم يكدهم ثلثمائة عام على وفود الآباء الحجاج ، ومائة وخمسون عاماً منذ أن تأسست حكومتنا . ومن المضحك أن يتوقع أحدنا الفن أو الذوق من بلد غير ناضج ، كما أنك لا تتوقع أحكاماً صحيحة ميتافيزيقية أو سياسية من الشباب . ويجب أن يصاب النمو بأمراضه وأن يفاخر بخطاياها .

ولم يسبق لحضارة أن وجدت مثل هذه القاعدة الاقتصادية معدة لها : فيها مناخ محرك للهمم يوجد فيه كل الاختلافات المفيدة . وفيها أرض خصبة لا تزال قادرة على إنتاج أضعاف محصولها الحاضر حين تزرع وتروى علمياً . وفيها أرض تكاد تكون غنية بكل معدن ، وتفيض بزيوت الوقود . وفيها سكك حديدية تنافس مثيلها في العالم ، ولا تزال تتحسن كل يوم ، وفيها طرق مائية لم تستغل بسبب منافسة السكك الحديدية ، ولا تحتاج إلا ليد حرة تجعل منها طرقاً ليس لها مثيل . فيها مصانع كاملة العدة شاحنة في الجو بشكل أنيق . وفيها مخترعون أكثر تنظيماً وأفضل إدارة من أى مكان في الخارج . وفيها جوايون وطيّارون يكتبون الملاحم والأغاني وهم في الجو . وفيها أصحاب المال الذين يقدمون ذهبهم راجين الصناعات في استغلاله . وأخيراً فيها حكومة اقترنت بالعلم وارتفع فيها فن الحكم . فإذا نحن فاعلون بهذه الثروة الطيبة كلها ؟

لعلها تفضى بنا إلى الخراب . ولنصارح أنفسنا مرة أخرى لخير أنفسنا : الثروة وحدها لا تجعل الأمة عظيمة . فقد يمكن أن تحطم الأسرة بدلا من بناء البيوت . ويمكن أن تفسد الحكومة بدلا من حماية الفنون . يمكن أن تسعى وراء القوة بدلا من الحكمة ، والفظاظة بدلا من الأدب . والترف بدلا من الذوق . يمكن أن تقدم لنا روما الفاسدة كما تقدم لنا اليونان المبدعة . فأى هذين سيكون مصير أمريكا ؟

ما مصير « بيوتنا المتعددة اللغات » ؟ كان ماديسون جرانت على حق في زعمه أن : « الحكومات الأوروبية انتهزت الفرصة لتلقى على كاهل أمريكا المهملّة

الغنية المضيفة نفايات سخونها وملاجئها » . وهذه إحدى المزايم الضخمة التي تكون السر في الأسلوب القوي . ونحن نتخلص من مثل هذه الأقوال بالموافقة على نصف ما فيها من حق . لقد كان بعض المهاجرين إلينا من الطبقة الأرستقراطية وكان البعض الآخر مجرمين . ولم تكن الفئتان متميزتين تماماً ، ومن المحتمل أنهما الآن قد انقلبتا . ثم إن البيئة والظروف تتلاعب كثيراً بالوراثة : فلا يمكن القول إذا كان اللصوص أو البارونات الذين وفدوا إلينا هم الذين خلفوا أبداع السلالات أو أسهموا أكثر من غيرهم في تقدمنا .

لقد أخذ الأنجلوسكسون يفقدون سلطانهم القوي في هذه البلاد ، فذهب نفوذهم القديم في سياسة المدن وأخلاقيها وفي الأساليب الأدبية . ولم يكن الأنجلوسكسون بتكثير النسل كغيرهم من منافسيهم ، إذ كانوا يرون أن صفاتهم جديرة بالاحتفاظ بقوتهم وهيبتهم . ولكن الزمن هزمهم وخلف لهم الغاية المنقودة . لقد ولى زمان السلالة المتسقة التي أنتجت عصر نيوإنجلند في تاريخنا الثقافي . واستمر عشرات من السنين قبل أن يماثل المهاجرون المتأخرون أسلوب إمرسون ومادته ، أو لطافة البيت في نيوإنجلند واحترامه . يجب أن تمر فترة غليظة من البدع واللهجات البربرية حتى تتبوأ السلالات المتقدمة شأنها ومكانتها . وفي النهاية سيبرز جنس جديد ، ولغة جديدة في أكبر الظن ، وأدب جديد بكل تأكيد . إن أنواع البحر الأبيض العاطفية والفنية التي تميز الآن بالمتطهرين ذوى العزم والتوكل ستخلف لنا في المستقبل عناصر الخلق والشعور التي نحتاج إليها . وستصعب مئات أخرى من الشعوب بحيويتها في المجرى ، فيكون عندنا جنس غني بخلاله التي وهبته أوربا إياها ليحكم ، جنس فيه هذا التركيب في الوحدة مما يجب أن تتصف به الأمة ، إذا كان لها أن ترث حضارة العالم وتعمل على استمرارها .

لقد عادت إلينا البربرية عن طريق الهجرة والديمقراطية ، كما عادت البربرية إلى أوربا بالحرب والثورة . غير أنه في حالتنا بدأت تظهر بوضوح حركة صاعدة نحو جنس جديد وثقافة جديدة . ولا يقع مصيرنا كما يذهب الماركسيون في البيئة الاقتصادية والظروف وحدهما ، بل في أيدي قادتنا في الصناعة والحكم والفكر . وعليهم أن يختاروا .

وقد يمكن للتشريع الحكيم أن يهبنا تلك الحرية الخاصة بالفكر والقول — شجاعة الرأي الأثينية *parrhesia* ، أو حرية مناقشة كل شيء — وهي ضماننا الوحيد ضد العودة إلى نفوذ روما البربرى . وقد يمكن للقيادة الحكيمة أن تصلح مساوئ نظام المصانع بتقليل عدد الساعات ، وإحلال قوة الكهرباء النظيفة محل الفحم والقذارة ، ودفع الصناعة إلى الريف ، وتحسين الأبنية بجمال الهندسة وحسن المنظر من الخارج ، وبالأضواء والتعاون اللذين بعنا فيها البهجة من الداخل . وقد يمكن لتخطيط المدن الحكيم — بالإضافة إلى معونة المواصلات الجوية — أن ينثر الملايين من سكان مدننا في الضواحي حيث الحقول والمياه الحارية ، فستعبد البيوت نفوذها الأخلاقى ، وتنقذ صحة الأبدان والعقول منهكة بما فى المدينة من ضوضاء وسرعة . وقد يمكن للإحسان الحكيم أن يفتح لنا طرقاً جديدة تسهل نقل وتنمية قيم الجنس الثقافية . زود مدارسنا وجامعاتنا بكل حاجياتها . ارفع رواتب المدرسين ابتداء من مدرس القرية إلى أعلى أستاذ فى كراسى الجامعات . حسن تجارب التربية بغير عائق أو خوف . امنح آلاف الجوائز ومئات الآلاف من الهبات الدراسية لتشجيع المنافسة والدراسة والابتكار . أعن العلم بسخاء فى مجال البحث ، وراقبه مراقبة دقيقة فى ميادين الصناعة والحرب . دع المؤسسات والشركات تترك الفنانين أحراراً فى تصميم معابد التجارة وهياكل التعليم ، وهى التى سوف يمتاز بها فن البناء فى عصرنا . دع عظماء المصلحين يرفعون الشعب بالتعاليم المعقولة ، والموسيقى الراقية التى تذايع كل مساء على أمواج الأثير .

* * *

فى الوقت الذى كنت أكتب فيه هذه السطور كانت موجات من الموسيقى الرائعة تتصاعد من غرفة الطابق الأول . فلنفتح الباب وندع هذه الأنغام تدخل . إنها المقطوعة الثانية من السمفونية السابعة . لا يمكن للسماء أن توقع أعذب من هذه الأنغام . ما هذه المعجزة التى تنقل الكلام الدفين من قلب رجل عظيم مات منذ أمد طويل ، عبر حواجز الزمان والمكان ، إلى ملايين الأنفس المترتبة لمسة العبقرية حتى تشفيها وتسمو بها ؟ إنها موسيقى رائعة ، اجتمعت فيها آلاف من السنين ، وما فيها من شوق وحنان .

ثم تصمت الموسيقى . ويدق جرس التليفون : إنه صديق يرغب في الحديث
عن هذه القطعة الحميلة الغامضة التي عبرت السماوات لتماماً بيته البعيد ، هسهده
الموسيقى الغربية التي نظمها رجل قد مات ونسمعها في جوف الليل باعثة التصفيق
إلى أيدي لا حصر لها . ولا تزال الحجرة تهتز بأصوات التصفيق . إننا لنرى المسرح
Stadium — حيث عشرون ألف شخص في المقاعد ، في سواد وبياض
أشبه بزهرة هائلة متفرعة . وفتيات يجلسن بحذر وغبطة على الأفايز العالية .
وشبان مشرقون نظيفون نشطون على استعداد أن يستوعبوا من الحضارة ما يمكن
أن نقدمها لهم . وموسيقيون أنهمكهم التوتر ولكنهم مع ذلك في غبطة للصلة
ببتهوفن . وفي السماء تلمع النجوم التي أشرقت على مسرح ديونيسوس ، وفي
الشوارع تسمع تلك المشية الخاصة بليوناردو .

فلنتوجه بقلوبنا إلى الله شاكرين حامدين .

البحر السابع

الفلسفة السياسية

الفصل السابع عشر

في امتداد الحرية

١ - الشراب والحرية

إنها لأعجوبة لم تلاحظ كما ينبغي ، وهي أن يمشى انتصار نزعة المحافظة في سياسة العالم واقتصادياته إلى جانب انتصار نزعة الحرية في الدين والأخلاق ، والعلم والفلسفة ، والأدب والفن . لقد انتخبنا حكامنا رجالاً يمثلون باحترام أرباب الصناعة المستقرين . وأغفلنا إلى حين كل تفكير في تجربة العلاقات بين السيد والمسود . لقد خلعنا ضرباً من الشعبية الغامضة على الموظفين الذين يعد الخجل فضيلتهم الوحيدة . على حين بلغ احتقارنا الثوار والمصلحين حداً جعلنا نقف عن اضطهادهم . وعواصم العالم وحكوماتها في أيدي الخذر ، ولا يصحبها التغيير إلا في ظلمة الليل في الحفاء (١) .

ومع ذلك فمن العجيب أنه في نفس الوقت الذي نبتعد فيه عن الحديد في الميدان الرسمي ، توجد في مدننا من الفوضى في التجديد الخلق والأدبي ، ومن الاطراح الشديد للإيمان والنظام القديمين ، ما يجعل رءوس الشيوخ تهتز فزعاً ، وأصابهم تشير إلى فساد الإمبراطورية الرومانية . ويظن العلم أنه كسب المعركة مع القديم البالي ، ويسير في نشوة ظفره مرحاً نحو دحاطيقية ميكانيكية تحسن إلى كل شيء ما عدا الحياة . أما الشباب فإنه سائر في الطريق لأنه مغمو ر بالثروة والفرص ، ولأنه يثابر على الكتابة التي تملأ أنهار الصحف . وقد خرق الأدب كل قاعدة وكل سابقة ، وأصبح أعظم النقاد احتراماً يقرظ أفحش التجارب . ولم يعد أحد يجسر على الإعجاب بالأدب الكلاسيكي ، وأصبحت البدعة الحاررية

(١) كتبت هذه الصفحات عام ١٩٢٧ .

أن تكون ثورياً في الشعر والتصوير كما تصوت في جانب التفاهة mediocrity والرجعية . واكتشف المسرح فجأة جمال شكل المرأة الإطلى . وانقطعت ملاهى الليل (الكباريات) بذوق رفيع « للعرى الفنى » وأصبح . الكحول الذى كان ذات يوم ذا سمعة سيئة موضوع كل حديث ، ولأزمة كل بيت أنيق . وهذه نظرة عجيبة تجمع بين الدولة ذات السلطان الكامل والفرد المتحرر .

كيف نفسر هذا الشذوذ المضحك ؟ هو من بعض الوجوه نتيجة ما عندنا من ثروة : فالغنى نفسه الذى يجعلنا محافظين بحين . فى السياسة هو الذى يجعلنا أحراراً فى الأخلاق بشجاعة . فعندما تمتلئ الحيوب بالمال يصبح من العسير على المرء أن يكون زاهداً ، كما من العسير أن يكون ثائراً . لم يمت مذهب التطهير Puritanism بفعل بروميد الزئبق ، بل قتله الذهب والفضة .

ومن بعض الوجوه الأخرى ينشأ الموقف من تناقض قلوبنا : فالنفس ذاتها تتعطش لحرية وأمن النظام ، والعقل نفسه يحوم متردداً من القوة إلى الخوف بين الزهو فى حريته والثقة فى رجال الأمن . هناك لحظات نكون فيها فوضويين ، وأخرى مثالا للنظام . وفى أمريكا — أرض الأحرار وموطن الحرية — يسودنا بعض الخوف من الحرية . كان أجدادنا أحراراً فى السياسة ، وثابتى العزم فى الأخلاق . كانوا يحترمون الوصايا العشر ويتحذون الدولة . ولكننا الآن نؤله الدولة ، ونخرق الوصايا العشر . إننا من أنصار اللذة (إبيقوريون) فى الأخلاق ، ولا نخرج إلا نادراً على القانون . إننا عبيد فى السياسة ، وأحرار فقط فى تجرع الكوئوس .

ومما يلفت النظر أن الأمريكى إذا تحدث عن فساد الحرية أشار إلى معدته أكثر مما يشير إلى عقله . وقد اتفق اتحاد العمل الأمريكى على التهديد بالثورة منذ بضع سنين ، لا بسبب حرية الاتجار بل للمطالبة بتقييد الحملات التجارية . وتقتصر اليوم نزعة الحرية للأمريكى فى المدن الكبرى على جعل الشراب أول حاجات الرجال ، ورعاية العقل أول مطالب السيدات . ماذا يهم أن يحكم على مهاجر بولندى بالشنق أمام محكمة فى مساشوسيث لأنه أعلن شكه فى عقيدة قديمة ؟ أو أن يمنع الجند اجتماعاً سلمياً فى بنسلفانيا ؟ أو أن شيوخ رجال الدين

ماطفين مفازع الشيخوخة بلاهوت الطفولة يقدمون في كل مكان عرائض يطلبونه فيها الحكم على البيولوجيا بمخالفته الدين ، وإبعاد داروين بالتشريع ؟ ما أهمية فقدان حرية التفكير إذا كانت حرية الشراب قائمة ؟ فلنشرب أولاً ، ولنتفلسف ثانياً *Primum est bibere, deinde philosophare* ، كما يقول المثل اللاتيني .

ليس القانون هو الذى ينتزع منا حريتنا ، بل عدم استعمالنا عقولنا إثراً للسلامة . فالتعليم الموحد ، والقوة المطردة للإيجاء في الجماهير المتزايدة العدد ، يسلباننا الشخصية والخلق واستقلال الفكر . وكلما نمت الجماهير اختفت الأفراد . ثم إن سهولة المواصلات تبسر المحاكاة والتبثيل ، وسرعان ما نصبح جميعاً متشابهين . ومن الواضح أننا نجد لذة في أن نصبح متماثلين ما أمكن ، في ملبسنا ، وعاداتنا ، وأخلاقنا ، وفي تزيين داخل بيوتنا ، وفنادقنا ، وعقولنا . ومن يدرى . . . لئلا حتى حريتنا الأخلاقية هي ضرب من المحاكاة . والويسكى كالصلة الجنسية منتشرة ، إذ بدونه لا يحسن المرء أنه رجل .

ومع ذلك فبعض الثورة أفضل من لا شيء . وأكبر الظن أن جرعتنا الصغيرة من الحرية ستمضى إلى النهاية وتجروء على اشتعال الفكر . ومن الخبر أن يقاوم الناس بالقانون طبع النفوس على الأخلاق ؛ فأن تمنع المشروبات المنشطة والمواسية لأن بعض الناس يسيئون استعمالها ، يبين ضعف الحكومة التي لا تعرف كيف تسوس الحمقى إلا إذا جعلت الناس جميعاً حمقى . والحضارة بغير خمر مستحيلة . والحضارة بغير قيود مستحيلة ، ولا قيود حيث لا توجد حرية . ولقد قال منتسكيو : « إن الأمور التي يحرمها الشرف تزيد مراعاة تحريمها حين لا يتدخل القانون في التحريم » (١) . ولو أننا أنفقنا نصف ما أنفقناه في « حملة » الحمايف على الدعاية إلى الاعتدال ، لأصبحنا الآن شعباً معتدلاً .

ولنستمع الآن بعض الوقت لأولئك الذين كانوا يعتقدون في كل حرية . فقد ينعشنا ويقوى نفوسنا أن ننسى لحظة قوانيننا المتعددة ، وأن نتمشى بعض الخطوات مع عباد الحرية .

يقول توماس بين :

« ليس الشطر الأكبر من ذلك النظام السائد بين البشرية ثمرة الحكومة ، بل ينشأ من أصول المجتمع والتكوين الطبيعي للناس . وقد تقدم النظام في وجوده على الحكومة ، وسيوجد حتى لو ألغى شكل الحكومة . ذلك أن اعتماد الناس بعضهم على بعض ، وتبادل المنافع بينهم ، وتوقف جميع أجزاء الجماعة المتحضرة بعضها على بعض ، تخلق تلك السلسلة العظيمة من الاتصال الذي يمسك أطرافها .. صفوة القول يكاد المجتمع أن يحقق لنفسه كل شيء يعزى للحكومة » (١) .

مَنْ ذلك الذى يكتب بشجاعة وبساطة غير معهودتين ؟ إنه توم بين الشجاع ، بطل ثورتين ، ومجدد قارتين . إنه فولتير الأمريكى ، والصوت الإنجليزى لذلك القرن الجرىء الذى ظفر لنفسه باسم « التنوير » . إذ فى ذلك العصر « عصر العقل » ، عندما أدى انتقال القوة الاقتصادية من الأرستقراطية المتعطلة إلى الطبقة المتوسطة العاملة إلى زعزعة كل عرف ، وكسر شوكة التقاليد ، وتخفيف قبضة الخرافات القديمة على البشرية ، وجد الفرد نفسه حراً بشكل لم يعهد له مثيل ، كما لو أن قبضة الماضى على الحاضر قد خفت إلى حين . وكانت أسرة البربون الهرمة تملك دون أن تحكم . ولما كانت الكنيسة موجودة فى مجتمع غلب عليه الشك وانحرف فيه حتى الأساقفة عن الطريق ، فقد كانت قوية فى القرى فقط ، ولا قوة لها فى العواصم . وانحل كل قانون ، وانتقدت كل قاعدة ، وانتهك كل معيار للفضل أو ميزان للسلوك دون خوف أو ندم . إنه العصر الذى أعلن فيه روسو أن الدولة شر ، وأعلن جيفرسون أن أفضل حكومة ما قل حكمها . كان العصر عصر الفرد .

ومن المفروض أن الإنسان منذ بدء تاريخ البشرية قد تبرم بالقيود الاجتماعية ، وأن الإرادة على فطرتها الهمجية كانت ترى فى كل قانون عدوا . وفى ذلك يقول روسو :

« القوانين نافعة دائماً لمن يملك ، مضرة لمن لا يملك . . . لقد منحت القوانين الضعيف أثقالاً جديدة ، والقوى قوى جديدة ، وحطمت إلى غير رجعة الحرية الطبيعية ، وثبتت قانون الملكية والتفاوت ، وقلبت الاغتصاب البارع حقاً لا ينقض ، وأخضعت مستقبل الجنس كله تحت نير العمل والعبودية والبؤس . . . لقد خلّق الناس أحراراً ، ولكنهم اليوم مكبلون في الأغلال في كل مكان » (١) .

ومن الحدير بالملاحظة اشتراك آراء البورجوازية الناشئة إلى حد كبير في قرن الثورة في ذلك الجوع والظلم للحرية التي تولدت في أكثر الفلسفات السياسية سذاجة وفتنة عن فوضى . فهذا آدم سميث مع أنه محترم كأى إنجليزى ، ذهب إلى أن ثروة الأمم تعتمد على حرية الفرد . وكان ميرابو « الأب » والفيزيوقراط — الطبيعيون — Physiocrats يرغبون في ترك الطبيعة وحدها تدبر أمر التجارة والصناعة . وتضاءلت الدولة عند هربرت سبنسر الذى ورث تقاليد الحرية من بنتام وستيوارت مل حتى كاد دورها يتلاشى ، ولم يحتفظ بها إلا « كحارس ليلي » لممتلكاته .

وقد غذى أصحاب النظريات السياسية بمنطق أعمى هذه الصيحة الصادرة عن الطبقة الوسطى للتحرر من جباية مكوس الإقطاع ، وتوارث الحكم ، وعنجهية الأرستقراطية . فإن صح أن الحرية كانت خيراً في التجارة والصناعة ، فيجب أن تكون كذلك في السياسة والأخلاق . وكان جودوين (٢) Godwin واثقاً من أن الطبيعة البشرية بما فيها من فضيلة كامنة يمكن أن تحتفظ بما يكفى من نظام بغير قانون . دع جميع القوانين تلغى ، تجد أن البشرية تتقدم في الفكر والخلق بما لم تتقدم به من قبل . ونظم شللى هذه الأفكار بعد عدول جودوين عن الاعتقاد فيها ، ومارس الحرية الجديدة مع ابنة جودوين دون اعتبار لحق الفيلسوف في تغيير أخطائه مع الزمن . وجعل فشته الوطنى إرادة الفرد قاعدة الكون وذروته ،

(١) Discourse on the Origin of Inequality (1755), p. 95 ; Social Contract, p. I.

(٢) وليم جودوين (١٧٥٦ - ١٨٣٦) كاتب إنجليزى من أحرار الفكر طالب بإصلاح النظم القائمة في الحكم والدين والأسرة . تأثر بروسو وأثر في وردسورث وكولردج وشللى وبيرنث . وتزوج شللى ابنته ماري بعد علاقة غرامية ، فكانت زوجته الثانية (المترجم) .

ورأى في كل حقيقة خَلْقاً للعقل المنحصر في ذاته والمنعزل عن الأشياء الخارجية الدوات الأخرى . وعزى شترنر Stirner نفسه ، وقد حكم عليه أن يعلم في إحدى مدارس البنات ، بأن تصور إنساناً أعلى — سوبرمان — قد تحرر من استبداد الدولة ، فقال : « ليس للدولة أى غرض سوى تقييد الفرد ، وترويضه ، وإخضاعه لشيء عام . وهى لا تدوم إلا ما دام الفرد لا يعمل كل شيء على هواه فعليك أن تستقيم وستترك الدولة وشأنك » (١) . وتقدم نيتشه ، زاعماً أنه لم يقرأ شترنر ، فتطور بنظرية « الذات وما لها The Ego and His Own » حين قال على لسان زرادشت :

« لا يزال يوجد في بعض الأمكنة شعوب . . . أما فيما يختص بنا فتوجد دول . . . وتسمى الدولة وحشاً من أجراً جميع الوحوش ، وإنها لتكذب بجرأة وهذه هى الأكذوبة التى تنساب من فيها : « أنا الدولة ، فأنا الشعب » . ما أعجبها أكذوبة . فالعاقرة المبدعون هم الذين خلقوا الشعوب ، وسلطوا عليهم عقيدة واحدة ، وحجاً واحداً . وبهذا خدموا الحياة . إن المفسدين هم الذين ينصبون الشراك للكثرة من الناس ويسمونهم الدولة . . . ولكن الدولة كاذبة في كل لسان فيما تقرره من الخير والشر . فكل ما تقوله تكذب فيه ، وكل ما تملكه قد سرقته حيثما تزول الدولة يبدأ وجود الفرد الذى لا غنى عنه حيثما تزول الدولة — انظر هناك ، إنى أدعو إخوتي . ألا تراه ، بشائر وأنوار الإنسان الأعلى ؟ » (٢) .

هذا التطلع للحرية المطلقة يدل على نزعة عامة تستوقف النظر ، وعلى إلحاح غريب . كان من بين تلامذة سقراط الكليبيون الذين آثروا حياة الطبيعة على حكم القانون ، وأحبوا مثل أرسطيديوس : « ألا يكونوا عبيداً أو أسياداً لأى إنسان » . وكان من بين الرواقيين الذين تخلصوا من الثروة والقيود جماعة أملوا في جنة أرضية يشترك الناس في جميع خيراتها ويتحررون من كل القيود . وكان من بين المسيحيين الأوائل من أنكر استعمال القوة لأى غرض ، وعاشت جماعات دينية صغيرة في سلام وأخوة إلى أن زدادت الثروة . وعاد منكر وتعميد الطفولة (٣) في عصر الإصلاح

(١) The Ego and His Own.

(٢) Thus spake Zarathustra, I, XI, pp. 61-5.

(٣) Anabaptists (المترجم)

الدينى يبشرون بإنجيل الحرية، وأرادوا أن يحققوا الجنة على هذه الأرض فألغوا الزواج .
 وفي الثورة الفرنسية أعلن مارا وباييف شروق الحرية وغروب الدولة . وفي
 سنة ١٨٤٠ الثورية كتب برودون^(١) Proudhon : « إن حكم الإنسان للإنسان فى
 أى صورة هو العبودية . والكمال الأعلى للمجتمع فى التوحيد بين النظام والقوضى ...
 وفى أى مجتمع يكون سلطان الإنسان على غيره متناسباً تناسباً عكسياً مع النمو
 الفكرى الذى وصل إليه ذلك المجتمع »^(٢) . وعرف تولستوى فى روسيا
 النائرة الحكومة بأنها : « اتحاد الملاك لحماية أملاكهم من أولئك الذين يحتاجون
 إليها » (أو يرغبون فيها ، حسب تصحيح الملاك للعبارة) . وتنبأ باكونين ، بعد
 أن تخلى عن ثروته ومركزه الأرستقراطى ليلحق بالعدميين Nihilists ، بأن
 التعليم سينتشر بسرعة بحيث تصبح الدولة فى سنة ١٩٠٠ لا ضرورة لها ، ولا يخضع
 الناس إلا لقوانين الطبيعة . أما كروبتكين ، الأمير ، السيد المذهب ، القوضى ،
 فقد جاهد ليبين كيف أن الرجال والنساء فى « طوبيا » الحرية لا يحتاجون
 إلا إلى ساعة واحدة من العمل فى اليوم ، ونجح فى إثبات أن التعاون
 التلقائى بين الإنسان وأخيه كان الأساس فى كل تنظيم اجتماعى سليم ، وأن هذا
 التعاون أعظم قوة وسلامة من القهر غير الطبيعى للدولة . وعبر وليم موريس
 فى إنجلترا عن احترامه للحكومة بأن وصف مكاناً سعيداً يُستعمل فيه مجلسا البرلمان
 مخزناً للسجاد فى المدينة الفاضلة . وفى أمريكا حيث مبدأ حرية التجارة ، كان
 يبشر إمرسون باعتماد الرواد على أنفسهم ، فقال : « لا أقدر أى قانون
 سوى طبيعى الخاصة » وقال : « الحق الوحيد ما كان مطابقاً لدستورى
 الخاص » . وتصور هوبز أن وظيفة الحكومة إعداداً للوقت الذى يحكم فيه الناس
 أنفسهم . وأعلن ثورو مرحاً وهو يصنع أقلامه البديعة : « إني أقبل من كل قلبى
 ذلك الشعار : أفضل حكومة ما قلّ حكمها ... وإذا مضينا بهذا الشعار إلى نهايته
 كان معناه ، وهذا ما أعتقد : أفضل حكومة ما لا حكم لها على الإطلاق .
 وعندما يعدّ الناس لهذه الحكومة ستكون هى أفضل نوع يحصلون عليه » .

(١) برودون (١٨٠٩ - ١٨٦٥) فيلسوف فرنسى قوضى . ومن أشهر كتبه «الميليك؟» ،

صدر سنة ١٨٤٠ ، وبدأ هذا الجواب « الملك سرقة » (المترجم) .

(٢) Eltzbacher, Eltsbacher P., Anarchism, p. 73.

٣ — الفوضوية

ماذا نحن قائلون عن هذا الدين الحرى للحرية ؟ إلى أى حد يكون النظام الاجتماعى طبيعياً ؛ وإلى أى مدى يمكن أن يحتفظ بنفسه بغير سلطة القانون ؟ إلى أى حد الحرية ممكنة للإنسان ؟

وفى الأمور الإنسانية (وليأذن لنا سنتيانا باساعة استعمال إحدى عباراته) كل شىء صناعى له أصل طبيعى ، وكل شىء طبيعى له نمو صناعى . فالتعبير طبيعى ، واللغة صناعية . والدين طبيعى ، والكنيسة صناعية . والاجتماع طبيعى ، والدولة صناعية . وطاعة القانون ، كاللغة واللاهوت ، تنشأ عن طريق النقل الاجتماعى والكسب الفردى أكثر مما تنشأ عن طريق الدوافع المفطورة فى البشر . ومن ثم جاء الصراع الدائم داخل الذات بين رغبات القلب ، والخوف من رجال الأمن . ومن هنا جاءت اللذة التى يحسها الثائرون الظافرون فى خرق المحرمات الصناعية والثقيلة ، مع وجود شىء من التأييد الاجتماعى والحصانة النسبية . نحن فوضويون بالطبيعة ، ومواطنون بالإيحاء .

ومع أننا بيننا وبين أنفسنا هيج بلا قوانين ، إلا أننا مهيتون بالطبيعة لضرب معقول تلقائى من النظام والانتظام . فالاجتماع أقدم من الإنسان ، وأقدم من الفقرات . فللوحيده الخلايا مستعمراتها ، وفيها تقسيم للعمل بين خلايا التوليد وخلايا التغذى . ويرتفع النمل والنحل بهذا التخصص فى الوظيفة إلى الحد الذى يتميز فيه الكائن فسيولوجياً لمهمته الاجتماعية . وحتى الجوارح التى تعد أنيابها وجلودها ومخالبها بدائل فردية عن قوة وأمن النظام الاجتماعى ، فمن بينها تلك الكلاب الرقيقة العيون التى يمكن أن تكون أكثر ميلاً إلى الاجتماع من التاجر ، وأعظم وفاء من المحرر الرقيق . يقول داروين : « يقلب قرده همدرياس الأحجار لاكتشاف الحشرات ، وعندما تصيب حشرة كبيرة يلتف حولها أكبر عدد ممكن ويديرونها معاً ويشتركون فى الغنيمة . . . وعندما تحس الثيران البرية بالخطر فإنها تسوق الأبقار والعجول وسط القطيع ، على حين تدافع هى فى الخارج » (١)

وإذا تعرضت الخيل للخطر قاربت بين رعوسها وجعلت أرجلها الخلفية إلى الوراء مكونة « نطاقاً صحياً » ، وكذلك يضع أهل الغال نساءهم في الوسط حين يناجزون العدو (لا ريب أن نابليون كان في ذهنه هذه الحماية ذاتها للعجزة عندما أصدر أمره في معركة الأهرام : « الحمير والأساتذة في الوسط » .) وأكبر الظن أن أصل المجتمع الحيواني نشأ من مثل هذه الاتحادات للدفاع ، وعن طريقها تأسس ميراث من الدافع الاجتماعي للإنسانية .

أضف إلى هذه العشرة التلقائية التعاون المشكل للأسرة ، وهنا يلتقي النظام الطبيعي الخالص بعض الاستحسان . يقول داروين : « يبدو أن الغريزة الاجتماعية قد نمت من وجود الصغار فترة طويلة مع آبائها » (١) وبهذا المعنى تكون الأخوة في الإنسان قديمة قدم التاريخ . وهى تبعث الحياة إلى آلاف من الجماعات السرية وأشكال الزمالة ، التى يصعب أن يعيش فيها الواحد وحشاً وقد ماتت نفسه دون أن يفزع مرات يحس بتضامنه الجسماني مع الإنسانية . وإلى جانب هذه الأخوة الطبيعية تنتشر محبة أبوة تساعدنا على تبادل المعونة . والإيثار الذى جعله عصر التنوير فضيلة بمنظار مكبر (٢) ، طبيعى كالصلة الجنسية ، وعام كالأبوة . وقد تعجب كانط من وجود كثير من الرحمة في العالم وقليل من العدالة ، ولعل ذلك يرجع إلى أن الرحمة تعاطف تلقائى على حين ترتبط العدالة بالحكم والاستدلال . ومن أجل ذلك كانت النساء أقل بعض الشيء عدلاً ، وأكثر أحياناً رحمة .

وأخيراً فإن المجتمع ذاته معتمداً على هذه الدعامات الغريزية والاقتصادية ينمى في الفرد بعض العادات الاجتماعية التى تصبح من القوة كأي طبيعة ثانية ، ويكون حاجزاً من النظام يعتمد عليه أكثر مما يعتمد على القانون . وكلما طالت حياتنا أصبحنا أكثر ميلاً إلى الاجتماع ، وأعظم قبولاً لرأى جيراننا ، وأشدّ جنوحاً إلى التقليد والاحترام ، وأقوى صلة بالعرف والتقاليد ، وأقرب موافقة لتلك الحواجز الممانعة للرغبة والتي تجعل الحضارة تعتمد على العادة أكثر مما تعتمد على القوة .

The Descent of Man, p. 119. (١)

(٢) حسب عبارة تين .

وتسعى كل سلطة نفسية منظمة إلى تكميل هذا الترويض للفرد وصبغه بالصبغة الاجتماعية . وتقدم الكنيسة إليه عند مولده عدداً كبيراً من النصائح يظل أثرها اللطيف باقياً حتى بعد انقضاء أساسها الدينى . حتى إذا ضعفت السلطة الأبوية والكهنوتية ، حلت أكثر فأكثر محلها سلطة المدرسة ، التى تزعم أنها تعد الفرد للانتصارات الاقتصادية والفنية . ولكنها تصوغه فى هدوء وبراعة كما نصح أرسطو « كى يلائم شكل الحكومة التى يعيش فى ظلها » . وهى تصب فى كيانه العادات والأخلاق الخاصة بجماعته . وتغطى باعتدال حقيقة التاريخ العارية بتمجيد ماضى الأمة ، فيصبح المواطن الوطنى مستعداً لحفز جبرانه لأى تضحية فى سبيل رفع قوة بلده . فإذا أخفقت المدرسة فى هذه المهمة الاجتماعية ، أوأفلت الفرد منها بتركه المدرسة عند سن البلوغ ، أتمت الصحافة العمل ؛ فقد تعاون الاختراع الآلى مع التجمع فى المدن على تقريب كل عقل من هذا الشئ المبتذل المسمى « الصحف » وتلك المذاهب الدقيقة المختبئة وراء السطور .

فإذا نظرنا إلى هذه القوى المشكلة جملة ، بدا الدافع إلى السلوك الحسن مما لا يمكن مقاومته ، حتى لقد يتساءل المرء بحق عن ضرورة القوانين المنظمة للأخلاق . والمجتمع إلى حد كبير هو الذى يوجد لا الفرد . وكما قال جيلوفيتش : « إن الجزء الذى يفكر من الإنسان ليس هو الإنسان ، بل الطائفة الاجتماعية التى يعد جزءاً منها » . وحتى ضميره ليس إلا صوت سيده . ولقد قال نابليون ذلك النفسانى البارع : « الإنسان ثمرة البيئة الأخلاقية والبيئة الطبيعية على حد سواء » . وبالوراثة البيولوجية ترتبط بماضينا الحيوانى ، وبالوراثة الاجتماعية — عن طريق امتصاصنا بالحكاية والتعليم لتقاليد مجتمعتنا وأخلاقه — ترتبط بماضينا الإنسانى . وقوى الاستقرار المتأصلة فى دوافعنا وعاداتنا تترك فى أنفسنا شطراً ضئيلاً هو الذى يحتاج إلى الأخلاق غير الطبيعية من الدولة .

ولما كانت هذه التأثيرات المكونة تعمل عملها فى أرق سنوات عمرنا التى نكون فيها أكثر خضوعاً للإيحاء ، فقد يصعب علينا التغلب عليها إلا على حساب صراع قد يقضى على صحة عقولنا . فعندما نبتعد عن أخلاق بلادنا وعصرنا نصاب بحتين قاتل شديد إليها . وعندما نستقر فى الحياة فالأغلب أننا نعيش فى دياجير

الماضى . والقانون من الناس هم عادة أولئك الذين يصطنعون بلا سؤال عادات وتقاليد وأخلاق ولغة وأسلوب حياتهم فيصبحون ذرات غير متميزة في الجمهور الاجتماعى ، ويستغرقون فى راحة مريحة من استسلام النفس الذى يبارى خضوع الحب . وكلما عظم المجتمع قوى الضغط على الفرد ليتخلى عن فرديته حتى فى تلك البدع الحديدية التى تبهج النفس القانعة ، إذ يشعر أنها ليست بدعاً على الحقيقة ، بل تغييرات محترمة تقوم على أساس قديم . والنتيجة الأخيرة هى أن عدداً كبيراً من السكان يكاد يصبح جسماً غير متحرك ، وتتغلب نزعة المجتمع الطبيعية إلى المحافظة على وطنية الدولة . ويصبح الفرد وقد صيغ فى صورة المجموع سهل القيادة حسن السلوك بحيث تظهر أوامر القانون وعقوباته إسرافاً لا مسوغ له . ثم قد تقوى فى بعض اللحظات بأن ننجاز ونوقع بأسمائنا فى تحد إلى جانب مذهب أولئك الفوضيين المخوفين الذين ننفهم أو نبعدهم أو نحكم عليهم أو نسنجهم أو نشنقهم .

٤ - صعوبات الحرية

فلنظمئن أنفسنا : فى هذه الفلسفة الخاصة بالحرية عيوب ، لأنها أولاً لا تقدر عنف القوى حق قدره ، إذ أن نفس السلطة عديمة الرأفة هى التى تجعل الدولة تحكم بقوة أظهر وأكثر مباشرة وأعظم ألماً وفوضى إذا لم تكن هناك دولة على الإطلاق . والحضارة هى فى شطر منها إقامة النظام والعرف مما يضع حداً لاستغلال القوى للضعيف . إن ترزعزع القانون الدولى يكشف عن التهديد بالعنف بين الأقوياء ، ولا تتمسك بالفضيلة إلا الدول الصغرى . انظر إلى مباحثه سقراط لأرستيدوس : « إذا كنت تظن من الأصوب حين تعيش بين الناس ألا تحكم أو تحكم ، فإنى أظن أنك سترى سريعاً كيف يتعلم الأقوياء معاملة الضعفاء معاملة العبيد » (١) . وكل اختراع يزيد القوى والمهاة قوة يقبض بها على الخيب والمسوس والضعيف . وكل نمو فى تعقيد الحياة يوسع الهوة ويجعل المقاومة أصعب . وهذا شئ نقررره بمرارة ، ولكن المجتمع لا يقوم على المثل العليا بل على طبيعة الإنسان . أما مثله العليا فهى أشبه بمحاولة لإخفاء طبيعته عن نفسه وعن العالم .

Xenophon, Memorabilia, Book ii, ch, 1, § 12. (١)

هذا إلى أن الميول الاجتماعية التي يقوم عليها النظام الطبيعي أبعد عن التأصل في قرارة أنفسنا من تلك الدوافع الفردية الخاصة بالتحصيل والجمع ، وبالعدوان والسيادة ، مما تقوم حياتنا الاقتصادية على أساسها . بل إن صيحة الحرية تصدر عن قلب يظماً سرّاً إلى القوة ، وبسبب هذا الظماً الموجود في الإنسان المتوحش تحدد الحرية وتقيّد . والضعيف إلى حد ما هو الذي يقصّ تحت ضغط آراء الأغلبية أطراف حرية الفرد خشية أن توسع القوة غير المتقيّدة الهوة بين نفسها وبين ذلك الخائر ، حتّى لينفجر الكيان الاجتماعي بالثورة . وأول شرط للحرية هو تحديدها ، فالحياة ميزان من القوى المتداخلة كالأرض المعلقة في الفضاء . والناس متفاوتون في المقدرة والشجاعة إلى درجة أن انعدام القيود يؤدّي إلى أن تتوالّد اختلافاتهم الطبيعية ، وتتكاثر بطريق آلاف من الاختلافات الصناعية إلى ندوب للبشرية ثابتة لا أمل في الشفاء منها . لقد أحب الفرنسيون نابليون ، لأنّه على الرغم من طغيانه الشديد كان يفتح باب العمل لكل صاحب موهبة مهما يكن مولده ، ووهب الناس بكثرة لم يسبق لها مثيل تلك المساواة التي يحبها الحجّولون من الناس أكثر مما يحبون الحرية .

نخلص من ذلك إلى أن عصور الحرية هي عصور انتقال ، هي فواصل جريئة بين عهود العرف والنظام . وهي تدوم عندما تتنافس مذاهب في النظام نحو السيادة ، حتّى إذا ظفر مذهب منها اختفت الحرية . ولست تجد أخطر على الحرية من ثورة ناجحة ، لأن أعظم مأساة تصيب المثل الأعلى هو تحقيقه .

ما العلة في أنّه حينما ظهر في التاريخ النظام التلقائي الذي لا يقوم إلا على العيشة الطبيعية بين الناس ، كما هي الحال في المجتمعات البدائية ، أو في كاليفورنيا حتّى سنة ١٨٤٩ ، أو في ألاسكا حتّى سنة ١٨٩٠ ، لم يلبث أن ينتقل إلى النظام الصناعي والإلزامي للدولة ؟ إنه سؤال كبير لن يكفي جواب واحد لتوفيته . ولأريب أن بعض السبب يرجع إلى انتقال وحدة الإنتاج والمجتمع من الأسرة إلى الفرد . ومن الواضح أن الأسرة تفقد وظائفها حتّى فيما يختص بالعناية بالأطفال . ويتحوّل الاحترام البنوي والولاء الأخوي إلى وطنية تصبح هي العبادة الوحيدة للروح الحديثة . فإذا تجرّدت الأسرة من وظائفها أصبحت كالطبل الأجوف

ولا يبقى فيها إلا أفراد بعيدون عنها ، مستقلون بعظمة فى عبودية مشتركة . ذلك أن العبودية تشبه الحرية شهاً كبيراً عندما لا يرى السيد أبداً .

وفى أثناء ذلك يؤدى تجمع الناس فى المدن إلى انحلال أخلاق الجيرة باعتبار أنها مصدر للنظام التلقائى . ويصبح كل دافع أنانى حرراً فى حماية حشود الجماهير . أما حيث لا يزال النظام الطبيعى قوياً كما هى الحال فى الجماعات الريفية البسيطة ، فلا بد من وجود بعض القانون ؛ وأما حيث يكون النظام الطبيعى ضعيفاً كالحال فى مدننا المنبسطة فإن التشريع ينمو ، وتحل الدولة محل المجتمع التلقائى كما تحل الشركات التجارية محل التاجر الصغير ، أو كما تحل شبكة السكك الحديدية محل عربة البريد التى كانت تتجول فى تلك الأيام الشاعرة الأولى . ذلك أن تعقيد الحياة المستمر فى النمو قد قيدنا إلى كلِّ موحد توحيداً عظيماً ، وانتزع منا ذلك الاستقلال للأجزاء مما كان ميسوراً من قبل حين كانت كل أسرة مملكة تكفى ذاتها بذاتها اقتصادياً . ثم تفسد الحرية السياسية والصناعية للسبب نفسه الذى يزيد فيه الانحلال الخلقى : لأن الأسرة والكنيسة قد توقفتا عن أداء وظيفتهما أداء كاملاً باعتبارهما مصدرين للنظام الاجتماعى ، ويفرض الإلزام التشريعى نفسه على الفجوات النامية فى الزواجر الطبيعية . وهكذا نجد أن الحرية قد هجرت الصناعة والدولة ، ولم يبق لها وجود إلا فى الحياة الجنسية .

ولو أن أدوات الإنتاج ظلت على بساطتها كما كانت أيام البداوة — جاروناً وقطعة من الأرض — لما تضخمتم الدولة ، فأصبحت غولاً يخيف اليوم حياتنا الحقيرة ، إذ عندئذ كان يمكن لكل إنسان أن يمتلك آلاته ويتحكم فى ظروف حياته الأرضية ، وكانت حريته تكون قد احتفظت بمقوماتها الاقتصادية الضرورية ، ولم تكن الحرية السياسية قد أصبحت كالمساواة السياسية خدعة حقيرة . غير أن الاختراعات جعلت الآلات أكثر تعقيداً وأغلى ثمناً ، فميزت بين الناس وقدرتهم حسب قدرتهم على استعمال أو إدارة أو امتلاك الآلات الأدق والأكبر . وانتهى الأمر بشكل طبيعى جسداً إلى تركيز ملاك الآلات فى بضعة نفر ، واختفى الاكتفاء الذاتى ، وأصبحت الحرية لفظة من عبارات الساسة ، وبقية من مخلفات الماضى تمجد كل عام كسائر أمواتنا الأعزاء .

ففى كل جانب يحرفنا تيار من النمو تبدد فيه الحريات القديمة والطبيعية . هذا إلى أن علاقاتنا الصناعية تبلغ من الأهمية للصحة الجماعة حداً لا يمكن أن تترك وحدها للرقابة الفردية . وهناك بعض الوظائف مثل النقل والمواصلات والشئون المالية تبلغ من السلطان حداً يجعلها بدون تقييد تشريعى تبطل كل صناعة كأنها وحش مفترس عظيم . لذلك يحسن من كل وجه أن تخضع هذه العمليات لتنظيم الدولة ، مهما تكن عاجزة وحزبية وفاسدة كما هى حال أى دولة فى زماننا . ولعل جميع المسارب الرئيسية فى الحياة الاقتصادية يجب أن توجد وراء مثل هذه الرقابة الوطنية ، وأن ينزع كل شريان حيوى بين المنتج والمستهلك من السيطرة الفاتكة لأفراد محصنين غير مسئولين . أما الإنتاج نفسه فيجب أن يظل حراً (١) .

وعندما تستقبل جميع طرق التوزيع كل مستهلك على حد سواء ، يصبح الإنتاج والاستهلاك من الحرية بما يسمح به الطمع الإنسانى . فإذا شفيت الصناعة من التصلب الاقتصادى — بأن تحرر من الوسطاء الحديدى الذين يضيعون شرايين التبادل ويصعبونها ، ويهددون أمننا فى أحسن أوقات ثروتنا — ازدهرت وترعرعت كالنبات الحر أو البذرة المفتحة . وعندئذ يتحرر ملك الفرد المبتكر المدبر أكثر مما يتقيد ، وتجد الجمعيات التعاونية بعض الحماية من سيطرة السادة المعادين لملاك آلة التوزيع . وقد تصبح الحرية فى النهاية بعد أن تقلم أظافرها وتهذب أعماقها وأغنى مما كانت من قبل .

٥ — الدولة الجيفرسونية

وهذا كله مما ذكرناه من قبل امتياز ينطوى على الحقد ، لأن المثل الأعلى الجيفرسونى للحكومة التى تحكم أقل ما يمكن لا يزال يسهو القلب بسحره البسيط ، وكل قانون يضاف يندس سلطة الروح . فالنظام سبيل إلى الحرية وليس غاية فى ذاته ، والحرية لا تقدر بثمن لأنها الوسط الحيوى للنمو . أو كما قال جوته الشيخ :

(١) يذهب نيتشه المعادى للاشتراكية إلى أبعد من ذلك فيقول : « يجب أن نأخذ جميع فروع النقل والتجارة التى تعين على تكديس الثروات الكبيرة — وبخاصة النقد فى السوق — من أيدي الأشخاص والشركات الشخصية ، وأن ننظر إلى أولئك الذين يمتلكون كثيراً ، كما ننظر إلى المعدمين ، باعتبار أنهم نماذج تحمل الخطر للجماعة » . (Human All Too Human, vol. ii, p. 340)

« في نهاية الأمر الشخصية وحدها هي التي يحسب لها حساب » . ولقد خلقت الدولة من أجل الإنسان ، لا الإنسان من أجل الدولة . وقد اخترعت الوراثة لحفظ الفروق ، ونشأت كل عادة على أنقاض عادة سابقة . والتطور يتغذى على التميز والتغير . ويحتاج النمو الاجتماعي إلى التجديد والتجربة كما يحتاج إلى النظام والقانون . ويسير التاريخ بطريق العبقريّة والاختراع كما يسير عن طريق القوى غير الشخصية والجماهير الحالية من التفكير .

ولو سمحنا بتحديد حياتنا الاقتصادية فينبغي أن نحمل حرية العقل في مقابل ذلك مائة مرة . فالحرية العقلية يجب على أقل تقدير أن تكون عزيزة علينا كحرية البدن بالنسبة للحيوان ، الذي يؤسر ويحبس في قفص ، ولكنه لا يرضى أبداً بالأسر ، ويتحفز على الدوام مرتقباً طريقاً للحرية . وأكبر الظن — لأننا نحتمل رؤية مثل هؤلاء الأسارى المساكين ، وننظر دون ندم في عيون غارت ورقّت من شوقها إلى الحرية — أننا لسنا جديرين بالحرية التي كانت عند آبائنا في لقاءهم الحيوان على قدم المساواة ، وكانوا يقتلون في صراع عادل بدلاً من أسره في قفص للتفرج عليه في أصائل يوم الأحد . ومع ذلك فنحن أنفسنا أسارى دون أن نشكو . فكيف يمكن أن نفهم شوق هذه الحيوانات المقيدة ؟

يقول مثل صيني فحواه أن الأمة إذا بدأت تكثر فيها القوانين ، انزلت إلى طريق الشيخوخة ؟ . وكان قدماء التوربيين يقدمون كل صاحب اقتراح بقوانين جديدة فاشلة إلى جبل المشنقة ، جزاء وفاقاً لعدوانه على الحرية . ويقال إن المشرعين في أمريكا يصدرون ما يقرب من ستة عشر ألف قانون كل سنة^(١) ، وهذا إن صح كان دليلاً على أننا أمة من اللصوص لا نحتاج إلى القوانين بل إلى التربية . وتعد جلسات الكونجرس في الولايات المتحدة منبعاً للتوجس القوي عند الأغنياء والفقراء على السواء . ولعل التقدير المزن الذي ظفر به الرئيس السابق^(٢) كان راجعاً إلى أنه « ملك عاطل *roi fainéant* » يمكن الاعتماد عليه كملوك الإنجليز في عمل لا شيء ، اللهم إلا تسلم مرتبه . وحتى ما أصدره من « حق الاعتراض » كان

(١) Pringle, H.F., Alfred E. Smith, p. 132.

(٢) هو كالفن كوليدج Calvin Coolidge انتخب رئيساً ١٩٢٣ - ١٩٢٩ .

يقابل بالامتنان . ولكن ماذا كان يحدث لو أن القوانين التي وقفها كانت حسنة ؟ .
القانون حتى لو كان حسناً قانون ، ولن يذرف أحد الدمع على دفنه .

فإن بدا ما سبق ذكره دليلاً على أن أخلاقنا الجارية المجردة من القانون لا تبلغ من الشر كما يذهب بعضنا حين يخففون العبء الواقع على الضمائر برفع الناس إلى مرتبة الفضيلة ، فالفرض صحيح ؛ ذلك أن معظم لأخلاقيتنا تتخذ صورة الأمانة ، فنحن الشيوخ كنا في شبابتنا المحصن المعدم متهاونين ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً . وكنا إذا ارتكبنا إثماً ارتكبناه في غير ضجة ، وذهبنا إلى المحافل نحمل على وجوهنا قناع الصالحين . أما الخيل الناشيء فلم يبلغ مثل هذه البراعة في الكتمان ، ويجب المفاخرة بذنوب أعظم من تلك التي يرتكبها . وخطايا سطحية يمحوا أثرها مرّ الزمن . وستؤدي التجربة إلى نضج الناس بما يكفي أن يرددهم إلى محبة الاعتدال والحياء مرة أخرى . وكيف نرد الشباب عن مجالس الشراب إلا بالامتناع عن تحريمها ؟ ماذا يهم أن يكون العُرى منتشراً فترى الأجسام العارية في أسر أكثر وخفية أقل من أيامنا المثقلة والمطوقة بالملابس ، حتى حلت المثيرات المبالغ فيها محل الأخيلة الجنسية المريضة ؟ ستهذب العادة في رقة الشر بإماتة الحساسية ، ويجب أن تعود الملابس مرة أخرى حتى تولد تخيلات الشوق .

وليس للشيوخ حين يواجهون هذه النهضة الرائعة للشباب إلا أن يفكروا في القوانين ، فتسمع صوت الوجلين الحاسدين يطالبون أعضاء المجلس الطاهر في أمريكا بإنقاذ الأخلاق . الآن بعض الفاسدين من تجار النساء كسبوا مالا حراماً بعرض أبعد ما خلق الله على خشبة المسرح ، يطلب المتبرمون أن تعطى لرجال الأمن سلطة مراجعة جميع أفلام السينما وروايات المسرح قبل عرضها على الجمهور ؟ مع أن المفروض أن في سلطة البوليس من القوة ما يوقف التبدل بما هو موجود من تشريعات قائمة ، فلا حاجة بعد ذلك إلى فرض تحريمات بلا تمييز ، وفي الرأي العام إذا لم يضعف بالقوانين المتعجلة كفاية في الحد من الغلو ، وقد يكون أعظم تأثيراً (كما هي الحال في الشراب) من أي قانون . ولو أننا لبسنا أزياء البيوريتان (المتزمتين) لعادت أمريكا أمة في طور الرفية

والطفولة ، في الوقت الذي أخذت تدبّع فيه أدبها وتمثيلاتها وفنّها الخاص . إنا لنؤثّر حرية شارل الثاني على تزمّت كرمويل .

ومن حسن حظنا أن تكون الحياة في هذه الأمور في جانب الشباب ، وأن يكون الشباب في جانب الحياة . قد يُقدّم خلفاؤنا على الانتحار ، ويؤثرون لعب الكرة على التفكير في نظرية المعرفة ، ويغفلون عن شكر الله قبل الشرب ، ومع ذلك فلا ينبغي أن تصرف هذه الانحرافات عيوننا عن رؤية الصحة البهيجة والنفس الصافية للشباب المعاصر . دع الفتية في سعادتهم ، إذ لن يطول بهم الأمد حتى يطعنوا في السن ، فيدفعهم ما أصاب الحسد من إنهاك إلى الفضيلة . ولو كانت الأخلاق قد أصيبت بالخلال مؤقت ، فسوف يهذب الفتیان أنفسهم مع نمو المعرفة والحكمة ، وعليّنا في النهاية — كما ذهب سقراط إلى ذلك — أن نُعلّم أكثر ما نحرم . وإذا أردنا أن نحسّن أخلاق غيرنا من الناس فعليّنا أن نحسن أخلاقنا أولا ، لأن صوت المثل يدوّى فلا تسمع معه أصوات المواقظ . وأفضل ما يمكن أن نفعله لصالح الجماعة ألا نقيدها بالقوانين ، بل أن نقوى أنفسنا بالتسامح والكرامة . والسيد المهذب لن يخضع لأخلاق أخرى بخلاف ما تملّيه عليه نفسه .

ولابد أن يأتى زمان يدرك الناس فيه أن أعلى وظائف الحكومة ليست التشريع ... بل التهذيب ، وليست سن القوانين ... بل بناء المدارس . فيرشد أعظم الحكام ويوحى كما يفعل أبرع المعلمين عن طريق التثقيف أكثر من النواهي والأوامر التي تدعو إلى العدوان ^(١) . سيكون شعار الحاكم : ملاين الجنيّات للتعليم ، ولا ملّيم واحد للإجبار . وستعود الدولة التي بدأت غزواً وسلباً من الرعاة النّهّابين للفلاحين المسالمين فتصبح كما كانت لفترة بسيطة تحت حكم الأنطونين قيادة عظماء الرجال لأمة عظيمة . وليس لنا أن نياس من شعبنا إلى الحد الذي يجعلنا نعتقد أن مصير الحكومة سيقع في أيدي الساسة إلى الأبد . ويوماً بعد يوم نشأ ذخيرة من المعرفة ،

(١) كانت تجربة مستر هوفر كوزير للتجارة مثالية ، إذ استطاعت الهيئة التي يرأسها أن تضع النظام والاقتصاد موضع الفوضى والتلف . ولم يكن ذلك بالتشريع والجبر ، ولا حتى بالتنظيم ، بل بجمع المعلومات وتداول الرأي والاتفاق على العمل . وهذا لعمري هو فن الحكم .

وجيلاً بعد جيل ينمو تراث الثقافة ، وينتقل إلى عدد أعظم من البشر ، وعندئذ لن يصبر الناس على المهرجين الذين قاسينا منهم بصبر شديد وأمد طويل . وسيختار أبناء أبنائنا ، وقد ارتفعوا بعنايتنا ، حكاهم اختياراً أحكم مما فعلنا . لن يطلبوا مشرعين ، بل معلمين خلاقين . لن يخضعوا للتجنيد والتنظيم بل للمعرفة . لن يحققوا السلام والنظام بالعنف والقهر ، بل بتقدم الذكاء ونشره وتنظيمه .

الفصل الثامن عشر

هل أخفقت الديمقراطية ؟

١ - أصول الديمقراطية

لقد نشأت الديمقراطية - التي قال منتسكيو إن مبدأها هو الفضيلة - من المال والبارود . ذلك أن المدافع والبنادق دكت القلاع الإقطاعية ، وجعلت الفرسان المتعجرفين البارزين على خيولهم فريسة سهلة للمشاة ، وسوت بين السفلة والأشراف في ميدان القتال ، وأعادت لأول مرة منذ فيثاغورس بعض المنزلة للعدد . وقد سهل اختراع سك العملة ونظام الائتمان سبل التجارة وجمع الثروات ، فشيدت عند ملتقى الطرق التجارية مدن عاملة ، وعند الثغور التجارية مدن حرة بلغت من القوة ما يجعلها تخلع نير الضرائب الإقطاعية . وتولدت في مقابل أرستقراطية الأرض العاطلة طبقة متوسطة ميسورة نشطة ، أصبحت « سلطة ثالثة » طالبت بمركز سياسى يتناسب مع قوتها الاقتصادية المتزايدة .

وكان فولتير وروسو أجهر أبواق هذا التغيير ، فأذاعا في الشعب دينكما الشعارين الثمينين : « الحرية والمساواة » ، فسارت الطبقة المتوسطة على نغمت هذا النشيد إلى ذروة السلطة السياسية . كانت الحرية تدل في الأصل على التحرر من الاستبداد الإقطاعى وضرائبه . وكانت المساواة في الأصل تدل على السماح باشتراك الطبقة المتوسطة مع الأرستقراطية ورجال الدين في سلطان الحكومة وغنائمها . ويخيل إلينا أن الإخاء كان في الأصل يدل على تمكن رجال المال والتجار والحزارين والخبازين من دخول « صالونات » الأرستقراطية ورجال الدين . ولم يكن من المفروض أن ينحرف الفهم بهذه الألفاظ الفخمة بحيث تشمل جميع البالغين من الرجال ، وأقل من ذلك جميع النساء ، فقد كان ينبغى على الزوجات

والعمال ، ممن لم تكن لهم صفة أخرى غير الزوجية أو العمل ، أن يفهموا أنهم ما كانوا مقصودين بهذه الإشارة . وقد رغب روسو ، وهو أبو النظرية الديمقراطية في إبعاد جميع النساء وجميع المعدمين من السلطة السياسية ، ولم يدرجهم تحت لفظة « الشعب people » ^(١) . وفي الدستور الذى وضعه مجلس الثوار الفرنسى لم يدرج ثلاثة أخماس البالغين من الذكور فى قوائم الانتخاب . وفى قوانين ولايات مختلفة من جمهورية الولايات المتحدة كان ينص على نصاب مالى بالنسبة إلى حق الانتخاب حتى أيام الرئيس أندرو جاكسون ^(٢) . فالديمقراطية إذن بمقتضى أصلها ، ولا تزال فى تطورها الحارى ، تدل على حكم الطبقة المتوسطة ، أى الحكومة التالية فى الأفضلية ^(٣) second best .

وقد ساهمت عوامل متعاونة مع هذا السبب الاقتصادى الأساسى ، ذلك أن الإصلاح الدينى البروتستانتى قد مهد الطريق لتلك الفردية النائرة التى تختلج وراء الأخوة الديمقراطية للإنسان . هذا إلى أن العلماء والفلاسفة من كوبرنيك إلى دارون أهروا بمطارقهم يدقون رءوس الخرافات عن طريق الطباعة ، فأدى ذلك إلى انهيار الاعتقاد السلبي والمنافق فى الآخرة ، وحلت محله ثقة سهاذجة فى فردوس أرضى يشارك فيه جميع الناس أذكىاء وأغبياء على السواء فى السعادة والسلطان . وقد علمت الثورة الصناعية الناس أن يحكم بعضهم على بعضهم الآخر فى على أساس القدرة الإنتاجية — التى قد تبدو فى أى طبقة — أكثر من النسب . ودفع الملوك ثمن التمسك بالحكم أن وقفوا من رجال الأعمال الأغنياء موقفاً أكثر تأدباً ، كما منحوا الطبقات الدنيا المشاركة فى الانتخاب إلى البرلمان قوة ومنزلة متزايدتين . ثم إن تنافس الجماعات صاحبة الامتياز دفع كل قلة منها إلى المطالبة بتوسيع حق الانتخاب أملاً فى تأمين الاستمرار فى سلطانها عن هذا الطريق . حتى إذا خرج

(١) Beard, Economic Basis of Politics, p. 78.

(٢) أندرو جاكسون (١٧٦٧ - ١٨٤٥) سابع رئيس للولايات المتحدة (١٨٢٩ - ١٨٣٧)

(الترجم) .

(٣) يشير المؤلف إلى نوعى الحكومة اللذين ذهب إليهما أفلاطون ، فأفضل حكومة هى المدينة الفاضلة ، التى بسطها فى كتاب الجمهورية ، وهى حكومة الفرد الفيلسوف . ثم عدل عنها فى كتاب النوايس إلى أفضل حكومة ثمانية ، وهى حكومة الطبقة الوسطى ، وعلى هذا الأساس اعتمد أرسطو (المترجم - وانظر كتاب تطور الفكر السياسى تأليف ساباين وترجمة حسن العروسى) .

السادة من الحكم ، دخل الشعب في الحكم . وحين انتهى سلطان الرجال ابتداءً سلطان النساء ، فنحن اليوم جميعاً قد غاصت أقدامنا في الوحل فأصبحنا في مأزق جدير بخيال البارون مونشاووزن^(١) Munchausen ، فمن يخرجنا من هذا المأزق وجميعنا قد وقع فيه ؟

وعلى حين كانت هذه الأسباب العامة تتفاعل في أوروبا ، مفضية في إنجلترا وفرنسا وألمانيا إلى ثورات ١٦٨٨ ، ١٧٨٩ ، ١٩١٨ ، وفي روسيا في المرحلة الأولى إلى ثورة ١٩١٧ ، إذا بهذه العوامل تعضدها عوامل خاصة فتؤدي إلى نمو الديمقراطية الأمريكية . أما ثورتنا التي وقعت عام ١٧٧٦ ، والتي بعد عهدنا بها فلم نعد نعجب بها ، فلم تكن فقط ثورة مستعمرات على إنجلترا ، بل أكبر الظن أنها كانت في أساسها ثورة طبقة متوسطة على الأرستقراطية الوافدة . لقد كانت جزءاً وبضعة من تلك السلسلة الطويلة من الزلازل السياسية التي قوضت أركان العالم الغربي وغيرت وجهه ، وكسرت شوكة ملاك الأرض الأشراف وحطت بمنزلتهم ، وشيدت حكومات شعبية في كل مكان .

وكما أن انتصار رجال المال على الأشراف Barons في أوروبا سهله ثورات الفلاحين ، وطمع الأجراء في الأرض المتحررة من حقوق الإقطاع وعشوره ، كذلك عندنا في الولايات المتحدة سهلت وفرة الأرض الحرة ظهور الطبقة الوسطى وأسرت برفع شأنها . لقد وفدت الديمقراطية إلى أمريكا وفوداً طبيعياً ، لأن أمريكا بدأت بالمساواة والحرية . والديمقراطية الحقسة ، كالشيوعية ، تميل إلى الظهور عند البدايات البسيطة للحضارة أكثر من مراحلها الأخيرة التي تمتاز بالتعقيد والترف والتميز . ولقد عجب دى توكفيل^(٢) من المساواة الاقتصادية التي شاهدها عندنا سنة ١٨٣٠ . فالأرض يمكن الحصول عليها بطلب

(١) البارون مونشاووزن شخصية كتب رحلات خرافية ، وبطل عدة قصص صغيرة ، ساح في البلاد ووقعت له وقائع غريبة (المترجم) .

(٢) هو الكونت شارل هنرى موريس دى توكفيل De Tocqueville (١٨٠٥-١٨٥٩) مؤرخ فرنسى مشهور بدراسته للطبيعة ، والديمقراطية ، وكان يهدف إلى ازدياد حكم الشعب مع الحد في الوقت نفسه من ميوله الفاسدة . أشهر كتبه هو الديمقراطية في أمريكا ١٨٣٥-١٨٢٩ La Démocratie en Amérique (المترجم) .

من الكونجرس — وهو امتياز مقصور الآن على الاتحادات . كانت الديمقراطية حقيقة فعلية ، لأن المساواة السياسية كانت تعتمد على مساواة متقاربة في الأملاك ، وعلى ملكية واسعة للأرض . فالناس الذين كانوا يقفون على أرضهم الخاصة ويتحكمون (في الحدود الطبيعية) في الظروف التي يعيشون فيها ، كانت لهم شخصية وخلق ، ويمكن تسميتهم ديمقراطيين ، لا على المعنى الضيق وهو مجرد الاقتراع كل أربع سنوات . مثل هؤلاء القوم هم الذين رفعوا جيفرسون إلى مرتبة الرئاسة — جيفرسون الذي كان متمسكاً بالرأى مثل توماس بين^(١) Thomas Paine ، ومحافظاً إلى الحد الذي يمكن أن يكون عليه أى رجل ، والذي أيد قيام ثورة كل تسعة عشر عاماً . مثل هؤلاء الرجال هم الذين هياؤا لإمرسون Emerson^(٢) أساس الفردية التي تعتمد على نفسها ، ولهويتمان Whitman^(٣) تمجيد الرجل العادى . مثل هؤلاء الرجال هم الذين خلعوا على اليانكى^(٤) Yankee ما اشتهر به في أوروبا من كياسة (شطارة) ، وفردية ، واستقلال في الرأى — ذلك ما كان منذ زمن ، ولكن هذه أسطورة تبلغ اليوم من الغرابة في نظر الباحث في السياسة المعاصرة مبلغ استحالة انتخاب شخص مثل جيفرسون .

ثم تزامنت عوامل ثانوية على المسرح . ولا نزاع في أن حرية المنافسة أثناء الأيام الأولى من جمهوريتنا قدمت أساساً آخر للاستقلال والشخصية . ولعل نسبة مهرة العمال كانت أكبر مما هي الآن ، حيث تندفق جموع الفلاحين من القارة الأوربية فيكونون الطبقة العاملة العاجزة في مدنا . لم يكن الناس في تلك الأيام الأولى مجرد « أيد » ، ذلك أن الفخر بالمهارة في صناعة معينة عضد للخلق ،

(١) كان جيفرسون ثالث رؤساء جمهورية الولايات المتحدة (١٨٠١ - ١٨٠٩) وهو الذى كتب صيغة وثيقة الاستقلال ، وأسس الحزب الديمقراطى الجمهورى . أما توماس بين (١٧٣٧ - ١٨٠٩) فهو كاتب إنجليزى سياسى كان من أنصار ثورة المستعمرات الأمريكية وكذلك الثورة الفرنسية ، وحث دائماً على الثورة والاستقلال بدلاً من الإصلاح (المترجم) .

(٢) إمرسون (١٨٠٣ - ١٨٨٢) كاتب وشاعر أمريكى بحمد الطبيعة والأخلاق والفردية المتطرفة . ويعدونه مؤسس الفلسفة الأمريكية (المترجم) .

(٣) هويتمان (١٨١٩ - ١٨٩٢) شاعر أمريكى امتاز بالفردية في شعره وتمجيده الديمقراطية (المترجم) .

(٤) اسم يطلق على سكان الولايات المتحدة الحالية . وكانت في الأصل تدل على الشطارة أو المهارة فيقال : « حصان يانكى » أى حصان أصيل (المترجم) .

ودعامة تقف في وجه ذلك التجريد بالحملة للفردية ، والذي يتم عن طريق التعليم الموحد والصحافة . وأيضاً فإن العزلة الريفية لأوائل المواطنين كانت تعزز إلى حد ما حريتهم وتغذى ديمقراطيتهم ، كما أعطتنا عزلتنا الدولية الحرية والأمن في حدود بحارنا التي تحميها . فهذه الظروف مع عشرات غيرها تعاونت كي تجعل الديمقراطية الأمريكية حقيقة .

٢ — فساد الديمقراطية

وقد انقضت جميع تلك الظروف ، وانتهى أمر العزلة الدولية مع انتشار التجارة والمواصلات ، واختراع الأسلحة المدمرة التي تسهل الغزو . وانقضت العزلة الشخصية بسبب الاعتماد المتزايد بين المنتج والموزع والمستهلك ، وأصبحت المهارة اليدوية اليوم شذوذاً ، لأن الآلات مصنوعة لتسيير الآلات ، كما أن الإدارة العلمية تهبط بالمهارة إلى غباء الروتين غير الإنساني . ولم تعد هناك أراض حرة ، وازدادت الملكية . وفسدت المنافسة الحرة ، التي قد توجد بعض الوقت في ميادين جديدة مثل صناعة السيارات ، ولكنها تنتج في كل مكان نحو الاحتكار . أما التاجر الذي كان ذات يوم مستقلاً فقد وقع بين براثن الموزع الكبير : إنه يختفي ليدخل في سلسلة الصيدليات ، وسلسلة محلات السجائر ، وسلسلة البقالين ، وسلسلة محلات الحلوى ، وسلسلة المطاعم ، وسلسلة المسارح كل شيء أصبح حلقة في السلسلة . حتى المحرر الذي يملك صحيفته الخاصة ويصوغ أكاذيبه على هواه أصبح اليوم عضواً أثرياً ، لأن آلافاً من الصحف في عرض البلاد تروى الأكاذوبة نفسها وبالطريقة ذاتها أحسن فأحسن كل يوم . وأصبحنا نجد أن نسبة تزداد قلة باستمرار من رجال الأعمال (وبينهم عدد يزداد باستمرار قلة من أصحاب البنوك والمديرين) هي التي تهيمن على حياة وأعمال نسبة من الناس تزداد على الدوام كثرة . إن طبقة أرستقراطية جديدة في سبيلها إلى التكوين من الطبقة الوسطى التي كانت فيما مضى ثائرة . فلم تعد الحرية والإخاء والمساواة بعد الشعار الحبيب لرجال المال . وقد أصبحت الحرية الاقتصادية ، حتى في الطبقات المتوسطة ، أندر وأضيق مما كانت عليه عاماً بعد عام . وجدير

بعالم أخذت تختفى منه حرية التنافس ، وتكافؤ الفرص ، والأخوة الاجتماعية ، أن تكون المساواة السياسية فيه وهماً ، وأن تصبح الديمقراطية حلمًا .

وقد نشأ هذا كله لا (كما كنا نظن في حرارة الشباب) من شذوذ الناس في حياتهم ، بل من المصير المحتوم غير الشخصي للنمو الاقتصادي . ولا يمكن أن يتحرر الناس إلا حين يتكافأون في القدرة والقوة تكافؤاً متقارباً ، ومع ذلك فإن مساواتهم تتحطم بما يظفرون به من حرية . هذا إلى أن التفاوت الموروث الذي لا يمكن تجنبه في البأس والمقدرة يولد تفاوتاً اجتماعياً وصناعياً ، وتساعد الاختراعات والكشوفات على أن تجعل البأس أعظم بأساً ، والوهن أشد وهناً . والمساواة علاقة غير مستقرة مثل كفتي الميزان الذي تريد أن تضبطه ، فهي تنقص بمقدار ما ينمو التنظيم والتعقيد ، لأن طبيعة التطور الاجتماعي ذاتها تستدعي تفاوتاً متزايداً من جهة أنها تخصص الوظائف ، وتميز بين القدرات ، وتجعل الناس متفاوتين في المنزلة بالإضافة إلى المجتمع . وفي ذلك يقول تارد Tarde : « ليست المساواة إلا مرحلة انتقال بين نظامين ، كما أن الحرية ليست إلا طريقاً بين نظامين » . تأمل كيف تفوقت آلاف من الصور الاقتصادية والسياسية على المساواة الأصلية في المستعمرات الأمريكية وقلبها رأساً على عقب ، إلى درجة أن الهوة اليوم بين أكثر الناس وأقلهم حظاً في أمريكا أعظم اتساعاً من أى يوم مضى منذ عهد روما في ثروتها . وأى نفع للمساواة في الانتخاب حين تكون القوة موزعة هذا التوزيع غير المتكافئ ، وحين ينبغي أن تخضع القرارات السياسية للملايين الدولارات أكثر مما تخضع للملايين الناس ؟

إن أعمق أساس لما يسود حياتنا السياسية من نفاق وفساد هو هذا الاختفاء للمساواة والحرية الاقتصاديّتين . وهنا أيضاً نجد أسباباً أخرى تعاونت على هذا النفاق والفساد ، وتجاهل هذه الأسباب يجعل فهمنا للمشكلة مزعزجاً ناقصاً . ولنشرع في ذكرها في إيجاز لا يخل بالوضوح .

فهناك أولاً النمو المطرد في حجم الوحدة السياسية — أعني التوسع الإقليمي للولايات الأمريكية — فكلما اتسعت أطراف الولاية State ، كلما كان احتفاظها

بالشخصية والديمقراطية أشد عمراً . أو كما قال ه . ج . ولز : « تموت الديمقراطية إذا ابتعدت خمسة أميال عن مضخة القرية » . فقد كان يعنى بذلك الديمقراطية فى دولة المدينة الإغريقية حيث كان فى استطاعة الناس أن يجتمعوا ، « وأن يصوت لنا بشخصه » حسب تعبير توم بين Tom Paine . ثم إن حكم عدد كبير من السكان أسهل من حكم العدد الصغير ، لأن قصورهم عن الحركة أعظم ، واتفاقهم على الألم أو اتحادهم فى العمل أصعب . وقد اتفق بركليس وكليون فى الرأى ، رغمًا من اختلافهما فى كل شىء آخر ، على أن الديمقراطية غير ملائمة للإمبراطوريات .

وهناك — ثانياً — التعقيد المتزايد فى الحكومة ، وهو ثمرة طبيعية للتوسع فى الوحدة السياسية ، والتشابك المطرد فى العلاقات الاقتصادية للدولة . كانت الحكومة فى الزمن القديم تشمل الملك وندماه ومحظياته ، أما اليوم فإنها إدارة شاسعة ومكدسة تسعى للتوفيق بين آلاف الجماعات المتنازعة . وهى تحتاج من الذين يعملون بها ولو كانت أصغر الأعمال أن يشتغلوا كل الوقت . ومن المستحيل حكم الدول الحديثة بتلك الطريقة من الإدارة الشعبية فى مجالس القضاة ، أو بتلك القرارات السريعة التى كان تصدرها المجالس الشاسعة العدد الجاهلة ، التى منحت أثينا حرياتها وأسرت بها إلى القبر . ومن الطبيعى جداً أن تنمو « الأجهزة machines » فى كل حزب ، وكل اتحاد ، وكل منظمة ، وكل برلمان . والديمقراطية هى القلب الذى تنمو فيه حكومة القلة ، لأن الناخبين مشغولون بأمر معاشهم اليومى ، فكيف يسايرون آلاف المشكلات التى تنشأ وتتغير فى أحزابهم أو اتحاداتهم أو كنائسهم ؟ لن يستطيع الناخب أن يجيب بفطنة عن الأسئلة التى تعرض عليه ، لأنه لا يعرف . والديمقراطية هى حكومة أولئك الذين لا يعرفون .

من أجل ذلك كانت الحرب أول كوارثها . وقد تنبأ دى توكفيل بأن على أمريكا أن تتخلى عن الديمقراطية فى اللحظة التى تشبك فيها سياسة أوروبا وحروبها . ومن أقوال ما كولى : « كم من جيش انتصر تحت إمرة قائد سيئ ، ولكن لا يوجد أى جيش انتصر ووراءه مجتمع منقسم على نفسه فى جدل بينهما » . وتتجه اتحادات العمال إلى الأوليغارشية للسبب نفسه : فهى منظمات حربية تستهدف

المهجوم والدفاع . « إن الديمقراطية ترف ولا يمكن الاحتفاظ بها إلا في عالم آمن سلمى إلى حد ما » (١) . ويعرف الرجعيون هذه الحقيقة ، وقد يعتمدون عليها في إحداث حرب عارضة كبديل عن تحديد النسل ، أو كنظام يوحد إرادة الأمة . وليست الديمقراطية دواء يشفى من الحرب ، بل الحرب هي علاج الديمقراطية . ولعل العلاج يصبح مستديماً حين يجرى ساستنا العملية الجراحية الدولية القادمة .

وآخر الأسباب العاملة على إخفاق الديمقراطية هو شيوع الجهل . وفي ذلك يقول إمرسون : « إن بلاهة الناس داعية على الدوام إلى أن تسفر القوة عن وجهها » (٢) . وقد أيدت اختبارات الذكاء رأى أولئك الذين راقبوا الانتخابات خلال العشرين السنة الماضية . فقد ذهبت نظرية الديمقراطية إلى أن الإنسان كان حيواناً ناطقاً . ولا ريب أن بعضكم قد رأى هذه العبارة تجرى في كتاب من كتب المنطق . غير أن الإنسان حيوان انفعالي ، وعامل أحياناً ، ويمكن أن يخدع بطريق مشاعره إلى حد الرضا التام . وقد يكون من الصواب ، كما ذهب لنكولن في اعتقاده ، « أنك لن تستطيع استغلال كل الناس كل الوقت » ، ولكنك تستطيع أن تستغل عدداً كافياً منهم لتحكم دولة كبيرة . ولقد حسب بعضهم ثغد المغفلين على ظهر هذه الأرض فقدرهم بنسبة مائتين في كل دقيقة ، وهذا نذير سوء للديمقراطية . ومن الواضح أن الديمقراطية ليست وحدها هي الخفقة ، بل نحن ، فقد عذب عن بالنا حين جعلنا من أنفسنا حكماً أن نجعل من أنفسنا قوماً أذكاء . ظننا أن القوة في وفرة العدد ، فلم نجد فيها إلا أمراً عادياً ، إذ كلما كان عدد الناخبين أكبر ، كان الأشخاص أو الصفات التي تتوافر فيهم عادية أكثر . فنحن لا نطلب من نوابنا المنتخبين عظمة أو بعد نظر ، بل إنما نطلب لساناً ثلاثياً ، وبعض السياسة التي تبعد شبح الجوع . وقد جاء في أقوال بيكون : « كان قدماء الساسة يصفون الديمقراطيات بأن الشعب فيها كالبحر والخطباء أشبه بالريح » (٣) . حقاً نحن لا نخفل كثيراً بمن يحكمنا ، بل لا نكاد نحس أننا محكومون ، كحالنا

(١) Weyl, W., The End of the War, p. 83.

(٢) Representative Men, p. 21.

(٣) Advancement of Learning, p. 227.

قديمًا حين كنا نظن أننا لا ندفع أى ضرائب لأننا ندفعها عن طريق المالك أو التعريفة الجمركية .

وكان قولتير يؤثر الملكية على الديمقراطية على أساس أننا فى الملكية لانتاج إلا أن نعلم رجالاً واحداً ، أما فى الديمقراطية فينبغى أن نعلم الملايين الذين يخطفهم الموت قبل أن يتمكن من تعليم عشرة فى المائة منهم . إننا لا نكاد نتحقق إلى أى حد تعبت نسبة المواليد بنظرياتنا وحججنا . فالأقلية تحصل التعليم وأسرهم محدودة العدد ، وليس للأغلبية وقت تنفقه فى التعليم والأسرة فيها واسعة العدد ، ويكاد كل جيل ينشأ فى بيوت يبلغ دخلها من الضالة حداً لا يسمح بالإنفاق على ترف المعرفة . وهذا هو السر فى أن مذهب الحرية السياسية كان على الدوام عديم الحدودى ، لأن الدعاية إلى العقل لا يمكن أن تلحق انتشار الجهلاء . وهذه هى العلة فى ضعف البروتستانتية ، لأن الدين كالأمة لا تنقذه الحروب التى ينتصر فيها ، بل الأطفال الذين تحسن تربيتهم .

وهذا أيضاً هو السر فيما يسود الديمقراطيات من إثارة المحافظة على التقاليد . وكان أتانول فرانس يعنى على الجماهير الخوف من التجديد neophobia . وكان بسمارك يلجأ إلى الانتخاب العام لتأييد السياسة الملكية . وفى ذلك يقول العجوز الساخر : « إني أعد الانتخاب المباشر والتصويت العام أعظم ضامين للاتجاه المحافظ أكثر من أى قانون انتخابى صناعى » ^(١) وقد ظفرت المرأة بحق الانتخاب فى يسر ، لأن زعماء الأحزاب كانوا يعتقدون أن هذا يدعو إلى المحافظة . وأقر الأحرار بعض الإصلاحات منها استفتاء الشعب ، فطرح المحافظون هذه الإصلاحات على الشعب يستفتونه ، ورفضت الإصلاحات بما فيها الاستفتاء ^(٢) . وقد أدى توسيع الانتخاب فى إنجلترا سنة ١٩١٨ إلى تولى أشد الحكومات رجعية خلال نصف قرن . وقد رفع قانون الانتخاب الإجبارى فى استراليا نسبة الناخبين من ستين فى المائة سنة ١٩١٢ إلى تسعين سنة ١٩٢٥ وأثمر نصراً للمحافظين ساحقاً .

Headlam, J. W. Bismarck, p. 255. (١)

Maine, Sir H., Popular Government, p. 40. (٢)

لقد تنبأ السير هنرى مين فقال : « من أغرب الأفكار العامة القول بأن انتخاباً واسعاً شاملاً يمكن أن يدفع عجلة التقدم والأفكار الجديدة ، والمسكتشفات الجديدة ، والاختراعات الجديدة ، وفنون الحياة الجديدة . الحق أن فرض مثل هذا الانتخاب سينتج ضرباً سيئاً من المحافظة » (١) . فعلينا إذن أن نسلم للإنجليز المتعصبين لفكرة أن الديمقراطية تبدو معادية للعبقريّة ونافرة من الفن ، لأنها تغلو في تقديرها للأمور التي تقبلها أفهام أوساط الناس ، فهي تبني قصوراً من الصور المتحركة وتظن أنها البارثينون (٢) . ولو كان المجلس الأثيني قد اتبع منهجاً ما ظهر إلى الوجود أى بارثينون على الإطلاق (٣) . قد يكون الاستبداد الفكرى للأغلبية مزعجاً كاستبداد الملوك السياسى ، فى بعض الولايات الأمريكية نجد أن القليل من المعرفة شىء خطر . وهذا الشك الديمقراطى فى الفردية هو ثمرة نظرية المساواة ، إذ بما دام جميع الناس سواسية فإن عدد الأصوات يجب أن يثبت قواعد أى حقيقة ، ويحيط أى عرف بسياج من القداسة . وليست الديمقراطية ثمرة عصر الآلة فحسب ، أو ثمرة تحكم عن طريق « الآلات » فقط ، بل تحمل فى طياتها احتمال استعمال أفزع الآلات على الإطلاق ، وتلك هى مطرقة هائلة من الإرغام الجاهل الذى يمحو التفاوت ، ويسحق العقل الذى يشد ، ويثبط عزيمته الامتياز الخارج على التقاليد . ولست تجد التربية فى أى مكان من العالم ينفق عليها وتجهز بمثل هذا الإسراف الذى يوجد فى الولايات المتحدة ، ومع ذلك فلن تجدّها قليلة التوقير والاستفادة منها فى أى مكان كالحال فى الولايات المتحدة ، فقد وهبنا أنفسنا على نطاق واسع لهذه المهمة فأنشأنا نظاماً لم يسبق له مثيل من المدارس ، والمدارس العليا ، والكليات والجامعات ، والآن وقد تم بناؤها جميعاً وامتلات جميع أماكنها ، إذا بنا نخرج بالتعليم عن أن يكون ميزة للوظائف العامة .

٣ — أساليب الديمقراطية

تنشأ فى الأمة التى تحكمها أقلية حكماً فعلياً ولا بد لها من بعض المظاهر للرضا الشعبى ، طبقة خاصة ليست وظيفتها الحكم بل الحصول على موافقة

(١) In Sellars, R., The Next Step in Democracy, p. 216.

(٢) البارثينون معبد للإلهة أثينا بنى بين سنتى ٤٤٧ و ٤٣٢ ق . م (المترجم) .

(٣) Plutarch, Life of Pericles.

الشعب لأى سياسة قد تقرر لها تلك القلة التى لا يمكن الاستغناء عنها ، والتى تختفى فى قلب كل دولة ديمقراطية . ونحن نسمى هذه الطبقة من الناس بالسياسة ، ولن نتحدث عن أشخاصهم .

ينقسم السياسة إلى أحزاب يندرج الشعب تحتها فى معسكرات متعادية . ومما يسهل مثل هذه التنظيمات الروح الطبيعية فى الإنسان للتحزب . والأحزاب أثر من آثار الولاء القبلى للعرب . فالمتوحشون فى استراليا يرحلون من طرف قارتهم الشاسعة إلى الطرف الآخر كى يتخذوا فى ميدان القتال جانب أولئك الذين يلبسون الطوعم نفسه الذى يلبسونه^(١) . ولا يزال الطوعم هو الذى يعيننا على تنظيم أنفسنا ، ويبدو أن الأحزاب التى تتخذ الفيل أو الحمار شعارها المقدس تفلح أكثر من تلك التى تختار بسداجة الشعلة شعارها .

وقد أصبح التنظيم الحزبى اليوم عظيم النفقات ، ويحتاج إلى ملائكة — أى مثاليين واقعيين يدفعون ثمن ما تتكلفه (صالات) الاجتماعات ، وقاعات الأندية ، والرحلات والحملات الانتخابية ، ويقنعون كمكافأة لهم باختيار المرشحين ، والحصول على بعض العقود والمناصب ، والحماية من قيود بعض القوانين السخيفة المزعجة ، كما يلعبون دوراً هادئاً فى مهام التشريع الشاقة . ولقد صدق من قال : « إن الذين يعينون يحكمون »^(٢) . ولا يمكن للشعب أن يعين أحداً حتى فى المناصب الكبرى ، لأنه غير منظم وتنقصه المعلومات . ولكن قد يكون الشعب موضع الثقة فى توزيع مرشحيه بمساواة تقريبية . ولكن قلة صغيرة بشرط أن تكون منظمة تنظيمًا حسنًا تستطيع عادة إذا أعطت جميع أصواتها فى جانب واحد أن تقرر اتفاقاً ، أو تتولى منصباً رئيسياً ، أو تنجح فى انتخاب . ذلك أن « الجهاز machine » ينتصر لأنه قلة موحدة تعمل ضد كثرة منقسمة . ولعل هذا هو الذى عناه كارليل حين قال : « الديمقراطية بطبيعتها شئ يلغى نفسه بنفسه ، ويؤدى فى نهاية الحساب إلى نتيجة هى صفر صحيح »^(٣) . وقال الديمقراطي المتحمس جان جاك

(١) Maine, Popular Government, p. 31.

(٢) Crozier, J.B., Sociology Applied to Practical Politics, p. 48.

(٣) Chartism, p. 74.

روسو : « الديمقراطية الصحيحة لم توجد قط ، ولن توجد أبداً ، إذ مما يعارض طبيعة الأشياء أن تحكم الأغلبية الأقلية » . وجميع ألوان السياسة عبارة عن تنافس بين الأقليات المنظمة . أما الناحيون فرياضيون نظاف يهللون للمنتصرين ويسخرون من المهزومين ، ولكنهم لا يساهمون في النتيجة .

فالانتخاب في ظل مثل هذه الظروف من النوافل التي لا لزوم لها ، وهو يجري في الأغلب لتخفيف وطأة الرقابة الاجتماعية ، وذلك بترسيخ هذه الفكرة في عقول الشعب ، وهي أن القوانين قد صدرت منهم . ومن أقوال منتسكيو أن الضرائب في الحكومات الديمقراطية قد تكون أفدح من غيرها دون إثارة روح المقاومة ، لأن كل مواطن يراها ضريبة يدفعها لنفسه ^(١) . فالدولة هي الشعب ^(٢) ، ورئيس الدولة هو رئيس خدمه . أثر زهو أى رجل تحصل منه على ما تريد . كان الرومان يحكمون الشعب بأن يوفرأوا له « الخبز وألعاب السرك Panem et circenses » وليس على حكامنا إلا أن يقدموا لنا ألعاباً مرة كل أربع سنوات — وسنوفر الخبز لأنفسنا ، وندفع ثمن دخول السرك .

وتكاد أن تكون المزية الوحيدة للانتخابات من هذه المقدمات السابقة هي فرصة التعليم المتاحة للشعب نتيجة إثارة وعيه ، ومع ذلك ففي معظم الأحوال يمحو الإحساس بخطور الأحداث الحارية هذه الفرصة . وما قيمة السياسى إذا لم يستطع أن يخترع بعض مخارج مسلية وغير هامة يصرف بها أعين الشعب عن المشكلات الواقعة بالنعل . مثال ذلك أنه في انتخابات كندا سنة ١٩١٧ أخفيت بدهاء حيلة التجنيد الإجبارى بدلا من التطوع بالدعاية القائلة إن اتخذال اقتراح التجنيد الإجبارى يعنى سيطرة العنصر الفرنسى من الشعب على كندا ، فهض السكان الإنجليز جماعات وصوتوا للسيطرة الإنجليزية والتجنيد الإجبارى . وإذا أحسن العرض السياسى راجت أى أنواع السياسات العتيقة ، وتصبح الانتخابات مباراة في التزييف والصخب ، وكلما خفت صوت الحجج السليمة ضاعت الحقيقة في تيار الشعب . أضف إلى ذلك إعادة تقسيم الدوائر الانتخابية كى

The Spirit of Laws, Introduction, p. XXI. (١)

(٢) يشير المؤلف متبهماً إلى عبارة لويس الرابع عشر : الدولة هي أنا L'état c'est moi فيقول هنا إن الدولة هي الشعب L'état c'est lui (المرجى) .

تحتفظ جماعات المحافظين في الريف بالسلطان ؛ وحرمان عدد كبير من السكان من التصويت بسبب تجوابعهم البلاد وكثرة تحركاتهم ؛ ونسبة من الغش والعنف عند صناديق الانتخاب — تخرج من هذا كله بالديمقراطية . تحت مثل هذه الظروف « يصبح الصوت الانتخابي في قيمته كتذكرة في قطار حين يكون خط السكة الحديدية معطلا باستمرار » (١) . فلا غرابة بعد ذلك أن تهبط نسبة الأصوات الفعلية عن الأصوات المقيدة من ٨٠٪ سنة ١٨٨٥ إلى ٥٠٪ سنة ١٩٢٤ . ولا عجب أن يرفض العقلاء الوقوف في طابور ساعة لتقييد أسمائهم في الحداوي ، ثم ساعة أخرى للتصويت ، أي لاختيار أوب ، مع أن كلا منهما ينتسب لشخص مجهول (٢) .

ومع ذلك فلنفرض أننا قد صوتنا ، وتمت الانتخابات ، وارتفعت أسعار السندات ، وذهب الشيوخ المنتخبون والنواب إلى واشنطنطون (بعد بضعة أشهر) لتأليف الكونجرس عندنا أو البرلمان ، وهو ندوة أحاديثنا أو ندوة الثروة الوطنية ، فلن تجد أغرب من المفاجآت التي يلقاها هؤلاء الرجال والنساء المنتخبون ، ليس فقط لأن الرجال حين يجتمعون في المجالس تطول في الحال آذانهم (٣) . فقد اختير الشيوخ والنواب لما لهم من مقدرة سياسية بمعناها الأمريكي ، أي القدرة على تعيين أنفسهم ، والإعلان عنها ، والتهليل لها ، وانتخاب أنفسهم ، فهم يملكون هذا الضرب من القدرة بشكل متقدم جداً ومتخصص . وهم عادة إمعات يسهل خضوعهم للنظام ، ذوو ضمير مطاط ، وخالون من الأصالة أو العبقرية الخطرة . فلن تجد شيئاً أقرب إلى حرمانهم المنصب (أو الاقتراب من المنصب) من العبقرية من أي حزب كانت — وفوق كل شيء العبقرية في فن السياسة . فقد أصبح واضحاً في هذا الزمان أن فرصة الرجل في بلوغ المناصب العالية هي ، اشتباره بالتفاهة .

وفجأة يجد ممثلونا أنفسهم غارقين في مشكلات بعيدة كل البعد عن نوع

(١) Chesterton. G. K., Short History of England, p. 266.

(٢) لقد ازدادت نسبة الأصوات الفعلية للأصوات المقيدة بشكل محسوس حين هبّت الفرصة

سنة ١٩٢٨ للناخبين أن يصوتوا على نائب معلوم الصفة .

(٣) Voltaire in Morley, J., Diderot and the Encyclopedists, vol. ii, p. 232.

المشكلات التي كانوا يحملونها وهم في الطريق إلى السلطان . كانت تلك مشكلات سياسية : الولاء الصابر لقادة الناحية والمركز والإقليم ؛ التأثيرات الحارية من وراء ستار ، وألوان التفاهم السرية ؛ الأحاديث ، والتعهدات ، والإنكارات ، وتوجيه الإعلان ؛ والمساهمة بالأموال سراً ، والتي تنفق في التحايل على القانون ؛ الأفضال التي يختص بها الأقوياء ، والوعود التي تبذل لغيرهم . أما هذه المشكلات التي يواجه أعباءها في واشنطن ويضطرب في غمارها عندما تفرض آلاف مشروعات القوانين ، فهي مشكلات اقتصادية : تتعلق بأصحاب الأملاك ، والمواد الخام ، ومناجم الفحم ، وآبار الزيت ، والقوى المائية ، والإنتاج ، والمنافسة ، والنقل ، والملاحا ، والطيران ، والتحكيم ، والتوزيع ، والأسواق ، والمالية ، وهذه كلها تتطلب تفاصيل مستورة لا يفهمها إلا الإخصائي ، ولا يقوى على تحمل آلامها رجل اختصاصه شد الحبل — وعندئذ يلجأ ممثلونا إلى صحفهم ، ويصوتون كما يقال لهم . وكلما أصبحت الحكومة أعظم تعقيداً ، أصبح الموظفون المنتخبون أقل أهمية ، والخبراء المختارون أكثر قيمة ، وتعلو السلطة التنفيذية على السلطة التشريعية ، لأن التنفيذية مزودة ومدعمة باللجان الفنية — مكاتب الاحتياطي Federal Reserve Boards ، ولجان التجارة ، ومكاتب العمل ، ولجان التجارة الداخلية ، ولجان الدين . . . ففي أثناء حكم الرئيس هاردينج فوجيء أعضاء الكونجرس بأن وجدوا أنفسهم وقد وضعوا في طابور خلف أعضاء إحدى اللجان المذكورة سابقاً . واحتج المجلس بعشرات من « بما أن » « إذن » ، ولكن المستر هاردينج أجابهم بتلك المائة التي كانت كافية أن تجعل منه رئيساً . ولكن القشة بينت اتجاه الريح ، وهو أن « الحكومة النيابية » قد انهضت ، ولم تستطع الديمقراطية أن تجد طريقاً لانتخاب ذوي القرائح في المناصب ، لأنهم كانوا قد شغلوا السلطة حين كانت الديمقراطية تلتى الخطب أو تقرأ الصحف .

أكان هذا هو السبب في إلحاحنا على خصومنا باصطناع الديمقراطية ؟ يتحدث نيتشه عن « الاستعداد لتأييد شكل الحكم الديمقراطي في الدول المجاورة — أو الفوضى المنظمة le désordre organisé كما يقول ميريميه (١) »

(١) ميريميه (١٨٠٣ - ١٨٧٠) قصصى فرنسى اشتهر بقصصه التاريخية . وقد تعلم ميريميه علم الآثار القديمة ، وشغل منصب مفتش الآثار التاريخية في فرنسا (المترجم) .

وذلك لسبب واحد وهو أن هذا الشكل من الحكم يجعل الدولة الأخرى أضعف ، وأكثر ميلاً للهو ، وأقل صلاحية للحرب » (١) . ولعل تربيع الديمقراطية على عرش التفاهة والعجز والغش والفساد له بعض الصلة بالانتقال الأفلاطوني من الحكم النبائي إلى « الاستبداد » أو الدكتاتورية في إيطاليا وأسبانيا واليونان وروسيا وبولندا والبرتغال ، والخوف من تطورات مماثلة في فرنسا . أما فيما يخص بنا ، فانظر ماذا حدث : هزمت قوى الإصلاح السياسى معظم الوقت ، وحيث ظفرت بنصر ضال كان ذلك عن طريق اصطناع الأساليب التى يتبعها « الجهاز machine » — ولذلك كان لانتصار « الإصلاح » فى بعض الولايات بعض صفات انقلاب العالم نحو المسيحية ، ولم يكن واضحاً تمام الوضوح أى الحزبين هو الذى تحول نحو صاحبه . وذكرت الصحف فى ذلك الحين : « أن السياسة اليوم تتحكم فيها « الأجهزة » تحكماً تاماً كما كان الحال فى حدود سنة ١٨٨٠ ... فالساسة المحترقون هم حكامنا أكثر فأكثر . وبعد خمسين عاماً من الصراع هزموا فى النهاية عدوهم وهو المصلح » (٢) . لقد انتصرت التفاهة ، وفر الذكاء فى كل مكان من محاليس الديمقراطية كما يفر أمام سيل جارف ، وتربع المغفلون فى السرج وامتلطوا صهوة البشر .

نعم هذه نظرة من جانب واحد ، ملخصة للათام ، أكثر منها تحليلًا كاملاً . أما الجانب الآخر من فضائل الديمقراطية فقد كثر امتداحه بحيث لا يحتاج منا إلى تكراره فى هذه الصفحات . حقاً إن استبداد الأغلبية بالأقلية أفضل (عددًا) من استبداد الأقلية بالأغلبية ؛ وإن الحرمان الديمقراطى من حق الانتخاب للرجل المتعلم ليس أسوأ من خضوع أصحاب المواهب الحديدية لأرستقراطية ذوى الحسب القديم ؛ وإن الديمقراطية قد رفعت روح الرجل العادى وملاأته زهواً بمقدار ما حطمت عبقرية الفرد الشاذ وأجذبته ؛ وإن الناخب صاحب القوة المطلقة عنده الآن شعور بشخصية متحررة تعمل إلى حد ما على تكوين الشجاعة وبناء الخلق ؛ وإنه لا يوجد بيننا الآن عبيد للأرض (عن شعور) ، وإن كل رجل

(١) Human All Too Human, vol. i § 453.

(٢) The New Republic, Dec. 1925.

يعرف أنه قد يكون رئيس الدولة في المستقبل . لعله كما قال برايس (١) Bryce
بعد دراسة صابرة : إن هناك بعض صور الحكومات أسوأ من الديمقراطية .

غير أننا كلما ازداد فحوصنا للديمقراطية ازداد انزعاجنا من عجزها ونفاقها ،
إذ ما دامت السلطة السياسية غير حقيقية إلا إذا كانت تمثل السيادة العسكرية
أو الاقتصادية ، فإن الانتخاب العام مظهر باهظ التكاليف . قد تدعى الدكتاتورية
سيادة واحدة ، فهي من هذا الوجه أكثر أمانة . ومن أقوال نابليون : « ليست
السلطة المطلقة في حاجة إلى الكذب ، لأنها تعمل ولا تقول شيئاً » (٢) .
والديمقراطية بغير تعليم تعني النفاق إلى غير حد ، وتعني انحطاط فن الحكم إلى
السياسة ، وتعني الاحتفاظ الباهظ التكاليف إلى جانب الطبقة الحاكمة الحقيقية
بطبقة طفيلية كبيرة من الساسة وظيفتهم خدمة الحكام وخداع المحكومين .

وآخر مرحلة في هذه المسألة هو حكم رجال العصابات ، ذلك أن المجرمين
يزدهرون في سعادة في مدننا الكبرى لأنهم يضمنون حماية وتعاون القانون الكاملين .
فإن كانوا ينتمون إلى « المنظمة Organisation » ، أو كان لهم فيها أصدقاء ،
ضمنوا أنهم إذا ارتكبوا جريمة فلن يقبض عليهم ، وإذا قبض عليهم فلن يداؤوا ،
فإذا حكم عليهم فلن يرسلوا إلى السجن ، وإذا سجنوا فسيغني عنهم ، فإذا لم يعف
عنهم فسيسمح لهم بالهرب . وإذا قتلوا وهم يباشرون مهمتهم احتفل بدفنهم
احتمالاً عظيماً يليق بعضو ينتسب إلى الطبقة الحاكمة ، ونصبت لوحات تذكارية
لتمجيدهم . وهذه هي نهاية الديمقراطية البلدية municipal democracy .

وإذا أغضينا بعد ذلك عن هذا الشر النابع من أحلامنا المتمنة ، كنا جماعة
من الجبناء : وإذا لم يكن في استطاعتنا أن نجد طريقة لإصلاح الديمقراطية
تنظفها من شروها وتخلصها من جهالاتها ، فلنقدم دستورنا لأمة ناشئة ،
ونستورد ملكاً .

(١) جيمس برايس (١٨٣٨ - ١٩٢٢) مؤلف إنجليزي وسياسي ، كان سفيراً في الولايات
المتحدة من ١٩٠٧ إلى ١٩١٣ ، وله كتاب عن الامبراطورية الرومانية المقدسة ، وعن ممتلكات
أمريكا (المترجم) .

(٢) Bertaut, J., Napoleon in His Own Words, p. 64.

ماذا نحن فاعلون ؟

يجب أن يفهم حتى المصلح النائر أن ما يمكن عمله قليل جداً ، ولا يمكن عمل شيء بسرعة . إن أعظم خطة نتمناها سيكون فيها من الإسراف الشديد الذى يغترف من ثروتنا الوطنية والخاصة للإففاق منها على التعليم والاختراع والبحث العلمى كى ، تحسن عقولنا ، وتنقص عددنا ، وتجعل الشغل اليدوى أغلى من القوة الميكانيكية ، وتحل الطبقة العاملة (البروليتاريا) ، وتحرر البشرية لمواجهة أعباء « المجتمع الأعظم » . وليس ثمة مع الأمد الطويل أى حل سوى التعليم ، فإلى أن يصبح الناس أذكىاء فلن تتخلص المدن من الشرور . ولكن إذا كان العالم لم يفعل هذا كله من أجل أفلاطون ^(١) فالأشبه أنه لن يفعل هذا لأجلنا . وقد رأينا أى حيل شيطانية تلعبها نسبة المواليد بالتعليم . وأليق شيء بعد ذلك أن ندعو أفضل الناس فى البلاد علماً وأعظمهم قدرة ، بعد انتخابهم فى كل مهنة بوساطة أعضاء تلك المهنة ، فيلقى بعضهم بعضاً للنظر فى تجديد دستورنا ، والتوصية بإصلاحات جديدة للكونجرس والولايات ، وتأييد هذه التوصيات بهيبة المهن التى يشتغلون بها ، وبأموال أصحاب الملايين مما يكون كل مصلح على استعداد لبذله . — أما أفضل خطة ثالثة فإنها تجرى كالآتى :

إن آفة الديمقراطية الحديثة فى الساسة والتعيين فى المناصب nomination . فلنلغ الساسة والتعيين .

لا ريب أن كل إنسان كان فى الأصل طيب نفساً ، وأن كل أسرة كانت تصف لنفسها الأدوية ، إلى أن تجمعت المعارف الطبية ونمت مجموعة الأدوية ، فأصبح من المستحيل على الشخص المتوسط مجازاة « الفارما كوبيا » (الأقرباذين— دستور الأدوية) ، ونشأت طبقة خاصة من الناس خصصت جميع أوقاتها للحدية لدراسة علم العقاقير materia medica ، وأصبحوا أطباء محترفين . ولحماية الجمهور من الذين يمارسون العلاج بغير تدريب ، ومن أولئك المثابرين على هواية إجراء

(١) يشير المؤلف إلى رأى أفلاطون فى الجمهورية من أن المدينة الفاضلة تصلح بنظام من التعليم على رأسه الفلسفة (المترجم) .

التجارب ، منح الذين أتموا دراسة الطب درجة علمية يطمئن لها الجمهور ولقباً مميزاً . وقد بلغنا الآن الحد الذى يعد فيه خارجاً على القانون كل من وصف تذكرة دواء دون الحصول على مثل ذلك التدريب ، وتلك الدرجة العلمية من معهد معترف به ، ولم نعد نسمح لأشخاص لم يتهيأوا للعلاج أن يباشروا أمراضنا الشخصية أو أن نخاطر بأرواحنا ، فنحن نطلب من المعالج سنوات طويلة من عمره ينقطع فيها للدرس كى يصف لنا تذاكر الدواء ، أو يخلع لنا سنة .

أما أولئك الذين يعالجون آفاتنا غير الجسدية ، ويخاطرون بمئات الملايين من الأرواح فى السلم والحرب ، وتوجد رهن إشارتهم جميع أملاكنا ومواهبنا ، فليس مطلوباً منهم أى إعداد خاص ، إذ يكفي أن يكون أحدهم صديقاً للرئيس ، موالياً للحزب organisation ، وسياً أو لطيفاً ، يحسن الترحاب ، يجسد النزال ، ويطيع الأوامر فى هدوء ، ويسخو فى بذل الوعود حسب الظروف . وليس من المهم بعد ذلك أن يكونوا من الحزارين أو الحلاقين ، من محامى أو محررى الأرياف ، من باعة الخمور أو الخنازير . فما داموا قد ولدوا فى كوخ من أكواخ أمريكا فمن المسلم به أن لهم حقاً إلهياً فى أن يكون أى منهم رئيس الجمهورية .

ولتخيل صورة أبهج . لنفرض أن جامعاتنا العظيمة التى تشتمل على بذور أمريكا المتقدمة قد أضافت إلى كلياتها مدرسة « للإدارة السياسية » ، وأنها لن تكون مدرسة نظرية بمقدار ماهى مدرسة عملية خاصة بالتفصيلات المحسوسة ؛ ولا مدرسة لمناقشة التاريخ السياسى ، أو « فلسفة الدولة » أو الملكية فى مقابل الأرستقراطية والديمقراطية والاشتراكية والفوضوية ، بل مدرسة تنزل بطلابها إلى الميدان الفعلى للإدارة المدنية . ستكون مدرسة تنظر فى مشكلات المدينة لا كما قد ينظر إليها ساسة الشوارع أو الإمعات المسиров ، بل كما ينبغى أن يفكر فيها العالم ، أو المنفذ الذى رفعتة الدربة والمقدرة إلى الحد الذى يرى فيه الإدارة فناً . فلو أن مثل هذا المنهج كان من الكمال والأمانة كمنهج مدرسة جيدة فى الطب ، فلن يحتذب من الناس إلا الجاحدين ذوى العقول العلمية ، وسيفزع منه بشكل عجيب القوم الذين يرتفعون اليوم إلى السلطان عن طريق بيع أنفسهم وتنميق أساليبهم . ولن تجد إلا قلة من المرشحين لمثل هذا التعليم منذ البداية ما داموا

لا يجدون ضمناً لشغل الأماكن السياسية بعد إتمام استعدادهم . ولكن انتشر خطة مدير المدينة لابد أن تفتح أبواباً ، وتنمو المدارس كما نمت مدارس الطب من قبل ، ولا مناص من دعوة مديري المدينة الناجحين لرياسة هيئة التدريس .

هذا كله في حدود الإمكان ، بل اليوم تقدم جامعاتنا الكبرى ببرامج تصلح أن تكون أساساً لهذه المدارس الإدارية . غير أن الخطوة التالية في الإصلاح الذي نفترضه للديمقراطية يتطلب خيالا أوسع . ولنفرض أنه في الوقت الذي نعد فيه هذه « المدارس » رجالا للحكم ، كانت هيئات أخرى قد أعدت الشعب بالدعاية المقروءة والمسموعة لهذه الفكرة الجديدة التي تتطلب حاجة حكاهم للتعليم ، والتي تقدم مرتبات تتناسب مع المقدرة المطلوبة في الحكومة الحديثة . ومن الواضح أن رأياً عاماً قد يتكون بحيث يشعر أى حزب سياسى أنه ليس من الحكمة تعيين أى رجل لم يعد هذا الإعداد الخاص للمناصب المدنية . ولا يبعد أن يأتى وقت يستغنى فيه عن التعيين أصلاً كما هي الحال في « الدستور Constitution » ، ويقدم الموظفون الإداريون بعد إعدادهم أنفسهم مباشرة مرشحين للانتخاب . ويجب أن يقتصر اختيار الشعب على هؤلاء وأن يكون له مطلق الحرية في اختيارهم . لا ريب أن مجال الاختيار سيكون أوسع مما هو الآن وسيكون على أى حال سليماً . سيكون ذلك امتحاناً لغفلة الديمقراطية ، وإذا صح مايقوله هرقليطس (١) عن الجماهير ، فهذا هو الضرب الوحيد من الديمقراطية الذي يمكن أن يعيش في هذا العالم الواقعى .

أيمكن أن يودى مثل هذا الإصلاح إلى هدم جوهر الديمقراطية ؟ كلا ، بل إنه لضرورى للديمقراطية أن يشارك كل بالغ بالسوية في انتخاب كبار الموظفين ، وليس من الجوهري أن يكون جميع البالغين سواء في الترشيح للوظائف . ذلك أن قيود المولد والسن والموطن موجودة من قبل ، فإذا أضفنا إليها الحاجة إلى

(١) هرقليطس فيلسوف يونانى من مدينة إفيسوس ، عاش في القرن السادس قبل الميلاد ، وكان أرسقراطى التفكير والنشأة ، وصف الجمهور بأشد الصفات احتقاراً ، فهم لا يفهمون الأمور التي تقع عيونهم عليها ، وينساقون وراء غيرهم من المشهورين كالأغنام ، وغير ذلك من أقاويله (المترجم)

الإعداد فلن يكون ذلك إلا مجرد إضافة إلى تعقيد الحكومة المتزايد . وقد توسع الخطوة الديمقراطية من ناحية زيادة عدد المرشحين أكثر من تضيقها من ناحية تحديد صفاتهم . والأولى أن نظامنا الحاضر هو البعيد عن الديمقراطية : إذ يحدد فرصة الناخب بين اثنين من المرشحين ، ولا تحقق الأساس الأعظم للديمقراطية بالنسبة للجميع إلا تحقيقاً ضئيلاً ، نعى المساواة في التعليم ، والمساواة في الفرص الاقتصادية . ولو اطمأن كل طالب بلغ مستوى معيناً من الامتياز أن المنح المدنية ومنح الدولة ستعينه من المدرسة إلى الكلية ومن الكلية إلى الجامعة حين يثبت أن مالية أسرته غير كافية ، فإن الطريق إلى أعلى المناصب ، وأحسن أطياب الحياة سيكون مفتوحاً للجميع بشروط متساوية ، بل إن القيود التي نقرحها هنا ستكون محترمة في ديمقراطيتها . إن لب الديمقراطية هو تكافؤ الفرص ، غير أننا راضينا بالقشر ، ورمينا في استسلام بالباب . فلنفتح جميع الأبواب للعبقرية حيثما ولدت ، ولسنا في حاجة بعد ذلك أن نقلق بشأن أشكال الحكومات .

ولا نزاع في أن عالمنا الصغير له خلله الذي لا يجب موازنته بالمدن الفاضلة بل بالأحوال الواقعة . ونحن حين نستبدل الجامعات بالصالونات والفنادق واسطة للتعيين ، لا يغيب عن بالنا أنه حتى الجامعات يمكن أن يتطرق إليها الفساد ، والمتخرجون فيها يمكن أن تفسد ذممهم وتشتري ضمائرهم . ومع ذلك فالمسألة مسألة اختلاف في الدرجة ، إذ من المفروض أن الرجل الذي يحصل على درجة علمية ، أو الرجل الذي يبلغ به الشغف والشجاعة حد اختيار مهنة تتطلب إعداداً طويلاً وشاقاً ، يكون عنده من الفخر بالمهنة ما يجعله يغار على شرفه ويخلص لعمله . ولا نزاع في أن مستوى الأخلاق أرفع بعض الشيء بين العلماء منه بين الساسة ، وعلى الرغم من وجود بعض اللصوص والمهرجين بين صفوف الأطباء ، فهنة الطب من المهن القليلة التي يسمح فيها « للأخلاق » أن تتدخل للكسب .

أما بالنسبة للجامعات فليس الأمر مسألة تعليم المذهب الراديكالي أو التقليدي ، لأن علم الإدارة ليست له إلا صلة ضئيلة بهذه التقسيمات الجلييلة وعديمة الحدود . ولا ريب أن القوة ستحكم في ظل هذه الإدارة الجديدة بطريقة فعالة كما هي الحال الآن ، إلا أنها ستحكم حكماً أفضل بغير مضار وخشونة الغباء والسفنه

والحبث . ولسنا نقدم هنا حلاً « للمشكلة الاجتماعية » ، أو خطة يتمكن بها الضعيف من حكم القوى . وأكبر الظن أن القلة الماهرة ستستمر في استغلال الأكثرية الأقل مهارة . ولسنا نملك سرّاً تتمكن به الديمقراطية من تجنب هذا النظام الأخلاقي للطبيعة . وليس غرضنا في هذا الخيال أن نجعل « الأنهار تتدفق خمراً والرياح تهمس بالموسيقى » ، بل أن نجعل أى حكومة من الاستطاعة والأمانة بمقدار ما تطيقه السيرة البشرية . فهذه هى مشكلة السياسة ، وهى المشكلة الوحيدة التى تعيننا ها هنا .

ونحن نميل فى هذه الأيام إلى اعتبار الفساد والجهل مزيتين طبيعيتين للمنتخبين ، ونسخر من أى اقتراح يدعو إلى تغيير هذا التقليد الوطنى . ولكن الحكومة لم تكن على الدوام عاجزة ومرتشية ، فلا يزال الإنجليز يتمتعون ببعض السمعة الخاصة بتدريب ساستهم وشرف قضائهم ، وجعل عمد الألمان المحترفون مدتهم أفضل الأماكن حكماً فى العالم ؛ فلا شئ مستحيل ، ولكن التفكير هو الذى يزعم ذلك .

إن الفكرة التى اقترحناها فكرة مغرقة فى القدم ، فهى حلم سقراط وأفلاطون ، ويكون وكارليل ، وفولتير ورينان ، ولعلها ليست شيئاً أكثر من حلم ، ولعلها قد تكون حقيقة حين نكون جميعاً أحلاماً . ولا ريب أنها لن تكون لمدة طويلة أكثر من حلم ، إذ لابد من عشرات من السنين تنفق فى التعليم كى ننتج التغيرات اللازمة فى عقل الجمهور . ولكن إلى أن نبذل مجهوداً صادقاً لرفع الكفايات إلى المناصب وكسر شوكة عداء الديمقراطية للمعرفة — وإلى أن نتمكن من تجنيد تلك المواهب والقوى العقلية من أجل الصالح العام ، وهى التى تضع اليوم فى تيار الأعمال والمكاسب الخاصة — وإلى أن نتمكن من أن نضع فى أروقة مجالس نوابنا ومجلس شيوخنا رجالاً أعدوا أنفسهم للإدارة العامة إعداداً يبلغ من النام على أقل تقدير مبلغ الذين يعدون أنفسهم لمهام أقل أهمية — فلا ريب أن تصبح الديمقراطية عندئذ فاشلة ، ولعله من الأفضل للعالم ألا تكون أمريكا قد فتنت آمال الناس وخدعتهم .

الفصل التاسع عشر الارستقراطية

١ - الارستقراطية المنقذة

الارستقراطية موضوع أجمع الناس على أن كلماته الأخيرة قيلت عام ١٧٧٦ وعام ١٧٨٩ . فعندما فقد جورج الثالث صوابه ، ولويس السادس عشر رأسه ، خسرت الارستقراطية قضيتها ، ولن تستطيع جميع شعور إنجلترا المستعارة ، وشعاراتها ، وأرديتها ، أن تحمل الناس على احترامها مرة أخرى . لقد اندفع العالم في طريق الديمقراطية .

من أجل ذلك كان من الغريب أن نقترح في هذا الأوان إعادة النظر في الارستقراطية ، ولاشك أن مثل هذا الاقتراح سيجرفه تيار العصر . ومع ذلك فنحن لا نتكلم عن هذه الموضوعات متوقعين تأثيرها في الحوادث . ويكفي إذا كنا في « مملكة العقل » أن يتاح لأحدنا أن يتبادل الأسرار مع أصدقاء غير منظورين . وعندئذ تعرف أمريكا مرة أخرى عن الديمقراطية أكثر مما يمكن لساثر العالم أن يعرفه . ومن يدرى لعلنا في هذا العالم الوطني من المملكة الشعبية يمكن دون مخاطرة كبيرة بحياتنا أن نبدي بعض الآراء التي تفتح الطريق وتنير المكان للفكر الموضوعي .

ويمكن أن تلخص الفروض فيما يأتي : لقد انهارت (١) الديمقراطية في أمريكا على الأقل . ذلك أنها أخفقت بوضوح في أن تمنحنا حكومة بوساطة الشعب ، أو حكومة بوساطة الأفضل . وإذا كان أي قارئ رقيق لهذا الكتاب يعتقد أن الشعب يحكم بالفعل في أمريكا — أنه يحدد مثلاً الحرب والسلام ، أو

(١) كتب هذا الفصل عام ١٩٢٨ ، وقد أصيبت الديمقراطية في الربع الثاني من القرن بتجديد لقواها يبعث على التشجيع ، ولا يستحق منا هذا التهمك اللاذع الموجود في النص .

السياسة الاقتصادية ، أو معدل التعريفة ، أو التعيين في المناصب — فالأفضل له على الأقل أن يغفل قراءة هذه الصفحات . وكذلك إذا اعتقد بعض القراء أن الديمقراطية قد هيأت لنا حكومة بوساطة أحكم الناس أو أقدرهم ، فيحسن بهم أيضاً أن يمروا بهذه الصفحات مرّة الكرام .

غير أن القول بإخفاق الديمقراطية لايعنى أن نوليها ظهورنا باعتبار أنها شيء لاقيمة له ولا يمكن إصلاحه . فمن الواضح أن فيها كثيراً من الفضائل ، وكثيراً من القوى الكامنة التي تتمتع عن الخير . ومما لا ريب فيه أن ساطان الأعداد أحدث ضرراً أقل من صور الحكومة التي حلت محلها . وبعد ، فالأفضل أن يحكمنا الأغرار من أن يقتلنا الملوكة . وأكبر الظن أن الاخفاق العظيم كان شيئاً لا يمكن تجنبه ، وأنه لا يرجع إلى الجوهر بمقدار ما يرجع إلى الصورة . ولعل الديمقراطية إذا كانت قد احتفظت ببعض ملامح النظام الأرستقراطي القديم أن تكون قد نجحت في خلق نظام سياسى أعلى بكثير من ذلك الذى نعيش فيه ونتحرك ونحتمل الحمقى بسرور شديد .

فالأمر في حدود الإمكان الذى يود المرء أن يشق الطريق إليه . ما تلك الأرستقراطية التي أعدت الساسة ، وغذت الفن ، وأبرزت الرجال الذين قدروا الشرف أكثر من تقديرهم الحياة ؟ أكان فيها أى صفات يمكن أن تعنى الحكمة ببعثها ؟ أيمكن أن تزوج فضائلها فضائل الديمقراطية بطريقة تؤدى إلى عقم رذائل الزوجين وإنجاب أفضل الثرات ؟ أيمكن أن نوفق بين اختيار كبار الموظفين بالانتخاب العام وبين اجتذاب أرقى الناس وأنظفهم للوظائف ؟

٢ — أشكال الحكومة

ينبغى أن نسلم بأن الأرستقراطية كانت محبوبة من الفلاسفة حتى في أيام هزيمتها . فسقراط ، وأفلاطون ، وأرسطو ، وشيشرون ، ومنتسكيو ، وفولتير ، ودى توكفيل ، وتين ، ورينان ، وأناطول فرانس ، وجوته ، ونيتشه ، وبيرك ، وماكولى ، وكارليل ، وإمرسون ، وسنتايانا : عرفوا الديمقراطية في أثينا أو في روما ، في باريس أو في واشنطن ، ومع ذلك رفعوا أصواتهم بإجماع عجيب (سبينوزا وحده هو الذى خالفهم) إلى السماء وطلبوا من الله حكومة الأفضل . فما هذا الشيء الذى أعجب به هؤلاء القوم في الأرستقراطية .

قال بونابارت - وهو أشد الفلاسفة تمسكاً بالواقع : « لاتزال الأرستقراطية موجودة على الدوام . فإذا سعيبت إلى التخلص منها بتحطيم النبلاء ، فلن تلبث على الفور أن تمكن لنفسها بين أسر الطبقة الثالثة الغنية والقوية (أى الطبقة الوسطى) . حطمها هنا تجد أنها تعيش وتلتمس ملاذاً في قادة العمال والشعب » (١) . وجاء في أقوال فتسجيمس ستيفن Fitzjames Stephen : « لك أن تشرع كما تهوى ، وأن تقر الاقتراع العام إذا رأيته صالحاً كقانون لا يمكن العبث به ، ومع ذلك فأنت لا تزال بعيداً كما كنت عن المساواة . لقد غيرت القوة السياسية شكلها لا طبيعتها ، وإذا قطعت هذه القوة قطعاً صغيرة فالنتيجة أن الذى يستطيع أن يطوى أكبر عدد منها فى قبضة واحدة هو الذى يحكم الباقي . وسيحكم أقوى رجل دائماً فى صورة من الصور . فإذا كانت الحكومة عسكرية فإن الصناعات التى تجعل الرجل جندياً عظيماً ستجعله حاكماً . وإذا كانت الحكومة ملكية فإن الصفات التى يقدرها الملوك فى المستشارين والقواد والوزراء هى التى تجلب القوة . أما فى الديمقراطية الخالصة فإن الحكام هم المدبرون وأصدقاؤهم » (٢) . هذا تحليل موجز يميز بالتفصيلات مروراً عابراً ، ولكن فى هذه الخلاصة الكفاية ككلمة تمهيدية فى الموضوع .

ويمكن القول بوجه عام إن صور الحكم اثنان فقط : حكم شخص واحد ، وحكم القلة . أما حكم الكثرة ففترة عابرة ، وهو إلى ذلك وهم لديهم مريح يحرك همه الفرد ، ويسهل سير عجلة الحكومة . والأقلية تستطيع التنظيم ولا تستطيعه الأكثرية ، وهنا مربوط الفرس ، فالحكومة إما أن تكون حكومة قلة أو حكومة فرد ، ولا شئ غير ذلك .

ويمكن من الناحية النظرية أن نقول الشئ الكثير فى الدفاع عن الملكية ، إذ لو تها عبقرى عظيم القدرة على التنفيذ مثل نابليون ، لنجح كل شئ (ما عدا الحرية) تحت أمره المركزى والموحد . غير أن الملكية الموجودة فى الواقع أصبحت نادرة فى التاريخ الحديث . كانت أمراً واقعاً فى إيفان الرهيب ، وبطرس وفردر بك ،

Berraut, op. cit., p. 46. (١)

In Willoughby, W.W., Social Justice, p. 57. (٢)

ولويس الرابع عشر ، وبونابارت ، ولكن كم من ملوك وملكات فى فخفخة الملك لم يكونوا إلا مجرد رداء لأقليات مستترة سعيدة بإخفاء أيديها خلف أبهة الملك وهيئته . فأى شأن كان للقياصرة فى عهدهم الأخير سوى أنهم كانوا أدوات فى أيدى أسرة تشينوفنيك Tchinovniks ، أو أى منزلة لإمبراطور ألمانيا الأخير سوى التكلم باسم النبلاء Junkers ورفع علمهم ؟ أوجد فى العالم أكثر سخرية (بعد الانتخابات الأمريكية) من الحرس الحامد القفا الذى يذرع الأرض بشكل مخيف أمام القصر الذى يسجن فيه الإنجليز « ملكهم » ؟ فكيف كنا نحتمل انجلترا إذا لم يكن فيها أمثال جلبرت وسليمان (1) Gilbert and Sullivan ولا قيمة للدعوى المألوفة التى تزعم أن هذه الملكيات الأثرية تؤدى وظيفة واقعية حين تمسك أطراف الإمبراطورية المترامية بوساطة رأس مشترك رمزى . حقاً يحب الشعب ملوكه ، غير أن ما يربط بين المستعمرات والدولة الحاكمة هو حاجتها إلى الحماية والتجارة لا الشعور بالوحدة والبساطة . والعرف وحده ، وهو الشعور بالمتعة الشديدة للاحتفاظ بالأساليب المألوفة ، هو الذى يبقى ملوك أوروبا فوق عروشهم . وفى ذلك يقول فرانسيس تومسون (2) : « ليست الملكيات فى جميع ممالك أوروبا ، ماعدا اثنتين ، سوى مجرد بقية ، إنها أضرار لانفع لها فى رداء الحكم ، لا تخدم أى غرض اللهم إلا أن تنهاوى باستمرار » (3) .

يمكن إذن أن نعد الأمر مبدأ عاماً يتضح حتى مما فيه من استثناءات ، وهو أن خلف كل حكومة أقلية تسيرها ، وأن أول قاعدة فى التحليل السياسى يجب أن تكون : « فتش عن الأقوياء Cherchez les forts » . قد تكون الأقلية حربية أو تجارية أو أرستقراطية ، وبمعنى آخر أن الأقلية الحاكمة قد تكون جندياً يرفعون إلى العرش طائفة من القواد ، أو تكون جماعة من أغنياء رجال الأعمال يحكمون

(1) السير ولیم جلبرت (١٨٣٦ - ١٩٠٠) شاعر انجليزى نظم أراجيز فكهة ، واشترك مع سليشان (١٨٤٢ - ١٩٠٠) فى كتابة الاوبرات الخفيفة المشهورة مثل محاكمة بالمخلفين ، والميكادو ، وغير ذلك (المترجم) .

(2) فرانسيس تومسون Thomson (١٨٥٩ - ١٩٠٧) شاعر انجليزى كاثوليكي اشتهر بتصائده الدينية ، وتأثر فى أخيلته بشيلى وكيتس (المترجم) .

(3) Shelley, p. 39.

بوساطة رؤساء الجمهورية والملوك ؛ أو تكون أفراداً من الأسر القديمة قويت في الأصل بامتلاك الأرض ، وبلغت مع العرف مرتبة القيادة والمنزلة . ومن هنا نشأت حجة الأرستقراطية القوية أن الأرستقراطية هي البديل الوحيد عن الحكم بالثروة الغاشمة أو القوة الوحشية . وقد فتح انهيار الأرستقراطية الرومانية الطريق أمام الملوك العسكريين من البرابرة ، وانهيار الأرستقراطية الفرنسية والإنجليزية إلى ترياع الاسترليني والدولار والفرنك على العرش . والديمقراطية تسبق قدوم حكم الأقلية العسكرية ، ولكن لم يوجد بعد أى نظام انتخابي يمكن أن يبعد بين الأغنياء والاستيلاء على السلطة . والوقاية الوحيدة من حكم الأغنياء plutocracy هو قصر الحكومة على الأسر التي تجرى في دماها تقاليد الحكم وصفاته . فالحكم بالنسب هو البديل الوحيد عن الحكم بدفاتر الشيكات ، والأرستقراطية وحدها هي التي يمكن أن تمنع أقلية من محدثي الثروة nouveaux riches من إخضاع حياة الأمة الأخلاقية والثقافية لمثل ومستويات تجارة الحملة والأسواق والمصانع^(١).

٣ — فن الحكم Statesmanship

هذا كله موضع شك ، إن لم يكن مبعث استمزاز ؛ إذ ليس أدعى من إضعاف قضية الأرستقراطية من تصويرها من أول الأمر على أنها صورة وراثية للحكم . ومع ذلك فلنستمع للأرستقراطي بعض الوقت بغير مقاطعة أو سؤال ، مبعدين بيننا وبين أنفسنا رأيه المتحيز ، ومتعلمين منه حتى حين نختلف وإياه .

إنه يقبل وراثته اللياقة للمنصب كضرورة للحكومة الصالحة . فلا يرتفع شخص إلى معرفة الفن الكامل للحكم إلا إذا تنسم عبير ذلك الفن خلال أجيال من المسؤولية والمنزلة . إنه يحتاج كما يقول نيتشه «لا إلى الذكاء فقط ، بل إلى الدم» . وهذا في نهاية الأمر ما كان نابليون يفتقر إليه ، على الرغم من تعليقه على دنجيين D'Enghien^(٢) :

(١) انظر شيشرون حيث يقول : « لا توجد صورة للحكم أتقن من تلك التي يظن فيها أن أغنى الناس هم أفضلهم » De Rep. 1, 34, in Bluntschli, J. K. Theory of the State, p. 453

(٢) الدوق دنجيين (١٧٧٢ - ١٨٠٤) حارب في جيش المهاجرين وأتهم بالمؤامرة ضد القنصل الأول ، فقبض عليه ، وحوكم أمام محكمة عسكرية في فنسان وحكم عليه بالإعدام فوراً . (المترجم) .

« وليس دى أيضاً من الماء القذر » . فهو نجل أحد قواد الأقاليم ، ولم يكن
ليستطيع مهما حاول أن يبلغ وزن الأرسقراطى بالمولد ومنزلته .

ولنمض مع نيتشه أكثر من ذلك فنجده يقول إن « الرياسة leadership
تحتاج إلى أسر أرسقراطية كبيرة لها تقاليد استقرت زمناً طويلاً في الإدارة
والحكم ، إلى الأنساب العتيقة التي تضمن لأجيال عدة بقاء الإدارة الضرورية
والغرائز اللازمة » (١) . وهذا هو السر في احتجاج الأرسقراطى على قول
القائلين « بالمولد العارض accident of birth » ؛ فالمولد ليس اتفاقاً وخبطاً
بل نسباً متسلسلاً ، وخلاصة قرون من النمو ، وبشير المقدرة والذكاء . أليست
ترى أننا اليوم نهتم اهتماماً كبيراً بسلالات الحيوانات ، فنفحص بعناية لا أصولها
المباشرة فقط ، بل أسلافها البعيدة وغير المباشرة كذلك . فالأرسقراطى يهتم مثل
هذا الاهتمام بأنساب الإنسان ، ويصر على تعظيم أثر الوراثة ، كما يؤكد
الديمقراطى أثر الفرصة ، أو الاشتراكى أثر البيئة . وهذا هو سر عزوفه عن
الزواج من امرأة أقل منه مرتبة ، وعلة نفوره من الطبقات الأخرى وكأنها أنواع
مختلفة . إنه يدرك ببصيرة الغريزة أو بالعرف الجمعى أن تهجين الأنواع يضعف
الصفات ويزعزعا فترة من الزمن ، مع أن هذا التهجين قد يكون مرغوباً فيه لنمو
جيل في جنس جديد معقد (٢) .

ولكننا نقول مرة أخرى إن وراثة الصلاحية للمناصب الكبرى أمر ضرورى
لإنتاج الحكام الكفاة . وهناك بعض الناس يجب اختيارهم منذ مولدهم كي
نمنح لهم الوقت الكافى لنمو كامل وصحيح فى العقل والحلق . والعمر قصير جداً
لا يتسع لتحصيل الثقافة والثروة معاً ، فينبغى أن نتخلى عن إحداها منذ البداية ،
ولا يمكن أن نستغنى عن أيهما . من أجل ذلك كان من مصلحة الإنسان أن
يتحرر قلة من الناس من ضروريات الكفاح الاقتصادى التي تفت فى العضد ؛
وفى ذلك قال توكفيل : « إن إمكان العيش بغير عمل — قل هذا الإمكان أم كثر —
هو الحد الضرورى للتقدم العقلى » (٣) لذلك كانت الأرسقراطيات كما قال تين

Will to Power, § 957. (١)

Cf. Ludovici, A.M. A Defence of Aristocracy, pp. 340-50. (٢)

Tocqueville, A. de, Democracy in America, vol. 1, p. 209. (٣)

أثمن مدارس للتربية ، إذ عن طريقها تجند الأمة رجالها الحكيم وتُعِدُّهم .
 إن ما لا يفهمه الديمقراطي هو أن إعداد رجل الحكم يحتاج إلى وقت
 أكثر مما يحتاج إليه إعداد ماسح الأحذية . وكان قادة إنجلترا ، إلى أن اصطبغت
 حديثاً بالديمقراطية ، يُدَرِّبون على المناصب العامة منذ طفولتهم ، في البيت أولاً ،
 ثم في إيتون Eton أو هارو Harrow ، ثم في أكسفورد أو كمبردج ، وبعد ذلك
 يُعَيِّنون في مناصب صغيرة شاقة . الحق أن أبداع مظهر للحضارة الإنجليزية كان
 يلي شغفها بالحرية هو انقطاع جامعاتها ذلك الانقطاع لا لفنون المال والصناعة ،
 ولا للعمل والتجارة ، بل لمهمة إعداد حكام الإمبراطورية . كانوا حكاماً قساة ،
 وليس من الواضح لدينا لم كانت قسوتهم ضرورية لحكمهم ، ولكن هؤلاء الرجال
 هم الذين رفعوا إنجلترا الصغيرة إلى قمة العالم ، التي سيهيئ بها حكامها من أهل
 الصناعة عنها في الوقت الحاضر .

ومن العبث في الديمقراطية أن يعد الناس أنفسهم لصناعة الحكم . إذ ليس
 لهم أقل ضمان في استطاعتهم اجتياز امتحان الاجتماعات الانتخابية Convention ،
 ومجالس انتخاب أعضاء البرلمان ، وأماكن الاقتراع . والأولي أن تدرّبهم
 سيجعل منهم رجالاً مهذّبين ومفكرين يجدون في شراسة الانتخابات وألاعيبها
 مصدراً لآلام تمنع من الإقدام عليها . وقد تنبأ سانت بييف Sainte-Beuve (١)
 أن الديمقراطية قد تحمل أصحاب المقدرة على العزلة . وتكهّن رينان بأن سلطان
 الأعداد وتوجيهها قد يرفع المحتالين والدجالين فوق العرش ، فتقلب الدولة إلى
 تفاهة مستهترة . وهذا دى توكفيل في زيارته الثانية لأمريكا يكتب في قنوط :
 « قلما يوضع أقدر الناس في الولايات المتحدة اليوم في المناصب الرئيسية . وينبغي
 أن نعرف أن هذه هي النتيجة التي تبلغها الديمقراطية عندما تجتاز جميع حلودها
 الأولى . ومن الواضح أن نوع حكام أمريكا قد انحط انحطاطاً شديداً خلال
 الخمسين السنة الأخيرة » (٢) . ونحمد الله على أن دى توكفيل قدّمات ولا يستطيع
 أن يرانا الآن .

(١) سانت بييف (١٨٠٤ - ١٨٦٩) ناقد فرنسي مشهور يقوم مذهبه في النقد على تمييز
 عبقرية كل كاتب ، وتحديد معالم الذوق الأدبي (المترجم) .

(٢) Op. cit., vol. i, p. 209.

يرى الأرستقراطي أن النظام بداية الحكمة ، وأن التغيير دائرة من الحماقة . والحرية ثمينة ، ولكنها بغير نظام أى شيء تكون ؟ ومع أن الأرستقراطيات تحد من الحرية السياسية ، فليس هذا أسوأ من خنق الديمقراطية للفردية والفكر بالضغط الجنوني الصادر من الأكثرية الحاملة . فالأمة إذا ساد فيها النظام أمكنها أن تستمر في سياسة متماسكة ونمو متصل . ويتحرر فن الحكم بالارستقراطية من مصادفات الانتخاب ، فينقطع الحكام إلى مهام تحتاج في تنفيذها إلى أجيال . فالهيئة الأرستقراطية الحاكمة ، كمجلس الشيوخ الروماني ، أو البرلمان الإنجليزي في عهد الملكة إليزابيث ، لها ضرب من الدوام الجمعي يكاد أن يكون خلوداً ، ولا تتمزق أهدافها ، وقاما تضطرب بموت الأفراد أو بفوضى الحملات الانتخابية وما يصحبها من نفاق . يقول دى توكفيل : « تكاد تكون جميع الأمم التي أثرت أثراً قوياً في مصير العالم بتصور مشروعات واسعة مع متابعة تنفيذها ، كانت محكومة هيئات أرستقراطية » (١) .

حقاً إن مثل هذه الحكومة تكون حاجزاً عنيداً ضد التجارب أو التغيير ، ولكنك لن تجد أسلم منها . وحتى الأحرار إذا كان لهم أى علم بالماضى فإنهم يعرفون أن تسعة على الأقل من بين عشرة أفكار جديدة تنقلب شراً وبيلاً . وأعظم مخريات التاريخ مرارة أن معظم الأفكار التي فنى الناس من أجلها قد ثبت أنها مضحكة . ولاريب أن مقاومة التغيير شيء بغيض كالفرامل في السيارة ، ولكنها أمر لا يستغنى عنه .

وهنا ننخدع بالموازنة مع العلم والأدب اللذين تقوم حياتهما على التجربة ، فنظفر إلى النتيجة زاعمين أن أفضل حكومة ما أفسحت المجال الكامل للتغيير . ولكن المجتمع ليس معملاً ، ولا يخضع الناس للتشريع أحياء ، اللهم إلا في حالة الحرب . وحتى في العلم يقتصر الاستعداد للتجربة على عوالم من البحث يمكن أن تستخدم فيها حيوانات لا حيلة لها ، أو كائنات غير حية كمادة لإجراء

التجارب وحذف الأخطاء ، حتى إذا أردنا تطبيق نتائج العلم على أمور الحياة والموت الإنسانيين يشملكننا الحذر « كالجُمهوريين » ^(١) . ومع ذلك فإن وجد ميدان نقاوم فيه التغيير ، فليس هو ميدان السياسة ، بل الغذاء والدواء . وليس اللعب بالأفكار كالتجربة بالأرواح .

ومع ذلك فحين يتعلق الأمر بمصير مائة مليون من الأنفس ، فقد يحسن استخدام ضوابط « فرامل » للعجلات الأربع ، حتى حين نصدفوف الجبل . يجب أن تتحرك الجماهير الضخمة رويداً رويداً ، إذ من الأسير أن تبث فيها الفوضى من أن تعيد إليها السلامة والنظام . والأمر في السياسة كالحال في الطب كثيراً ما يؤدي إصلاح داء واحد إلى ظهور داء آخر خفي يحدث عنه . بل إن تركيب المجتمع أعقد من تركيب أبداننا وعقولنا التي يشملها المجتمع في جموعه الغفيرة ، وفي علاقات الكثيرة التداخل . وهذه العلاقات المتبادلة تصل إلى ملاءمة صالحة إذا تركت وشأنها ، أما حين تسعى النخبة الممتازة بالحكمة أو الأوساط المنتخبة في أمة من الأمم ، أن تخضع هذه العمليات الحيوية لنظام القانون المصنوع ، فنتيجة ذلك شبيهة بمن يحاول المشي وهو يحلل هندسة رجله وحرركاتها .

وقد يختلف الأمر إذا كان المجتمع تركيباً منطقياً كالرياضة أو الهندسة أو أى شئ آخر لا يتعلق بالحياة . ولكن المجتمع كأنفسنا ذاتها نمو وليس صيغة قانونية أو قياساً منطقياً . فاجتمع كما صورّه تين : « لم ينظمه فيلسوف مشرع طبقاً لمبدأ سليم ، ولكنه ثمرة الأجيال جيلاً بعد آخر حسب الحاجات المتنوعة والمتغيرة . إنه ثمرة التاريخ لا المنطق . وهز المفكر الحديث كتفيه حين يصعد بصره في السماء ويرى كيف كانت الأبنية القديمة وقد وضعت أساساتها اتفاقاً ، واضطربت هندستها ، وبان خللها في مواضع كثيرة » ^(٢) . وكل طالب يعرف جواب برك على روسو : ليس المجتمع عقداً بين المتعاصرين ، بل تكويناً لاشعورياً ينشأ بالتدرج ؛ وإن كان ثمة عقد موجود فهو بين الماضي والحاضر والمستقبل ^(٣) . فأن تقطع الصلة بالماضي قطعاً باتاً هو أن تدنو من الانفصال

(١) يشير المؤلف إلى الحزب الجمهورى فى الولايات المتحدة (المترجم) .

(٢) Taine, H., The French Revolution, vol. II, p. 7.

(٣) Reflections on the French Revolution, p. 91.

الذى يجلب الجنون ، وإلى الذهول الاجتماعى الذى ينشأ من هزة مفاجئة عند الضرب أو البتر . إن سلامة الفرد فى اتصال ذاكرته ، وسلامة الجماعة فى اتصال تقاليدها ، وفى الحالىن يؤدى انقطاع السلسلة إلى رد فعل عصبى ، وإلى اضطراب خطر على الحياة . وهذا ما وجده بطرس الأكبر حين حاول أن يجعل روسيا دولة غربية فى جبل واحد ، وما حدث للنين حين حاول أن يجعلها اشتراكية . فالماضى لن يموت .

هـ — الحكومة والثقافة

تأمل الأخلاق والثقافة . لقد زرعت الديمقراطية فى النفس الحديثة خوفاً من الجماهير يسمى الضمير . ولكن هل نمت ذلك الفخر بالأرقى ، تلك الرغبة لاستحسان القلة المبدعة لا الطغام ، مما خلق الإحساس بالمجد عند الأرستقراط ؟ أم يمكن أن يكون الأرستقراطى بيوريتانيا (متزمتاً) أو متعصباً ذمياً ، أو يعمل على غيره من الناس ما يجب عليهم أن يقبلوه ؟ أم يمكن أن ينتج الأرستقراطى موسيقى « الحاز » أو يفتتح « الكباريات » ؟ أم يمكن أن يكون الأرستقراطى منافقاً أو ينحى للفوز عن طريق ممالأة الجمهور ؟ أليس فى نعمة الجماعات الديمقراطية وعاداتها بعض السوقية مما لا يمكن أن يعيش بتوجيه الأرستقراطى أو باحتذاء مثاله ؟

يقول الأستاذ روس : « إن مثل العمل بين الأمريكان لا يضبطها تأثير مالكة الأرض الأرستقراطى . وفى معظم « العالم القديم » كانت تحتقر الطبقة الاجتماعية العليا وجهة نظر التاجر ، وتفترخ بأنها تقدر الأشياء من وجهة نظر المستهلك . . . ولما كان ميل الأرستقراطية للعيش لا لاكتساب المال قد أخذ يتسرب إلى المجتمع العام ، فقد أصبح المذهب التجارى commercialism فى أوروبا أكثر التصاقاً بطبقة رجال الأعمال » (١) . وأكبر الظن أن أمريكا لن تطول وقفها وحدها فى هذا الميدان ، فأوروبا أيضاً تعيش فى غصة الديمقراطية وتجنح إلى اصطناع عاداتها من أسفل ، على أن رؤساء أغنياء رجال الأعمال فى أمريكا يميلون إلى تنمية ذلك الشرف الهادى ، وذلك الواجب النبيل وهو أبداع زهور الأرستقراطية .

وحتى الديمقراطية له فى قلبه إعجاب حاسد لما يسمى فى شىء منه الغموض باسم أرستقراطية الروح : وهى عرامة الإقدام فى يسر ، وثقة فى الحكم والذوق ، وسرعة الخاطر وبداهة الحديث مع التحفظ والاعتدال ، وكرامة لا تذلل وكرم لا يخطئ . وفوق هذا كله ، ودائماً ، رقة السيد المذهب (الاحتلمان) فلا غرابة أن تجد « كل إنجليزى يحب لورداً » ، وكما قال أناتول فرانس : « لاشىء يقدره الديمقراطية أكثر من شرف المولد » (١) . إن أوثق طريق إلى النجاح الاجتماعى فى الديمقراطية هو أن تسلك كالأرستقراطى ، وأوثق طريق إلى النجاح كخطيب فى أمريكا أن تتكلم كالإنجليزى (٢) .

هذا شىء يمكن أن يغتفر وطبيعى ، لأننا مهما نقل نعرف أن صنع سيد مذهب يحتاج إلى أجيال . وقلما يستطيع أحد أن يبدأ فقيراً وقد قضى عليه أن يجتاز القدارة العالقة بالحرب الاقتصادية ، ويظفر مع ذلك بتلك النظافة الخاصة بالعقل أو الرشاقة المتصلة بالجسم ، تلك الثقة والطمأنينة ، ذلك الفخر المتواضع والهدوء الكلاسيكى ، مما يميز الرجل الذى تأدب منذ البداية بالوصية والمثل والحو الممتلىء بأطايب الحياة وألطفها (٣) . يجب على العالم أن يختار هذا الاختبار الشاق بين الوراثة والنزاحم بالمناكب ، بين الذوق الرفيع الذى ينحدر من أعلى إلى أسفل بالمحاكاة ، وبين السوقية التى ترتفع من أسفل إلى أعلى تحت ضغط المنافسة .

ويتضح الفرق بين الروحين فى الأدب الذى يزدهر فى ظل ضروب الحياة والحكم المنافسة . وإذا ضربنا صفحاً عن الاستثناءات التى تزعزع كل تعميم يختص بالكائنات الحية ، فإن الأدب الذى يكتب للأرستقراطية يميل إلى الكلاسيكية ، والذى يكتب للديمقراطية ينجح نحو الرومانتيكية . وقد منحنا أثر العلم والاشتراكية بعض الوقت عصراً من الواقعية Realism حاكى فيه الأدب موضوعية العلوم الطبيعية ، واختار ثائراً لتصويره شرور الحياة ومظالمها . غير أن

(١) Penguin Isle, p. 210.

(٢) هذه العبارة الأخيرة مع الاعتذار إلى المستر جون كوبر بويز الخطيب الممتاز والقصصى العميق .

(٣) يتحدث كسرلنج عن تلك « البصيرة الموجهة الموجودة فى دماء كل أرستقراطى حقيقى »

Europe, p. 194. وهو كتاب رائع

المنافسة الجوهرية في الأدب تقع بين العقل الكلاسيكي والخيال الرومانتيكي ، كما أن المنافسة في السياسة تقع بين الثروة الموروثة والمكتسبة . فالعصر الديمقراطي يحاول أن يفك أسر حياته الصناعية والتجارية العادية بأوهام الآداب الرفيعة الرومانتيكية فهو يحب أن ينتشل نفسه من الدكاكين والمخازن بالقراءة الخفيفة والحب العاطفي . ولكن الأرستقراطي ينجل من التبذل في هواه ، أو التخشن في حديثه ، لأن خياله يخضع دائماً لرقابة عقله . فكبح الهوى جوهر نفسه في الأدب وفي الحياة . إنه يؤثر التحفظ على المبالغة ، وكما يقول فلوبيير في سلامبو : « إنه يتكلم في هدوء ليكون أملك للسمع » وإذا أنتج كتباً فن أمثال « مقالات » مونتيني أو « روح الشرائع » ، ولا يكتب أبداً « إميل » أو « البؤساء » . لاريب أن خلق أدب أو عالم يحتاج إلى جميع ألوان الكتب وكل أصناف الرجال .

ولقد كانت الأرستقراطيات بوجه عام مشجعة للفنون والعلوم ، وألقت ظلال حمايتها بإسراف شديد وبغير تمييز على الفرد الممتاز . وقد ذهب تارد إلى أن الأرستقراطيات أول من تقبل الأفكار الجديدة ، فقال إن المبتدعات ولو أنها يمكن أن تنشأ في أى مكان إلا أنها تجد حمايتها المبكرة بين القلة المثقفة حيث تنتشر عنهم بالعدوى والإيحاء إلى المراتب الدنيا . ويقول سنطيانا : « لقد انحصرت الحضارة حتى الآن في انتشار العادات التي تظهر في الأوساط الممتازة وامتزاجها بينهم » (١) . وقال رينان : « كل حضارة فهي من عمل الأرستقراطيات » (٢) . وكان يخشى أن يفسد العلم في ظل الديمقراطية عندما يحدث أن يشك الجمهور في معناه (٣) . ويقول سومنر : « الطبقات هي التي تنتج التنوع ، والجماهير هي التي تحمل الأخلاق الموروثة إلى المستقبل » (٤) ويقول ليهون : « يدل التاريخ على أن جميع التقدم الحاصل حتى الآن يرجع إلى هذه القلة الممتازة . إن الذين يبدعون العباقرة يغذون سير الحضارة ، والمتعصبين وأصحاب الأوهام يخلقون التاريخ » (٥) . وهذا صحيح .

Reason in Society, p. 125. (١)

In Maine, op. cit., p. 42. (٢)

History of the People of Israel, vol. iv, p. 179. (٣)

Folkways, p. 47. (٤)

In Todd, p. 382. (٥)

٦ - الديمقراطية والفوضى

وأخيراً فإن الشعب نفسه يؤثر الأرستقراطية ، فهو محافظ في السياسة كما هو محافظ في الآراء ، ويحب الحكومة التي تتحرك ببطء نحو أهداف جليّة . وهو لا يثور إلا حين يثقل عليه الضغط ، ومع ذلك يبدو أن السلطة غير المنتخبة تستهويه إلى أقصى حد . كان الإيطاليون يهتزون فخراً عند سماع اسم دكتاتورهم ، وبخاصة إذا كانوا لا يعيشون تحت سلطانه ؛ ولم يترهم أنه ارتقى سلم الزعامة محطاً كل صور الديمقراطية وكل عزيز عندها . وإنك لتجد الصحف التي يقرؤها عامة الناس في إنجلترا مثقلة بأنباء الأرستقراطية ؛ ويضع كل مخزن من مخازن البيع الشعار الملكي على أبوابه ، أو يفخر بأنه يتعهد بتوريد البضاعة لصاحب الحلالة الملك . ونستفي من ذلك كله حالة واحدة بديعة ، فقد كان أكثر الأشخاص شعبية في صحف أمريكا عام ١٩٢٧ أميراً إنجليزياً ، وأشيع النساء ذكراً ملكة بلقانية .

لعل الشعب اليوم أسعد قليلاً عما كان من قبل . فقد ضاعفت الاختراعات وسائل راحتهم وقوتهم ، ومنحتهم الثروة آفاقاً جديدة من الرحلة والمتعة . ولكن إلى جانب هذا التنوع والمرح في الحياة نشأ سخط عصبي في النفس ، فكل شخص يبدو أنه يشعر بالحياة منافسة لا ترحم ، وحرباً بين الإرادات لا ترأف ، واندفاعاً لا نهاية له في طلب الرياض والعربات والمنزلة . وقال أناطول فرانس : « إن الصلابة الحديدية للمجتمع حين تشجع كل ضروب الأمل تبعث جميع الطاقات إلى العمل . لقد أصبح الكفاح في سبيل الحياة أكثر تهوراً من أي وقت مضى ، وأضحى النصر أشمل والهزيمة أمر (١) » .

لقد طار السلام والهدوء من قلوبنا مع ذهاب الهيئة المنظمة للمجتمع الأرستقراطي . وقبل الثورة الفرنسية (إذا استعرنا تشبيه تين) كان المجتمع بناء كبيراً ذا طوابق منفصلة ليس بينها درج ، وكان الفلاحون يزرعون الأرض وقلما يفكرون في الصعود ، والأرستقراطيون يزدهرون على طريقة واتوفراجونارد (٢)

(١) On Life and Letters, 3rd series, p. 9.

(٢) Watteau (١٦٨٤ - ١٧٢١) مصور فرنسي اشتهر بتصويره المناظر الأرستقراطية الريفية --

Fragonard (١٧٣٢ - ١٨٠٦) مصور فرنسي وحفار ، زين بهوا لدام دي باري (المترجم) .

لا يزعجهم صخب مكانهم . ومن أقوال تاليران : « إن من لم يعيش قبل عام ١٧٨٩ لم يعرف حلو الحياة إلى التمام » (١) . أما اليوم فإن كل رجل وكل امرأة يهترق بالحمى ، تلك الحمى التي تجلب لنا الثروة وتجلب لنا الشرور . إن الحرية تعنى بالنسبة لنا أن كل واحد منا يصلح أن يكون رئيساً للجمهورية ؛ أما نتیجتها فأعظم كفاح ملح لا يستقر عرفه التاريخ . والسلم تقوم بين المتفاوتين ، أما دعوى المساواة فإنها مجلبة لحرب عنيفة لا تنقطع . من أجل ذلك كانت الديمقراطية مطية لنزاع دائم فى السياسة والاقتصاد وفى أحوالنا النفسية حتى لتجد الجهد والضيق مكتوبين على كل وجه ، وينغصان كل بيت . وحين يعترف المجتمع بتفاوت الناس الطبيعي فى العقل والإرادة ، ويلغى نفاق النظم المتساوية ، فقد يمكن أن يعرف الناس السلام مرة أخرى . عندئذ سينتقل المجتمع من المنافسة إلى المجاملة ، ومن الكم إلى الكيف ، ومن الخيال إلى الذكاء ، ومن الثروة إلى الفن .

٧ — أخطاء الأرستقراطية

هذه هى الحجة التى تقال فى جانب الأرستقراطية ، عرباناً عنها بغير تزويق يهدف إلى إبطال حجة الديمقراطية . ولندع أولاً جانباً تلك الأمور التى تركنا دون اقتناع ، ثم فلنحاول إدماج الباقي فى فلسفتنا .

لقد رسم أرستقراطى الطبع موجزاً شديداً التحيز ، وأغفل كثيراً من النقاط غامضة . ولنفرض أن الأرستقراطى ينتج حكماً أرفع ، ورجالاً أنفذ بصرأ وأرحب خططاً ، فأى ضمان لنا نعتد عليه فى الطبيعة البشرية أو من التاريخ يجعلنا نثق فى إخلاص هذا الرئيس الماهر للصالح العام ؟ فالأرستقراطيات قل أن تصنع من الشعب هذا الكل العضوى من الخدمة المتبادلة كذلك الذى يربط بين المخ والبدن (إذا استعملنا موازنة أرستقراطية قديمة) ، فهى تنفق كثيراً من وقتها فى إنزال الأسر الحاكمة المنافسة عن العرش ، أو فى الاحتفاظ لأنفسها بالسلطان ، مما لا يسمح بذلك الانقطاع اليقظ من الأجزاء للكل ، ذلك الانقطاع الذى تمتاز به قيادة المخ .

ولنذكر في هذا الصدد إدمان الأرستقراطيات الحروب التي كانت كالصيد بالنسبة إليهم ضرباً من الرياضة ، العدو فيه هو الفريسة ، والشعب المحارب ليس إلا مجرد كلاب للصيد . حقاً كانوا يضحون بأنفسهم في هذه الحروب بمحض حريتهم ، فلم يشك أحد في إقدامهم . وفي بعض الأحيان كانوا أقل توحشاً وأضعف رغبة في القتال من الطبقة المتوسطة التي شعرت بالقوة ودفعت إلى نشوب الحرب العظمى . لقد تحدث لويد جورج عن شتى القيصر في عامود نور ، أما لانسدون فقد نصح بالاعتدال . وأصر الديمقراطيون الفرنسيون على تقديم فتيانهم المراهقين ضحايا ، على حين كان الإمبراطور شارل يطلب في ذلة سلاماً مبكراً . ولكن علينا أن نذكر أيضاً حروب الوردتين ^(١) المتوحشة ، وحملات السلب التي أرسلها لويس الرابع عشر ، وجشع فردريك بدون رحمة ، وتقسيم بولندا كما يقتسمها اللصوص ، والاتحادات القاسية التي حاربت عشرين عاماً لإعادة البوربون إلى عرش فرنسا .

والقوة باعثة على الفساد بمقدار انعدام مسئوليتها ومنزلتها . والأغلب أن تكررت الأرستقراطيات قاسية ، كما كان أهل إسبرطة بالنسبة لعيدهم ، أو المواطنون الرومان بإزاء مدينتهم ، أو الملاك الإنجليزي نحو الفلاحين في إيرلندا . أى مجد يوجد في الثقافة الأرستقراطية يمكن أن ينزل إلى وحشية الرومان مع أتباع سبارتاكوس ^(٢) ، أو إلى قسوة كليف وهستنجنس في الهند ؟ قد لا يكون هذا المبدأ صحيحاً حتى الآن ، ومع ذلك فهو مبدأ لا يزال صالحاً ويستحق أن يؤخذ به ، نعني : « لن يكون الرجل صالحاً لحكم رجل آخر بغير رضاه » . وهنا نجد أن المثل الأعلى الديمقراطي ، ولو أنه ليس إلا مثلاً فقط ، يفتح آفاقاً أبعد ، إذ يشجع كل رجل على أن يكون مسؤولاً عن نفسه ، فيصطب عوده ، وتتسع نظرتة . إن دولة تسير بأفرادها من الفوضى إلى طريق النظام خير من أمة تقوم على العبيد ولا ملاذ لهم إلا الثورة .

(١) هي الحرب الأهلية المشهورة بين بيت يورك وشارته الوردية البيضاء ، وبيت لانكستر وشارته الوردية الحمراء ، واستمرت ثلاثين عاماً في إنجلترا وذهب فيها كثير من النبلاء والجنود (المترجم) .
(٢) سبارتاكوس (توفي ٧١ ق. م) عبد روماني ومزارع ، قاد حركة لتحرير العبيد من سنة ٧٣ إلى ٧١ ، وهزم عدة جيوش ، ولكنه هزم وقتل (المترجم) .

نعم لقد كانت الثقافة ترف القلة ، وستظل كذلك مدى الزمان الذى يعيننا الآن . ومع ذلك فلن تجد أحداً ذا معرفة يربط بين الفنون والعلوم وبين الأرستقراطية . وإذا كان التقدم راجعاً إلى القلة ، فقلما يرجع إلى القلة الوراثية . إن نمو العلم الحديث مرتبط بلا ريب بنمو النقل والصناعة ، وهما أمران لن يود الأرستقراطي أن يغمس يديه فيهما . وقد اشتغل في بعض الأحيان رجال من ذوى المنزلة بالعلم مثل الكونت رمفورد (١) . ولكننا إذا حذفنا من القائمة أولئك الذين حصلوا على اللقب بعد أداء مهامهم ، رأينا أن العلم يكاد أن ينحصر في الطبقة المتوسطة .

والأمر كذلك فى الفن ، فالأرستقراطيات لا تبدع فناً ولو أنها تعوله . وليست العصور العظيمة فى تاريخ الفن هى تلك التى امتازت بأرستقراطية مستقرة ، كعصر أجمنون ، أو الإقطاع فى مصر أو فى أوروبا . إنها عصور تمتاز بظهور طبقة وسطى جديدة ، ولم تقم عظمتها فى بيوت النبلاء ، بل فى المدن الحرة والمدن التجارية . وتكاد تكون الدراما الإغريقية ثمرة رعاية رجال الأعمال فى اليونان : فكلنا يعرف أن تمثيلات أسخيلوس وسوفوكليس وأوربيديس العظيمة ذات الفصول الثلاثة كان يعدها ويخرجها على المسرح جماعة من الموسرين الذين سلكوا ذلك السبيل لتمجيد دولتهم وتزكية ثرواتهم . ولم يكن الذين أعانوا لوكريتيوس وهوراس وفرجيل من الأمراء المهذبين بل من رجال المال . ولم يشيد الكنائس الغوطية البارونات أصحاب الأرض ، بل طوائف التجار وثروات المدن المعززة باستقلالها . وقد أعان أرستقراطيو الإنجليز شكسبير حتى أصبح قادراً على الارتفاع إلى الثروة (كان أشبه برجال الأعمال ، هذا الناثر ابن الحزار) . ولكن بنك أسرة مديتشى هو الذى كان يدفع نفقات «فواتير» النهضة . وقد رفض الأرستقراط إعانة جونسون أو برنس أو شاترتون ، ولفظوا بيرون وشلى . أما ثروة التجارة والصناعة الناميتين فقد غذت أدب القرن التاسع عشر القوى

(١) الكونت رمفورد Rumford (١٧٥٣ - ١٨١٤) مناصر ولد فى أمريكا ، ونصبه ملك بافاريا كونتاً على الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، وأصبح سفير بافاريا فى إنجلترا . وعاش معظم وقته فى باريس (المترجم) .

فى إنجلترا وفرنسا . وفى ألمانيا فقط ، مع فردريك الأكبر وكارل أوغسطس
دوق وليمار ولودفج ملك بافاريا ، يمكن أن يتقدم الأرستقراطى بقضية تشبه أن
تكون معقولة .

الحق أن الأرستقراطى ينظر إلى الفنانين كأنهم عمال يدويون كما كانت
الأرستقراطية المصرية تنظر إليهم ، فهو يؤثر فى الحياة على حياة الفن ، ولا يمكن
أن يفكر فى الخط من نفسه إلى مستوى العمل المحرق الذى هو ثمن العبقري .
وهو لا ينتج فى الأغلب أدباً ، لأنه يعلم أن كل كتابة تستهدف النشر عبارة عن
محبة للعرض . ولن تجد أرستقراطياً كان يرضى أن يغرق فى بحر من المداد مثل
رابليه ، أو يكشف عن أوراقه السياسية مثل مكيافلى ، أو يكافح بحجارة كروسر ،
أو يؤلف من المأسى والتشبهات ما كتبه شكسبير ، أو حتى كان يكتب مقالات
وقصصاً أرستقراطية كأناتول فرانس . ذلك أن سحر أناتول (وهو ابن بائع
كتب) فى بعده الرفيق عن الأوهام . ولكن الأرستقراطى لا يجتاز مثل هذا
الباب من الحقائق ، لأنه نشأ على النظر إلى العالم الآخر وهو نصف جاد ما دام
يملك من قبل هذا العالم .

وكانت نتيجة ذلك فى الديمقراطيات الحديثة نزعة عابثة غاوية نحو اللذة ،
وعريضة مستهتره تمتع فيها الناس بمزايا المركز إلى التمام ، وتجاهلوا مسؤولياتهم أو
مروا بها مر الكرام . وقد نشأ الانحلال من ضيق النظرة إلى الوراثة والتنديد
المتعجرف لروابط الزواج بدوائر مختارة من أولاد الذوات ، فيصبح طراز النسل
رقيقاً جسمانياً رخواً أخلاقياً ، وينحدر خلال جيل من العبقريّة إلى التفاهة .
بعض الأجيال فقط هى التى توسطت بين بطرس الأكبر ونقولا الأول ، وبين
وليم أورانج وجورج الثالث ، بين « الدولة هى أنا *P'état c'est moi* » وبين
« بعدى الطوفان *après moi le déluge* »^(١) . وقد انحلت أسرة ستيوارت ، والبوربون ،
وهابسبرج ، وهوهنزاورن ، ورومانوف . ولسنا فى حاجة إلى أمثلة أخرى لنؤكد
هذه النتيجة فى فلسفتنا .

(١) يشير المؤلف إلى لويس الرابع عشر ولويس الخامس عشر فى عبارتهما المشهورتين .
(المترجم) .

الخلاصة أن الوراثة فيها أسرة ولهم كما تجد فيها أسرة فردريك، وأن ما تأخذه منا على مر الزمن « عملة صغيرة » أكثر مما تعطينا إياه ذهباً . وللعبقية طريقة شيطانية بها تظهر في أى طبقة ، ولو أن فرصة ظهورها أعظم حيث تجد ما يبنى لطعامها ، والغالب أنها تستنفد الرجل الذى يكون في خدمتها بحيث تترك بذرتة عاجزة عن إنتاج مثله . وقد دامت الأرستقراطيات الوراثةية زمناً طويلاً بفضل صبر الناس وجبنهم . ومع ذلك فكيف تقاس مدة بقاء الهبسبورج إلى سلسلة البابوية اللانهائية ؟ كان البابوات أعظم حكام أوروبا ، وكانت الكنيسة أعظم هيئة حاكمة . ولكن ليس ثمة مكان للوراثة في الكنيسة ، ويستطيع أى رجل أن يشق طريقه من المحراث إلى الفاتيكان . ولقد كانت أقوى الحكومات في التاريخ مزيجاً من الديمقراطية والأرستقراطية، وأكبر الظن أن هذا هو نوع الحكومة الذى يجمع بنا أن نحصل عليه .

٨ — حول أنفسنا مرة أخرى

الواضح لنا في هذه المشكلة المضطربة الخاصة بالحكم الإنسانى ، إن كان ثمة شيء واضح ، هو أن مبدأ الوراثة السياسى مبدأ يودى إلى الانحلال . فهو يحمى العجز وينقله عبر الأجيال ، ويسد كل طريق إلى الإدارة بالبله من ذوى النسب ، ويقف نضح الموهبة إذا كان صاحبها بغير لقب ، ويعتدى على أول ضرورة تلزم الدولة القوية الدائمة — أما كل موهبة تولد معه من أى طبقة كانت فسوف ينمىها حتى تبلغ النضوج ، ويرحب بها في خدمته . وهذه هى الحقيقة الهامة المستترة وراء صور الديمقراطية وألفاظها الرنانة : أنه إذا لم يستطع الناس أن يكونوا سواسية ، فالفرصة يمكن أن تجعلهم كذلك ؛ وأن حقوق الإنسان ليست حقوقاً للمنصب والسلطان ، بل حق النزول إلى أى ميدان يمكن أن يختبر فيه ويغذى صلاحيته للمنصب والسلطان . فهذا هو جوهر الموضوع .

والأرستقراطية هى حكم الأفضل ، وليس من الضرورى أن يكون الحكم بالوراثة . فإذا كنا نرغب في الأرستقراطية ، ونفسد ونضيق لضبايعها ، فليس معنى ذلك أننا نهفو لحكم الكونتات والدوقات ، بل معنى ذلك أننا نريد أن يحكمنا أقدر الناس . فنحن أينما سرنا نلقى رجالاً ونساء تدربوا على العمل وأعدوا له ،

ولكنهم يجدون الباب في السياسة موصداً لا يمكن اجتيازه . لذلك ينبغي أن تفتح الديمقراطية الطريق .

والحلول صعبة ، لأن فسادنا قد تمخض عن فلسفة من التهمك حتى أصبحت أول استجابة لنا على أى اقتراح هى ابتسامة جدية . وقد بلغ بنا الأمر بنوع من التكيف مع جو البيئة أن أصبحنا نعتقد أن العالم كان على الدوام على هذا النحو ، وسيكون أبداً كذلك . ويبدو أننا قد تلاءمنا تمام الملاءمة ، مع أننا الآن فى غاية الذكاء بهذا الحكم الذى يحكمنا فيه الذئاب والأوز . وأكبر الظن أن قولتير كان على حق حين ذهب إلى أن الرجل الحكيم عليه أن يستسلم فيترك العالم بالحالة التى وجده عليها . غير أن سحر المدينة الفاضلة يسرى فى دماغنا ولن يتركنا فى راحة حتى نقف عن النمو . وفى الأرسطراطية بعض الخير الذى يجب علينا أن نبحث عنه وننسجه فى وحدة مع الحق الذى يكمن وراء ديمقراطيتنا المزينة .

* * *

تصور انتخاباً لمحافظة إحدى المدن فى أمريكا عام ١٩٥٩ . إنه لا يزال انتخاباً ديمقراطياً ، يصوت فيه كل رجل وكل امرأة وينتخب أولئك الذين عليهم أن يحكموا . حقاً إنه انتخاب ديمقراطى إلى أقصى حد أكثر من أى انتخاب عرفناه من قبل . ذلك أن اختيارنا اليوم محدود بشخصين أو ثلاثة ، تختارهم اختياراً خاصاً جماعات صغيرة ليس لنا عليها رقابة ، وسلطتنا التى نرُزى بها مقيدة بتحديد نوع الملابس التى سوف يلبسها أسيادنا فى الجيش . أما هنا فى هذا الانتخاب الذى نتخيه فالاختيار يتراوح بين مائة من المرشحين ، وتمرح سلطتنا فى حرية هذا المدى .

كيف يمكن أن يظفر هؤلاء المائة من المرشحين بالتعيين فى المنصب ؟ أوجدوا مائة « رئيس » Bosses ، ومائة « جهاز » machines ؟ بأى حبل جاذب ، وخدمة صادقة للحزب ، ومبادرة ثابتة العزم على التصويت خضوعاً للأوامر ، وصلوا إلى هذا الباب من السلطان ؟ لم يصلوا بأى طريق من هذه الطرق ، ولا غيرها مع ذلك ، لأنهم لم يعينوا أصلاً ، بل أعلنوا فقط ترشيحهم وأهدأهم ، ولا شئ أكثر من ذلك .

أيمكن أن يكون انتخاب بغير تعيينات ؟ أم يمكن استبعاد الاتفاقات المدبرة ، وانتقاء المرشحين ، وجمع الرؤساء ، واجتماعات بلاكستون Blackstone Hotels^(١) ولكن أيكون أى شخص حراً لترشيح نفسه لمنصب العمدة ؟ أو المحافظ ، أو الرئيس ؟ كلا ، بل ولا أى شخص آخر أو أى عدد من الأشخاص أحراراً فى تقديمه ، إذ جدارته فقط هى التى تركيه ، وإعدادة فقط هو الذى يعينه . على أى حال مهما يكن الاختيار الشعبى واسع الدائرة هنا ، فلن يؤدى إلى اختيار شخص غير ذى كفاية .

ذلك أن كل مرشح من هؤلاء المرشحين قد وقف حياته على تكوين نفسه التكوين الصالح للوظيفة التى ينشدها . فقد نجح فى الكلية بامتياز ، ثم بعد ذلك خلال أربع سنوات من التدريب الشاق والعمل فى مدرسة «الإدارة السياسية» . كان الحكم عنده فناً وعلماً يكتسب ويتعلم كما هى الحال فى الطب أو الهندسة أو القانون ، ولم يكن مجرد منصب يظفر به . وما هوذا الآن قد برز فى النهاية منوراً بالمعرفة ومزكى بالعمل ، وقد سقط عنه كل خبث واحتيال فى الطريق . وأصبح الآن حراً ، وكذلك كثيرون غيره ، لينزل انتخابات العمودية فى أى بلدة صغيرة فى الدولة . فاذا خدم مثل هذه البلدة دورتين فله أن يرشح نفسه لعمودية مدينة أكبر ، حتى إذا خدمها دورتين فله أن يتقدم للانتخاب فى رئاسة المحافظات الكبيرة . وإذا خدم فى إحداها دورتين فقد يتقدم ليكون محافظاً ، وإذا خدم الولاية ذاتها محافظاً دورتين فقد يطمع أن يكون رئيساً للجمهورية . فالإعداد هو الذى يعينه ، وجامعاتنا وهى أبداع إنتاج للحياة الأمريكية تصبح مربى حكمانا ومركزهم . وتبقى البيروقراطية كما ستبقى دائماً . وتبقى الأوليغارشية كما ستبقى دائماً ، ولكنها بيروقراطية مدربة ومسؤولة . وأوليغارشية دستورية رفيعة ومقيدة . وتبقى الديمقراطية — فى الانتخابات — وترتبط الأرستقراطية بها — عن طريق تقييد الوظائف بالأفضل . ولكنها ديمقراطية تخلو من الكفاية أو الفساد ، وأرستقراطية بغير وراثة أو مزية .

أهذا حلم غير عملى ومثالى ؟ وأى حلم لم يكن كذلك ؟ تأمل كاتباً صغيراً

(١) يقصد الاجتماعات التى تعقدها إخوان الأحزاب الداخلية للاتفاق على مرشحينها . (المترجم)

فى عصر إلزايث يتنبأ بواشنجطن أو ميرابو ؛ أو فى أيام واشنجطن من يقول
 'بتحرير المرأة ؛ أو أيام جرانت من ينادى بتحريم الخمر . كل شىء مستحيل
 حتى ينفذ . إذا كانت أكسفورد وكبرج تربان رجال الحكم ، أفتحرم جامعاتنا
 لثلاثساويهما ؟ لقد ظلت الصين مدى قرون تقصر الوظائف على الرجال الذين
 يختبر تعليمهم وإعدادهم كل خطوة فى ترقيتهم . فلما دخلت الأفكار الديمقراطية
 إلى الصين عام ١٩١١ ، ألغى هذا النظام بالطبع ، ولو أنه كان يمنح تقريباً
 فرصاً متكافئة للجميع . وظهرت فى ألمانيا منذ قرن مدن لم يسبق لترتيبها ونظافتها
 وجمالها البديع مثيل ، لأن حكامها قد انتخبوا لما لهم من تدريب خاص بشئون
 المدن (١) .

ومع ذلك فلا يجب أن ندع اليأس يتطرق إلى نفوسنا ، فهناك بالفعل
 « مدارس للحكم » فى جامعاتنا الكبرى ، أو مناهج تصلح أن تكون نواة لمثل
 هذه المدارس . وقد بدأت العداوة للخبراء تختفى ، وبلغت المرأة بمدن مثل
 سينسناى Cincinrati أن يحكمها رجال دربوا تدريباً خاصاً . ويعرف كل مثقف
 فى أمريكا الآن أن انتخاباتنا تمثيلية شائنة ، وأن أرباب هذه اللعبة السخيفة
 منزعجون لانسحاب نصف الناخبين من إعطاء أصواتهم ، وإصرارهم على هذا
 الانسحاب . لقد آن الأوان أن ندعو الناس ليروا رأيهم فى ذلك ، وليعلنوا
 بصراحة أننا لن نضيع وقتنا فى أمر التصويت حتى يصبح انتخاب رجال الحكم
 ممكناً . إن الجبن الذى نتصف به هو الذى يترك رأى العام جاهلاً ، وهو الذى
 يسمح ببقاء نصف الأمة صامتة على اعتقادها المكتوم بأن الديمقراطية قد أخفقت .
 فلنعلن رأينا .

هذا كل ما يستطيع كاتب أن يفعله . ولكن تأمل أى أعمال جلييلة يمكن
 أن يقوم بها رجال ذوو نفوذ وحيلة . تأمل مائة صحيفة دورية مزودة بالمقالات ،
 ومائة خطيب يعلمون الشعب أن الوقت قد حان كى تتحرر التربية . وتأمل رأى
 المثقفين يعلنونه بصراحة وينزلون به من طبقة إلى أخرى بين الشعب . وتأمل

(١) « لا ينبغي أن يعمينا نزاعنا مع ألمانيا عن هذه الحقيقة وهى أن ألمانيا قبل الحرب كانت
 أفضل الدول الحكومة فى أوروبا » Dean Inge, Outspoken Essays, Second Series, p. 94.

العيون قد تفتحت والأهواء قد نامت . وأخيراً تنتشر الرغبة في محاولة تحديد المناصب والعزم على قصرها — أو التعيين إذا وجب أن يكون هناك تعيين — على رجال أعدوا ودربوا بشرف . تأمل كل مدينة تحاكي في غيرة غيرها حتى تصبح جميعاً نظيفة وآمنة ، وقد طرد من مناصبها وشوارعها على السواء اللصوص والأشرار .

ولسنا نرجو نحن الكهول أكثر من ذلك ، فقد تحجرت قلوبنا وجفت من الحقائق حتى أصبحنا نبتسم عند كل حماسة ، ونضحك من كل مثل أعلى . ولكن جيلاً آخر ينمو في كلياتنا ، وهو جيل مع أنه أقل رومانتيكية مما كنا عليه ، إلا أنه أشجع وأعلم . وحين نظفر بمليون من هذا الشباب سيكونون من القوة بحيث ينزلون إلى الميدان ويمحون العار الذي يخنق حياتنا العامة .

فليمح العار .

الفصل العشرون

كيف صنعنا المدينة الفاضلة Utopia

١ - في مزايا المدن الفاضلة

من أقوال أوسكار وايلد : « إن خريطة للعالم لا تشمل مدينة فاضلة لن تستحق حتى مجرد النظر إليها ، لأنها تغفل الدولة الوحيدة التي ترسو عليها الإنسانية دائماً . وعندما ترسو الإنسانية هناك ثم تتطلع فترى بلاداً أفضل فإنها تبحر إليها . ذلك أن التقدم هو تحقيق المدن الفاضلة » (١) .

أهذا صحيح ؟ أتحققت المدن الفاضلة بانتظام ؟ إن الفكر الناشئ له اليوم رأى مضاد ، ولم يعد من البدع المألوفة الاعتقاد في تحسين البشرية أكثر من ذلك . يقول المتشكك : « التاريخ يعيد نفسه ، وما طار طير وارتفع إلا ثم طار وقع ، وبخاصة الحضارات . وليس تقدمنا إلا موجاً مضطرباً على سطح بحر أعماقه ثابتة ولا تتغير . والمدن الفاضلة قصائد روحانية لطاف تخدر بها نفوسنا الحساسة ذواتها لتحتمل أفاعيل الحياة والموت التي تحرقنا . ولكن الرجل القوي يتغلب جروحه بغير دواء مسكن ، أو إذا احتاج إلى النسيان نغم نفسه في الحاضر وما يدور فيه من ترتيب « روتين » دون أن يحفل بمصير الإنسانية في الغد . وقد وقع ما هو كائن ، وسيكون . والأزلياء وحدها هي التي تتغير » .

الحق أننا حيوانات غير شاكرة ، واليوم حيث أغدق مصباح علاء الدين باختراعاته ألوان الترف علينا نجلس كفتاة خيالية بين هذه الطرف ، ونتطلع إلى كنز مختلف وبعيد ، ولا حد لإعجابنا به لأنه شديد البعد . لقد طاف بأحلام الفلاسفة في الماضي إنشاء المدارس العامة ، فلما حصلنا عليها أصبحنا نشنان إلى الجامعات العامة . كان الناس قديماً عراة ، وهم اليوم كاسون ، ولكنهم

يتألمون لأن غيرهم يلبس ملابس أغلى منهم . ومرّ على الناس حين من الدهر كانوا جوعاً ، واليوم يموت مئآت الألوف كل عام في جميع البلاد المتحضرة بسبب أمراض التخمّة . ومع ذلك فلست تجد لساناً حامداً يرتفع بالدعاء لهذا الفيض العميم وهذا الطريف والتليد مما يشرفنا أن نموت به . وحتى في أيام ولیم شكسبير كان الظلام يحيم على المدن الكبرى ليلاً ، وكان كل شارع مخوفاً . واليوم (ولو أن كل شارع لا يزال غير مأمون) ذهب عن الليل فرعه ، وتشيع الأنوار بهجتها في كل مكان . ومع ذلك يرجع الناس البصر من وراء أكتافهم غير راضين ويندبون الأيام الخوالي . وفي الزمن الماضي كان الأطفال في السادسة من العمر والأمهات ربّات الأسر الكبيرة ينفقون أربع عشرة ساعة في مصانع قدرة ، وينامون ليلاً على الأرض بجانب الآلات ، أما الآن فالأطفال يذهبون إلى المدرسة حتى يصبحوا على أهبة حكم العالم ، ويبقى الملايين من النساء في بطالة رقيقة تبدو لحدّتهن خطيئة خيالية . ولكن مهلاً . . . كم تزيد سعادتهم إذا استطاعوا القيام بشيء واحد آخر . . . رحلة إلى أوروبا ، أو كوخاً على شاطئ البحر . لقد ظفر العمال بالتنظيم والشجاعة بأجور أعلى ، واحترام أشد ، وأمن أعظم ضد تقلبات الحياة . ولكنهم للأسف لم يحققوا الدكتاتورية . لقد تطلع القواد ذات يوم إلى الزمان الذي يرون فيه الحرب العامة ، فلما شهدوها أصبحوا يقفون الآن أمام النجوم البعيدة في شوق إلى إرسال السلاح إلى المشتري (جوبيتر)^(١) . ويزدهر الكتاب اليوم بما لم يسبق له مثيل في التاريخ . ويسرت الاختراعات ووسائل النقل والإعلان البيع بما لم يعرفه حتى بيرون أو ماكولي . وإذا بكاتب مثل أناطول فرانس يصبح مليونيراً من قلمه الممتاز - ولكن أى حزن يرين على قلوب هؤلاء العباقرة الناجحين .

يقول أناطول فرانس : « لو استطعت أن تقرأ ما سطر في نفسي لفزعت ، فلست تجد في جميع أنحاء الدنيا مخلوقاً أتعس مني . » ألا ما أروعك يارب الكلام الحميل . - أنت الذي أحطت نفسك بكنوز الفن من شتى العصور والبلاد ، يا من ملكت قلوب الساسة والتأثرين في نطاق من الإعجاب والحب ، ومن

(١) جوبيتر هو رب الأرباب وكبير آلهة الرومان وحامي روما (المترجم) .

مجد حتى في حياته بأنه قرين رابليه ومونتيني وفولتير وغيرهم من ملوك فرنسا ،
 أنت الذى ملكت المال والفراغ ومع ذلك لم تستغل نفسك واحدة : فإذا كنت
 « أنت » لم تعرف السعادة قط ، فأين توجد ، وكيف نحصل عليها نحن الصغار ؟
 ولأمر ما انتهت بنا الثروة إلى التشاؤم ، وتركنا غزو الطبيعة مثل
 « سلامبو » (١) بوساء في نصرنا ؟

لقد تحققت المدن الفاضلة ، ولكن في العالم الخارجى فقط . تصور حالنا
 إذا لم يكن العالم الخارجى موجوداً ، كما يذهب بعض الفلاسفة . لقد تغير العالم
 الباطنى — أى أنفسنا — ولكن بأى بطء جيولوجى . لقد كان أبسر علينا أن
 نغير وجه الأرض ، وأن نربط القارات خفية برأً وبحراً وجواً ، وأن نحول الفحم
 والحديد إلى ملايين الطرف ، من أن نخلع من أنفسنا غرائز الجشع والمقاتلة والقسوة
 السارية في مستقبلنا بأجيال من الكفاح والفقر الدافع إلى التوحش . فنحن ما كتب
 علينا أن نكون عليه ، وسنبقى كذلك حتى إذا ذهب الضرورة المألوفة لنا .

نحن على حق إذن في أن نكون غير راضين ، ولو أنه من الخطأ أن نجحد
 فضل ذلك النصف من المدينة الفاضلة الذى منحنا العلم إياه ، ومن الخطأ ألا نفهم
 أن هذا النصف هو الوعد بالنصف الباقي وأساسه . إننا نعرف في صميم قلوبنا أننا
 حيوانات تعيش في الجنة غير جديرين بالجمال الذى تقع أعيننا عليه لأننا على
 استعداد لتشويهه بالصناعات البشعة ، فحيثما حصلنا معاشنا أصبحت الحياة
 مستحيلة . وكما نبدد الجمال كذلك نسيء استعمال المعرفة ، لقد ضاعفنا قرانا
 مائة مرة ، وأضفنا إلى أجسامنا كثيراً من الأذرع ، غير أن خططنا تكاد تكوّن
 من الهوان وضيق الأفق كما كنا نعيش في الجهالة والقذارة . إننا أقزام روحية في
 هياكل ضخمة هائلة . لقد حلت المدينة الفاضلة في كل مكان ما عدا نفس
 الإنسان .

من أجل ذلك فإن هذه المدينة الفاضلة المتواضعة التى ننسج خيوطها الآن

(١) سلامبو Salambo قصة تاريخية كتبها فلوير عام ١٨٦٢ ، وتدور وقائعها
 في مدينة قرطاجة التى كافحت ضد جند من المرتزقة . ووقع قائد الجند في حب سلامبو وهى شادة حثاء
 من قرطاجة وابنة قائد مشهور . وذهبت سلامبو ليلاً إلى خيمة ماثو قائد المرتزقة لتحصل على النكاح
 المقدس الذى سرق من المدينة . وتنتهى القصة بمقتل ماثو ، وموت سلامبو (المترجم) .

بالأحلام اللطاف لن تنظر في إعادة بناء الطبيعة ، ولا في « بسط مملكة الإنسان »
 (لأن فردوس سيكون قد تحقق) ، بل في صياغة أنفسنا صياغة جديدة ، وبناء
 عقولنا وإرادتنا حتى تصلح لسكنى عالم أفضل ، صاف صفاء معرفتنا وقوى كقوتنا .
 ولما كانت « الطبيعة البشرية » والجهل الإنساني هما السبب في خراب كل مدينة
 فاضلة ، فسنسعى أولاً إلى تطهير قلوبنا وعقولنا ، ومن الأرجح أن كل شيء
 آخر سيقبل علينا .

فانجلس هنا تحت ظلال هذه الشجرة ، ولنستسلم لأوهامنا بينما يمرح
 الأطفال فوق المروج الخضراء .

٢ — العمدة يستيقظ

أيقظ العمدة مبكراً شروق الشمس التي ألقت أشعتها على أذنه ، فاستعاد
 الوعي رويداً رويداً ، وحال لون « البيت الأبيض » ، وأقنعه النهار الطالع بظهور
 النور . وحاول النوم مرة أخرى ولكنه لم يستطع . ثم أخذ يفكر لأنه لم يجد
 أفضل شغلاً للوقت من التفكير .

قال لنفسه : « يا إلهي . أنا العمدة . كيف بلغت هذا المنصب ؟ أى حظ
 هذا . وأى مصادفة . لو أنى لم أعرف تومي بيرك . . . لقد كان حميلاً منه أن
 منحني التعيين . ولكن لماذا لم أعرف منذ عشر سنين مضت أننى سأحكم مدينة
 كبرى ؟ لعلنى كنت قد أعددت نفسى . ما أشق هذا العمل . إنه أسوأ من إدارة
 خط سكة حديدية ، أو تربية أسرة . هذا إلى أننى لا دربة لى على الإطلاق .
 قلما قرأت كتاباً فى حياتى ، وها أنا ذا الآن رئيس للمليون من الرجال والنساء . إن
 ما أفعله يرفع أو يهدم آلافاً ، وسيؤثر فى أطفال لم يولد أجدادهم بعد . ومشكلاتهم
 لقد بدأت أضيق بها : ترحيل ، رشوة ، تطعيم ، رشوة ، تمويل ، رشوة ،
 تطعيم ، رشوة ، تسويق ، رشوة ، رشوة تطعيم ، تطويق رشوة ، تطعيم ،
 رشوة ، بناء ، رشوة ، تطعيم ، رشوة ، تنظيف شوارع ، رشوة ، تطعيم ،
 رشوة ، صحة ، رشوة ، تطعيم ، رشوة تعليم ، رشوة . . . أوه ، إن المهمة
 كبيرة جداً بالنسبة لى . إنها مهمة تحتاج إلى مائة رجل . لن أستطيع القيام بها
 وحدى . »

وارتفعت الشمس في السماء وسطعت في بشر على أنه . وتثأب العمدة ،
ثم جلس في الفراش ، وهز رجله . وفجأة أشرق وجهه .

« إنى أعرف ما سوف أعمله . سأخرج الساسة عن صوابهم . إنه شيء لم يعمل قط من قبل . سأدعو أكبر العلماء من جامعاتهم ، وأكبر الممولين من مصارفهم ، وأكبر المربين من مدارسهم ، وزعيمات المرأة من منتدياتهن ، وأكبر المخترعين من معاملهم ، وأكبر المقاولين من أنديتهم الرياضية ، وأكبر زعماء العمال من رحلاتهم — سأدعوهم إلى قاعة الاجتماعات في المدينة ، وأطلب منهم مساعدتي . »
« يا ربى . لقد سئمت الساسة . إنهم لا يودون عمل أى شيء ، بل يرغبون في الحصول على كل شيء . لا يريدون الأعمال بل يطلبون المرتبات . وهناك عشرة من هؤلاء الساسة لكل عمل أطرحه ، ولا يكاد يعرف أحدهم شيئاً عن العمل الذى يظن أنه يرغب فى عمله . لقد ضقت بهم ذرعاً » .

وتحرر العمدة من جميع ملابسه ، ووقف بشجاعة أمام الشمس ونخاطب أرواح الهواء :

« وبعد ، فى المدينة رجال عظماء . فهناك فوق التل بعض العلماء معروفون فيما يقال فى جميع أنحاء العالم . ويوجد هنا مديرو بعض المصانع الكبرى العالمية . وفى المدينة رجل واحد هو رجل حكم^(١) . فلماذا لا نستفيد بعقله ؟ لن أستطيع إغراءهم بالسعى إلى المناصب ، وبخاصة أفضلهم ، ولن أستطيع حتى إقناعهم بالتعيين فى المناصب ، لأن المرتبات ضئيلة جداً . ولكن إذا قلت لهم : «أيها السادة إنى أحتاج إلى معونتكم ، أفلا تقبلون وتجمعون أنفسكم فى مجلس ينصحنى؟» — أظن أنهم يرغبون فى منح المدينة بعض وقتهم . وعندى سلطة تعيينهم كمجلس للإصلاح المدنى » .

وعندئذ ركع العمدة ودعا الله قائلاً :

« يا إلهى . امنحنى القوة » .

(١) يميز المؤلف بين السياسى politician ، وبين رجل الحكم statesman ، فالأول لا يعرف صناعة الحكم ولا الإدارة وكل بضاعته الخطابة والظفر بالمناصب والسلطان والمال وتسخير الجماهير لأغراضه ، والثانى عالم متخصص فى فن الحكم (المترجم) .

٣ - المجلس الكبير

وسرت أنباء المجلس الكبير الذى ألفه العمدة فى أنحاء المدينة كالكرة تندرغ الملعب . وارتعش الموظفون فى مناصبهم ، وعجبوا كم يطول بهم الوقت الآن فى وظائفهم . ولكن كل شخص آخر كان مسروراً . حتى الجهاز السياسى أعلن عن حماسه ، ولكنه تحدث مع « صاحب الشرف » (١) حديثاً خاصاً عرفوه فيه أنهم لا يحفلون بهذه الخطة لإصلاح الشعب ، ما دام « الحزب » organisation لم يمس ، ولم يصب بشئ ، ولا تزال رقابته موجودة .

واجتمع المجلس فى قاعة هادئة للاجتماعات وضعتها الجامعة تحت تصرفه . ومثلت الصحافة تمثيلاً واسعاً ، أما الجمهور فطلب إليه بأدب أن ينصرف ، إذ حيث يوجد الجمهور تكثر الخطابة . وبلغ عدد أعضاء المجلس خمسين ، وكانوا جماعة من كل لون وجنس وفن ، ولكن كل رجل وامرأة منهم كان متميزاً بعمل خاص . كان فيهم الأستاذ جورمان البيولوجى الكبير ، وستوبردج جورمان المالى المستبد . وكان من بينهم فليكس شتراس رجل البر والإحسان ، وآرثر تومكنز محافظ إحدى المدن الغربية . ثم هنرى هوبرت المهندس ، وإدوارد هيوز المحامى وكلاهما مشهور بتبزيه كوظف فى مجلس الوزراء . وكان من بينهم ثيوسن الاقتصادى ، وتاوسون العالم النفسانى ، وولبرت المهندس المعمارى . ومنهم أيضاً الدكتور موى الطيب ، والصاغ جورج وهو مهندس آخر . ثم ماتيو جرين زعيم العمال ، وإجبرت جراى صاحب مصنع . وكان فيهم زعيم السود الكبير بودوسى ، والخفار المشهور لمبرج . وجلست السيدة الموسرة مدام ليرد كروكى إلى جانب فاني كوان المرأة البسيطة التى نظمت التعليم الراقى لشغل الإبرة . وكنت ترى جنباً إلى جنب الشاب جون ستونمان وارث الملايين ومورس هابر الزعيم الاشتراكى . واندماج رابى ستيفن ومارشال لويس بسرور مع مونسينيور أفيلا ودكتور إمرسون . أما الأسقف بويلنج المحافظ على تقاليد الكنيسة فقد صافح لأول مرة فى حياته كبير الموحدين (٢) Unitarian جيمس هنرى هاوس .

(١) المقصود العمدة (المترجم) .

(٢) الموحدون فرقة مسيحية أنشئت سنة ١٧٧٣ على الكنيسة الإنجليكانية وكانت تنكر التثليث وتذهب إلى أن الله واحد أحد فى ذاته وصفاته (المترجم) .

ولم يكن بينهم تجار ، أو متعهدون realtors ، أو أساسة ، أو أدباء ، أو فلاسفة .
ثم إن العمدة خاطبهم متجملاً بالحياء قائلاً : « أيها السيدات والسادة ،
لقد دعيتم إلى هذا المجلس لأن مدينتنا أصبحت من الاتساع بحيث لا يستطيع
أن يحكمها بحكمة رجل واحد . فقد نمت إلى حد كبير لا يتيسر معه أن يديرها
عدد من الرجال يختارون لمهارتهم السياسية أكثر من معرفتهم الاقتصادية أو قدرتهم
الإدارية . ولقد حان الوقت الذى يجب فيه أن تسخر جماعاتنا الكبرى ما يوجد
عندها من ذكاء وخلق .

« إننا فى حاجة إلى إرشادكم ، فادرسوا مشكلاتنا بعناية ، وافحصوا
توصياتكم جيداً ، ولتكن هذه التوصيات فى حدود الطاقة البشرية وفى نطاق
قدرة المدينة المالية . أما من جهتي فأني أعد بتأييد كل توصية بكل ما لدى
من نفوذ مادامت هذه التوصية لا تعارضها أقلية كبيرة سواء من المجلس أو الجمهور .
ولكني لا أعتقد أنكم ستواجهون أى عداء كبير ، فهذه المشكلات الخاصة
بالإصلاح المدني ليست أموراً سياسية ، وليست فيما أفترض أموراً تختص بالتشريع
الطبقى . إننا نقف معاً فى فوضى ، ويجب أن نتحرك معاً نحو السلامة . والآن
المدينة مدينتكم ، وعليكم إصلاحها » .

وساهمت الصحافة عند هذه النقطة الحرجة مساهمة فعالة فى أعمال
المجلس الكبير . كان من اليسير ومن الطريف السخرية بالمشروع — أن يصوروا
العلماء الحجولين والمهملين صوراً كاريكاتورية ، وأن يتنبأوا بأنه لا خير يرجى
من مثل هذا المجلس المتنافر ، وأن يمثلوا الأعضاء كقديسين يريدون أن يثقلوا
بفظاظتهم الأخلاقية على شعب يوتر حياة مستهترة ويتصنع فيها الندم . ولكن
العمدة كان قد عين كل صاحب جريدة كبرى أو كل محرر معروف فى المدينة
فى عضوية المجلس ، فكانت ضربة عبقرى أظهرت قيمة التدريب السياسى .
وتشجعت الصحافة بهذا الاعتراف فهضمت لانتهاز الفرصة ، ورأت أنها يمكن
أن تصبح ، هنا كما تصورها الناس دهرأ طويلاً ، أعظم وسط تعليمى فى العالم .
وأرسلت الصحافة أحسن محرريها لكتابة القرارات ، وقدمت كل تأييد ممكن
للمشروع العظيم .

وفي أثناء ذلك كان الساسة يهتمون ، وأعاد المقاولون النظر في مواصفاتهم ومكاسبهم ، ورسم الشيوعيون صوراً غير لائقة لموريس هيلير ، بل إن الجمهور لم يكن واثقاً تمام الثقة بالاهتمام بهذا المجلس المؤلف من الفطاحل ، وبلبلت أول توصيات أقرت بعد أسبوع من المداولات أفكار الجمهور ، ذلك أن الفرع البيولوجي من المجلس أصدر قراراً في جانب تحديد النسل : الأصحاء عقلياً وجسمانياً هم الصالحون وحدهم للإنجاب . وانتشرت رويداً رويداً موجة من الاحتجاج في أنحاء المدينة . من هم أولئك الرجال والنساء ، هؤلاء « الخبراء » والرأسماليون والاشتراكيون والمفكرون حتى يحق لهم أن يخبروا الشعب صاحب السلطان أن الأبوة مزية أكثر منها حقاً مكسوباً بالوراثة ؟ ولو أن الصحافة لم تنشر التوصية الأولى كاملة ، لكان من الممكن أن يحدث ضرر عظيم . وكان الاقتراح يجري ببساطة كالآتي :

« أول قرارات المجلس أن الإصلاح يجب أن يبدأ بالاحتفاظ بصفات الجنس الجسمانية والعمل على تحسينها . فلا يمكن أن نتقدم كما نرجو إلا إذا استخدمنا كل وسيلة ممكنة لتشجيع الأصحاء على النسل ، وصرف ذوى العاهات عن إدامة عاهاتهم الوراثية .

« ومع ذلك فلا حاجة إلى تشريع مانع حتى في هذا الأمر الأساسي ، بل نود فقط أن نقترح سيلاً يسلكها جميع العقلاء من الرجال والنساء . ونحن نؤثر أن نعتمد على محض إرادتهم الخيرة على محاولة إرغامهم بالقانون . وستقصر الإكراه على أنفسنا فقط .

« وبناء على ذلك نحن أعضاء هذا المجلس الإصلاحى نتعهد لأنفسنا ، ويقطع أبناؤنا (برضاهم) الذين في سن الزواج على أنفسهم عهداً بالامتناع عن النسل إلا بعد موافقة الأطباء المعيّنين لهذا الغرض بواسطة الاتحاد الأمريكى الطبي . ونحن ندعو الجماعات والأفراد إلى إعلان قبولهم هذه القاعدة . ونحن واثقون من أن أذكى هيئات المجتمع ستكون أول من يتعاون على تنفيذ هذا الاقتراح ، ونتطلع إلى هيئة مثلهم للتأثير في الجميع .

« ونحن نوصى المصابين بعاهات وراثية بحرية الزواج ، وسوف يشجعون على الحصول على طريقة لمنع الحمل من الأطباء المرخصين .

« ونوصى أكثر من ذلك بأن من يقبل هذه القاعدة ويراعها سيكون بمنحه تأميناً كبيراً ضد الحوادث والمرض والبطالة والشيخوخة والموت . وبمنح معونة أموية مالية لجميع النساء اللاتي يلدن طبقاً لهذه القاعدة . ونحن نثق في تشجيع المحسن أكثر من منع المسيء .

« وأخيراً ، وفوق كل شيء ، ندعو الصحافة وجميع مدارسنا وجامعاتنا إلى نشر المعلومات عن هذا الموضوع : بأن يبينوا لكل قارئ أن تقدم الجنس يتوقف على الصفات المتحسنة في كل جيل في الصحة والعقل . وأن ينشدوا من وطنية الجمهور مزاولة هذا الكف النفسى المعتدل كأول خطوة في إصلاح مدينتنا » .

وبلى ذلك في ترتيب مؤتمر توقيعات جميع أعضاء المجلس ما عدا واحداً .

وبعث هذا الإعلان الأول سخرية النقاد المتشككين ، فابتسم بعضهم من الأمل الساذج لقوم ظنوا أن في استطاعتهم إصلاح المدينة بنشر المعرفة . وذكر أحد النقاد تعليق فردريك الأكبر على وزير التربية الذى كان قد اقترح إصلاح البشرية عن طريق المدارس العامة : « آه يا عزيزى زولنر ، إنك لا تعرف هذا الجنس الملعون كما أعرفه » . ولكن كثيرين من النقاد ابتهجوا بهذا التصور الحديد للحكم كترية ، وهذا العزوف عن التجنيد والإكراه ، وهذه الخطوة المتفائلة بدفع التقدم الإنسانى لا بالكشف عن المساوىء بل بتشجيع جميع البدايات السليمة .

ثم جاءت تعهدات بالقبول ، وعقد أطباء المدينة اجتماعاً خاصاً كرسوا فيه أنفسهم بالإجماع . ثم تبعهم أعضاء الاتحاد الأمريكى لأساتذة الجامعة في المدينة ، وبعدهم بقليل اتحاد المعلمين . وانضم بعد ذلك نقابة الصحافة وأصحاب الصناعات الكيماية ، واتحاد الموسيقيين . . . وأعلنت جماعات كبرى انضمامها . وأخيراً اقترح اختيارى بتعهد تناسلى من جميع الطلبة الحاصلين على دبلومات من المدارس والكلليات . وإذ لقي هذا الاقتراح تأييداً عاماً ، فقد أصبح التعهد الاختيارى المؤيد مع ذلك بقوة رأى العام جزءاً من كل وثيقة بالانتساب إلى المدينة . وهكذا كسبت المعركة الأولى .

٤ - الحكم بالتربية

بعد أسبوع قدم قسم التربية في المجلس التوصية الثانية إلى العمدة ، ونشرت في الصحف . وكانت كما يلي :

« نوصى بأن ينظر إلى حفظ الصحة العامة ، وأكمل تربية ممكنة للأطفال والمراهقين على أنها أول مهام الحكومة . ونقترح إنشاء مستشفيات بلدية يعالج فيها كل مرض علاجاً كاملاً بالأجر . ونوصى بأن تلتى العناية بالجسم في مدارسنا من الملاحظة والتشجيع ما تلقاه تنمية العقل . ونعتقد أن صحة الأمم أهم من ثروتها ، وأن سر السعادة في الصحة . إننا نتطلع إلى تنمية كل رياضة صحيحة ، وإلى إلزام التعليم الخاص بجميع فنون النظافة . ونوصى بعدم تشجيع المشاهدة السلبية للألعاب ، وأن تقدم جميع التسهيلات لمشاركة الجميع مشاركة فعالة في الألعاب . » ونوصى بأن يكون فخر المدينة في إنفاقها بسخاء على التربية . ونحث على الزيادة التدريجية في معدل أجور جميع المعلمين حتى ترتفع مهنة المعلم إلى أرفع المراتب وتجذب أفضل الناس . ونوصى برصد منح مدرسية يستعين بها الطلبة المعدمون حتى يتابعوا التعليم العالي ، وحتى تستفيد المدينة من جميع المواهب الكامنة في مواطنها . وننصح برصد مبالغ أخرى للبحث العلمى وتهدف إلى تنمية الاختراعات التي سوف تجعل القوة الميكانيكية أرخص من قوة العضلات في الإنسان ، فتضع بذلك حداً للرق الإنساني .

« ونوصى بأن تحذف من مدارسنا كل المراجع المثنية على الحرب ، وأن يشجع في الناس ميلهم الطبيعي إلى السلام ، وأن يعتمد عليهم في تأييد جميع الوسائل اللازمة للدفاع .

« ونوصى بتشجيع المدارس الخاصة ، والتجارب في التربية . وننصح بالحرية الكاملة في القول والصحافة والاجتماع والعبادة باعتبارها أموراً ضرورية للخلق الوطني القوي . ويجب أن يوازن امتداد الدور الذي تلعبه المدينة في حياتنا بأقصى ما يمكن من حرية العقل .

« ونوصى بأن تكون المدرسة هي البيت الفكري للمجتمع ، فتفتح أبوابها أثناء الليل وأطراف النهار ، وتقدم جميع التسهيلات للنمو الجسماني والعقلي .

« ونعتقد بأن مدارسنا يجب أن تضطلع بمسئولية التكوين الخلقي ، حتى توازن فساد القوى والنظم الأخلاقية الأخرى . وأن أى تربية لن تكون كاملة حتى يندرب الطالب على البصر بالقيم والنتائج الاجتماعية لرغبة الفرد ، وحتى تنمى فيه الاستعداد لتحديد سلوكه فى حدود صالح الجماعة بأسرها .

« ونحث أصحاب الصحف ومحرريها على الرقى بالصحافة باعتبار أنها وسط كبير للتربية العامة . ندعو المحسنين إذا لزم الأمر عن طريق نشر نزيه وبارز فى الصحافة إلى تمويل تعليم كامل فى العلم والتاريخ والأدب والفن .

« وأخيراً نوصى بأن يكون تعليم الشباب فى كل فرع بالأجر لكل راغب . وبأن طلبة المدارس والكليات يجب أن ينظروا إلى كل بداية على أنها مجرد معلم يرشد إلى تنمية النفس ، وبأن التربية يجب أن ينظر إليها لا على أنها مجرد مهمة وإعداد فقط ، بل أنها صلة ممتعة وزكية بتراث الإنسانية الثقافى .

ووقع التوصيات جميع أعضاء المجلس ما عدا اثنين .

وسر كل إنسان بهذه التوصيات ما عدا دافعى الضرائب . فقد ابتهج الأطباء بعناية المجلس بالصحة ، وتنفس الجمهور فرحاً عند علمه بأن المستشفيات لن تكون بعد ذلك معامل لتشريح الفقراء أحياء . وكان المعلمون راغبين فى زيادة الأجور ، وأخذت أسرة كل معلم تنفق الزيادة المنتظرة فى الدخل . ورحب عباقره الشباب الكثيرون ممن كانوا يعدون الفقر العقبة الوحيدة فى الاعتراف بهم بالاقتراح الخاص بالمنح المدرسية . وقدرت الصحافة منزلة الدور الملقى على عاتقها . وسبح خيال الفتيان والفتيات فى بحيرات المدينة الفاضلة المتوقعة . ولكن تيودور بلاك رئيس اتحاد الملاك أرسل احتجاجاً أيده كل صاحب ملك . وإليك نصه :

« من الواضح أن مجلس الإصلاح الذى أنشأه العمدة بعد أن ضل سبيله فى أول تقرير له محاولاً إصلاح الجنس البشرى بأسره لا المدينة فقط ، قد وقع الآن فريسة المثاليين السذج ، وأكبر الظن ضحية أبلغ الخطباء من بين أعضاء المجلس . وكنا نرجو أن يقصر المجلس اقتراحاته على حدود العقل والإمكان العملى ، ولكننا نرى الآن أنه بعد هذا التبجح كله لن نحصل إلا على مدينة خيالية (طوبيا) أخرى .

أما هذا المشروع الذى يجعل من جميع الطبقة العاملة حاصلين على الدكتوراه فجدير بتفكير تلميذ فى المدرسة ، فكل صاحب عقل ناضج يدرك أن عدد المناصب التى يمكن أن يستفاد فيها من التعليم العالى فى عالمنا الاقتصادى محدود جداً . ونحن نرى الآن أن كلياتنا تخرج من الطلبة أكثر مما تستوعبه مجموع المهن . فإغراق البلاد هذا الإغراق بذوى الدبلومات فى الفنون إنما يعنى أن عدداً كبيراً من هؤلاء المتخرجين حين لا يجدون مخرجاً لما تعلموه من لغة لاتينية وإغريقية ، لن يتلاءموا مع مراكزهم فى الصناعة ، وسوف يعممون سخطهم الشخصى فى تهيج ثورى . ولن ينصح أى مفكر بزيادة هذا الفيضان ، وكل مرب محرب ينظر الآن فى الطرق والوسائل المؤدية إلى تخفيضه .

إن توصيات المجلس تجرى فى تيار سياستنا الشائعة بتدليل الصغار . فكل منا يشعر أنه مطالب بالثناء على خطايا الشباب الحديث — وأن يستخف بما فيه من صلف ، وتححر ، وتطرف ، وانحلال خلقى . وكل أب يضيّق على حياته الخاصة كى يترك لأبنائه وبناته ثروة يضيعونها فى عيشة منحلة . إن هذه الكليات التى نرسل إليها صغارنا تمثل هذه التضحية هى مجرد أندية رياضية ومدارس للإلحاد . فأن نقدم لشبابنا الملحد لا التعليم العالى الحر فقط ، بل حمامات السباحة والمكتبات هو أن نتقل من باب المستحيل إلى باب المضحك .

أوجد أحد يوضح لنا من ينفق على هذا كله ؟ إن ميزانية البلدية الكبيرة التى تنفق على المدارس والكليات تفرض الآن ضريبة هائلة على العقارات ، فما مصير الضريبة إذا نفذت هذه التوصيات الحشعة ؟ فليحسب كل مواطن يرتهن أرضاً تكاليف هذه الأعاجيب ، ثم لينظر ماذا يبقى له حين تكون الحكومة الوطنية قد سلخت دخله ، والمدينة قد فرضت عليه أن يدفع نفقة أكاداس من البلاشفة . إنا نطلب من العمدة أن يضع حداً لهذه المهزلة ، وأن يعيد هذه التوصيات إلى المجلس طالباً من أعضائه أن يجمعوا بأنفسهم الاعتمادات المطلوبة لمشروعاتهم .

الخلاص

نبودور براك

٥ - اشتراكية أصحاب الملايين

فتحت هذه الرسالة باب الانقسام فى رأى بالمدينة انقساماً أصبح أشد وأعمق يوماً إثر يوم . وعندما أعلن المجلس دون أن يرد على أى نقد تقريره الثالث ارتفعت أصوات التعليقات المعارضة . وانتشرت إشاعة تقول بأن التقرير كاد أن يشطر المجلس شطرين . ولوحظ بالفعل أن سبعة أعضاء من الخمسين رفضوا توقيعه . وإليك بيان هذا التقرير :

« نحن نوصى بأن تحكم المدينة رقابتها على كل غذاء يدخل حدودها ، وأنها بالتعاون مع الصحافة ستنشر كل أسبوع قائمة بالأسعار ، وأنها ستتخذ الخطوات التى تمنع مضاعفة البيع بالتجزئة لضروريات المعيشة .

« ونوصى بأن تستولى المدينة على جميع المرافق العامة وتديرها ؛ وأن تنشئ بنفسها محطات الكهرباء المائية hydro-electric plants ، أو تتعاون فى استخدام الآلات المنشأة من الدولة . وأنها ستبيع التيار بتكاليفه لكل من يرغب فى استخدامه حتى تتحرر المدينة من الدخان ، وحتى تصبح جميع الصناعات صحيحة ونظيفة .

« ونوصى بأن تمتلك المدينة جميع خطوط النقل وتقوم بإدارتها ، وأن تكون زيادة التعريفة أو خفضها لتغطية تكاليف الإدارة الفعلية ، وأن تجرى هذه التسهيلات لتجنب الازدحام الحاضر البغيض ، ولسكنى السكان براحة فى الريف .

« ونوصى بتشجيع الشركات corporations التى تخضع أساليبها للإشراف ، والتى تحدد المدينة أسهمها وتضمنها ، لتبنى عمارات ، وإذا أمكن مساكن مستقلة ، بإيجار معتدل ، حتى يمكن أن تتجدد مباهج البيت والأبوة ، وأن تستعبد الأسرة بعض منزلتها الأولى كمدرسة للأخلاق ومنبع للنظام الاجتماعى .

« ونتقدم بالشكر لأولئك المحسنين الذين يسروا وجود متاحفنا وفرنا الموسيقية العظيمة orchestras ، ونأمل أن تمتد هذه المنح الخيرية إلى جميع أقسام المجتمع وطبقاته . ونحث على تنمية ما يجرى العمل به الآن من ترقية فهم الفنون والاستمتاع بها وأن تغذى الذوق فى جميع النفوس ذلك الذوق الذى يكشف عن العبقرية وذلك الإحساس بالجمال وهو أحسن ضمان لعظمة مدينتنا .

وقوبلت التوصية الثالثة بالفتور ، أو محى أثرها بالممدح الضعيف ، أو هوجمت بإزدراء . ولما كانت اقتراحاتها تستهدف نفع المجتمع بأسره أكثر من أى قلة منظمة أو بارزة ، فلم يعبر إلا القليل عن استحسانه . أما العناية التى أثارها التقرير غير العادى الأول فيبدو أنها لن تعود ، فلم يكن اليسير بعث حماسة الجمهور بأمور كالنقل والغاز . لأنه كما أن حريق منزل يجتذب لمشاهدته جمهوراً أكثر من بنائه ، كذلك لم يكد المجلس يشرع فى تفصيلات الإصلاح حتى خفت صوت الاهتمام الشعبى . وإذا كان هناك إجماع عام على المساواة التى تقاسى منها المدينة ، وكانت هناك مئات من الخطط لحلها ، فلم يكن أى اقتراح يتوقع أن يسر منه أكثر من نفر ضئيل من أولئك الذين يرغبون فى التغيير .

أما كبار تجار أغذية الحملة الذين كانوا يبيعون لتجار القطاعى فى المدينة ذلك الطعام الذى كانوا يخبزونه كوسيلة بارعة لرفع الأسعار ، فقد ضغطوا على قادة الحزبين ليتبرا من المجلس ويحط من شأنه . أما شركات الغاز والكهرباء الكبرى ، والتى كان ما تخجل منه أقل من ذلك ، فقد كانت شكواها أقل ، وأعلنت أنها لا تمانع فى شراء البلدية للتيار بشرط أن يسمح لها بتحديد الثمن . واقتبست بعض خطوط النقل كما زعمت توصية المجلس « لزيادة التعريفة » ، واشتد عداء آلاف الناس عند قراءتهم هذا الاقتباس للمجلس . أما المساعمون « بعضهم كان قد ربح من قرار إشكومترز وبمقتضاه حددت أسهم السكك الحديدية وضمنتها الحكومة الوطنية) فقد احتجوا على ضمان أو تحديد البلدية لأسهم المباني . وابتسم العزاب من الاقتراحات القاضية بأن يكون لإنجاب الأولاد بدعة مرة أخرى . وخلال هذه المناقشات كلها دار بحث واحد هام : كيف يمكن أن تمول هذه المدن الخيالية ؟

٦ — تمويل المدينة الفاضلة

بعد شهر من تاريخ اجتماع المجلس الكبير قدم تقريره الرابع والأخير ثم انفض ، واستغرب أهل المدينة لتوقيعه كالتقرير الأول من جميع أعضاء المجلس ما عدا واحداً ، وهذا نصه :

« نوصى بامتداد وتحديد الديمقراطية بحيث تعنى الفرصة المتكافئة للجميع

فى أن يجعلوا أنفسهم صالحين للمناصب الكبرى ، وقصر المناصب على اللائقين . ونحث على إنشاء مدارس للإدارة السياسية فى جامعاتنا ، وأن يكون القبول فيها حراً لكل من ينجح فى اختبارات الالتحاق سواء أكانوا من خريجي الكليات أم لم يكونوا . وأن يكون التعليم فيها كاملاً وعملياً كالمطلوب اليوم ممن يريد أن يمارس مهنة الطب . ونقترح على أحزابنا السياسية أن تعين أكثر فأكثر للمرشحين فى وظائفها الصغيرة المتخرجين فى مثل هذه المدارس الإدارية . وأن يقصروا قصرًا تاماً جميع التعيينات فى الوظائف الكبرى على الرجال والنساء الذين بعد تخرجهم فى هذه المدارس يكونون قد خدموا دورتين فى بعض المناصب الأقل مرتبة . كما نلتزم إعانة « مكتب الأبحاث البلدية » حتى يمتد نشاطه فيشمل دراسة الطرق الحديثة للحكم البلدى فى أى مكان ، والمراقبة المتصلة لقرارات كل موظف فى خدمة المدينة .

« ولتحويل توصيات هذا التقرير وما سبقه نقترح ما يأتى : أولاً ضريبة على الأرض غير المستغلة ، وأنواع الترف ، وجميع الهبات الخاصة والوصايا التى تزيد عن قيمة معينة ، وعلى جميع الملاهى التى لا تساهم فى النمو الجسمى والعقل للمجتمع . وثانياً إصدار سندات بلدية ذات أجل طويل ، حتى تتحمل الأجيال التى ستفيد من هذه التحسينات نصيبها من التكاليف .

« وحيث كنا نعلم أن هذه المصادر لن تكون كافية ، فإننا نقترح أن يشترك القادرون على الدفع فى « رصيد الإصلاح » Reconstruction Fund على أن تديره هيئة من غير السياسيين ينتخبهم أصحاب الهبات وهذا المجلس . ونحن نرجو من الصحافة أن تعين فى رفع هذا الرصيد إلى رقم يتناسب مع ثروتنا . كما نتوجه إلى ما نعرفه فى قومنا من بعد النظر ومحبة للوطن كى تحرك همه القادرين والأغنياء من الرجال . سيتحقق الإصلاح بدونهم ولكن ببطء ، ويمكن أن يتم بهم فى جيل واحد ، فنجعل مدينتنا تنافس عظمة أثينا وفلورنسا وروما .

« وللتعبير عن اهتمامنا الخاص بهذا الموضوع نحن ، أعضاء هذا المجلس ، نتعهد بدفع خمس دخلنا السنوى مدى خمس السنوات التالية لهذا الرصيد » .

٧ - ولكن في الواقع

من كان يستطيع مقاومة هذه الفقرة الأخيرة ؟ بضربة واحدة استعاد المجلس ما فقدته من اهتمام الجمهور وتأييده . ولما كانت الأراضي الصالحة وغير المستغلة في المدينة قليلة ، فقد سخر حتى تيودور بلاك وابتسم . ولكن ، « خمس دخلنا الكلي ! » كان ذلك منحة ضخمة ، لأن المجلس كان يضم طائفة من أغني الناس في البلاد ، وحتى أعضاؤه الاشتراكيون كانوا أغنياء . فلاريب أن تكون المدينة الفاضلة قد بدأت .

وأصبح الذين دافعوا عن المجلس منذ البداية في ظل هذه الظروف المشجعة أكثر شجاعة في ثنائهم ، فأبرزوا ما في الاقتراحات من اعتدال ، كما وضحو هذه الحقيقة وهي أنه ما عدا بعض الاستثناءات القليلة قد أبد هذه التوصيات المحافظون والمتقدمون من كل صنف وأمة وعرف . ونشرت الصحافة التقارير الأربعة معاً حتى يتمكن القراء من البصر بالاجتماع المشرق السليم كاملاً ، ذلك الاجتماع الذي كان خالقه في ضمير أصحابه . وأصبح من الواضح أن ما كانوا يحاولونه ليس مدينة فاضلة آلية ، ولا جنة فيها الظل الممدود نعمة للمائتين أو الطائرات للزاهدين في المشي ، بل كانت في أساسها أكثر من ذلك ، الرقي بالنسيج الجسمي والعقلي والخلقي للسكان . إن جنساً ينشأ من هذه الأساليب جدير أن يخلق لنفسه مدينة فاضلة ، وأن يصبح قادراً على استخدام الآلات دون أن تستبدله .

ومرة أخرى بتأييد الصحافة نما « رصيد الإصلاح » نمواً سريعاً . فتعهد كثير من الأفراد والأسر بخمس دخلهم لمدة عام بشرط إنفاقه على « التوصيات » . وحول أحد أعضاء المجلس بهدوء مبلغ خمسين مليوناً من الدولارات كان قد رصدها للتعليم العام إلى هذا المشروع . وأرسلت نساء حليهن ، ووهب رجال وهم على فراش الموت أموالهم ، واستقطعت المنظمات مبالغ كبيرة من أسهم أعضائها الصغيرة . وبلغ الرصيد مائة مليون بعد شهرين من انفضاض المجلس .

وتطلعت جميع العيون إلى « مكتب العمدة » Board of Aldermen . ففي اليوم الذي كان على العمدة أن يقدم فيه التوصيات احتلت جميع المقاعد في الصالة والمقاصير ، وطفحت وجوه جميع النظارة بشراً وكأنهم كانوا يشعرون بأنهم

يشاهدون أول حادث دراماتيكي في الانتقال من « عصر الذهب » إلى « العصر الذهبي » . وقرأ العمدة جميع التقارير مبيناً أن كل اقتراح يجب أن يعرض كإجراء منفصل ، وطلب بلباقة الموافقة عليها جميعاً . كان أمله أن تستقر هذه الإدارة في ضمير مستقبل المدينة إذا أقرت هذه التوصيات ، وبدأ العمل في تنفيذها قبل انتهاء دورته .

فلما فرغ نهض عمدة قديم ، وتكلم معارضاً التوصيات فقال :

« يا صاحب الشرف ، إنى أحكم على هذه التدابير بأنها تسليم دنىء للاشتراكية . ماذا دهمى كبار رؤساء الصناعة الذين اتخذوا مكانهم في هذا المجلس حتى سلموا في كل نقطة للخطط الصبائية الصادرة عن أحلام الشيوعيين ؟ إنى لأرى وراء هذه القرارات يد موسكو الحمراء ، والتأثير الخفي « للدولية الثالثة » . ومع أن بعضها حسن إلا أنى سأصوت ضدها جميعاً لأنى أحب بلادى ، ولن أرضى أبداً أن تخضع لتنفيذ دولة أجنبية » .

وضحكت الصالة ، ولكن العمد أنصتوا في وقار . ونهض أحدهم وسخر بأدب من الفكرة القائلة بأن المشروعات شيوعية . ولكن المتكلم الثالث نقل المناقشة إلى جو الخطابة . كان أبيض الشعر ، أحمر الوجه ككلب الصيد ، تقلب في مناصب مختلفة حتى بلغ المجلس البلدى . قال يزار كالرعد بحماسة :

« أيها السادة ، ليست هذه المشروعات تسليماً لروسيا فقط ، بل تسليماً لأصحاب المصالح الكبرى الذين سعوا طويلاً إلى التحكم فينا . فها هذا الشيء الذى يسمى « المجلس الكبير » إلا أن يكون نادياً للأغنياء ؟ أليست منحهم جزء صغير من دخلهم طعماً يصيدون به المدينة كلها في أيديهم ؟ وما رصيدهم الكبير إلا أن يكون استغلالاً لمبلغ ضخم سينفق بوساطتهم لا بوساطتنا ، ليصوغوا المدينة على هواهم ؟ وما حديثهم عن شراء خطوط النقل إلا أن يكون حجة مزيفة لرفع التعريفة أو لشراء هذه الخطوط بالسعر الذى تفرضه هذه الخطوط ؟

« ثم لاحظوا أيها السادة هجومهم غير الوطنى على الحرب . أقدم إلينا قط اقتراح بمثل هذه السفاهة يذهب إلى أننا لن نقول كلمة طيبة لشبابنا المقدام وقوادنا العظام الذين ظفروا باستقلالنا ، وحفظوا اتحادنا ، وجعلوا العالم بالديمقراطية آمناً ؟

« وفي جميع هذه التوصيات لا توجد كلمة واحدة عن الدين . فكروا في ذلك أيها السادة ، لا توجد كلمة واحدة عن الدين . على العكس اقترح ملحد بأن الدين آخذ في فقدان تأثيره الأخلاقي . وهذه الفتيات في المدارس سيستبدلن بالدين علم الأخلاق . أوه . علم الأخلاق ethics . هلا عرفتموه ؟ — علم الأخلاق ؟ ما علم الأخلاق هذا ؟ إنى أعرف ماهو ، إنه مشروع لتحطيم الدين . إن نصف أعضاء ذلك المجلس ملحدون ؛ أو نفعيون وهو نفس الشيء ؛ أو يهود وهذا أسوأ . لقد عرفت منذ البداية أن كثيراً من أعضاء المجلس يهود . أكرر لكم القول ، كثيراً جداً من اليهود .

« وأنت يا صاحب الشرف ، كيف استغفلوك ؟ أنت الذى نشأت في الشوارع كالباقين منا ، ثم ارتفعت إلى منزلة العمدة الجليلة لمدينة كبرى . إنهم يقولون في وجهك إن جميع العمدة الآن يجب أن يتعلموا في تلك الجامعات الكبرى . هه . هؤلاء المعلمون في المدارس هم الذين سيخبروننا كيف ندير المدينة ، إيه ؟ إنهم يريدون تحطيم الديمقراطية التى حارب آباؤنا من أجلها ، والتى حفظها إخواننا في الميادين الفرنسية . إنهم يريدون انتزاع حق المنصب من العمال الأمناء . يا للجنل منهم . عار علينا جميعاً كجماعة من المغفلين إذا صوتنا لمشروع واحد من هذه القوانين ، هذه المشروعات الخائنة التى ستخرب حكومتنا وتجلب الخزي لمدينتنا الجميلة . »

واستمرت المناقشة على مشروعات القوانين عدة أيام : وناضل العمدة في صبر للموافقة على كل قرار ، وأيده كثير من العمدة السابقين ، على حين كانت القاعة المزدحمة تصفق بشدة لكل خطبة مؤيدة أو تصويت موافق . وبعد نهاية أسبوع صدر القرار الكبير ، وأخذت الأصوات على كل مشروع قانون على حدة ، وعاد الجمهور إلى بيته . ولم يوافق على أى قرار .

دع عنك هذا كله ، فإن ظل هذه الشجرة بديع ، وما أمتع أن تسمع ضحكات هؤلاء الأطفال .

البحر، الثامن

الدين : محاوره



الفصل الحادى والعشرون

على المروج

أشخاص الحوار

ماتيو : كاثوليكي	أندرو : ملحد
بول : بروتستانتى	أراييل : مضيفة
فيليب : مؤرخ	كلارنس : لا أدرى
سيدا : هندوكى	استر : يهودية
ثيودور : اغريقى	سير جيمس : عالم أنثروبولوجى
وليم : عالم نفسانى	كونج : صينية

تنقسم المحاوراة ثلاث جلسات : على المروج ، وحول المائدة ، وفى المكتبة .

نشأة الدين

١ — الأنيمية Animism

آرييل : فلنرتب أنفسنا فى حلقة حول هذا الحوض من زهر التوليب . سنكون فرسان الحديقة المستديرة ، وقد حلفوا أن يدافعوا عن الإيمان—أو يهاجموه . تعال يا ماتيو ، يا تابع المسيح ، وأنت يا أندرو يا ملحد ، ساعدانى على نقل هذه الأرائك . ومن يحب منكم غروب الشمس فليجلس هنا فى مواجهة الرب الأعظم . هناك ؛ أنبتدىء ؟

بول : كما تريدن منا ، يا آرييل ؟

آرييل : لقد طلبت منكم المحبة والتحدث عن الدين ؛ فكم يهمنى ، وكم يدهشنى ، ولعل بعض الناس يهتمهم ويدهشهم كذلك . يجب أن تفسروا كيف نشأ الدين ، ومعنى صوره المختلفة وقيمتها ، وما موقفه اليوم ، وماذا سيحدث

له في أمريكا . كذلك يجب أن نخبروني عن النفس أخالدة هي ، وعن الله
أوجود هو ؟ هذا كل شيء .

كلارنس : يمكن أن نفعل ذلك بإيجاز شديد — إذا وافقت .

آرييل : ولكني أسر جداً حيث أجده مخالفاً . لقد فتنكم بهذا المكان
لأنني أعلم أنكم جميعاً مختلفون . إنني أحب أن أراكم تتناقشون معاً في وفاق ، ولو أن
كلامكم على يقين من أن الباقين على خطأ فظيع . كيف سنبدأ ؟

أندرو : بأن نعرف اصطلاحاتنا . ماذا تعنون بالدين ؟

آرييل : أوه . . التعريفات متعبة جداً ؟

فيليب : لقد جمعت ذات مرة تعريفات الدين ، ولعلني أذكر بعضها .
يسميه شلير ماخر شعوراً بالاعتماد المطلق . ويسميه هافلوك إليس : « إحساساً
مباشراً intuition بالاتحاد مع العالم » ^(١) . ويقول جلبرت موراي « إنه ذلك
الذي يجعلنا نتصل بقوى العالم العظمى » ^(٢) . ويصفه شبنجلر بأنه « الميتافيزيقا
التي نعيشها ونجربها — أي ما لا يمكن أن نفكر فيه كيقين ، والأعلى من الطبيعة
كواقع ، والحياة كوجود في عالم ليس واقعاً ولكنه صادق » ^(٣) . ويعتقد البروفسور
شوتويل أنه : « ليس شيئاً سوى الاستسلام للسر mystery » ^(٤) . ويعرفه
إفرت دين مارتن بأنه : « التقدير الرمزي لسر الوجود في عبارات تدل على مصلحة
الإنسان كذات » ^(٥) ويحده ريناخ بقوله : « الدين مجموعة من الشكوك Scruples
تعوق حرية عمل ملكاتنا » ^(٦) .

ماتيو : هذا أكثر التعاريف سخريّة وإيذاء سمعت به .

وليم : إنها جميعاً نماذج من الغموض .

Goldberg, I., Havelock Ellis, p. 138. (١)

Murray, G., Four Stages in Greek Religion, p. 95. (٢)

Decline of the West, vol. ii, p. 217. (٣)

Shotwell, J.T. The Religious Revolution of Today, p. 153. (٤)

Martin, E.D. The Mystery of Religion, p. 378. (٥)

Reinach, S., Orpheus, a History of Religion. p. 3 (٦)

فيليب : أحسب أن تعريف تيلور يروقك أكثر منها ، فهو يسمى الدين بكل بساطة : « اعتقاد في كائنات روحية » .

السير جيمس : ولكن بعض الآلهة يتصورها الناس مادية . وليس الاعتقاد كافياً ، إذ يجب أن تضيف العبادة .

فيليب : كيف تعرف أنت الدين ، يا سير جيمس ؟

سير جيمس : الدين استعطاف أو استرضاء لقوى أعلى من الإنسان ونعتقد أنها توجه طريق الطبيعة وحياة الإنسان أو تتحكم فيهما ^(١) .

آرييل : أتعني أنه عبادة كائنات علوية ؟

السير جيمس : أشكرك على هذا الدرس في الإيجاز .

آرييل : حسناً ، كيف نشأ الدين إذن ؟

أندرو : لم يجب عن هذا السؤال أحد بأفضل مما أجاب عنه لوكريتيوس : « كان الخوف أول شيء خلقه الآلهة في العالم » . فقد كانت الحياة البدائية محفوفة بآلاف المخاطر ، وقلَّ أن كانت تنتهي بالفساد الطبيعي ، إذ تحل الشدة أو المرض بالناس فتفتنهم قبل أن يبلغوا الشيخوخة بزمان طويل . واليوم حين يعجز المتوحش عن فهم الظواهر يشخص أسبابها ، ويفترض بالقياس إلى بدن نفسه أن روحاً تسكن في كل شيء طبيعي ، وهي المسئولة عما يفعله هذا الشيء . ألم تر قط الدهش والخوف في عيني كلب يرى ورقة يدفعها الريح في طريقه ؟ إنه لا يستطيع أن يرى الريح ، وإني لأراهن أنه يتخيل وجود روح في الورقة تجعلها تتحرك . إنه كلب متدين ، وأنيى animist ^(٢) بدائي . فهذه هي كيفية نشأة الدين .

آرييل : هل نصدق يا سير جيمس ؟

سير جيمس : إذا شئت . إن ما يسميه أندرو المرحلة الأولى كان في

(١) Frazer, Sir J., The Golden Bough, p. 50.

(٢) اصطلاح أنيمزم animism ، وأنيى animist ، من الاصطلاحات التي يصعب ترجمتها . لذلك آثرنا إبقاءها كما هي ، فنقول : أنيمزم أو أنيمية للمذهب ، وأنيى لمصاحب المذهب أو أحد أتباعه . أما ترجمتها بحبوية ، وحيائية واستحياء وغير ذلك فلا تدل على المعنى تماماً . والاصطلاح في الأجنبية من اللفظة اللاتينية anima أى الروح أو النفس وكتاب النفس لأرسطو مشهور ، ويسمى de anima أى في النفس (المترجم) .

الأرجح مرحلة ثانية ، تصور الناس فيها أن البحر العظيم ذا الطاقة المولدة للعجائب ،
والتي عبدها أهل جزر الملايو وسموها « مانا Mana » ، وهنود أمريكا وسموها
« مانيتو manitu » ، وهي مرحلة مقسمة إلى أرواح منفصلة تسكن الأشياء الفردية .
سسيديا : كان ذلك الاعتقاد المبكر شديد العمق ، ولا يختلف كثيراً عن
آخر اعتقاد للعلم الحديث من أن كل مادة طاقة .

سير جيمس : لا يزال الاعتقاد القديم بصحة بنا بأساليب كثيرة . فقد
افترضوا قديماً أن الجبال والأنهار والصخور والأشجار والنجوم والسماء صوور
خارجية للأرواح ، ولا تزال حتى اليوم نخب أن نشخص هذه الأشياء الطبيعية .
وكان الإغريق يظنون أن السماء بدن الإله أورانوس ، وأن القمر هيكل الربة
سيلين ، والأرض جسم جايا ، والبحر جسد الإله بوزيدون .

تيودور : لم يكن ذلك إلا شعراً يا سيدي بالنسبة للمثقفين من الإغريق .

سير جيمس : وكان في نظر أوساط الإغريق حقيقة حرفية ، ألم يكن
كذلك ؟ ولكن جميع الناس سواء في هذه الخاصية . كانت الغابات في نظر قدماء
الألمان والنرويجيين تبدو مملوءة بالسكان من الجن ، والأقزام ، والسحرة ،
والمردة ، والمساخيط ، والخور ، والغفاريت - ولك أن تراه في رينجولد Rheingold^(١) ،
وبيرجنت^(٢) Peer Gynt . ولا يزال بسطاء الفلاحين في أيرلندا يعتقدون في
الخور وينحشون تأثيرها . ويعزو الهنود الأمريكيون في بعض الأحيان انخطاطهم
إلى هذه الحقيقة ، وهي أن الرجل الأبيض قطع الأشجار التي كانت أرواحها
تحمي الرجل الأحمر . وفي جزائر الملوك molucca يحتفلون بالأشجار المثمرة
كما يحتفلون بالمرأة الحامل ، فلا يسمحون باقتراب أي ضجة أو أي إزعاج
منها ، لأن الشجر كالمرأة الحامل الخائفة قد تسقط ثمارها قبل الأوان . وفي أموينا
Amoyna حين تفتح حقول الرز تحرم الأصوات العالية في جوارها خشية
قلة المحصول وضمور العيدان قشاً^(٣) . وكانت في بلاد الغال غابات مقدسة

(١) رينجولد ، اوبرا لثايجر (المترجم) .

(٢) بيرجنت اسم دراما شعرية لإبسن ، اتخذ بطلها بيرجنت وهو شخصية خرافية من الأدب
الشعبي الشمالى (المترجم) .

(٣) Frazer, pp. 112, 115. (٢)

مملوءة بأشجار مخصوصة بالعبادة . وكان الدردود ^(١) في إنجلترا Druids يجمعون مقاسيس شجر البلوط بطقوس دينية .

آرييل : لا يزال يوجد طقوس معينة مرتبطة بالمقاساس mistletoe ، أليس كذلك ؟ ولكن امض في حديثك يا سير جيمس .

سير جيمس : حسناً ، هذه الأنيمية ذاتها كانت تطبق على النجوم ، فكل نجم منها يأوى روحاً هادية . وكان البابليون يميزون سبعة كواكب إلهية ، وخلعوا أسماءها على أيام الأسبوع . ونحن لا نزال حتى الآن نقرر دون أن ندري أيام الأحد والاثنين والسبت ^(٢) . أما أيام الثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة فنحن نمجّد آلهة أسكندناوة : تيفس Tives ، وودن Wodin ، ثور Thor ، فريجا Friga . ويؤثر الفرنسيون فيما يختص بهذه الأيام ذاتها آلهة الرومان وهي مارس Mars ، ميركوري Mercury جوف Jove ، فينوس Venus . ونشأ التنجيم في بابل عن الفكرة التي تزعم أن هذه الأرواح الكوكبية تحكم مصير الإنسان . وإلى يومنا هذا تقدم الصحف جدولاً فلكياً لمعرفة الحظ والبخت كل شهر ، ونستعمل لغة تنجيمية أو فلكية حين نقول : « المجانين lunatics » ، أو المزاج « الحربى martial » أو « المرح jovial » . وتنتشر عند كثير من القبائل عادة إحداث ضوءاء مفزعة في أثناء خسوف القمر لطرد الشياطين التي تهاجمه ^(٣) . وقد نفي أهل أثينا أنكساجوزاس لقوله بأن الشمس كرة من النار وليست إلهاً . وأصبحت هذه الأرواح في المسيحية ملائكة . ويبدو أن كبلر كان يعتقد أن لكل كوكب ملاكاً يرشده في مسيره . وأكبر الظن أن الهالة التي ترسم حول رءوس القديسين بقية من عبادة الشمس ^(٤) . ولا يزال الميكادو معدوداً إله الشمس ^(٥) . أظن أننا نستطيع القول مطمئنين أن الأنيمية هي النسيج

(١) الدردود كهنة وثنيون عند قدماء الإنجليز (المترجم) .

(٢) هذه الأيام بالإنجليزية هي على التوالي sunday, saturday, monday يوم الشمس ، يوم القمر ، يوم زحل - من أجل ذلك كان كلام المؤلف مفهوماً في لفته . وعلى هذا القياس فليصل القارئ بين باقى الأيام وبين الآلهة التي ذكرها المؤلف فيما بعد (المترجم) .

(٣) Reinach, pp. 39, 94.

(٤) Jung, C.G., Psychology of the Unconscious, p. 173.

(٥) نحسب ان هذه العقيدة قد تغيرت بعد هزيمة اليابان واحتلالها في الحرب الأخيرة (المترجم)

الأولى للدين . ونحن نعى بالأنيمية الاعتقاد فى أن الأرواح تسكن كل شىء .
فيليب : إن عبادة عضو التناسل إحدى الصور القديمة للأنيمية ،
أليس كذلك ؟

سير جيمس : نعم ، فالهمنى لا يعرف شيئاً عن الوسائل الداخلية للتناسل ،
وهى التى كشفها لنا علم الخلايا Cytology الحديث . إنه يرى فقط الهيئات
الظاهرة ، لأنه لا يفهم . التى يؤلفها ، وهذه أيضاً فيها أرواح خالقة ينبغى أن تعبد .
سيدا : إنه يبدو لى ديناً معقولا جداً . ذلك أن معجزة الحصب والنماء
تظهر فى هذه الهيئات أكثر من أى موضع آخر ، فهى الموطن المباشر للقوة
الخالقة . ولا تزال رموز التناسل — اللنجام lingam ، واليوني yoni — تعبد
حتى الآن فى بلادى ، ويحملها الناس تعويذة واقية (١) .

فيليب : تشير النقوش القديمة للمصريين إلى عبادة عضو التناسل كأقدم
عبادة لهم (٢) . وكذلك كان الرومان يحملون أيقونات تناسلية كتعاويد تجلب
الحصب ، كما كانوا يحتفلون بالسر الإلهى للتناسل فى أعياد الحرية « ليبراليا
Liberalia » ، والحمير « بكاناليا Bacchanalia » وغيرهما من الأعياد .
ويحدثنا لوسيان Lucian (٣) عن الأعمدة العظيمة التى يكاد ارتفاعها يبلغ مائى
قدم والتى كانت تقوم أمام معبد أفروديت فى هيرابوليس رمزاً لعضو التناسل (٤) .

أندرو : أعتقد أن كل عبادة على الأقل عند النساء مرتبطة بنشوة الحب .
كانت رؤى القديسة تريزا مرتبطة ارتباطاً واضحاً بمشاعروها لوسات شهوانية . وهذا
يصدق على كثير من الشخصيات المقدسة ، إذا كان لنا أن نؤمن برأى كرافت
إينج وهافلوك إليس . ولما كانت تجربتى مقصورة على انفعال واحد من هذه
الانفعالات المذكورة فليس فى استطاعتى الإدلاء برأى أصيل فى الموضوع (٥) .

(١) Sumner, Folkways, p. 546.

(٢) Howard, C., Sex-Worship, p. 63.

(٣) لوسيان (١٢٠ - ٢٠٠ بعد الميلاد) مفكر إغريق حر عاش فى ظل الامبراطورية
الرومانية ، كتب سيرا وقصصاً وشعراً ومحاورات كثيرة (المترجم) .

(٤) Encyclopaedia Britannica, 11th ed., vol. xxi, p. 345.

(٥) Krafft-Ebing, Psychopathia Sexualis, ch. i ; Ellis, H., Studies in the

Psychology of Sex, vol. i, p. 315.

سير جيمس : أكبر الظن أن دور الجنس في الشعور الديني وفي عبادة عضو التناسل عند الديانات البدائية مبالغ فيه . وتفسير عبادة الشجر والمسلات وأعمدة مايو^(١) May-poles وطقوس الختان على أنها تناسلية أمر مشكوك فيه^(٢).

تيودور : علينا أن نذكر أن هذه الشعائر القديمة التي كانت تحتفل بالتناسل كانت دينية أكثر منها جنسية . ثم نمت ألوان من الرخص حولها ، كما كانت الحال في عيد « ثلاثاء النحر »^(٣) Mardi Gras أيام المسيحية . أما في الأصل فقد كانوا يتصورون القوة التناسلية مقدسة وجديرة بكل احترام ، وهذا أفضل من تصورها غير نظيفة .

أندرو : وكذلك غير ضرورية .

أرييل : فلنتقل إلى شيء آخر يا سير جيمس . فالأنيمية أول عنصر في تكوين الدين . فما هو الثاني؟

٢ - السحر

سير جيمس : إنه السحر . فبعد أن ملأ الإنسان البدائي العالم بالأرواح ، وعجز عن التحكم فيها كما يحاول العلم ، أخذ يسترضيها ويستعين بها . والسحر كما يقول ريناخ : « فن قيادة الأرواح Strategy of animism » . وهو عادة سحر عطوف ويعتمد على الإيحاء . كان المتدين البدائي أو الساحر الذي يستأجره لكي ينزل الغيث يصب على الأرض ماء ، والأفضل أن يكون ذلك من فوق شجرة . وفي وقتنا هذا إذا انقطع المطر فترة طويلة في البلقان وبعض جهات ألمانيا يأتون بفتاة يجردونها من ملابسها ويصبون عليها الماء في احتفال يصحبه رقص سحرية^(٤) . وعندما هدد الحذب الزولوس Kaffirs في جنوب أفريقيا

(١) أعمدة تقام للرقص حولها في أول يوم من شهر مايو (المترجم)

(٢) Smith, W.R., The Religion of The Semites, vol.i., p.437; Frazer, p.120

(٣) ثلاثاء النحر ، عيد فرنسي كان يقام يوم الثلاثاء آخر أيام الصوم ، ويسمى ثلاثاء الزفر .

وكانوا يحتفلون به في باريس بالطواف بشور سمين في شوارعها يصحبه قساوسة في هيئة ساحرة مع فرقة موسيقية تشبه بعض الأعياد الرومانية (المترجم) .

Reinach., p. 86. (٤)

طلبوا من المبشر أن يرفع مظلمته ويمشى بين الحقول (١). وفي سومطرة تصنع المرأة العقيم من الخشب على هيئة طفل وتضعه في حجرها، وهي تحسب أن ذلك يشفيها من العقم. وفي جزر الأرخيبيل تصنع المرأة العقيم عروساً من القطن الأحمر وتتصنع إرضاعها وهي تتلو رُقيّ سحرية، ثم يسرى الخبر في أنحاء القرية أنها أنجبت طفلاً، فيقبل أصدقاؤها يهنئونها. وبين سكان بورنيو من إذا جاء المرأة المخاض أرسلت تطلب ساحراً يخفف عنها آلام الوضع، ويجعل الطفل يولد بسرعة، وذلك بأن يمثل هو نفسه حركات الولادة، وبعد بضع دقائق من آلام هستيرية يدع حَجَراً يسقط من حجره ويتسم بعزيمة يدعو بها الجنين إلى محاكاة الحجر. ولقد كان كثير من أشهر العلاجات وأوثقها في التاريخ سحرية. فهذا باحثكم الدكتور جيمس ج. والش قد سجلها في كتاب رائع. فإن كنت تشكو من بثور حب الشباب فارقب النجم الحاوي، حتى إذا هوى امسح وجهك فيتساقط الطفح، فإذا لم تنجح فذلك لأنك لم تكن سريعاً بما فيه الكفاية. ولعل الأسهم المثبتة للحيوانات في الصور الموجودة على جدران كهوف ألتاميرا Altamira وغيرها كان الغرض منها أن تكون سحراً موحياً. وكان الناس في العصر الوسيط يحاولون إلقاء السحر على أعدائهم بأن يجعلوا تمثالا من الشمع على صورة العدو ثم يغرزونه بالدبابيس. ولا تزال حتى اليوم تحرق صور الناس. ويسمى أهل بيرو عندما يفعلون ذلك « حرق النفس » (٢).

أندرو: أعتقد يا سير جيمس أن إحدى نظرياتك الأثرية عندك هي أن السحر أبو العلم.

سير جيمس: الأنيمية أم الشعر، والسحر أبو الدراما عن طريق التخيل make-believe، وهي أبو العلم بطريق الرغبة في سياسة الأرواح، وإذا أخفق السحر كان الساحر في بعض الأحيان يضيق، ولو أن الناس يرسخ في أذهانهم نجاح السحر مرة واحدة أكثر من إخفاقه عشر مرات. وكان من مصلحة الساحر أن يدرس الأسباب والنتائج ويقع على الوسائل الطبيعية لتنفيذ غرضه المطلوب؛

Hoernlé, R.F.A. Studies in Contemporary Metaphysics, p. 181. (١)

Frazer, p. 13 ; Reinach, p. 11. (٢)

فإذا استخدم هذه الوسائل مع استمراره في إجراء الأساليب السحرية ، فقد يمكنه أن ينسب نجاحه للسحر ويرفع من شهرته كشخص قادر على تسخير الآلهة . وهكذا نشأ عن الساحر البدائي ، وصانع المعجزات ، أو الكاهن ، المعالج الدجال والطبيب ، والمنجم والفلكي ، والسيماوى والكياوى . إن علماءنا في كل ميدان من البحث هم الخلفاء المباشرين لأولئك السحرة القدماء . فقد خرج من ذلك النبع الواحد كل من الدين والعلم ، والفلسفة والطب ، وهما التياران المختلفان اللذان يجريان كالنخمة الموثقة خلال تاريخ البشرية (١) .

وعظمت مهارة الساحر أو شهرة العزيمة السحرية في بعض البلاد إلى درجة أن الخيبة في كسب رضا الإله لم تكن تنسب إلى نقص العزائم بل إلى عناد الإله . وكان الشباب في اليونان يضربون أحياناً تمثال « بان Pan » بالسوط إذا لم يمنحهم صيداً موفوراً (٢) . ويلقى صيادو السمك في إيطاليا تمثال العذراء في البحر إذا كان الصيد على الرغم من صلواتهم قليلاً (٣) . وإذا لم يتنجح دعاء الصينيين فقد يسحبون بوقاحة تمثال إله في الشوارع ، ويوجهون إليه عبارات اللوم قائلين : « أيها الروح يا كلب ، لقد منحناك معبداً فخماً تعيش فيه ، وصغناك من الذهب ، وأطعمناك جيداً ، وضحيناً لك ، ثم تجحد كل ذلك !! » (٤) وفي هذه المزاوالات العجيبة اقترب البدائيون اقتراباً شديداً من فكرة القضاء Moira — أو الحظ — باعتبار أن القضاء أعلى من الآلهة والبشر على السواء ، وهو ما به تتميز الديانة الإغريقية ، ويؤدى من جهة إلى التوحيد ، ومن جهة أخرى إلى العلم .

آرييل : لست أدري ما يقودنا إليه كل ذلك ، ولكنى أظن أنه كله ضرورى . سير جيمس : لا ينبغي أن تعجل النتائج سريعاً يا سيدتى ، ففي دراسة أى ميدان من العلم أو التاريخ يحسن البدء بإغراق نفسك في الحقائق . فإذا وصلت

(١) Frazer, p. 62 ; Reinach, p. 22.

(٢) Hobhouse, L.T., *Morals in Evolution*, p. 379. — (بان عند الإغريق من

إله المراعى والأغنام — المترجم) .

(٣) Todd, op. cit., p. 414.

(٤) Nietzsche, F., *Human All Too Human*, vol. i, p. 120.

إلى النتيجة فى كثير من السرعة تخيرت هذه النتيجة لك بعض الحقائق ، وحجزتك
عن رؤية الباقي .

آرييل : إنك على صواب ، وزجرك فى موضعه ، فامض وزدنا حديثاً .

سير جيمس : حسناً ، لم يؤد السحر إلى الدين والدrama فقط بل إلى
طقوس الدينية ، والتضحية ، والصلاة . فلا يزال كثير من الصلوات جزءاً من
طبيعة العزائم السحرية ، التى يتم بها المصلى ويتلوها مرة بعد أخرى وهو مؤمن
بهذا التكرار . والطلاسم ، واللعنات ، والدعوات الصالحة ، هى أمور تطورت
عن السحر . ولكن أكثر الصور دلالة وانتشاراً التى تطور إليها السحر الدينى
هى طقوس الزراعة . كان البدائيون يشخصون قوى النمو على أنها ذكر وأنثى .
ويبدو أن لفظة « مادة Matter » جاءت من لفظة « أم Mater » ^(١) . ذلك
أن الطريقة المشخصة لرؤية الأشياء أو التفكير فيها سبقت بالطبع غير الشخصية
والمجردة ، بالضبط كما أن الأنيمية سبقت الميتافيزيقا . إن إله طفل يصلب أكثر
ألف مرة تحديداً ، وإن شئت فقل أكثر مادية من إله سينوزا الممتزج بالله
God-intoxicated . وهذه إحدى مساوئ الفلاسفة ، تعنى أنها تستبدل
بالجزئيات المحسوسة المجردات العامة . فتأخذ منا آلهة شبابنا الخاصة والمجسمة
وتعطينا بدلا منها « المطلق absolute » الذى يكون من المضحك تصويره فى
هيئة إنسانية .

كيف نحصل على محصول طيب ، هذه هى المشكلة الكبرى فى كل جيل
وفى كل عام . ولم يفكر البدائي قط فى حل المشكلة بصيغة التسميد الأزوتى
أو أى صيغة علمية أخرى ، بل دخل إلى المشكلة من باب السحر — فيادعو
« الأرض الأم Moher Earth » أن تلد له بطناً كبيرة من الطعام . ورتب لذلك
الأعياد التناسلية زمان البذر ، فحقق بذلك لنفسه غرضين : الأول تخصيص
الأرض بالإحياء عن طريق التقليد ، والثانى منح نفسه إجازة ذات مغزى . وفى
بعض البلاد كان الناس ينتخبون ملكاً وملكة « لمايو May » أو عروساً وعريساً
فى عيد « أحد العنصرة » ، ثم يطبقون طقوس الزواج عليهم كتمويذة تفنن

Jung, op. cit., p. 173. (١)

الأرض إلى الخصب . وكثيراً ما كانت الطقوس تشمل الزواج الكامل لثلاث تجدد الطبيعة » (أى تلك التى تلد) أى عذر لسوء فهم ما يطلب منها .

إنك لا تزال تعجب أى مدخل لهذا فى الدين . ولكن صبراً ، عندما تدرس الدين المقارن سترى إيمانك ذاته فى نظرة شاملة تصحح الأوهام . فالبدائى كان يعتمد على وفرة المحاصيل أكثر منا اليوم ، لأن احتياطه من القحط والجدب كان من الضعف بحيث لم يمتنع عن عمل أى شىء يوفر له محصولاً غزيراً . فسئحت له فكرة ، تكاد توجد فى جميع الأديان ، هى أن يضحي بكائن حي — برجل أول الأمر ، ثم فى العصور المتأخرة بحيوان — لروح الأرض . ذلك أن الدم حين يغوص فى الأرض فإنه يجلب رضا الإله ويخصب الأرض . وكان الهنود فى الإكوادور يضحون بدم وقلب الإنسان عند بذر حقولهم . وكذلك كان يفعل هنود الباونى Pawnee Indians ، وكانت الطقوس فى قبائل البنغال تبلغ حداً مربعاً يجلب عن الوصف (١) . وفى بعض الأحيان كانوا يضحون بمجرم . وكان الأثينيون يحتفظون بعدد من المنبذين لتقديعهم فى حالات الضرورة التى تقتضى ترضية الآلهة بسرعة . فإذا حل قحط أو انتشر طاعون ضحكوا بمجرمين أحدهما بديل عن رجال القبيلة ، والآخر عن نساها . فهذا هو الأصل فى نظرية الفدى vicarious atonement .

آرييل : ماذا تقول ؟ أتعنى أن أكثر العناصر أساسية فى اللاهوت المسيحى ترجع إلى تلك الطقوس الدموية ؟

سير جيمس : لا بد أنها تبدو كذلك ، ولو أنى لا أسميها عنصراً أساسياً فى اللاهوت المسيحى . لقد دهشت كثيراً حين وجدت فى أمريكا أن الذين يقدررون العناصر الثانوية وغير الجوهرية فى الدين أكثر من غيرها — وهى الأمور التى تميز فرقة عن أخرى — يسمون « الأصوليين » Fundamentalists . أما أنا فأسميهم ، إذا سمحتم لزائر أن يتكلم بهذه الألفة ، « السطحيين » superficialists . ولكن هل أمضى فى قصتي ؟

آرييل : نعم إلى نهايتها .

سير جيمس : كانت تلك هى الروح ، فى كل عام ، فى العيد المسمى Thargelia فى أثينا ، كانوا يأتون بكبشى فداء ، كما كانوا يسمونها ، ويرجمونها بالحجارة حتى الموت قرباناً للآلهة وفسداء لذنوب الشعب (١) . والأغلب أنهم كانوا يختارون الضحية قبل ذلك بعام ، ثم يعبدونها ويكرمونها اثني عشر شهراً كملك وإله . ثم تذبح فى الربيع - وفى معظم الأحوال بعد جلدتها بالسياط . ولاريب أن دوافع الشعب نحو السادية Sadism كانت تجد مخرجاً بهذه الوسيلة الدالة على التقوى ، والتي لا غبار عليها . وفى صور متأخرة عن هذه الشعيرة البدائية كانت الضحية التى يقع عليها الاختيار لتكون قرباناً فى العام المقبل تعبد كبعث للضحية المذبوحة ، وذلك تشبيهاً بالربيع كإحياء لربة الأرض بعد وفاتها وظاهرة فى الحريف . وأصبحت أساطير موت الإله وبعثه فى هيئة إنسانية جزءاً من جميع الأديان تقريباً فى غرب آسيا وشمال شرق أفريقيا (٢) .

ويعد الانتقال من ذبح الرب إلى أكله تقدماً طبعياً ، لأن الحمى يعتقد أنه يكتسب قوة ما يأكله . فى أول الأمر كان الناس يأكلون لحم الضحية ويشربون دمها ، حتى إذا تهبذوا بعض الشيء أحلوا بدل الضحية الحية تماثيل تصنع من الدقيق يأكلونها بدلا عن تلك . وفى المكسيك القديمة كانوا يصنعون تماثيل الإله من الحبوب والبذور والخضر يعجنونها بدماء أطفال يضحون بها لهذا الغرض ، ويأكلها الشعب بعد الصوم احتفالاً دينياً « لأكل الإله » . ويعزم الكهنة عزائم سحرية على التماثيل فتقلب من عجين إلى آلهة (٣) .

ماتيو : من المؤكد أنك لن تصل إلى هذه النتيجة وهى بطلان عقيدتى الفداء والقربان المقدس ، لسبب واحد وهو أنك تجد شيئاً شبيهاً بهما بين الشعوب البدائية .

سير جيمس : كلا على الإطلاق ، فلا يزال من البين أن هاتين العقيدتين صحيحتان ، ولن أقول فى هذا الأمر قولاً جازماً . لقد ارتقت هذه الطقوس

(١) Allen, G., Evolution of the Idea of God, p. 353.

(٢) Allen, p. 246 ; Frazer, p. 337.

(٣) Sumner, p. 336 ; Frazer, p. 489.

أكثر فأكثر مع الزمن ، وكانت هيئتها القديمة تعكس صورة مجتمع يأكل لحوم البشر ، وتقوم على مبدأ أن الآلهة لها ذوق رئيس القبيلة نفسه . فلما بطلت عادة أكل لحوم البشر ، حلت الحيوانات بدل الإنسان في التضحية ، وأكبر الظن أن هذا الانتقال قد رمز إليه في قصة إبراهيم وإسحق ^(١) والكبش . ولكن الكاهن البدائي كان يحب اللحم كما تحبه الآلهة ، فلم يلبث أن ابتدع طرقاً يحتفظ بها بأطيب أجزاء الضحية من الحيوان لنفسه ، تاركاً للإله الأمعاء أو العظم فقط وقد موهبت بما عليها من شحم ^(٢) .

أندرو : لم يكن الناس قد تصوروا بعد الإله علماً بكل شيء .

٣ — الطوطم والمحرم

سير جيمس : وفي أثناء ذلك أدى اعتماد الناس على الحيوانات ، وخوفهم من الوحوش الكبيرة إلى ظهور عنصر ثالث في الدين ، هو الطوطمية . والطوطم Totem لفظة هندية تدل على علامة أو أمانة . وكان الطوطم تمثلاً يستخدمه هنود أمريكا لتمثيل حيوان أو نبات كانوا يعتقدون أن الروح الحارسة للقبيلة تسكن فيه ^(٣) . والطوطمية ، وهى عبادة الحيوانات والنباتات المقدسة ، كانت مرتبطة في الغالب بمرحلة الصيد ، ولكن كثيراً منها ظل باقياً حتى المرحلة الزراعية ، وهكذا انتقلت الحمامة والسمكة والحمل المقدسة إلى اليهودية والمسيحية .

كلارنس : نحن جميعاً طوطميون ، بعضنا غزلان من شمال أوروبا ، وبعضنا غزلان من شمال أمريكا ، بعضنا يصوت للفيل ، وبعضنا الآخر يصوت لأكل رمز ديمقراطي ، وهو الحمار . وبعضنا يدخل الحرب إلى جانب الأسد ، وبعضنا الآخر إلى جانب الصقر . إننا في حاجة إلى الحيوانات للتعبير عن ضروب ولائنا الرفيع . فيليب : سنة ١٩٢٧ أمرت الحكومة اليابانية بهدم آلاف من المزارات الصغيرة الموقوفة على عبادة الثعالب والثعابين وغيرها من الآلهة ^(٤) .

(١) ذهب المفسرون في الإسلام عند تفسير هذه الآيات من سورة الصافات أن المقصود هو إسماعيل (المترجم) .

(٢) Sumner, p. 340.

(٣) Reinach, p. 15.

(٤) New York Times, July 25, 1927.

وليم : ولعل قسوة يهوه والأرباب المعاصرة بقية من عبادة الوحوش ؟
ففي خلال مرحلة انتقالية كانوا يتصورون الإله بأن له وجه إنسان وجسم حيوان ،
أو العكس . وأبو الهول مثال على ذلك . ولما حلت حرب الإنسان للإنسان
محل حرب الإنسان للوحش تصوروا الإله كحرب الحرب وزعيم الحند لا على أنه
حيوان . ولكنه ظل ضارياً كما كان دائماً . ويشير « تارد » إلى أن أكثر الآلهة
استبداداً هم كذلك أكثرهم احتراماً - وهذا شيء شديد الشبه بالأزواج (١) .

آرييل : إن مقدار ما تعرفونه أيها الرجال لشيء مفزع . كيف يتسنى لنا ،
نحن النساء ، أن نجد وقتاً بعد إرضاع الأطفال والزينة في صالون التجميل لنالحق
بكم ؟ والآن يا سير جيمس ، لقد عددت ثلاثة عناصر في أصل الدين : الأنيمية ،
والسحر ، والطوطمية . أهناك غيرها ؟

سير جيمس : عنصران آخران : المحرمات ، وعبادة الأسلاف . ولفظة
محرم « Taboo » لفظة بولينيزية ، تدل على المحرم أو الممنوع . كان تابوت العهد
محرمًا - لا يمسه إلا أفراد أسرة كهنوتية لها هذا الامتياز . ولما أراد داود أن (٢)
يحمّله إلى أورشليم وضعه على عجلة جديدة تجرها ثيران ، فتعثر وأوشك التابوت
أن يقع على الأرض ، فتقدم عزة uzzah ورفعه ، وعندئذ ضربه الرب فمات
لأنها كره الحرام (٣) . ومعظم المحرمات كانت تقاليد أخلاقية تعتبرها القبيلة من
الأهمية بحيث تحتاج إلى عقوبة دينية من أصل إلهي ، تدعمها بالخوف والاحترام .
والوصايا العشر مثال على ذلك . وكذلك يحكى الفرس كيف أن زرادشت كان
يصلى ذات يوم فوق جبل عال فظهر الله له من خلال الرعد والبرق وأنزل عليه
« كتاب الشريعة » . وفي أسطورة كريت أن الملك مينوس تلقى من الله الشرائع
على جبل دكتا . وفي أساطير الإغريق أن ديونيسيوس كان يسمى واهب الشريعة ،

(١) Tarde, Laws of Imitation, pp. 270, 273, 275.

(٢) انظر صموئيل الثاني ، الإصحاح السادس ١ - ٦ حيث تجد القصة كاملة : « وقام داود
وذهب هو وجميع الشعب ... فأركبوا تابوت الله على عجلة جديدة ولما انتهوا إلى بيدرنأخون
مد عزة يده إلى تابوت الله وأمسكه لأن الثيران انشمصت . فعصى غضب الرب على عزة وضر به الله
هناك لأجل غفله ، ومات هناك لدى تابوت الله » (المترجم) .

(٣) Reinach, p. 4.

وكانوا يتمثلونه بمسك في يديه لوحين من الحجر نقشت عليهما النواميس . وكان ذلك سترًا بديعاً لعصا الرئيس ، ولعلنا يمكن أن نرجع إليها حق الملوك الإلهي .

كلارنس : كانت خطة نافعة في العمل ، وليست مبتذلة . وقد علمت من المشرعين الأصليين أنفسهم أن الله هو صاحب « الإصحاح الثامن عشر »

٤ — عبادة الأسلاف Ancestor-worship

آرييل : ولكن يا سير جيمس ، يبدو لي من الغريب أن تتعمق هذا التعمق في تاريخ الدين دون أن تصل إلى الله .

سير جيمس : هذه هي النقطة الأخيرة . إنك تريد أن كالطفل معرفة « من الذي صنع الإله ؟ » — كيف أصبح هذا البحر من الآلهة ، وهذه الأرواح التي تملأ الحقل والغابة والسماء ، إله البشر الذي آمن به الناس أخيراً ؟ ولعلك تذكرين الأساطير القديمة عن تحول الآلهة إلى حيوانات أو بشر . والحقيقة كانت عكس ذلك تماماً ، إذ أصبح إله الغلال وإله الحيوان إلهاً نصف بشر . فحين نسمع عن زيوس ينقلب طائر البجع swan ، أو نقرأ عن « أثينة ذات عيني البومة » و« هيرا ذات عيني البقرة » ، نذهب إلى أن قبائل الإغريق كانت تخطط بآلهتها الجديدة تصورات مأخوذة عن حيوانات كانوا يعبدونها في المرحلة الطوطمية . وقد أشار وليم إلى أبي الهول كمثال لمرحلة انتقال الآلهة الذين كانوا نصف حيوانات ونصف رجال أو نساء . ولم يكن في حاجة إلى الذهاب مثل هذا البعد ، فالتحرف الرائع عندكم مملوء بتهائيل كانت مقدسة قديماً نصفها بشر ونصفها حيوان . والحيوانات الخرافية كالمنطور (١) minotaur ، والقنطور centaur ، وعرائس البحر siren ، والسطير satyr ، وحوريات الماء mermaid ، وإله الحقل ، هي جزء من مرحلة الانتقال من الحيوان إلى الآلهة المشبهة (٢) . وجاءت عبادة الأسلاف فأكملت التحول .

(١) المنطور رأسه ثور وجسمه بشر ، والقنطور نصفه إنسان ونصفه حصان ، والسطير نصفه بشر ونصفه ماعز ، وحورية الماء نصفها إنسان ونصفها سمكة (المترجم) .

(٢) Reinach, p. 81 ; Murray, op. cit. p. 37.

ويبدو أن عبادة الأسلاف قد بدأت بظهور الموتى في الأحلام ، فكانت خطوة بسيطة بين الفرع من مثل هذه الرؤى وبين عبادة الموتى . وأصبح الأقوياء في حياتهم مخوفين بعد موتهم . الحق أن هذا الخوف من الموتى أصبح أعظم قوة مؤثرة في الديانة البدائية (١) . وإذا كانت الأنيمية قد خلقت السحر ، فقد خلقت عبادة الأسلاف ما ينبغي أن نسميه الدين . وتدل لفظة الإله عند بعض البدائيين الآن على « الرجل الميت » . ويدل « يهوه » على « القوى » ، ومن الواضح أنه كان زعيماً قوياً . وفي مصر وروما والمكسيك وبيرو كان الملك يعبد كإله حتى قبل وفاته . ولتدأله الإسكندر نفسه لأن الشعوب التي فتحها كانت معتادة حكم الملوك الإلهية ، ولولا هذا التحول ما قبلته حاكماً عليها . وكان لابد من استرضاء أشباح مثل هؤلاء الرجال ذوي القوة الهائلة ، وأصبحت الطقوس الجنائزية الممنوحة لهم أول صور الاحتفالات الدينية لتمجيد ذكره وشرفه وعمله . وقد أخذت جميع صور تمجيد الإله من شعيرة العبودية للرؤساء في الأرض ، مثل رفع الأيدي ، والسجود ، والركوع ، والتعظيم ، وغير ذلك . وإلى هذا اليوم لا يكمل أى مذهب كاثوليكي لا يضم رفات بعض القديسين . أى الأسلاف الأبطال . وبهذا المعنى بدلا من وقف عبادة الأسلاف على الصين واليابان فإنها تمتد إلى كل مكان في العالم .

وكان الإغريق ومعظم الشعوب القديمة تتوسل إلى موتاهم كما يتوسل المسيحيون بالقديسين (٢) . وعالم الموتى عالم حقيقى واقعى إلى درجة أنه في بلاد كثيرة كانت توفد إليه الرسل بثمان عظيم : إذ يدعو الرئيس عبداً ويبلغه رسالة شفوية ، ثم يقطع رأسه . فإذا نسى الرئيس شيئاً أرسل عبداً آخر عقب الأول بعد قطع رأسه كملحق للرسالة (٣) . أما شبح الميت فكانوا يعتقدون أنه يحمل بعض تلك القوة الخارقة ، أو المانا Mana التي أصبحت مادة الحياة لجميع الآلهة فيما بعد . وهذا هو السر في العناية باسترضاءه . فالدين « religio » مشتق لا من « religare » أى يربط ، بل من « religere » أى يعنى بكذا ، أو يميل —

Frazer, p. vii. (١)

Reinach, p. 80. (٢)

Allen, p. 30. (٣)

والعكس هو « neglegere » أى الإهمال (١) . فالدين مرتبط بعواطف بنوية يتحول فيها تدريجاً الخوف من الموتى إلى محبة الموتى . وحتى الشخص إذا كان متوحشاً فيمكن أن يحب حين يموت .

المرحلة التالية هى تصور الإله أو الرئيس الميت كأب . وفى الدين الحديث نجد فكرة أبوة الله فكرة هزيلة أو علاقة روحية — فنحن لا نفكر فى أن الله يلد الناس جسمانياً . أما عند الإغريق وكثير من الشعوب القديمة فقد كانت الفكرة جسمانية ومباشرة : لقد نشأت أجناس البشر عن آلهة متعددة . وإنك لتجد فى نهاية كل نسب إلهاً . أما الفكرة التى ظهرت عند الإغريق واليهود من أن الآلهة قد خلقت الناس من طين ، فهى من أصل متأخر (٢) .

وهكذا وصلت الإنسانية آخر الأمر إلى تصور إله إنسانى ، واقتضى ذلك منها زمناً طويلاً . وقبل هذا الإله ولعدة قرون كثيرة كان بحر الأرواح ثم الأرواح المنبثة فى الصخور والشجر والنجوم ، ثم الأرواح الخالقة بالتناسل وفى الأرض ، ثم الآلهة الحيوانية ، وأخيراً — عن طريق تأليه الأسلاف والملوك — الإله الإنسانى . وأنتم تعرفون أن سبنسر كان يظن أن جميع الأديان يمكن أن ترد إلى عبادة الأسلاف — وهى نظرية قديمة قدم إيوهيميروس Euhemerus الذى عاش سنة ٣٠٠ قبل الميلاد . مهما يكن من شىء فعبادة الأسلاف مرحلة متأخرة وليست الأولى ، ومرت قبلها عصور طويلة لم تكن فيها أى آلهة تشبه البشر على الإطلاق . فلما ظهرت عبادة الأسلاف أحدثت تغييراً عظيماً فى الدين : أنسسته humanized ، إن صح هذا التعبير ، وأتاحت له أن يتصور الألوهية أولاً فى العبادات التى نصوغها لأقوى الناس ثم لأرقهم . لقد مهدت الطريق للعقائد المشبهة الكبرى فى أرض الميعاد واليونان وروما . والآن فليكمل أحد غيرى القصة .

٥ — الوثنية Paganism

آرييل : لقد علمتنى يا سير جيمس ما لم أكن أعلم فأزعجتنى إزعاجاً شديداً . إني لألاحظ كيف أنصت إليك بول وماتيو فى صبر عظيم ، وأرجو

(١) Reinach, p. 2.

(٢) Smith, W.R., op. cit., p. 42.

أن يتحدثنا قريباً بما يعرفانه . ولكن ألا تظنوا أننا يجب أن نسأل أولاً تيودور شرح ديانة الإغريق ؟ فأن يكون المرء وثيقاً لا بد أنه كان شيئاً ممتعاً .

تيودور : سيدنى ، لست جديرًا أن أسمى إغريقياً ؛ فالإغريق اليوم من السلاف ، فهم ليس شعباً قديماً ورث ثقافة قديمة كالصينيين ، بل شعب جديد يسعى إلى بناء حضارة جديدة كالأمريكان . ومع ذلك فقد أحببت ودرست عقيدة بلادى القديمة ، ويسرنى أن أتحدث عنها إليكم . ولما كنت أتوقع سوءاً إلى فقد اصطحبت معى نصاً صغيراً من السير جلبرت موراي .

سير جيمس : إنى أعرفه حق المعرفة ، فهو سيد مهذب ، أيام السلم .

تيودور : إنه يحسن الكتابة عن بلادى . يقول سير جلبرت : « للإغريق القديمة اليد الطولى فى الدين وكل شىء آخر على السواء ، فى امتيازها الرائع بالبداية من أسفل السفوح ثم المكافحة حتى لو كانت خطرة للصعود إلى أعلى القمم . وليس ثمة أى فزع من الخرافات البدائية لا يمكن أن نجد له أثراً بعيداً فى تراث الإغريق . وقل أن تجد فكراً روحياً بارزاً فى العالم لم يكن له نموذج أو صدئى فى الأدب الإغريقى الذى تمتد رقعة من طاليس إلى القديس بولس » (١) . ولعلنى أستطيع أن أبين لكم ذلك التقدم الرائع ، وأن أوضح فى الوقت نفسه بمثال الإغريق التحليل البديع الذى قدمه لنا سير جيمس عن تطور الدين .

لقد عبد الإغريق أول الأمر كغيرهم من الشعوب الأرواح فى الشجر والنجوم والحيوانات والنباتات . وأكبر الظن أن السماء كانت أول موضوعات العبادة . ذلك أن « زيوس Zeus » كان يعنى السماء ، كما تعنى « ديوس Deus » فى اللاتينية ، « دى Di » فى السنسكريتية . وحتى فى أمريكا يقولون « حفظتنا السماء » و « أطلب من السماء » كما لو كان الله والسماء شيئاً واحداً . ويعتقد جميع البسطاء من الناس أن الله موجود فوق السحاب . وفى القرن الثالث قبل المسيح سمى الفيلسوف الرواقى خريسيبوس Chrysippus الآلهة بأنها : « الشمس ، والقمر ، والنجوم ، والقانون ، والبشر الذين استحالوا آلهة » (٢) .

Murray, p. 15. (١)

Murray, p. 117. (٢)

وأقدم الشعائر التي نعرفها عنهم كانت شعائر الزراعة لتخصيب الأرض .
 أتعلمون قصة الأميرة دناى Danaë التي سبخت في برج وزارها زيوس في هيئة
 مطر مذهب ؟ يعتقد الباحثون أن هذه القصة الخرافية نشأت عن الشعائر القديمة
 التي كانوا يخصبونها بها الأرض (مشخصة في دناى) بإنزال المطر الذهبي من روح
 أوروب السماء . وأنتم بالطبع تعرفون خرافة ديمتر Demeter وبرسيفوني Persephone ،
 وأكبر الظن أنكم رأيتم ديمتر العجيب في المتحف البريطاني - وهو تمثال أجمل
 بكثير من أى تمثال آخر صنعه فيدياس أو بركسياتيلس . كانت ديمتر ربة الغلال ،
 وكان الرومان يسمونها سيريس Ceres ، ويسمونها الأمريكان سيريال Cereal .
 وقد اختطفت ابنتها برسيفوني إلى « حادس Hades » (١) . ولكن ديمتر حزنت
 حزناً شديداً فسمح لبرسيفوني بالعودة إلى الأرض زمان كل حصاد بشرط أن
 تنفق الشتاء في الجحيم (حادس) .

أندرو : إذا كان لابد أن نذهب إلى الجحيم فالأفضل أن نمضى فيه الشتاء
 لا الصيف .

تيودور : القصة عبارة عن دراما صغيرة ترمز إلى ازدهار الأرض السنوى
 وبركتها . ذلك أن جميع الخرافات تكاد تكون جميعاً قد وضعت لتفسير ، أو كما
 تقول لتأينس humanize طقوس الزرع الأنيمية (٢) . أما أفروديت الجميلة
 التي نقلتها الإغريق عن ربة بابل عشتار ، فقد نشأت من أرواح الغلال في الأيام
 الخوالى . وكان عيدها يحتفل ببقطة الربيع . وأنتم تعلمون ولاريب أن عيد الفصح
 كان في الأصل عيد الربيع ، وعيد عشتار .

ماتيو : إن الكنيسة بما عندها من حكمة ربانية قد اصطنعت الأعياد
 الوثنية ، ولأمت بين عادات الشعب وبين ديانة المسيح .

تيودور : كانت أفروديت الرمز المحبوب للطاقة التناسلية في الطبيعة والإنسان .
 ولم يكن القدماء يقدرّون العفة بمقدار ما يقدرها المحدثون . . .

كلارنس : يبدو أنك لا تحسن معرفة المحدثين ، يا تيودور .

(١) أى الجحيم (المترجم) .

(٢) Allen, p. 38 ; Smith, W.R., p. 18.

تيودور : سأقول إذن ، بمقدار ما كان المسيحيون في العصر الوسيط أو البيوريتان يقدرونها . والأولى أنهم كانوا يعجبون بالأم الولد ، وعبدوا الاتصال الجنسي ، حتى إذا كان حلالاً ، بما يمكن أن يسمى بالاستهتار المبتذل . واعتبروا بقوة ومجد وحقوق أفروديت أو فينوس أو عشتار ، كما يتبين ذلك من التمثيلية العظيمة « هيبوليتوس Hippolytus » لأستاذنا العميق أوريبيدس . وكانوا يظنون أن الرجل يكون ولا ريب تعيساً إذا عاش بغير أن يدفع للربة ضريبة الجنون الإلهي للحب . وفي كثير من نواحي آسيا الصغرى كان واجباً دينياً محترماً على كل سيدة أن تقف بأبواب المعبد ، وتهب نفسها لكل غريب يطلبها ، ثم تضع على مذبح الربة ما كسبته من بغائها المقدس . ألم يكن كذلك ياسير جيمس ؟

سير جيمس : بكل تأكيد . كان الفناء المقدس مزدحماً في الغالب بنسوة ينتظرن الصلة بهن . وكان على بعضهن أن ينتظرن بضع سنين (١) .

تيودور : لقد نقاوا « أدونيس Adonis » أيضاً من بابل . وكان الساميون يسمونه « تمولز Tammuz » ، وفي بعض الأحيان « أدون Adon » ، وهذا يعني « السيد Lord » . وظن الإغريق أن هذا اللقب اسم ، وخلعوه على إلههم المسروق . وتصف أساطير بابل واليونان أدونيس بأن خنزيراً وحشياً قتله ، ولعله كان صورة إنسية للحيوان المقدس الذي عبده الساميون القدماء . وكانوا يضحون مرة كل عام بخنزير برى يأكلون لحمة في مأدبة عامة ، في الوقت الذي يندب فيه الشعب موت أدونيس . وبعد أيام قلائل يحتفلون ببعثه (٢) .

سير جيمس : أكبر الظن أن أسطورة موته وبعثه ترجع إلى طقوس الزرع التي ترمز إلى موت الأرض وبعثها (٣) . ففي كل مكان نجد القوة غير الشخصية في تطور الدين تنقلب شخصاً ، وتولد قصة خرافية .

تيودور : وهذا هو الحال تماماً في أسطورة ديونيسوس ، الذي كان يمثل الكروم ، كما كانت ديميتر تمثل الغلال . ومات كغيره من أرباب الزرع ، ثم

(١) Frazer, p. 330 ; Ellis, Studies, vol. vi, pp. 229 f.

(٢) Rainach, p. 40.

(٣) Frazer, pp. 335-70.

بعث إلى الحياة مثل الأرض في الخريف والربيع . وكان عيدُه يخلد كذلك بتمثيل
 مأساة موته وبعثه (١) . ونشأ من ذلك الاحتفال مسرح ديونيسيوس وجميع روائع
 أحيلاوس وسوفوكليس وأوريديس . فهذه التمثيلات كانت جزءاً من عبادة
 ديونيسيوس ولا بد أن تعالج موضوعاً دينياً . ومع ذلك فقد نشأت الكوميديا من
 شعائر الأعياد ذاتها : رموز تناسلية تحمل في مقدمة المواكب الديونيسية . ومن
 هذا العيد التناسلي المسمى « كوموس Comus » ، إلى جانب السخرية والغناء
 الجنسى المسمى « أويدوس oidos » مما كان يجري في مصاحبته ، نشأت « الكوميديا
 Comedy » . وأحسبكم ستغفرون بعد ذلك قلة حياء أرسطوفان (٢) ، فلم تكن
 أى سيدة محترمة تخضر تمثيلاته .

سير جيمس : كانت دراما stag رائعة لتمجيد رب الماعز .

تيودور : أنت على حق يا سير جيمس ، فقد حل ديونيسيوس محل الماعز
 المقدس كما حلت الأرباب الإنسانية محل الأرباب الحيوانية . ولم يكن الشعب
 ليستطيع أن ينسى ماضيه ، فقد كانوا يضحون له بماعز ، وكثيراً ما كان يصور
 في هيئة ماعز . ومن أسمائه « الجدى » . وكان الذين يسرون في هوكبه يلبسون
 قناعاً من وجه الماعز ، وهذا هو الأصل في تسمية « التراجيديا trag-oïdos »
 أى غناء الماعز . وقد اختلطت الحيوانات المقدسة بجميع الآلهة كبقية من الطوطمية .
 وتستطيع أن تبين عبادة الأسلاف في أشعار هوميروس التي يعرض فيها لتأنيس
 الآلهة . وفي نظر الإغريق لم يكن هناك حد فاصل بين الرجل والآلهة ، فقد يصبح
 الرجل العظيم إلهاً كما قد يصبح الإله رجلاً عظيماً . وكان الآلهة يتزوجون من
 البشر ، وكانوا يشبهون البشر في كل شيء تقريباً (حتى في الرذائل والفضائل)
 ما عدا أنهم لا يموتون .

فلما اتحدت الجماعات المتعددة الخاصة بعبادة الأسلاف في المدن أو
 الامبراطوريات ، جمعت آلهة هذه الجماعات في بانثيون عام ، يضم آلهة الطبيعة

(١) Ibid., p. 388.

(٢) أرسطوفان هو شاعر الكوميديا في اليونان بلا منازع في القرن الخامس ، وكانت
 تمثيلاته أخلاقية وسياسية تنتقد التقاليد الجارية نقداً لاذعاً . وطلبة الفلسفة يعرفون تمثيلية السحب
 التي صور فيها سقراط صاحب مدرسة يعلم السفسة (المترجم) .

من أيام الزمن الصالح في أسرة واحدة مع الأسلاف الأبطال في العقائد المتأخرة .
وفي النهاية مجد خيال الشعراء والمنشدين الأساطير القديمة ، فولدت آلهة أوليمبوس .

أندرو : ألم تلاحظ يا تيودور إلى أي حد نسجت آلهة أوليمبوس حكومة
عالمها على منوال مجلس وزراء رئيس الولايات المتحدة ؟ ذلك أن بلاس أثينه
أو مينرفا كانت وزير الخارجية ؛ وبوزيدون أو نبتيون وزير البحرية ؛ وديميتر
أو سيرس وزير الزراعة ؛ هرمس أو مركوري مدير البريد ؛ وآرس أو مارس
وزير الحربية ؛ وهيرا أو جونو وزير الداخلية — وهذه الآلهة مهمتها الأساسية
الإشراف على ميول الرئيس نحو زوجاته المتعددة ، وهو زيوس أو جوبيتر .

تيودور : لاريب كانت هناك آلهة أكثر من هذه ، لأن الإغريق كانوا
يشخصون كل شيء ، حتى الحظ الذي أصبح الإلهة « توخي Tyche » وجميع
الشعوب القديمة أحببت أن يكون لها إله لكل مظهر من مظاهر الحياة . وحين
اصطنع الرومان البانشيون الإغريق ضعفوه . كان هواؤهم نفسه يموج بالآلهة
والشياطين . كانت هناك « أبيونا Abeona » حامية الأطفال حين يرحلون بيوتهم ،
و « دومديوكا Domiduca » التي تحرسهم في أوتهم ، و « انترديوكا Interduca »
التي تعني بهم فيما بين ذلك ، و « كبه Cuba » ^(١) التي تحرسهم وهم نيام ،
و « إيدوكا Eauca » التي تعلمهم الأكل ، و « فابولينوس Fabulinus »
التي تعلمهم الكلام ، و « ستاتانوس Statanus » التي تعلمهم الوقوف ، ومئات
غيرها ^(٢) . وبعد أن انتصر هانيبال في كاناي زحف على روما ، وإذا به يرى
عند أبوابها حلمًا يحدثه بالرجوع عنها ، فأطاع الصوت الذي سمعه في الحلم ،
وشيد الرومان الشاكرون فوق ذلك الموضع محراباً لإله جديد سموه « رديكولوس
Ridiculus » أي الإله الذي يدفع الرجل إلى التراجع ^(٣) . وكان لكل حقل
هيكله ، ولكل بيت معبده ، ولكل مفترق طرق مزاره .

(١) يذكر القراء أن من عبارات العامة عندنا ما تقوله المرأة حين تضيق بطفلها فلا ينام
« كبه تأخذك » وأكبر الظن أن لفظة « كبه » هذه ، هي الربة حارسة نوم الأطفال (المترجم) .

(٢) Shotwell, p. 30 ; Allen, p. 37.

(٣) Shotwell, p. 34

أندرو : أليست عبادة الملائكة الحارسة والقديسين الحليين ميراثاً مسيحياً
لهذا البانيون الزاخر ؟
تيودور : أظن ذلك .

أندرو : لا بد أن استرضاء جميع هذه الآلهة كل ساعة كان مهمة ثقيلة
مخيفة — كما لو كنت تعيش كل حياتك تلبس ملابس السهرة . ولقد قال
أناطول فرانس لبروسون إنه لا يجب الوصية الأولى من الوصايا العشر : « اعبد
إلهاً واحداً » ، فقد كان يرغب في عبادة « جميع الآلهة » ، وجميع الهياكل ، وجميع
الإلهات » . كان يحبها جميعاً لأنه لم يكن من واجبه أن يعبدها جميعاً . أما الإغريق
والرومان فكان عليهم أن يعبدوها .

تيودور : نعم أنت على حق ، وكان سير جيمس على حق . كان الإغريق
الساذج يؤمن بألته إيماناً جدياً ، فهو يخشاها ، وينفق كثيراً من الوقت في استرضائها .
لم تكن الوثنية متعة خالصة . ومع ذلك فقد كان في ذلك الدين جمال عظيم وعقل
كثير . فقد كان من الخير أن تشخص وتحترم قوى الطبيعة وصورها ، التي تعبر
عنها الآلهة الكثيرة بأفضل مما يعبر إله واحد عن الصراع والتيارات المتعارضة في
العالم . وقد نشأ عن ذلك الإيمان كثير من صور الفن : نشأ النحت والبناء من
الدفن ؛ والدراما من المواكب الدينية ؛ والموسيقى والشعر من الترانيم التي كانت
تنشد فيها . وهذب الفن بدوره الدين ، وخلد ذكر الآلهة القديمة . فقد وهب
هومير وس وهزيود لآلهة أوليمبوس أجساداً وخصالاً ، وخلع عليهم فيدياس
عظمة وجلالا . ولك أن تقول إن آلهة هومير وس ماتت عند مولد آلهة فيدياس .
لقد صنع العامة آلهة ضارية فاسقة ، فصب الفنانون فيها أرقى المطامح الإنسانية ،
وصاغوها بحيث تعكس تطور الحضارة والثقافة عند الإغريق . وما أعظم الفرق
بين زيوس السفاك في خرافات هزيود ، وأب العالم الرائع الذي صيغ من الخيال
العامر لأسخيلوس ، واكتسى بحكمة سوفوكليس الصافية . لقد قرأت كثيراً عما يدين
به الفن للدين ، ولا يظهر أن أحداً يشعر بما يدين به الدين للفن .

ومع ذلك فلم يكن من الخير لقدماء الإغريق أن تنشأ الدراما من شعائر
ديونيسوس ، لأن الدراما أصبحت أدباً ، وأصبح الأدب فلسفة ، وأذابت الفلسفة

جميع العقائد والأفكار القديمة . ولم تكن إلا خطوة يسيرة حتى انتقل توحيد سوفوكليس الهادىء إلى شسك أوربيدس ثم إلى عبارة صديقه بروتاجوراس المشهورة : « أما عن الآلهة أموجودة هى أم غير موجودة فهذا شىء لا سبيل إلى معرفته » . فأنت ترى أنك يا عزيزى كلارنس لم تكن أول لا أدرى .

كلارنس : كنت أشك فى ذلك .

تيودور : حقاً لقد ولدت الدراما فكرة حطمت فى النهاية الآلهة القديمة — « القضاء » القادر على كل شىء ، و « القدر » الذى كان يحكم الآلهة والبشر على السواء . ومن هنا لم تبق إلا خطوة واحدة للوصول إلى فكرة القانون الطبيعى العام ، وهى الفكرة التى اضطلع بها الفلاسفة . ذلك أن نمو المعرفة أفضى بالناس إلى البحث عن تفسيرات طبيعية فى الأحداث العادية أولاً ، ثم فى الأحداث المفروض أنها علوية ، وأخيراً فى الكون ككل . واستبدل كبار الفلاسفة السابقين على سقراط الماء والهواء والنار بالآله السماء . وعلم السفسطائيون الناس فن الشك ، وقبلوا المذهب الطبيعى قضية مسلمة . فلم يلبث أن أصبح كل صبي ناشئ ملحدأً ، حتى إذا كنا فى زمان أفلاطون رأينا انهيار ديانة الإغريق الأصلية (١) . يقول أفلاطون فى محاوره النواميس : « ما دام كثير من الناس قد توقفوا عن الاعتقاد فى الله ، وأصبح الحلف بالآلهة بدعة قديمة ، فليصطنع القضاء فى المحاكم مجرد الإثبات أو الإنكار » (٢) .

كلارنس : نحن فى طريقنا إلى بلوغ هذه النقطة فى الولايات المتحدة ، ومع ذلك لا يزال بعض البسطاء يتكلمون عن التقدم .

بول : لقد حذف من حديثك يا تيودور أن القديس سقراط ، كما كان إرازمس يسميه ، اقترح ديانة توحيدية ، وأعلن على الأقل فى محاوره الدفاع اعتقاده الراسخ فى الله .

تيودور : نعم ، وقد كان فى فلسفة أفلاطون عنصر دينى عميق ، ولكن

Murray, p. 107. (١)

Laws, xii, 948. (٢)

إله سقراط كان «روحاً demon» (١) سلبياً فقط ؛ أما إله أرسطو فكان كمالاً لا يتحرك مستغرقاً في النظر إلى ذاته .

كلارنس : كان فكرة مجردة ثابتة في مركزها .

تيودور : وكانت آلهة أبيقور ملوكاً لا عمل لها ، ولا تهم بأمور البشر .

آريل : كانوا صحبة في حديقة خالدين فيها أبداً .

تيودور : ما أبرعك يا آريل في الإيحاء لي بأن أنهي الحديث . أتسمحين لي بدقيقة أخرى ؟ في زمان فيرون والشكاك كان آلهة اليونان قد ماتوا اللهم إلا بالنسبة للطبقات الدنيا . وكانت الثقافة الهلينستية لا أدريه ، فانصرفت عن طلب الحقيقة ، وتعلمت الاستسلام ، ودرست لذائد الفن ، وفنون اللذة ، وتسلت بالجمال الذابل في عالم مول^٢ . على أن ذلك العصر كان من بعض الوجوه أنضج عصر في اليونان ، أشبه بالعصر الذي شاركت فيه جميع الطبقات المثقفة ثمار قوم من أمثال توماس هاردي ، وجورج مردث ، وجورج كليمنسو ، وأناطول فرانس .

بول : لقد انتصر الفلاسفة ، ولكنهم أغفلوا في انتصارهم شيئاً واحداً - أغفلوا هذا الاعتبار وهو : هل يمكن للقانون الخلقى إذا انتزعت منه العقوبات الأخروية أن يعلم الأمة ضبط النفس الضروري للاستقرار والقوة . ثم تختتم الصورة بما قد تختتم به صورتنا في هذا العالم الغربي : انحلال خلقى ، فوضى فردية ، فساد ، جريمة ، انتحار .

تيودور : ومع ذلك فقد أخذ الدين يولد من جديد بين طبقات الشعب . ذلك أن الوحي الذي كان يسمع في دلفي وديلوس ، والشعائر السرية في إليوسيس ، واندفاع العقائد الشرقية إلى بلاد اليونان في أعقاب عودة جيش الإسكندر ، قد جلب للطبقات الفقيرة في أمة مهزومة العزاء الذي تتعطش إليه . وازدهرت العبادات الأورفية بما أحدثته من تحول في عقيدة الجحيم القديمة ، فلا يمكن أن يبتلع

(١) من الصعب ترجمة «ديمون» فهو روح ، أو جن ، أو هاتف ، أو صوت - ولم يكن سلبياً فقط بمعنى أنه ينهى عن الفعل ، بل كان في بعض الأحيان إيجابياً يحث على العمل كما جاء في افتتاح فيثون من أن الهاتف أمر سقراط بإنشاء الشعر والموسيقى (المترجم) .

الظلام الجميع ، أما الصالحون فيذهبون إلى جنات إليزيوم Elysium السعيدة ،
وأما الطالحون فقد يمكن أن ينبجوا إذا ملأ أبناءهم أيدي الكهنة بالمال . يقول
أفلاطون : « يقف الرسل المستجدون بأبواب الأغنياء يستجدونهم ،
ويغرونهم بأن لهم قوة أودعتهم الآلهة إياها يغفرون بها ذنوبهم أو ذنوب آبائهم
بالقرايين أو التعاويذ ، وبألوان الطرب واللعب . . . ثم يبرزون طائفة من الكتب
دونها موسى أو أورفيوس . . . يؤدون شعائهم بحسب ما جاء فيها ، وهم لا يفتنون
الأفراد فقط ، بل مدناً بأسرها ، بأن محو وغفران الذنوب . . . في يد الأحياء
والأموات على السواء . وهم يسمون مغفرة ذنوب الموتى بالأسرار ، التي تخلصنا
من عذاب الجحيم . أما إذا أهملناها فلن يعلم أحد ما يصيبنا » (١) .

وكانت النحلة الأورفية تعلم أن عذاب الإنسان راجع إلى جريمة قديمة
ارتكبتها التيتان Titans (المردة) الذين عصوا أمر الله ، وتكفيراً عن هذا الذنب
الأصلي قيدت النفس في البدن كأنها في سجن ، ولا ينقذها منه إلا فضيلة الزهد
والصبر على أداء الشعائر . واستمع الناس الذين فقدوا الأمل في أطايب هذه الدنيا
إلى هذه العقيدة الجديدة وهم في شوق شديد إليها . وأفل نجم دين المدينة polis ،
وذلك الإخلاص القديم لدولة المدينة ، وأخذ الناس يتحدثون عن الخلاص
الشخصي في حياة آخرة ، والاستسلام لما في الدنيا من شرور . وأصبح عالم
الأرواح أكثر حقيقة من هذه المناظر الدنيوية التي تطالع الناس بالهزيمة والمجد
الزائل . وفي هذا العالم من التقوى والأمل ظهرت المسيحية ، وانتصرت روح
الشرق على الإغريق .

آرييل : شكراً لك يا تيودور . لقد بين لنا سير جيمس مولد الدين ، ثم
بينت لنا موته وبعثه . تعالوا بنا نتناول طعام الغداء ، وسننظر في مصير الآلهة
حول المائدة .

الفصل الثانى والعشرون

حول المائدة

من كونفوشيوس إلى المسيح

١ - كونفوشيوس

كونج : لقد كانت النتيجة التى انتهت إليها يا صديقى العزيز تيودور تبكىنا لبلادى . وأرجو أن تغفر لى ما أفترضه من أن تصوركم للشرق ظاهرى جداً . فأنتم لا تدركون حتى حجم آسيا . إنكم لا ترون أوروبا إلا على أنها أفضل قطعة من لحم القارة العظيمة - إن صح هذا التعبير - وهى ليست أصل أديانكم فقط ، بل لغاتكم وأجناسكم . وإذا تذكرتم مبلغ اتساع آسيا أدركتم مدى المخاطرة التى تجازفون بالتعميم عنها . لا يمكن أن تهتموا قارة .

أرييل : هذا بديع يا كونج ، زدنا من هذا الحديث .

كونج : الحق ليس هناك آسيا واحدة بل أربع . آسيا الحربية فى الشرق الأدنى - آسيا المسلمة ، أرض الدين الذى جاء يحمل السيف لا السلام (١) . ومع ذلك فى الشرق الأدنى كم نجد من تعقيد فى الجنس والخلق ؟ . . . أتراك عثمانيون ، أعرب ويهود ساميون (وحتى هؤلاء الإخوة مختلفون عظيم الاختلاف) فرس وأفغان ، قوقاز وأرمين . ثم هناك آسيا المتصوفة ، شبه جزيرة الهند العظيمة التى أرجو أن يتحدث لنا سيديدا عنها . وهناك سيبريا - المنغول ، والروس ، والكوريون ، واليابان ، وهذه أيضاً كتلة معقدة تتحدى أى تعبيرات

(١) يخطئ المؤلف فى فهم معنى الإسلام ، فالإسلام من السلام بمقتضى اسمه ، وقد نجت دعوة الإسلام لما فيه من مبادئ خالدة سامية . ودعوة الإسلام بالحكمة لا بالسيف ، كما قال تعالى : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » ... الخ (المترجم) .

معروفة . وهناك الصين أقدم الأمم وأحدثها مولداً في العالم . كيف ننظر إلى أمريكا نظرة جدية وعمرها قرنان من الحضارة على حين تبلغ حضارة الصين ٥٠٠٠ سنة ؟ إنى أجد لذة في هذه المباينة السخيفة بين تقدم الغرب وركود الشرق . إنى لأعجب كم مرة حرك التقدم الصين في تتابع حضارتها وعصورها « الوسطى » ؟ لقد جربت الصين جميع الأفكار وسئتها . إنها أشبه بروتاجوراس الذي ألزم تقاليد زمانه ، لأنه بعد أن جرب جميع البدع الدينية ورأى أنها كلها ناقصة وعرفية ، خلاص إلى أن الفرق الحقيقي ضايل جداً بين رأى وآخر ، أو بين دين وآخر ، فلا حاجة إلى اضطراب الفكر بشأنها . وإلى أن جاء الغرب فأسكرنا بنشوة الصناعة والديمقراطية والثروة كنا نحن الصينيين راضين بالعرف والسلام الجارى . فإذا كان التقدم ليس إلا مجرد تغيير سطحي كما يزعم بعض الفلاسفة ، فالصين على صواب : لأن التقاليد الجارية حسنة كأي تقاليد أخرى ، ولأن حياة الزراعة بما فيها من كدح هي وحياة الصناعة والأعمال الشاقة سواء . فالفلاح البسيط الذي يرمي أرضه ويعنى في تقوى بقبور أجداده يجد من السعادة ما يجده أى شعب على هذه الأرض الموبوءة بالإنسان .

آرييل : حدثنا عن ديانة الصين يا كونج .

كونج : ولكن يا سيدتى ، لا توجد ديانة صينية — هناك فقط أديان صينية . هناك بوذية الصين ، وإسلام الصين . ويوجد بين الشعب ديانة feichistic فتيشية تدين بالأرواح والأصنام images ، وطوطمية تعبد الحيوانات المقدسة . ولن أتحدث عن هذا لأن الخرافات تعم الفلاحين في كل مكان . وهناك عبادة الأسلاف المفروضة على الجميع ما عدا « الوطنيين » الشبان ، وهي ديانة يحكم فيها الموتى الأحياء في كل عمل من أعمال الحياة تقريباً . وهناك ديانة لاوتسى ، الطاو Tao أو الطريق Way ، والتي تكاد تندمج اليوم في البوذية ، ولكنها لا تزال تخلق قديسين ينقطعون إلى التأمل وإنكار الذات . وأخيراً هناك الكونفوشيوسية ، ديانة الطبقات المثقفة في الصين مئات عدة من السنين . ولست أعرف صفة يمكن أن تنطبق على جميع هذه الأديان معاً سوى أنها صينية . بل من الصعب حتى أن نصفها بأنها شرقية ، إلا إذا شئتم أن تصفوها المسيح أو سقراط كشرقيين .

ذلك أن ديانة لاوتسى تكاد تكون في جوهرها نفس ديانة المسيح . وديانة كونفوشيوس التي تسمى ديناً (إذ الأفضل أن توصف بأنها فلسفة) تشبه شيئاً غريباً ففكر عظماء الإغريق . أتسمعون لي بأن أتلو عليكم بعض أقوال لاوتسى ؟ :

« كافيء الإساءة بالإحسان . سأحسن إلى الحسن ، وسأحسن كذلك إلى المسيء كي يصبح محسناً . سأكون أميناً مع الأمين ، وأميناً مع الخائن حتى يصبح أميناً . من لا يثق في الناس لن يجد من يثق به . تخلف إلى الوراء توضع في مقدمة الصفوف . تواضع تأمن . نحن تستقم . العظيم من يجعل التصاغر ديدنه . من يشعر بالقوة ويرضى بالضعف يكن سيد العالم . رأس الحكمة أن تعرف وتدعى الجهل . الحكيم من يعرف نفسه ولا يتباهى ، ويحترم نفسه ولا يطلب لها شرفاً . كل شيء في الطبيعة يجرى في صمت . تظهر الأشياء إلى الوجود ولا تملك شيئاً ، وتؤدى وظيفتها ولا تطلب شيئاً . جميع الأشياء تعمل ثم نراها تسكن ، فإذا تفتحت وازدهرت عاد كل شيء إلى أصله . الرجوع إلى الأصل راحة أو نفوذ القضاء . وهذه الرجعة قانون أزلى ، والحكمة في معرفة هذا القانون . لا تفعل شيئاً بإرادتك بل بموافقة الإرادة الأزلية ، تنل كل شيء » (١) .

ماتيو : هذا كلام بديع ، ولكن الدين فيه قليل جداً .

كونج : وستجد أقل من ذلك في كلام كونفوشيوس ، لأنه لم يستعمل أى عبارات سماوية ، ولم يكن يهتم بالحياة الآخرة . سأله تلميذ عن واجب الإنسان نحو الأرواح فأجاب : « كيف يمكن أن نؤدى واجبنا نحو أرواح الموتى قبل أن نتمكن من أدائه نحو الأحياء » (٢) . فلما ألح التلميذ في السؤال عن الموت ، أجب الأستاذ : « قبل أن نعرف ما الحياة كيف يمكن أن نعرف ما الموت ؟ إن الحكمة هي الإخلاص في تأدية الواجب نحو الناس مع احترام الأرواح حتى نبعد عنها عنهم » (٣) إن دين كونفوشيوس كان بناء كبيراً من وحدة الوجود أفضل

Brown, B., The Wisdom of the Chinese, pp. 85-120. (١)

Brown., p. 31. (٢)

Thorndike, L., Short History of Civilisation. p. 254. (٣)

ما يقربه إلى أذهان الغربيين موازنته بمذهب سبينوزا . تأمل هذه العبارات تر أنها تشبه بعض نصوص كتاب « الأخلاق » للفيلسوف اليهودي العظيم :

« الحق Truth قانون الله . . . ومعنى الحق تحقق وجودنا ؛ والقانون الأخلاقي هو قانون وجودنا . الحق ما به توجد الأشياء الخارجة عنا . . . هذا الحق المطلق لا يقنى . ولأنه لا يقنى فهو أزلى . ولأنه أزلى فهو موجود بذاته . ولأنه موجود بذاته فلا نهاية له . . . إنه باطن وعقل دون أن يشعر بذلك . . . ولأنه لا نهاية له وأزلى فإنه موجود في جميع الوجود » (١) .

لم يقدم كونفوشيوس للعالم لاهوتاً ، ولا عقيدة ، بل قانوناً خلقياً عظيماً وأرستقراطياً ، إنه : « طريق الإنسان الراقى » . وهو لا يشبهه المسيح إلا في عبارات قليلة من مثل قوله : (قبل المسيح بخمسة قرون) « لا تفعل بالناس ما لا تحب أن يفعلوه بك » . ولكنه بسقراط وأرسطو وجيته أشبه ، إذ يوحد بين الأخلاق والعقل ، ويدعو لا إلى الخضوع والرقعة بل إلى تنمية الشخصية كاملة . وحين كنت أدرس في الصين كان على أن أحفظ تعاليمه ، وأستطيع أن أتلوها عليكم ساعات وساعات :

« ماذا يكون الإنسان الراقى ؟ أن يهذب نفسه بمراعاة الاحترام . والإنسان الراقى حر الفكر وليس متعصباً ، أما الإنسان العادى فتعصب وليس حر الفكر . الإنسان الراقى يحب أن يتمهل في حديثه ، لأن هلاك الناس في لسانهم . إنه يعمل قبل أن يتكلم ، ثم يتكلم بما يتفق مع أعماله . إنه لا يجادل ، ويتوافق مع طريق الوضع . . . لانهاية للأمور التي تؤثر في الإنسان ، وعندما يخرج عن إرادته ما يحب وما يكره ، فإنه يتغير إلى طبيعة الأشياء كما تقبل عليه . الإنسان الراقى يلتمس في نفسه كل ما يريد ، والدنىء يطلب كل ما يريد من غيره . طلب الحق يشغل بال الإنسان الراقى ، ولا يخشى أن يصيبه الفقر . ويحزن لعجز قدرته لا لجهل الناس إياه . السر في امتياز الرجل الراقى هو عمله الذي لا يستطيع غيره من الناس رؤيته » (٢) .

(١) Brown, pp. 39-41.

(٢) Williams, E.T., China Yesterday and Today, p. 241; Anon, The Wisdom of Confucius, p. 132; Thorndike, p. 255. Brown, p. 24.

سسيذا : ولكن يا صديق كونج ، ليست هذه ديانة . هذه أخلاق فقط .
وأسوأ من هذا أنها أخلاق للنخبة الممتازة فقط ، لأولئك السادة بالطبع الذين
لا يكاد أحدهم يحتاج إلى أخلاق أصلاً . كلا ، الدين شيء أكثر من الأخلاق ،
وبغير هذه الزيادة تصبح الأخلاق ناراً من البعد بحيث لا تبعث دفئاً . وليس
الدين كذلك عقيدة أو شيء فكري آخر . إنه شعور ، إنه نغم النفس المفاجيء
والشامل بضرب من الإحساس بالكل يحيل الأنانية نسيكاً ، والتفرق ولاءً وجمعاً .
إنى لأعجب إذا كان الغربيون قد تملكهم قط مثل هذا الشعور .

فيليب : حصل هذا الشعور ليعقوب بوهم Bohme ، والقس فرانسوا .
أندرو : كان بول بلاد Paul Blood يقول إنك تستطيع بلوغ هذا الشعور
بالأثير — بالتخدير الباطني .

سسيذا : هؤلاء شواذ ، وتدل ندرتهم على ضعف سيطرة الدين على
شعوب أوروبا وأمريكا . أما في الهند فن المسلم به أن هذه الوحدة بين الجزء والكل
هي جوهر الدين ولبه ، فلا يسمى الرجل متديناً لجرد إيمانه بعقيدة أو أدائه
الشعائر . وكهنتنا المعروفون بالبراهمة يشتقون اسمهم من اسم الإله براهما Brahma .
ولست تجد في هذا العالم أضيق ولا أكثر انفصالاً من الشخصية . والشخصية
اسم نكرة ، وتعني كل « الحقيقة » . وهذا يذكرنا مرة أخرى بسينوزا . وفي
مذهب البراهمة ، براهما وحده وهو الحقيقة المطلقة موجود ، وكل ما عدا ذلك ،
كل انفصال تنفرد فيه الأشخاص أو الأشياء فهو « مايا Maya » ، وهم ، فإذا
استطعت أن تشعر بشخصيتك الصغيرة قد ذابت ، وأصبحت تسبح راضياً في بحر
الوجود ، وكل شيء آخر سوى هذا الاتحاد يبدو لك حقيراً ، فقد عرفت ما الدين ،
وما الله ، وتصبح أنت نفسك جزءاً من الله ، وتغرق في بحر اللانهاية الإلهية .
آرييل : أذكر عبارة لثورو^(١) يقول فيها : « ألقيت بنفسي ذات يوم

(١) هنري ثورو Thoreau (١٨١٧ - ١٨٦٢) كاتب وشاعر أمريكي تأثر بفلسفة
إمرسون ، اشتهر بفرديته ، وحب الطبيعة ، وإيثاره البساطة البدائية ، ونزعته نحو التصوف ،
وثورته على المجتمع والحكومة . له كتب كثيرة أشهرها « والدن » أو « وحى الغابة » وقد نقله إلى
العربية الأستاذ أمين مرسى قنديل ، ونشرته مكتبة الأنجلو عام ١٩٥٥ (المترجم) .

حار في مياه البحيرة الراكدة ، وكادت أغيب عن الحياة ، فأخذت أشعر بالوجود . ثم شرع يتحدث عن نفسه كجزء من « كائن واحد عظيم » مع الطيور التي كان يسمعها .

سيداً : إنى أذكر هذه الفقرات يا سيدتى ، وما أحملها . ألم يبلغك أنه قرأ وأحب فلاسفة الهندوس ؟ فهو يقول : « كان من الملائم أن أعتمد على الرز في معيشتى ، أنا الذى أحببت هذا الحب فلسفة الهند » .

كلارنس : ولكن هذا الإحساس بالمجموع على الرغم من أساسه الانفعالى ليس بالضرورة دينياً . لقد رأيت مرة وأنا راكب قطاراً محلياً بسيطاً من خلال النافذة سحابة غمرنى جلال القبة الزرقاء . وشعرت بالتجذاب قوى نحوها كأنى ذرة تافهة في محيط رائع . ومع ذلك أوكد لك أنى لست متديناً .

أندرو : ليست هذه النشوة بالاتحاد الأمر الوحيد في ديانة الهندوس . فهناك عبادة الجنس ، والتثليث ، والذى أعرفه أن كرشنا Krishna هو الشخص الثانى في التالوث (١) الهندوسى ، تجسد رجلاً وخلص العالم . وهناك الآلهة المتعددة — عدد لا يحصى منهم ، ويقول ريناخ إن البانيون الهندوسى يشبه غابة استوائية (٢) . إن ما يحبه الشعب ليس الإحساس بالكل بل قصة جيدة غير معقولة . وهذه النشوة الصوفية التى حدثنا سيداً عنها أبعد عن ذوقهم من الأسطورة القائلة بأن أحد الآلهة أغرق المحيط ، وأن إلهاً آخر تزوج عشرة آلاف عذراء في ليلة واحدة (٣) . هذا إلى لذة الشعب بأداء الشعائر — غسل أيديهم في نهر الكنج (كما لو كان نهر الكنج يجعل أى شىء نظيفاً) مرددين تعاويد وصلوات ، والاعتماد على القوة الإلهية الموجودة في التمايم التناسلية . أليس هذا صحيحاً يا سيداً ؟

(١) التالوث الهندوسى ، هو : براهما ، فشنو ، سيفا . أما كرشنا فهو رب النار والبرق والسماء والشمس ، وفيه تجسد فشنو (المترجم) .

Reinach, p. 60. (٢)

Keyserling, Count H., Travel Diary of a Philosopher, vol., p. 100. (٣)

سيديدا : كلا ، لقد أخذت القشور المبتذلة للدين على أنها روحه ، كما لو ظن فلاسفتكم اليوم أن بدن الإنسان أو جهازه المحرك له هو جوهره . وحتى الشعب البسيط الذى وصفت شعائره الصالحة كثيراً ما يصوم إلى درجة الموت جوعاً . ولست أعتقد فى الشعور بلذة بديعة من الموت جوعاً ، إلا إذا كان ذلك سييلا إلى انعدام الشعور بالذات ، وإدماج الفرد العابر فى الدنيا والأزلية . لقد رأيت متصوفة ضموا أيديهم منقبضة وظلوا كذلك زمناً حتى طالت أظافرهم وخرجت من ظهور أيديهم . لقد نسوا أنفسهم تماماً . أو تأمل بوذا : لقد حاول كالمسيح أن يطهر الدين الموروث من مفاسد الكهنة ، وأن يعيد إليه صناء القديم . أبى أن يقتل البراغيث التى كانت تزعجه ، ولم ينطق إلا بالكلم الطيب حتى للنمور التى اعتادت التهام عدد كبير منا فى الهند . ولم يكن كالمسيحيين يجعل قبلته آخرة تتحقق فيها الرغبات ، بل كان يطلب الموت المطلق للشهوة ، ورفع جميع الحواجز بين شخصية الفرد وروح العالم . وهذه هى الرقانا (الفناء) : أن تخلص نفسك من كل تفكير فى ذاتك ، فيرتفع جميع كياناتك إلى الحقيقة الأزلية . أندرو : إنى أشك فى أننا سنمارس جميعاً الرقانا . وما يعنينا فى مذهب بوذا هو إلحاده : فأنا أعتقد أنه أنشأ ديانة فى غاية القوة بغير إله ، أليس كذلك ؟ سيديدا : إذا كنت تعنى بالإله شخصاً سامياً ، فهذا صحيح . أما إذا كنت تعنى روح الكل ، فلا .

أندرو : إنى أفهم أن بوذا فى أساطير الشرق يمثلونه على أنه ولد من عذراء . ويبدو أن كل إله لابد بمقتضى ميلاده أن يقذف الأمومة الطبيعية بالمطاعن — تلك الأمومة التى كانت فى القديم رمز وينبوع جميع الآلهة .

سيديدا : لا ينبغى أن تفهم الأساطير فهماً حرفياً ، إذ تفقد بذلك الحكمة العظيمة التى ألبستها فى صورة فلسفية . وأعود مرة أخرى فأرجوكم أن تذكر أن هذه الأمور ليست ديناً .

أندرو : تعنى أنها البراغيث التى تعيش على جسم الدين .

سيديدا : إذا شئت ذلك . ولعلكم معشر الغربيين تتعلمون بعد جيل أو جيلين ماهية الدين . فلا سنيل إلى علمكم به اليوم لأنكم مقبورون فى الآلات ،

وأفكاركم متعلقة على الدوام بالذهب . ولكن الصناعة ستخرب نفسها بالحرب ، وتغرق سائر أوربا وأمريكا في بحر من الآلام . وعندئذ يزول الزهو بالشيخية والثروة الفردية ، ويعود الناس في حى العذاب إلى الشعور بالله — وهو تلك الروح والحياة التى لا اسم لها ، والذي وصفه الحكيم الهندوسى بأنه « العدم » nothing الذى بقى من الشجرة بعد زوال جميع أجزائها . ولا يزال الشرق يعود إليكم اليوم كلما تبرمتم بالماديات والشهوات . إن العلم المسيحى ينمو بينكم أسرع من أى وقت نمت فيه المسيحية . والتصوف الدينى يستولى على قلوب الملايين والملايين رجالا ونساء ممن يعرفون مقدار ما ينبغى أن تكون عليه الحياة المنعزلة من باطل . ستفهمون ذات يوم الهند ، والدين .

تيودور : هذا شيء ممكن . إن تاريخ الدين صراع أبدي بين روح الشرق وبين روح الإغريق .

٣ — اليهودية

إستر : إنى أشعر مثل سييدا بأننا أغفلنا بعض العناصر الهامة فى الدين . ونحن نستعمل هذه العبارة « إكراماً لله » ، فلا تكون فى نظرنا سوى عبارة فقط . ولكن الدين يأخذ الألفاظ مأخذاً حرفياً . الدين يدل على أداء الأفعال لإكراماً لله for God's sake ، فينكر المرء لذته الشخصية أو يتقبل العذاب العظيم فى سبيل ذلك المدبر النهائى والكلئى ، وهو الله . واعتقد أن هذا الشيء العميق فى الدين ، هذه الرؤية vision التى بدونها تكون روح الأخلاق مجرد حساب ، هى الشيء البارز فى ديانة اليهود .

آرييل : نعم ، إنى مندهشة كيف تحدثنا هذا الحديث الكثير عن الدين دون أن نذكر شيئاً عن أعظم الأهم تدبيراً فى التاريخ . حدثنا عن اليهودية يا إستر . إستر : ليست القصة كلها بديعة ، ذلك أن هذا الدين الذى يعد أعمق الأديان قد بدأ بالأنيمية والخرافة كما وصف سير جيمس . وكان أقدم من نعرفهم من اليهود يعبدون الصخور والأغنام والماشية وأرواح الكهوف والآبار (١) . كانوا

ييجلون التائم fetiches مثل التراقيم ، وهى أصنام كانوا يحملونها تشبه معبودات الرومان المنزلية المسماة « لاريس Lares » ، كما كانوا يمارسون ضرباً من السحر البدائي . وكانوا يطلعون على إرادة الآلهة بإلقاء زهر من صندوق (١) .

أندرو : ولا نزال نلعب هذه اللعبة لمعرفة إرادة الآلهة .

إستر : وكان لعبادة الأعضاء التناسلية نصيب كذلك . فالشعبان والنور كانا رمزين تناسليين ، وكانوا يتصورون الرب « بعل » Baal كبدل الذكورة الذى يخصب الأرض الأثني (٢) . وتكاد جميع الأعياد اليهودية تشتق من طقوس الزرع : المازوت Mazzoth (عيد الشعير) ، والشبوت shabuoth (عيد الحصاد) ، والسوكوت Sukko:h (عيد المظلة) ، كانت تحتفل فى الأصل ببدء حصاد الشعير ، ثم نهاية حصاد القمح بعد ذلك بخمسين يوماً ، ثم قطاف الكروم (٣) وكان « الفصح Pesach » عيد أول نتاج القطعان : فيضحى بحمل أو جدى ويؤكل ، ويلطخ الباب بدمه ترضية للإله الجائع . وأصبح هذا العرف يفسر فيما بعد بأن الله قد ذبح أبكار المصريين ، ونجى بنى إسرائيل الذين علّمت أبوابهم بدم الحمل . ولكن هذا التفسير من اختراع الكهنة . ذلك أن عيد الفصح كغيره من الأعياد مأخوذ من الكنعانيين المقهورين ، الذين كانوا يقدمون الجدى قرباناً لربهم المحلى . وكان الحمل فى الأصل طوطم قبيلة كنعانية ، ثم انتقل إلى المسيحية وأصبح كـ « حمل الله Agnus dei » ، رمز المسيح . وهناك بقايا طوطمية أخرى كتمثيل يهوه ثوراً ، وتحريم أكل لحم الخنزير ، ومن الظاهر أن ذلك كان يرجع إلى أن الخنزير البرى كان طوطماً لليهود الأوائل .

أندرو : ما هذا ؟ كنت أظن أن الأمر أمر صحة لا طوطمية . فى جميع الشرق الأدنى الخنزير محرم خشية الحمى الترخينية Trichinosis .

إستر : إن روبرتسون سميث وسلامان ريناخ ، وهما لا يتفقان أبداً إذا استطاعا ، يتفقان فى رفض النظرة التقليدية . وعلى العموم فليس فى التوراة

Reinach, p. 177. (١)

Smith, W.R., p. 101. (٢)

Reinach, p. 184. (٣)

آية إشارة إلى مرض يفسر على أنه راجع إلى أكل حيوانات غير نظيفة . فالمرض يرجع إلى لعنة الأرواح ، وعلاجه الصحيح هو الرقية . أما حفظ الصحة فهي فكرة إغريقية . ستدهش يا أندرو حين تجد أن ريناخ يعد التفسير الصحي على أنه « علامة على الجهل » (١) .

أندرو : الحق لقد قرأت ذلك فيما كتبه رينان .

إستر : إن ريناخ يسخر من رينان .

أندرو : سيسخر علماء الإنسان يوماً ما من ريناخ . ولست تخيفني بهذه الحواجز من أسماء الثقافات . فثمة كثير جداً من العناصر الصحية في الشريعة الموسوية بحيث لا يكون من غير المعقول اعتبار تحريم الخنزير مسألة صحية . ومع ذلك امض في حديثك يا إستر ، فهناك على الدوام احتمال ضئيل أنني على خطأ .

إستر : الوصايا العشر في الشريعة المسماة بالموسوية عنصر أشرف بكثير من هذه الصحة المزعومة . ومع ذلك فهذه الوصايا أيضاً كانت بدائية ومحدودة . كانت الوصايا العشر شريعة للقبيلة لم تبلغ بعد مرتبة الإنسانية التي كان عليها انتظار إرسال الأنبياء . فالوصية القائلة : « لا تقتل » لم يكن معناها منع الحرب ، إذ أن يهوه كثيراً ما كان يأمر أو يقر الذبح بالحملة .

كلارنس : وأعلنوا الحرب على المديانيين midianetes كما أمر الرب موسى ، وقتلوا كل ذكر . . . وقال لهم موسى : « هل أقيم كل أنثى حية ؟ . . . فالآن اقتلوا كل ذكر من الأطفال ، وكل امرأة عرفت رجلاً » (٢) .

إستر : نعم : لقد نشأت أخيراً من تلك الوحشية أرفع مثل أخلاقية عبر عنها أي إنسان ؛ وكانت الشريعة الموسوية قوة دافعة في ذلك التقدم ، فهي التي كونت خلق اليهود القوي ، ومكنتهم بتنظيم الحياة ومتانة الفلسفة من تخطى جميع البلايا التي أنزلها هذا العالم المسيحي عليهم . كانت أول شريعة جعلت النظافة في المرتبة الثانية بعد العبادة ، واعتبرت بدن الإنسان هيكلًا تجب العناية به بنفس

Reinach, p. 18. (١)

Numbers, xxxi, p. 7, 15, 17. (٢)

الاهتمام الدينى الذى نعى فيه بالنفس . وغالباً ما يصفونها بأنها لا تفضل كثيراً قانون حمورابى ، ولكنها كانت أول قانون منظم وضع أساس الرفق بالعيد ، وكان فى اصطناعهم اليوبيل الخمسينى نفحة تكاد تكون اشتراكية . « والأرض لاتباع البتة لأن لى الأرض . . . وتقدسون السنة الخمسين ، وتنادون بالعق فى الأرض لجميع سكانها . ستكون لكم يوبيلاً وترجعون ، كل إلى ملكه ، وتعودون كل إلى عشرته » (١) . كان ذلك مثلاً أعلى لا يمارس بالفعل ، ولكن الأهم الأخرى لم تحظ حتى بالمثل الأعلى .

أما عن « السيد » السفاح يهوه الذى جاء ذكره فى حديثك يا كلارنس ، فقد كان رب الحرب ، وليس إلا أحد الآلهة القبلية عند قدماء اليهود . ومن أقوال إرميا : « لأنه بعدد مدنك صارت آهتلك يامهوذا » وعندما قالت نعى لراعوث : « لقد رجعت سلفتك إلى شعبها وآهتها » أجابت راعوث : « شعبك شعبي ، وإهلك إلهي » . ذلك أن تغيير القبيلة كان يحمل معه تغيير الإله (٢) واستمر هذا التعدد فى الآلهة حتى الزمان الذى دونت فيه أسفار موسى الخمسة ، لأن قصة الخلق كانت تروى أولاً منسوبة إلى يهوه ، ثم بعد ذلك منسوبة إلى « إلهوهم » وهو اسم جمع للآلهة . وكانت هذه الأسطورة الخاصة بالخلق وجنة عدن شائعة فى شعوب آسيا الصغرى زمناً طويلاً قبل أن يدونها كهنة (بيت الرب) Temple فى التوراة فى القرن السابع قبل الميلاد . فهى موجودة عند الفرس ، والفينيقيين ، والكلدان ، والبابليين ، وغيرهم . وكتب هزيرود سنة ٨٠٠ قبل الميلاد يحكى الصورة الإغريقية للخرافة ، فقال : جزر السعداء ، حيث تنمو شجرة تحمل تفاحاً ذهبياً يهب الناس الخلود .

سيدا : وعند شعبنا أسطورة مماثلة . فكتب الفيدا تحكى كيف أن سيفا siva أنزل شجرة تين من السماء وأغرى المرأة أن تغوى بها الرجل باعتبار أنها تكسب الخلود . وأكل الرجل ، فأنزل سيفا عليه اللعنة ، وقضى عليه بالبؤس والشقاء (٣) .

(١) سفر اللاويين -- Leviticus, xxv.

(٢) Allen, p. 181 ; Smith, W.R., p. 37.

(٣) Doane, T.W., Bible Myths, p. 12.

كونج : في أحد الكتب المقدسة عند قدماء الصين ، المسمى تشى كنج ، يوجد النص الآتى : « كانت جميع الأشياء أول الأمر خاضعة للإنسان ، ولكن امرأة ألقت بنا في ذل العبودية برغبتها الطامحة في المعرفة . لم ينزل شقاؤنا علينا من السماء بل من المرأة . لقد أهلكت الجنس البشرى . ألا ما أشقاك يا بوسى . لقد أشعلت النار التي تحرقنا ، والتي لا تزال كل يوم في ازدياد » (١) .

فيليب : وراء جميع هذه الأساطير يشعر المرء بأن المرأة والمعرفة هما أصل جميع البلاء ، وهما القاتلان للحياة البريئة السعيدة . وتجد هذه النعمة تسرى في جميع صفحات التوراة حتى تبلغ التهمك على المرأة في سفر الجامعة (٢) ، ثم هذه العبارة الرهيبة : « لأن في كثرة الحكمة كثرة الغم ، والذي يزيد علماً يزيد حزناً » وحتى المسيح كان يزدري الصلة الجنسية ، ومجد حكمة الأطفال .

كلارنس : حسناً ، في هذا الكلام كثير من الصواب . فهل نحن سعداء كما كنا حين كنا جهلاء ؟ ولماذا نحب وجوه أطفالنا الصريحة ؟ لعل ذلك لأننا نخسدهم على تحررهم من شهوة الجنس ومن المعرفة . ولكن لا تسمحى لنا بمقاطعة قصصك يا إستر .

إستر : لم تبق إلا مسألتان : لقد أعطى اليهود للعالم التوحيد ، وأول تبشير بالعدالة الاجتماعية . كانت الصفة القبلية للآلهة القديمة راجعة إلى العزلة الاقتصادية واستقلال الجماعة من جهة ، ولأن كل إله متنافس كان السلف المعبود في قبيلة معينة من جهة أخرى . ثم أدى نمو التجارة وما ترتب على ذلك من نمو الترابط الاقتصادي إلى تحالف القبائل واندماج الآلهة . وأخيراً أصبح من الممكن التفكير بلغة الإنسانية كلها ، وبإله واحد . وكان إشعيا Isaiah أول من عبر عن الله الأكبر ، وهو إله يكاد يكون جديراً بكونه برنيتوس : « هوذا السيد الرب من كال بكفه المياه وقاس السموات بالشبر وكال بالكيل تبر الأرض ووزن الجبال بالقبان والآكام بالميزان . . . هوذا الأمم كنتمطة من دلو . . . هوذا الجزائر يرفعها كدقه » (٣) والتطور الذي جاء بعد ذلك هو تصور أيوب الله على أنه نظام

Ibid., 14. (١)

(٢) الجامعة Ecclesiastes هو ابن داود الملك في أورشليم (المترجم) .

(٣) Isaiah, xl (إشعيا - الإصحاح ٤٠) .

الكون . وهنا نجد أن ديانة اليهود بعد أن بدأت بالسحر والخرافة قد ارتفعت إلى آراء سينوزا السامية ، ومهدت الطريق للعلم الحديث . ولكن الفكرة التي كانت أعظم حتى من فكرة أحدية الله والنتيجة الطبيعية لها ، فهي فكرة وحدة الإنسانية ، ونهاية الحروب ، وانتشار العدالة الاجتماعية .

كلارنس : خروج الحرب على القانون مسألة سننظر في أمر البحث فيها .

إستر : ذهب عاموس إلى أورشليم ، و « وقف بالبواب » (في جانب الشارع كما نقول اليوم) وأعلن دين الإنسان الجديد . « لذلك من أجل أنكم تدوسون المسكين وتأخذون منه هدية قمح بنيتم بيوتاً من حجارة منحوتة ولا تسكنون فيها وغرستم كروماً شبية ولا تشربون خمرها لأنى علمت أن ذنوبكم كثيرة . . . وبل للمستريحين في صهيون . . . المضطجعون على أسرة من العاج والمتمددون على فرشهم . . . » فهذا كله لن ينفعهم في تقديم الضحايا لبيت الرب ، لأن الرب سيقول لهم : « بغضت وكرهت أعيادكم ، ولست ألتذ باعكاتكم . إني إذا قدمتم لي محرقاتكم وتقدماتكم لا أَرْضِي ، وذبائح السلامة من مسمناتكم لا ألفت ليها . أبعد عني ضجة أغانيك ونغمة ربابك لا أسمع . وليجرح الحق كالنسياء والبر كنهر دائم » (١) أو استمع إلى إشعيا يقول :

« الرب يدخل في المحاكمة مع شيوخ شعبه ورؤسائهم . وأنتم قد أكلتم الكرم . سلب البائس في بيوتكم ؟ . . . وبل للذين يصلون بيتاً ببيت ويقرتون حقلاً بحقل . . . فصرتم تسكنون وحدكم في وسط الأرض . . . وماذا تفعلون في يوم العقاب حين تأتي الهلكة من بعيد ؟ إلى من تهربون للمعونة وأين تتركون مجدكم ؟ . . . لماذا لي كثرة ذبائحكم يقول الرب . أتخمت من محرقات كباش وشحم مسمنات . . . أعيادكم بغضتها نفسي . صارت على ثقلاً . مللت حملها . فحين تبسطون أيديكم أستر عيني عنكم . وإن كثرة الصلاة لا أسمع . أيديكم مألانة دماً . اغتسلوا تنقوا . اعزلوا شر أفعالكم من أمام عيني . كفوا عن فعل الشر . تعلموا فعل الخير . اطلبوا الحق ، أنصفوا المظلوم ، اقضوا لليتيم ، حاموا عن الأرملة » (٢) .

(١) Amos, v, 11, 21 f. ; vi, 1-4. (عاموس)

(٢) Isaiah, i, 11 f. ; iii, 14 ; v, 8 ; x, 1 f. (إشعيا)

أندرو : هذا بديع ، ما هذا الأسلوب ، وما هذه القوة .

إستر : لن تجد في تاريخ الدين أو تاريخ الأدب أبدع من ذلك . لقد منح الإغريق ، كما قال رينان ، العقل الحرية ، ولكن اليهود وهبوا الناس الأخوة . حصل الإغريق على الثقافة ، ولكن لم يكن لهم قلب ، حتى إن فلاسفتهم دافعوا عن الرق . أبدع الإغريق الفن والعلم ، ولكن بقي على اليهود أن يقدموا للعالم فكرة العدالة الاجتماعية وحقوق الإنسان . وبهذا الإيمان ستظفر إسرائيل الصغيرة النائية وسط الإمبراطوريات القديمة والمتضايقة وسط الدول الحديثة بالنصر في النهاية . واليوم فإن الشعوب التي قهرتها أو استبدت بها تنحني لروحها ، وتطلع إلى المثل التي وهبتها للعالم .

أندرو : من أشجعيا إلى تروتسكى .

إستر : نعم ، ستكون الاشتراكية دين العالم حين تموت المسيحية (١) .

٤ — المسيحية

آرييل : إنك مذهشة يا إستر . إنك تجعلينى فخورة بشعبي . والآن من تحدثنا عن المسيحية ؟ لست أنت يا أندرو الطروب ، لأنك لن تفعل أكثر من التماس عيوبها ؛ ولا أنت يا ماتيو ، لأنك تحبها كثيراً . ولعل فيليب الذى يستطيع الابتعاد عن التحيز إذا حاول ، يقدم لنا بعض الأسس التاريخية ، ثم نستطيع بعد ذلك أن ندخل فى معركة حامية . أتوافقون ؟

ماتيو : لقد استمعت صابراً إلى هذا الوقت ، وأستطيع أن أستمع أكثر من ذلك . وأقرر مما سمعت أن الدين المقارن مذبح يضحي عليه كل دين . أما فيليب فهو مخطيء دائماً ، ومع ذلك يغتفر له دائماً .

فيليب : إنك تتحدث كمسيحي يا ماتيو ، ولكنك ستندم حالا على شفتك . ويسرنى أن أرى آرييل تعترف بأهمية وضع المسيحية فى الموضع الصحيح من النظر الشامل . فكما يحب بعض الحاضرين معنا أن يقول : « النظرة الشاملة

(١) المؤلف مسيحي ، ولكنه يحكى أحلام إسرائيل على لسان هذه اليهودية . وقد كتب هذا الكلام عام ١٩٢٩ فى الطبعة الأولى لهذا الكتاب أى قبل قيام إسرائيل بمدة طويلة (المترجم) .

هى كل شىء . . لقد نشأت المسيحية من تيارين كبيرين معقدين من الظروف التاريخية : الأول نمو طبقة عاملة لا حيلة لها ولا أمل ، والاستغلال الصناعى والتجارى فى بيت المقدس والإسكندرية وأنطاكية وأثينا وروما . والثانى اتصال واندماج أفكار اليهود الأخلاقية ، والتى أحسنت إستر وصفها ، بأفكار الإغريق الفلسفية والدينية .

ومن قبل أيام سليمان أدى مركز أورشليم الكائن فى مفترق الطرق التجارية الكبرى التى كانت تربط بين فينيقيا والخليج الفارسى وشعوب البحر الأبيض بأشور وبابل وفارس ، إلى نمو المؤسسات والمطامع التجارية بين اليهود ، وإلى توسيع الهوة بين الأغنياء والفقراء . وكان اليهود الذين رجعوا من بابل معدمين . وقام الفاتحون من الإغريق والرومان بغارات وحشية على هذا الشعب العاجز واسترقوا منه الشباب بالآلاف . وفى طفولة المسيح باع الرومان مدناً بأسرها بالقرب من الناصرة فى أسواق العبيد . وفى كل مكان من ثغور البحر الأبيض الكبرى كانت تظهر طبقة من المعدمين ، وبدأت تتكون فيما بينهم نظرة دينية معادية ومضادة لنظرة أسيادهم . أما الأغنياء فقد كانوا يؤيدون ، على الرغم من أنهم كانوا بينهم وبين أنفسهم لا أدرين ، العبادات والعقائد الموروثة . أما الفقراء فقد اصطنعوا قانوناً أخلاقياً جعل من ضعفهم وبؤسهم وفقرهم فضائل ، واتخذوا ديناً بلغ ذروته فى جنة ينعم بها العازر المعدم ، ونار يشقى فيها Dives الغنى المليونير . ومن هنا جاء تشهير نيتشه بالمسيحية على أنها تغليب نوع أدنى من البشر على نوع أرقى . وكانت الطبقة العاملة على استعداد لتقبل دين يقف إلى جانب الضعيف ، ويبشر بفضائل ذوى القلوب الوادعة المتواضعة ، ويمنح الأمل فى جنة يعوض فيها صاحب الحظ السيئ فى الدنيا بسعادة أزلية . إن أعظم مشكلة دقيقة تواجهها المسيحية الحديثة هو التوفيق بين اعتمادها على الأغنياء وبين ولائها الطبيعى للفقراء .

وفى ضوء هذا الأساس من الظلم والفقر أرى شيوعية وأخلاق المسيح . ذلك أنه كان ولا ريب شيوعياً ، يعتقد أن جميع الأشياء الضرورية ملك للجميع ، وأن الغنى يجب أن يشارك الفقير فى كل شىء ، ولو كان حياً اليوم كما قال نيتشه لكان مصيره أن يرسل إلى سيبيريا . ولكن أى إنسان ، غنياً كان أم فقيراً ،

يقرأ قصته البسيطة كما يرويها الرسل الأولون لا يملك إلا أن ينجذب نحوه ، فهو أعظم الشخصيات التي لا مثل لها في التاريخ مبعثاً على الإعجاب بها . وللأسف أنه ارتبط بدين وكنيسة ، ولو أني أزعـم أن ذلك كان ضرورياً . إذ حين تختفي تلك الكنيسة وذلك اللاهوت فقد تنسى البشرية معلمها العظيم .

ويمثل مذهبه الأخلاقي التصورات الأخلاقية لأشراف اليهود في صورة مصفاة وسامية . وقد بين كلاوسنر كيف أنه كان صورة كاملة لزمانه ، وكيف ورث تقاليد البطولة التي عرفت عن أنبياء وحكماء إسرائيل ^(١) . فنحن نجد أن هليل Hillel ، وهو جد غملائيل Gamaliel الذي علم التديس بولس ، يتكلم أحياناً بنفس ألفاظ المسيح قبل ظهوره بحيل ، وذلك مثل قوله : « لا تحكم على جارك قبل أن تضع نفسك في موضعه » . « خضوعي هر مجدي ، ومجدي هو خضوعي » « لا تفعل بغيرك ما لا تحب أن يصنعوه بك ، هذا هو كل الشريعة — ليس الباقي إلا شرحاً » ^(٢) . وكما قال فلهوزن : « لم يكن المسيح مسيحياً بل يهودياً » . وقال رينان : « المسيحية أروع ما أبدعته اليهودية » . أو هي بعبارة هيني : بدعة يهودية ^(٣) .

ومع ذلك فقد أضافت المسيحية إلى اليهودية مذهباً يفسر إلى حد كبير بجانب شخصية وأسطورة المسيح انتصارها . ولم يتكلم المسيح كثيراً في بداية تبشيره عن عالم آخر ، بل عبر عن ملكة السماء بعبارات دنيوية ، أو كتصفية خالصة للنفس . ولم تكن فكرة خلود النفس جزءاً من عقيدة اليهود التاريخية ، ذلك أن اليهود في أيام أسسهم وقوتهم كانوا يعلمون الفرد أن يمزج نفسه بالجماعة ، وأن يكون عمله لنجاة نفسه أقل من خلاص الدولة ، فجعلوا بذلك فكرة خلود النفس تكاد تكون غير ضرورية . وكان أيوب أول نبي من شعبه أنزل خلود الشخص منزلة الاعتبار . لأنه لم يكن يستطيع التمسك بإيمانه في إله طيب دون أن يفترض أن الله في العالم الآخر سيحسن جزاء من أتى وتعذب في الدنيا .

Klausner, J., Jesus of Nazareth, Book viii and passim. (١)

Reinach, p. 204. (٢)

Klausner, p. 363 ; Renan, E. History of the People of Israel, vol. v, p. 355. (٣)

ولما فقد اليهود كل أمل في النصر في هذا العالم ، ظهرت فكرة الجنة التي يلقون فيها عوضاً في كتب الحكمة ، أخنوخ ودانيال . ولم يختلف الأمر عن ذلك مع المسيح ، ذلك أنه حين يؤس من تأسيس مملكة السماء في الأرض وضعها في الجنة ، وبشر بيوم الدينونة Last Judgment الذي يقضى فيه على نصف الجنس البشري بما فيه من معظم النساء الحميلات في كل عصر بحجيم أبدى لن تنطفئ ناره أو ينقطع عذابه .

ماتيو : لست أرى فيما صورته السيد ابن الله .

فيليب : لعل صورتى وصورتك كلتاهما خطأ يا ماتيو . ومن يدري ؟ فهذا هو جمال الفلسفة ، أنك لا تجد فيها شيئاً يقينياً ، ولذلك لا يقتل الفلاسفة أحدهم الآخر ، ولا يزجون بالناس في الحرب . فإذا كنت أرى مرارة في المسيح في عهده الأخير فذلك لأنى أراه قائماً على أساس من مذهبه الأخلاق نفسه ، وأحكم عليه بالكمال الذي يكاد يكون مستحيلاً والذي كان يبشر به . تلك المثالية الأخلاقية هي عندى جوهر المسيحية ، وهى ولا نزاع أعظم مساهمة في تخضير البشرية . ولا يزال عجبى قائماً كيف تولد في النهاية من القرد والغابة إنسان قادر على تصور البشرية كلها كفرد واحد ، وعلى محبتها وتحمل العذاب في سبيلها بما لا حد له .

ماتيو : ألا ترى يا فيليب أن الإرادة الإلهية وحدها هى القادرة على تحمل مثل ذلك العذاب أو معرفة مثل ذلك الحب ؟

فيليب : ومع ذلك حتى هنا يجب أن نختلف ، لأن مذهب المسيح الأخلاقى هذا لا يجب أن يؤخذ على إطلاقه ، إذ فيه عناصر هى موضع للتنازع مهما تكن سامية . وقليل منا هم الذين تبلغ بهم الشجاعة حد التصريح بما يعتقدونه في قلوبهم — إن شريعة المسيح إذا أخذت كاملة كانت غير عملية . فمن المستحيل أن « لا تفكر في عيشك ، ماذا تأكل أو ماذا تشرب » . فنحن لا يمكن أن نعيش كالطيور في الهواء ، بل أشبه بالزنابق في البستان . فمن العسير أن يحب أحدهنا جاره كنفسه ، ومن المستحيل أن نحب أعداءنا . إن الدعوة إلى عدم المقاومة في عالم يتكون الناس فيه بالانتخاب الطبيعى والكفاح في سبيل الحياة

هى دعوة إلى العدوان والاستعباد . وإن شعباً يحب أعداءه ، فخصيره أن يمحى من على وجه الأرض .

كونج : كان لاوتسى أيضاً يعلم : « أحب أعداءك » . ولكن كونفوشيوس قال : « وماذا إذن تكافىء الرحمة ؟ كافىء المحسن بالإحسان ، والمسىء بالعدل » .

بول : يجب أن تذكر أنه حتى إذا كان مذهب المسيح يبدو مسرفاً فى الكمال بالنسبة للبشر ، فقد كان ذلك هو الأمر اللائق بما يطلبه عالم بربرى . كانت وظيفة المسيحية الجوهرية أن تهذب بفرض هذه الوداعة المتطرفة التوحش الطبيعى فى جنسنا البشرى . وقد أثمرت ألفا سنة من التبشير بعض الثمار الطيبة . فأنا أعتقد أننا اليوم أشفق ، وأكرم ، وأحب للسلم من الإغريق أو الرومان : فقد خففنا من وطأة الاستغلال ، وقللنا أظافر التوحش ، وسمنوا نخلق الإنسان .

فيليب : يخطر ببالي أحياناً أن المسيح حين كان يبشر بهذه الأساليب الكاملة قد كان ينظر إلى خاصة رسله وحوارييه ، وفكر أن يمنحهم نظام رهبنة قد يحصنهم من صنوف الفتن فى العالم . كذلك فكر أفلاطون فى حماية ملوكه الفلاسفة بنظام يكاد يكون شيوعية زاهدة . يقول المسيح لأتباعه ألا يتزوجوا ولا يقتنوا . إنه ينظر إليهم كأنهم رهبان فرنسيسكان . كان يعرف كما نعرف أن معظم الناس سيستمرون فى إدمانهم الباطل على اقتناء المال والزواج من النساء . إن سوء فهم مذهبهم على أنه المقصود به جميع الناس هو الذى ألقى بالمسيحية فى أحضان نفاق لئذ ليس له من الوجهة العملية أثر فى العالم .

أندرو : ما لا أحبه فى هذا المعلم النبيل هو عداوته للحسد ، وقلة اكترائه بالمتع البسيطة لغرائزنا الإنسانية . أحسب أنه « بيوريتانى » يهودى .

ماتيو : إنك تسمى فهمه ، فلم يحتقر أن يحيل الماء خمرأً فى قانا Cana . وقد لامه خرقاء أهل زمانه لتساهله مع جامعى الضرائب المرتشين والمجذليات الخاطئات . كان يفهم خطايا الحسد فى حنان كحنان الأم . لقد نسيت قصة المرأة التى اتهمت بالزنا .

فيليب : صحة الرواية موضع شك يا ماتيو . ومع ذلك فمجرد تدوينها دليل

على أن الرفق بالمرأة جزء من وصف المسيح . الحق أن يتحول في خلال قرن أو قرنين ذلك المحتقر بقلبه للأغنياء والمحب بإخلاص للفقراء إلى بطل لأسطورة لاهوتية ، لدليل على ظمأ البشرية الدائم للخرافات ، وعلى قوة تأثير الأساطير القديمة في تكوين العقيدة المسيحية . ذلك أن فكرة ابن للإله ، ومخلص يولد من عذراء ، ويموت تكفيراً عن خطايا البشر ، ثم يبعث مرة أخرى من القبر ، من الأفكار الشائعة في كثير من الأديان قبل المسيحية ، أو مستقلة عنها : ففي الهند مثلاً « كرششنا » ، وفي مصر « حورس » ، وفي المكسيك « كتسالكوتل » Quetsalcoatl (١) .

تيودور : وكان بسطاء الإغريق يتصورون أورفيوس إلهاً مات ميتة فظيعة ، ثم ذهب إلى الجحيم ، وعاد بعد ذلك إلى الحياة . وتروى القصة ذاتها عن برومفيوس ، وأدونيس ، وهرقليس (٢) .

سير جيمس : يشيع في الأديان القديمة وجود آلهة يصبحون بشراً . وفي إمبراطورية الصين ، كانوا يحتفظون بسجل يكتب فيه جميع الآلهة المتجسدة ويحفظ في إدارة الأقاليم في بكين . وبلغ عدد الآلهة الذين منحوا حق الحياة على الأرض ١٦٠ . وترجع فكرة « المسيح المخلص Messiah » إلى كبش الفداء الذي كان الشعب يختاره ليموت تكفيراً عن خطاياهم وترضية لآلهة الأرض والسماء كي ينمو القمح مرة أخرى . وهي فكرة تتردد عند كل شعب (٣) .

إستر : في القرن السابع عشر ادعى زباتاى زيني أنه المسيح الذي أرسله الله لتخليص اليهود .

سير جيمس : عندنا حالة أحدث من ذلك بكثير ، فحوالى عام ١٨٣٠ ظهر رجل في كنتاكي زعم أنه ابن الله ومنتقد البشرية . واعتقد فيه آلاف من الناس وشاع إنجيله ، إلى أن طلب منه أحد أتباعه أن ينزل رسالته باللغة الألمانية على التيوتون الموجودين في الإقليم ممن كانوا يجهلون اللغة الإنجليزية ، وحرام أن يذهبوا

Doane, op. cit., pp. 111 f. (١)

Ibid. (٢)

(٣) Frazer, pp. 93, 103, 580 f.

إلى النار لذلك السبب . ولكن « المنتقد » الحديد اعترف بأنه لا يتكلم الألمانية .
عندئذ صاح أحد أتباعه متعجباً : « ماذا . أنت ابن الله ، ولا تعرف حتى الألمانية !! »
وكان ذلك خاتمة مسيح كنتاكي (١) .

فيليب : بعد أن جعل قدماء المسيحيين السيد المسيح إلهاً اضطروا إلى
استخدام بعض الحيل اللاهوتية لمواجهة مطلبين : الأول التماثل المنطقي للععدد
المقدس ثلاثة ؛ والثاني العقيدة التوحيدية . كان العرف السائد عند اليهود مؤدياً
بالطبع إلى التوحيد ، ولكن إله اليهود كان إله حرب وقوة ، وكان طغام المدن
الذين اتجهت المسيحية إليهم يطلبون إلهاً للتسامح والشفقة والمحبة . وهكذا مات
يهوه ، وولد « الإله الأب » . ولكي يوفقوا بين ملكه العام وبين وجود الشركاء ،
كان لابد من اختراع ، على طريقة الفرس ، إله للشر - هو الشيطان ،
أو إبليس . وفي الوقت نفسه كان لابد للعقيدة الجديدة أن تتلاءم مع العرف
الحارى بين شعوب البحر الأبيض من عبادة ثالوث من الآلهة . فقد عبس
الهندوس ، والمصريون ، والفينيقيون ، والآشوريون ، والرومان ثلاثة آلهة على
أنها ثلاثة . ولكن النزعة إلى الوحدة وبخاصة بين اليهود تطلبت تركيب آلهة المسيحية
الثلاثة في ثالوث ، وقام فلاسفة الإسكندرية بهذه المهمة في ضوء الفلسفة
والأساطير الإغريقية . وهكذا أول المثقفون من المسيحيين الدين الحديد تأويلا
توحيدياً ، على حين رأى العامة فيه لوناً جديداً بديعاً يختلف عن معبوداتهم المتعددة .
وحلت مريم محل فينوس ، وأفروديت ، وعشتار ، وإيزيس ، و« الأم الكبرى »
في عبادة فرجيا . وأصبح مارس ميكائيل كبير الملائكة ، ومركورى روفائيل
وجبريل . وفيما بعد ولى القديسون كورثة للآلهة الوثنية الصغرى ، فلكل أمة ،
ولكل مدينة ، ولكل طائفة قديسها الحامى ذمارها كالألهة المحلية في الزمن القديم .
وهكذا تجددت نزعة البشرية الطبيعية إلى تعدد الآلهة .

وكذلك بقيت الأعياد القديمة ، واندجبت بحكمة أعياد مثل عيد الموق
All Souls ، والقديس جورج ، والقديس يوحنا المعمدان في أعياد قبل المسيحية .

وضم عيد القيامة عيد الفصح عند اليهود ، وعيد عشتار عند البابليين ، واحتفال الإغريق ببعث أندونيس . وكان عيد الميلاد Christmas في الأصل عيداً مصرياً خاصاً بمولد الشمس ، أى عند الانقلاب الشتوى حين « يتحرك » الفلك المقدس شمالاً ، وتأخذ الأيام تطول . وكان المصريون يمثلون مولد الشمس الجديد بتمثال طفل يبرزه الكهنة ويعرضونه على المتعبدين ^(١) . وتعبدت في الوقت نفسه الاحتفالات القديمة لتصبح ملائمة . كان التعميد من الشعائر البدائية التي كانت تدل على تكريس الصبيان لحياة الشباب ومزاياها . وكان ذلك التكريس يتخذ هيئة غمس تام في الماء ، ثم إنقاذ مزعوم من الغرق دليلاً على ميلاد جديد .

تيودور : في عبادة ديونيسوس كانوا يسمون المكرس « المولود مرتين » ^(٢) .

فيليب : لقد نشأ القربان المقدس ، كما بين سير جيمس ، عن عادة أكل الإله . وقد أخذ القداس فيما عدا التدشين من الشعائر التي كانت تقام في معابد اليهود ، وكذلك الملابس والأناشيد الكهنوتية اليهودية . وكانت الكنائس في أول أمرها معابد يهودية synagogues . وجيلاً بعد جيل أصبحت هذه الشعائر أدنى إلى التعقيد ، وأصبحت العقائد أبعد عن التصديق . وأخذت طبقة الكهنوت تقوى كمتخصصين لازمين في اللاهوت والشعائر ، ووسطاء بارعين بين المذنبين من الناس وبين إله لا يمكن أن يرضى عنهم إلا بساوك طرق معينة مقدسة . وساد في القرن الثامن عشر الاعتقاد بأن الكهنة هم الذين ابتدعوا الدين . فقد تساءل فولتير : « من ذلك الذي اخترع فن التأله ؟ » ثم أجاب : « هو أول محتل قابل أول مغفل » ^(٣) . ومع ذلك ليس الكهنة هم الذين أبدعوا الدين ، بل الدين هو الذي خلق الكهنة . ذلك أن ما في الإنسان من أمل وإيمان لا يمكن استنصالها هو الذي خلق الدين ، وسيخلقه على الدوام . ولكن الكهنة هم الذين خلقوا الكنيسة ، فقد نظموا أنفسهم في سلطة كهنوتية قوية تمول من أسفل وتحكم

Frazer, pp., 345;60. (١)

Kallen, Horace, Why Religion, p. 242. (٢)

Essai sur les Moeurs, in Reinach, p. 9. (٣)

من أعلى . وهم الذين نصرّوا قسطنطين ، وتحيلوا « الهبة Donation » (١) المشهورة ، وقبلوا وصايا غنية ، وأخيراً جعلوا كنيسة فقراء الصيادين وهم رسل المسيح أغني وأقوى منظمة عرفها العالم . وبلغ ما تملكه الكنيسة في عصر الإصلاح الديني ثلث الأراضي المزروعة في أوروبا ، وامتألت خزائنها بالمال . فلا غرابة أن تفقد روح « مؤسسها » وأن تهوى إلى الانغماس في كل متعة دنيوية ، وأن تتجر في الرتب الكهنوتية . لقد قلبت أوروبا المسيحية فضاعت صرامة العبادة القديمة الشرقية في الوثنية المولدة في عصر النهضة . ذلك أن الأديان تولد بين الفقراء ، وتموت بين الأغنياء .

وحاول « الإصلاح الديني Reformation » أن يستعيد ذلك الزهد القديم وتلك البساطة البدائية ، فنجح وجلب معه فردية محرّكة للهمم ، وفي الوقت نفسه قانوناً شديداً لتهذيب النفس أدى إلى بناء الخلق المستقل لم يسبق لقانون غيره أن أثمر هذه الثمار ، إذ يكاد العطاء في التاريخ السياسي والاقتصادي الحديث أن يكونوا من البروتستانت ، ولكن ثمن ما قام به الإصلاح الديني كان فادحاً إذ وضع الكتاب المعصوم محل الكنيسة المعصومة ، ولها لم يجد مثل هذه الكنيسة أباح للفرد تأويل الكتاب المقدس . وترتب على ذلك أن كل هرطيق أسس فرقة جديدة ، وانشقت البروتستانتية إلى مئات من الشيع . ثم إنها بمحاولته من تجديد المسيحية البدائية قد أعادت روح اليهودية ، وأدخلت في الأخلاق تزمّناً Puritanism شديداً وجافاً كاد أن يفسد الفن قرنين من الزمان . أعطتنا الكاثوليكية جمالا بلا حق ، وحاولت البروتستانتية أن تعطينا حقاً بلا جمال . وأحسب أن الجمال سينتصر في النهاية .

٥ — الكاثوليكية والبروتستانتية

ماتيو : « الجمال والحق » . ألم تفكر يا فيليب أبداً أن أحدهما ليس بأكثر موضوعية من الآخر ؟ فنحن لا يمكن أن نتفق حول الله : بأكثر مما يمكن أن نتفق حول ...

(١) يشير المؤلف إلى هبة قسطنطين المشهورة ، والتي زيفت في القرن التاسع ، وتذهب إلى أن قسطنطين حين اعتزل في البوسفور عام ٣٣٠ تنازل عن جميع حقوقه وأملاكه كإمبراطور للغرب إلى البابا في روما وخلفائه . ويقال أن شلمان أيد هذه الهبة (المترجم) .

أندرو : الإلاهات .

ماتيو : فليكن ، يا قليل الدين . اعلم يا أندرو أنك لا يمكن أن تحس بالدين لأنك لا تستطيع أن تشعر بالجمال المنفصل عن الرغبة ، ذلك الجمال العارم الذى تلبسه الأرض أحياناً فى الحريف أو فى بعض أيام الصباح المشرقة فى الشتاء حين تتحلّى كل شجرة بالثلج المتألق ، ويسطع كل سطح بالجليد . إن الحق ليبدو شيئاً هزيباً جداً إلى جانب مثل هذا الجمال . وكيف تعرفون أيها المتشككة التعساء أنكم قد حصلتم على الحق ؟ إن علمكم يتغير كل يوم ، وما يعرفه هذا العلم اليوم عن المادة أقل بكثير مما كان يظن أنه يعرفه منذ خمسين عاماً مضت . وينتقل علم الحياة من يقين إلى ضده كل ثلاثين عاماً ، ففى جيل كان كل شىء يرجع إلى البيئـة ، وفى الجيل التالى إلى الوراثة ، وفى الذى يليه إلى البيئـة . وتسود فى جيل نظرية التغير بالمصادفة fortuituous variations ، وفى الذى بعده نظرية التحول بالطفرة mutations . ويشيع فى جيل مذهب التكوين التناسلى pangenesis ، وفى الآخر الصبغيات والمورثات genes . وتسمع فى جيل أن القرد جدنا ، وفى الذى يليه انه ابن عمنا ، والذى بعده أنه هـلا يمت لنا بصلة القرابة أصلاً . إن علم النفس لا يعرف هل الشعور موجود أو لا ، والرياضة لا تعلم أيكون الخط المستقيم أقصر مسافة بين نقطتين . ثم تريد منى بعد ذلك أن أهجر كل الجمال الذى كشفت عنه نظرة المسيحية إلى العالم من أجل هذه « الحقائق » الآخذة فى الموت . ألا ترى أننا ذرات مغرورة حين نظن أننا نستطيع أبداً فهم هذا الكون ، أو إخضاع جميع أسرارـه وأموره المعقدة لقطعة صغيرة منه تسمى العقل البشرى ؟ وما عقلكم سوى الإيمان بالحواس وبالمنطق — الحواس التى تقطع أوصال كل ما تقرره ، والمنطق الذى يستطيع أن يجعل كل تحيز يبدو معقولاً .

أما أنا فأرى مجال الاختيار قليلاً جداً بين نظريات العالم على أساس صحتها ، وإنى لراض أن أحافظ على ذلك المذهب الذى يلهمنى بالجمال ، ويشد عزمى بالأمل . وحين تمحى جميع مذاهبكم ، سيظل الإيمان الذى أتمسك به يشعل قلوب مئات الملايين من البشر . ولعل أحفادكم يهتدون إلى الإيمان من هذه

اللاأدرية الباردة التي تورثونها إياهم . ويوماً بعد يوم يشق العالم الغربي من تلك الغلظة الشنيعة : « الإصلاح الدينى » . وسيعود كثير من فرق البروتستانت إلى الخطيرة بعد أن ملت الانقسام والتنازع ، وستنحل الفرق الباقية بالتهافت على التجديد (مودرنزم) ، وتحديد النسل . إن سرطان الفردية آخذ فى التهام الكنائس التي انشقت على روما . وعندما يدعى كل امرئ أنه حجة فى الفلسفة واللاهوت ، يحدث فى الدين ما يحدث فى الديمقراطية : التمزق والفوضى . وحين يحل الفرد محل الأسرة ، وتحل الإباحية محل الزواج والأبوة ، ينحط الجنس . ونحمد الله أن بين الكاثوليك رجالاً ونساءً لا يزال أحدهم موالياً لصاحبه إلى النهاية ، وأن الأطفال لا يزال متاح لهم أن يجعلوا من البيت نعمة بنموهم الرائع ولعهم السعيد .

بول : فى كلامك يا ماتيو الكثير من الحق ، فنحن البروتستانت يظهر أننا نفى أنفسنا بكثرة الشيع الطائفية ومنع الحمل . واليوم تبلغ نسبة الكاثوليك اثنين من كل خمسة مسيحيين فى أمريكا . إن معدل مواليدكم يقضى علينا ، وستكون البلاد لكم سنة ٢٠٠٠ إذا استمرت النزعات الحاضرة . سيكون ذلك خيراً من جهات كثيرة . فأنا أسلم لك بأن ديانتك أسعد وأجل من ديانتي . أسلم لك بأن النظرية الكاثوليكية عن الزواج فيها كثير من الحكمة ، وفى سلطة الكنيسة عندكم كثير من النبل ، وفى قساوستكم ورهبناكم القديسين محبة بديعة ورقة رقيقة . لقد تأثرت إلى أعماق قلبي بالسلطة التي كان من الظاهر أنها قابضة على أتباعها ، عندما رأيت المهندسين والعمال قد جاءوا زرافات من محطة بنسلفانيا الهندسية ، وركعوا فى خشوع على الأرصفة يطلبون البركة من الكاردينال مرسيه . ولن أنسى شخصية « المحقق الكبير » التي صورها دستوفسكى . وأكبر الظن أن الحياة بما فيها من علل وحرمان وخيبة أمل لن تكون محتملة بغير الشعر الذي كان إيمان العجائز يضيفه على نثر حياتنا الاقتصادية .

أندرو : ما دام الشعب يحب أن يخدع ، فلنخدعه .

بول : ولكنى أقول لك يا ماتيو بصراحة إننى أخشى مذهبك ، فلن أنسى قط أن كنيستكم أقامت فى الماضى محاكم التفتيش ، وأنها نفت كوبورنيق ،

وأخذت صوت جاليليو ، وحرقت برونو حيا مشدوداً إلى سارية في الميدان العام . وكثيراً ما وقفت في طريق تقدم المعرفة وتحرير العقل البشرى . ولست مرتاحاً حين أفكر أن كنيستكم إذا لم تحدث تغيرات كبيرة في معدل المواليد فيظهر أن مصيرها قبل نهاية هذا القرن أن تصبح العامل المسيطر على الحياة الأمريكية . إنها اليوم أقوى أقلية منظمة ؛ فهذه بوسطن ، موطن البيوريتان (المتمزتين) مدينة كاثوليكية ؛ وفيلادلفيا ، مقر الإخوان المهترزين ^(١) Quakers ، مدينة كاثوليكية ؛ ونيويورك موطن البروتستانت من الإنجليز والحوالنديين هي الآن مدينة كاثوليكية .

ماتيو : ألا تظن أن الوقت قد حان كي ننال حظنا ؟ — إنه بعد أن تحملنا بصبر الاضطهاد والعار من رجالكم وطوائفكم ممن لا يعرفون شيئاً فيجب أن نكافأ بالاحترام والقوة ؟ هذا وليس من الصحيح أن الكنيسة عارضت تقدم المعرفة ، بل إنما عارضت — وذلك زمان عزها وشعبيتها — الأفكار الضالة التي كانت ، أو ليست إلا بدعاً فكرية بنت ساعها . لقد رفضت أن تسمح لأتباعها بالسقوط في مهاوى فوضى العقل والنظريات التي تشيع في أوساط المفكرين المتقدمين في زماننا . حقاً وقفت سلطة الكنيسة في بعض الأحيان إلى جانب خطأ قديم . ولكن ماذا تريد من البشر ؟ ألم يضل قط الحزب السياسي الذي أيدته في الانتخابات الماضية ؟ وبعد فقد كانت الكنيسة أعظم قوة خلقية وفنية وفكرية في تاريخ أئني العام الأخيرة . كانت محاكم التفتيش نتيجة حركة الإصلاح الديني ، وكانت تلك المحاكم فرعاً مؤقتاً من الخوف وتأميناً للنفس . ثم من أول من أسس حرية العبادة في أمريكا ؟ ليس هم حجاج نيويإنجلند الذين أجمعوا على علاج الإخوان المهترزين Quakers بالحديد المحمي بالنار ، بل كاثوليك ماريلاند . أينا أكبر ذنباً في إشاعة الجهالية Obscurantism ^(٢) والعداوة للعلم الحديث — أهي الكنيسة الكاثوليكية التي لم يكن سلطانها في النمسا وبفاري

(١) فرقة دينية ليس لها عقيدة محددة أو سلطة كهنوتية منظمة ، أسسها جورج فوكس ١٦٤٨ ، وسمى أصحابها بالمهترزين لأن القاضي بنيت في دربي ، الذي وقف أمامه فوكس سنة ١٦٥٠ كان أول من ساهم كذلك ، حين أمر فوكس القاضي أن يهتز ويرتعد عند سماع كلمة الرب (المترجم) .
(٢) الجهالية مذهب من يعارض البحث والإصلاح (المترجم) .

وفرنسا عائقاً لحرية الفكر هناك ، أم الأصوليون (١) Fundamentalists من البروتستانت في أمريكا الذين سمحوا للمشرعين الريفين أو بسطاء الفلاحين بتقرير ما هو صحيح أو باطل في علم الحياة الحديث ؟ هل المجالس المعصومة أو الفلاحون المعصومون أفضل من الكنيسة المعصومة ؟

بول : هذه ضربة في الصميم يا ماتيو . ولا اعتذار عندى لهؤلاء القوم فهم الخندق الأخير في الدفاع عن الجهل ، وستذهب مدارسنا وجامعاتنا قريباً . أما بروتستانتيتي الخاصة فإنما هي ملاذ من الردة إلى الحرافات ، ولو أننا فآخرنا بالإلحاد في وجه شعب كان الله في حياة أفرادها البائسة الحقيقة العليا ، وكان خلود النفس عزاء لا غنى عنه ، فإننا ندعو بذلك إلى تعصب لحماية النفس ، ونسوق الجبناء إلى ألوان من التطرف يعوضون به عما يكتنف نفوسهم من وجل . وفي هذا الجو من تبادل البغض والخوف لا أجد أملاً في أن يلقى المذهب المتحرر الذي أعتنقه إلا فرصة ضعيفة للنمو ، فالعقل لا يجد رواجاً في أوقات الخطر . ومع ذلك فسوف ننصر ، لأن اتساع نطاق الطبقة الوسطى مع انتشار التعليم من الأمور المعينة لنا . وأكبر الظن أن انتصار الكاثوليكية العظم سوف يؤدي بالأحرار من كل لون إلى الاتحاد في ضرب من المسيحية المعتدلة لن تطلب من أتباعها شيئاً أكثر من الإيمان بالله والتمسك بأخلاق المسيح .

كلارنس : اعلم يا بول أن بروتستانتيتك مقضى عليها . يكفي أن تنظر إلى انحلالها ، فقد انشقت إلى آلاف من القطع المتناثرة ، إلى جماعات صغيرة عنيدة يحتضن كل منها هرطقته حتى تصبح مذهباً سلفياً لا يتحرك ، وكل منها يبغض ويزدري سائر الألوان الأخرى من فرق البروتستانت . وهذه قصاصة من جريدة نيويورك الصادرة في أول نوفمبر ١٩٢٨ ، تتحدث فيها عن البروتستانتية في الولايات المتحدة :

« من الظاهر وجود خمس جماعات من « المهيدين Adventists (٢) »

(١) فرقة من البروتستانت سميت كذلك لأنها أرادت أن تتمسك بأصول الديانة المسيحية والمحافظة عليها ، ويقابلها المتحررون modernists (المترجم) .

(٢) المهيديون فرق مسيحية تعتقد في ظهور المسيح مرة أخرى وقرب نهاية العالم (المترجم) .

وثماني عشرة فرقة من «التنصيرية Baptists» ، وخمس من الإخوان والألمان التنصيريين ، وست فرق من إخوان بليموث ، وثلاث فرق من إخوان النهر ، وثلاث فرق من الإخوان الاتحاديين ، وست فرق من أنصار الكنيسة الارثوذكسية الشرقية ، وإحدى عشرة فرقة إنجيلية ، وأربع فرق من الأصحاب Friends ، وثلاث وعشرين من اللوثرين ، وسبع عشرة من المينويين^(١) Mennonites ، وتسع عشرة من المهبجين^(٢) Methodists ، وتسع من المشيخين Presbyterians ، وأربع من الكنيسة المصلحة Reformed Church ، وأصناف أخرى متعددة كل صنف منها يبلغ من فرقة إلى ثلاث . . . مثل التنصيرية من أصحاب المبادئ الستة العامة ، والتنصيرية الاختيارية ، والتنصيرية النظامية ، والتنصيرية البدائية ، والتنصيرية القدرية ، وتنصيرية اليوم السابع ، والمينوية الأمانية^(٣) المحافظة Conservative Amish Mennonites ، والمينويين العزل ، والمينويين المستقلين عن الكنيسة . ونجد من المهبجين هذه الأصناف : البدائيين ، والمجمعيين ، والمقدسين ، والمصلحين . وهناك . . .

بول : كني يا كلارنس ، أنا مقتنع بأن البروتستانتية منقسمة ، فطريقتنا أن نترك الفرد ، في ضميره وفي جماعته ، حراً ليكون متميزاً ومنطقاً كما يهوى . وهذا أفضل من إلغاء التعدد بسلطة مركزية شديدة ولا رقيب عليها .

ماتيو : السلطة هي البديل عن الفوضى .

كلارنس : ستهلك البروتستانتية بسبب فقدانها البر الذي ترسو عليه والمركز الذي تجتمع حوله . إنها تقف في وسط الطريق بين الرومانسية والتربية . وما ذكره قولتير عن الشعب يصح قوله على الدين : يضع حين يتجه نحو العقل .

(١) هم أتباع سيمونس مينو Simons Menno (١٤٩٢ - ١٥٥٩) ظهر في فريزلاند ، وعدل مذهب اللاتنصيريين Anabaptists ، ولا تزال فرقته موجودة في أمريكا وهولندا وألمانيا (المترجم) .

(٢) أتباع جون وشارلي ويسلي Wesley ، نشأت في جامعة اكسفورد عام ١٧٢٩ . وسماوا كذلك لأن الفرقة تكونت من طلبة الجامعة ، فأطلق عليهم زملاؤهم هذا الاسم لاتباعهم منهجاً خاصاً في الدراسة . ثم نمت الفرقة على مر الزمن وانشقت على الكنيسة الإنجليزية (المترجم) .

(٣) الأمانية Amish ، أتباع يعقوب أمان أو أمين Ammanu or Amen ، وهو مينوي ظهر في سويسرا في القرن السابع عشر (المترجم) .

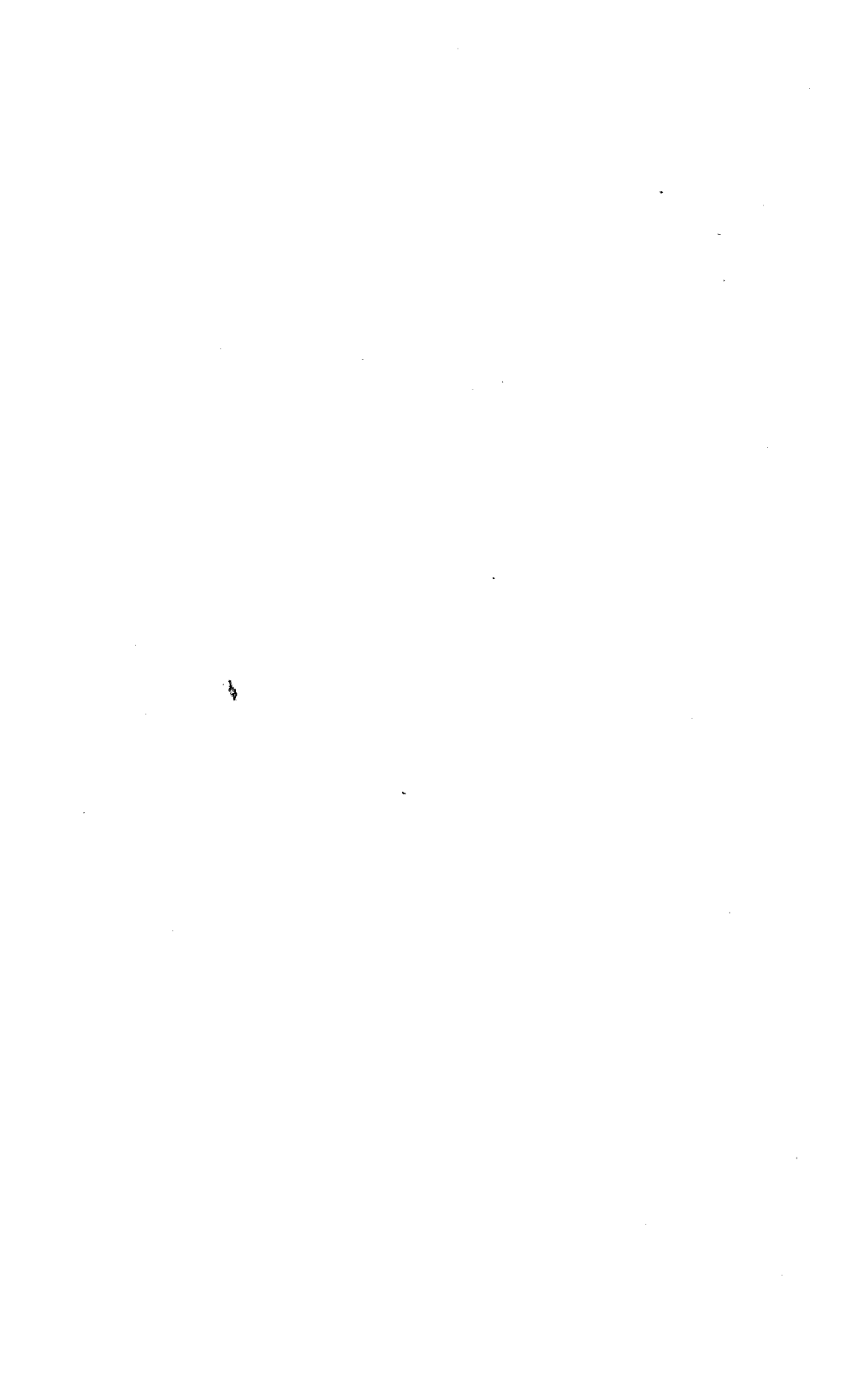
وقد كانت البروتستانتية تجرى في طريق الانحلال منذ أيام الإصلاح الديني . ذلك أن أعظم أعدائها هو انتشار تلك المعرفة التي يتصور بول أنها حليفته . أما تقدم العلم فلا يمس الكاثوليكية لأنها لا تخضع للعقل ، بل تقوم على الإيمان وتلعب على أوتار الحواس والخيال أكثر من الفكر ، فإذا انتشى الإحساس وتغذى الأمل ارتاح العقل وسكن ، وفي هذا سر الكاثوليكية . غير أن البروتستانتية لم تتجه قط إلى الحواس فيما عدا الأناشيد والتراتيم . فهي قد قضت على الحواس لنحشيتها منها ، فأغلقت أبواب المسارح وأسدلت الستار على الفن ، واستبدلت بدارما القداس منطق العظة الخاف ، وحاولت أن تضع الدين على أساس الحججة - وهو أعظم خطأ أمكنها أن تفعله . فلا عربة أن تتضاءل كنائسها على حين ستظل الكاثوليكية قوية كما هي الآن ، وأكبر الظن أن قوتها سيزداد في مستقبل الأعوام . ستتهشم البروتستانتية بين أحلام الحياة وعقل المفرد ، وسيكون مستقبل أمريكا كحاضر فرنسا الآن : قلة مسرفة في الشك ، وقلة غارقة في التدين وتقوى الله . وسيعيش المتحررون فوق بركان من الخرافات . ولن تكسب الكاثوليكية جانب الجماهير فقط ، بل إذا حل الفكر كنتيجة للتنافس الاقتصادي المريع أو فقدان حرب كبرى فستظهر ثانية الأساطير القديمة . ولا يزال الفلاحون في كل بلد يحبون أساطير القدماء ، ولا يزال البسطاء من الدهماء يعتقدون في الأرواح والخرمات والنذر السماوية . يقول الكسندر بركان إنه قرأ على جدران مجلس الدوما السابق في سانت بطرسبورج . . .

أندرو : بتروجراد .

إستر : لننجراد .

كلارنس : . . . هذه الأسطورة مخفورة في الحجر : « الدين أفيون الشعب Religion Is Opium For The People » . ولكنه أضاف أنه في الكنيسة الملحقة بالمجلس كانت الصلوات مقامة ، والمكان مزدحماً بالجمهور^(١) . لقد نسي الذي حفر العبارة أن الأفيون شائع في الشرق . أما في الغرب فليس الناس أفضل حالا . إذ في الوقت الذي تنمو فيه حرية الفكر بين القلة ، تظهر عبادات

جديدة كالحشائش التي تنبت في أرض الإيمان القديم البائرة . إنه لزمن عجيب لتأسيس دين جديد . وينتشر العلم المسيحي كأنه الدواء الوحيد ، لأن الشعب عازف عن قبول المسيحية أو العلم . أما التصوف الديني Theosophy فإنه يقلب الفاشلين من الكتبة والباعة إلى فقراء الهند . وقد رأيت في صحيفة حديثة ١٥٣ إعلاناً دينياً من بينها ٥٣ كانت تتصف بهذه الاعتقادات السحرية . أعلن رجل عن محاضرة عنوانها : « هل الشيطان كائن مشخص ، وهل سيقيد ويسجن وتغلق عليه أبواب الجحيم ألف عام ، وذلك في مسرح الطرب ، والدخول مجاناً ، وسيجيب المحاضر عن الأسئلة » . وهناك خرافة نرويجية قديمة تقول بأنه بعد فجر الآلهة ، أى بعد إهلاك المردة إياهم ، يظهر كون جديد ، وتبعث الآلهة إلى الحياة ثانية . وتكاد هذه الخرافة تحكى تاريخ العالم ، فالآلهة يرجعون دائماً ، ومن الشرق دائماً . فنحن نغرق في بحر من العبادات الجديدة الوافدة من الشرق كما كانت حال الإغريق والرومان في القرون الثلاثة قبل الميلاد ، أو كما غمرت أفريقيا وأسبانيا باتباع محمد . الحق أن الجماهير ستطلب على الدوام ديناً ينثر في غلالة من الصور ، ويحاط بهالة من الغيب . إنهم لا يريدون علماً لأنهم منه في فزع مميت . ذلك أن إحدى عظمات العلم أن الحياة يأكل بعضها بعضها الآخر ، وأن مصير الحياة كافة إلى الفناء . ولن يقبل الجماهير العلم حتى يهبهم جنة أرضية . وما دام الفقر قائماً على الأرض فهناك آلهة في السماء .



الفصل الثالث والعشرون

[فى المكتبة]

الله وخلود النفس

١ — خلود النفس Immortality

آرييل : سنظفر هنا فى المكتبة بالراحة والهدوء . فإذا كانت المناقشات قد أثقلت عليكم فيمكن أن تسروا عن أنفسكم وأن تلهو بالكتب . ولكنى أرجو ألا تبرحوا هذا المكان حتى تحدثونى عن مصير الإنسان بعد الموت ، وهل سنظل نعتقد فى وجود الله .

بول : من الواضح أن كلارنس لا تسلّم بوجود مثل هذا الأمر الذى يسمى النفس الخالدة ، وأتأنا سنموت جميعاً كالكلاب .

كلارنس : نعم ، فلماذا لا يكون كلبى خالداً مثل ؟ إنى فى توحشى معه كما كان يمكن أن يكون يهوه نفسه . فأنا محبة لنفسى ولا أعطيه إلا ما لا أريده . أهجره حين أحب ، ولكنه أوفى لى من هلويز لأبيلارد . وإذا فاضلت بينى وبينه كان هو أدنى منى إلى المسيحية .

سير جيمس : إن « نفسك » يا بول ترجع إلى الأرواح التى كان الإنسان البدائى يلقاها فى أحلامه . فلما رأى أشباح الموتى ظاهرة الانفصال من أبدانها فقد استنتج من ذلك أنه أيضاً له شبح منفصل أو نفس منفصلة . ونحن لا نزال نقول : « أسلم روحه » أو « صعدت روحه » ^(١) he gave up the ghost كناية عن الموت . وتدل لفظة « الروح spirit » كاللفظة الألمانية geist على

(١) هذا هو التعبير العربى المقابل للعبارة الإنجليزية « أسلم شبحه » (المترجم) .

النفس soul والشبح ghost معاً . وكان الإنسان في قديم الزمان يؤول الأصداء والظلال على أنها روح أو قرين أو نفس للشخص ، أو ذات صلة به . ويرفض الباسوتي Basuto أن يمشى بالقرب من مجرى الماء لئلا ينقض تمساح على ظله فيأكله . ولما كان الإنسان المسيحي يرى نفسه في النوم يصطاد ويمشي ويمجرى هنا وهناك ، على حين تأكد له فيما بعد أن جسمه لم يتحرك ، فقد اقتنع من ذلك أن له نفساً منفصلة (١) . وكذلك خيل إليه أن الغيبوبة والمرض والإغماء إنما هي تجرد الروح مؤقتاً عن البدن . ويعتقد العبيد في غرب أفريقيا أن علة الصداع فقدان النفس ، فيرسلون ساحراً يبحث عنها في الغابات ، فيعود وقد قبض على النفس ووضعها في صندوق ، فينفخها من الصندوق إلى أذن المريض ، وعندئذ يشفي الصداع .

كلارنس : في إحدى قصص أناطول فرانس يقول أحد سكان بولنيريا : « النفس نفخة ريح ، وعندما رأيت أني على وشك الموت ضغطت على أنفي لأحفظ نفسي داخل بدني . ولكنني لم أضغط ضغطاً كافياً . وما أنا ذاميت » (٢) .

سير جيمس : في جزر السليبيز Celebes يعلقون شصوص « سنابير » صيد السمك في أنف المريض وسرته وقدميه حتى إذا حاولت نفسه الخروج اصطادها . والعطس من أخطر الأمور : إذ قد يكون من القوة بحيث يقذف بالنفس ، وهذا الشئ هو السر في أن أحدنا إذا عطس بادر أصحابه يطلبون من الله أن ينعم عليه ، والاستعانة بالله مطلوبة بوجه خاص في هذا المأزق . ويفرقع الهندوس إبهام أصابعهم عندما يتشاءب أحد أمامهم أملاً منهم أن هذا الصنيع يحفظ نفسه من الانطلاق إلى الخارج . ويرفض كثير من البدائيين أخذ صورة شمسية لهم لئلا تصطبغ الصورة أنفسهم معها — وفي هذه الحالة قد يأتي المصور ويلتهمهم على هواه (٣) .

إستر : لقد عرضت هنا في نيويورك حديثاً تمثيلية تسمى ديباك The Dybbuk ، وكان فيها دراسة دراماتيكية للنفس المنفصلة .

(١) Spencer, H., Principles of sociology. vol. i, p. 286.

(٢) The Garden of Epicurus, p. 197.

(٣) Allen, p. 49 ; Frazer, pp. 178 f., 193.

سير جيمس : لقد نشأ الاعتقاد في خلود النفس نشأة طبيعية من هذه الفكرة . ويقول هنود تسكارورا Tuscarora إن جميع الهنود الطيبين حين يموتون (كما لو لم يكونوا جميعاً طيبين عند موتهم) يصعدون إلى عالم من الأرواح بعيداً جداً بين النجوم حيث يجدون نساء حسناوات لا تلحقهن أبداً كهولة أو بدانة ، وأرضاً هبيلة للصيد زاخرة دائماً بالغزلان لا ينقص عددها مهما يكثر صيدها . أما الأشرار فيذهبون إلى مكان الطعام فيه نادر وغداؤهم على الثعابين . وبلغ الاعتقاد في خلود النفس عند المصريين من القوة أن البيوت التي كانوا يقيمونها لإيواء الأبدان إنما هي مجرد أكواخ بالقياس إلى « منازل الأبدية » المشيدة في أفخم حال لسكنى النفس . وفي الهند اتخذ الأمل الدائم في الخلود هيئة التناسخ الذي انتشر غرباً حتى بلغ إيطاليا حيث نجد في أقوال فيثاغورس : « لا تضرب هذا الكلب لأنني تعرفت فيه على صوت صديقي الذي توفي » . ومذهب نيتشه في زماننا هذا عن « الدورة الأبدية » eternal recurrence إنما هو مظهر آخر لنظرية التناسخ يبين إلى أي حد تثبثت الفكرة بالبقاء ، حتى في فلسفة « نصف كبلية » ^(١) medicynical . وتكاد توجد فكرة « جهنم » في كل مكان ، ولكن صورتها تختلف بالنسبة إلى ما يتحملة الناس من عذاب ، والذين يتصورونها مقراً لأعدائهم . أما نحن فقد جاءت إلينا فكرة « جهنم » عن اليهود الذين كانوا يقاسون من حرارة الصحراء ، ولكن الإسكيمو يعتقدون أن « جهنم » برد أبدى .

بول : يبدو أنك تعتقد أنك بما تبينه من قدم فكرة الخلود تنكر صحتها ، ومع ذلك فأنا أقبل الفكرة لنفس الأسباب تقريباً التي دفعت الهمجي لقبولها . فأنا حين أتأمل ذاتي أجده شيئاً لا يسهل التعبير عنه في عبارات مادية . إن موت بدني إنما سيحرر هذه الذات الجوهرية .

وليم : قد لا تكون النفس مادية يا بول ، ولكنها موقوتة ، فهي خاضعة للزمان والتغير والموت خضوع البدن . ومن الواضح أن ما نسميه « العقل Mind » مرتبط بالجسم ، والمخ ، والأعصاب . فالعقل والجسم ينموان ويفسدان معاً ،

(١) لأن مذهب نيتشه لم يكن يزدرى جميع الناس كالكلبيين ، بل العامة فقط . أما النصف الآخر من البشر ، فهو الجنس الراق ، أو السوبرمان (المترجم) .

ويتحتملان على حد سواء آثار التلف والمرض. وقد حاول ولیم جیمس تفسير هذه العلاقة المتبادلة بالقول بوظيفة المخ «الحررة» permissive function of the brain وهذه حيلة بارعة لا تليق برجل تدرب على الوضوح الفرنسي . وعلى الرغم من عجائب علم الغدد مما يقول به الهواة من أصحابه فقد بيّن هذا العلم أن صلة الجسم بالعقل ليست محررة بل منظمة ، ذلك أن الحقن بخلاصة الغدة الدرقية يؤدى إلى رفع البلاهة عن مناطق بأسرها .

إن ذاتى ، أو شخصيتى ، جزء منها ثمرة ميول موروثية مرتبطة بالأفعال المنعكسة العصبية ، وجزء آخر نتيجة تجارب جسمى التى تصل إلى عن طريق الحواس الجسمانية ، والتى تسجل فى مخى الجسمانى كمعادات وذكريات . لست أقول إن العقل أو الذاكرة هو المخ بل أقول إنهما مرتبطان معاً بالجهاز العصبى ، ويعتمدان عليه ، فلا يمكن أن يعيشا بعده . ويمكن أن تمحى الذكريات بعض الوقت أو باستمرار باستعمال الأثير أو غيره من المركبات الكيميائية . فالشيخوخة تزيل بعض مناطق الذاكرة ، وتضعف الذات بما تفعله من انحلال بعض أجزاء المخ — أكبر الظن أنها ألياف الترابط الموجودة فى السحاء . وحين تفسد أعصابى بعد الدفن تختفى باختفائها ذاتى الخاصة . لأن تميز ذاتى self عن ذاتك ، إنما هو نتيجة اختلاف الوراثة والتجارب التى تنقش على جسدى الفانى . وحتى وحدة النفس التى يجب أن يفترضها مذهب الحلود فإنها موضع شك ، ذلك أن شخصيتى فيض دائم الحريان ؛ وفى كل عقد من حياتى كنت شخصاً آخر . فأرانى اليوم مختلفاً اختلافاً تاماً عما كنت عليه وأنا صبى فى العاشرة . فأى هذه الأنفس الكثيرة العابرة هى ، أو كانت هى « نفسى » ؟ ثم إن الشخصية قد تكون مزدوجة أو متعددة . وليست نفسى إلا مركزاً أو حزمة من الارتباطات ، وليس ثمة أى ضمان أن الحزمة التى أسميها « أنا » لن تنقسم إلى حزمتين أو أكثر ، أو إلى شخصيتين متبادلتين بالأمراض أو الصدمات . أى نفس هى الخالدة نفس جيكل أو نفس هايد ؟ وحتى إذا بقيت النفس بعد فناء البدن ، فأى نفع لها ؟ أيمكن حقاً أن تتصور وجوداً لا جسماً ، أو تمناء راضياً ؟ كيف تجد أى لذة ، أو تعرف أى نشوة للحب بغير جسد ؟

ماتيو : اعلم يا بول أنك إذا اعتقدت في خلود النفس فينبغي أن تمضى في الشوط إلى نهايته وتسلم ببعث الأجساد .

بول : لا ، من الإسراف الافتراض بأن جسدى بعد أن تأكله الديدان ، ولا يبقى منه إلا عظام نخرة وخصلة شعر ، يعود مرة أخرى يوم الحساب أو قبل ذلك إلى هيئته الأصلية واتصاله الأول بملايين الملايين من الخلايا . وإذا لم نكن قادرين على تخيل أو تصور نفس بغير بدن ، فإنما ذلك لنقص فينا لا لعدم إمكان ذلك . وحتى في علم الطبيعة توجد مئات من الأشياء كالكهرباء تبدو لي بعيدة عن التصديق بها ، ولو أننى متأكد من أنها حقيقة واقعة . وقد أثبتت البحوث الروحانية *psychical research* مراراً وتكراراً أن الروح يمكن أن تعيش بالفعل بعد فناء البدن . فقد جمع باحثون لا شك في ذمتهم بأعظم عناية أدلة حاسمة اضطروا إلى التسليم بها علماء كانوا في الأصل منكرين أو متشككين مثل هيسلوب *Hyslop* ولبروزو وألفرد رسل ولاس . بل لقد سلم محرر « مجلة أمريكا العلمية *Scientific American* » بأن مرجرى كراندون *Margery Crandon* كانت تحصل لها ظواهر روحية حقيقية ، وأنها تتصل بأخ لها مضى على موته زمن طويل ١

وليم : إن فحص الحجة العلمية الأمريكية للسيدة كراندون انتهى إلى تقرير انقسم الرأى فيه قسمين : بيرد وكارنيجتون مؤيدان ، وهوديني ومكدوجل معارضان . وقام أساتذة جامعة هارفارد فيما بعد بإجراء فحوص واختبارات كانت نتائجها سلبية (١) . وزعم هوديني أنه يستطيع أن يقوم بإعادة أى ظاهرة روحية مقررة من جراب حيله . كان ينتقل من مدينة إلى أخرى ، ويعلن من فوق خشبة المسرح أسماء وعناوين مئات من الوسطاء ، وأتهمهم معيناً أسماءهم بالنصب مع سبق الإصرار ، وتحداهم أن يقيموا عليه دعوى القذف . ومنح ١٠٠٠٠ دولار مكافأة لكل من يثبت الظواهر الروحية تحت شروط علمية . ولم يقبل أحد تحديه . وزعمت مدام بيبر *Mrs. Piper* أنها اتصلت بروح الدكتور فينويت *Phinuit* بعد موته ، وقام باختبارها ولیم جيمس ، وسير أولفر لودج ، ومدام سدجويك — وكلهم ممن يعطفون على المباحث الروحية ، فكان تقريرهم

Cf. article by Prof. Boring, Atlantic Monthly, Jan. 1926. (١)

ضدها . وأنتم تعرفون قصة دنجلاس هوم الذى منحه براوننج - إن صح هذا القول - خلوداً مؤقتاً . وتجولت إيسابيا بلادينو فى أنحاء أوروبا معلنة عن مزاعم عريضة لقوى روحية . فقام باختبارها برجسون ، وكورى ومدام كورى ، وغيرهم من الذين عينهم المعهد العظام الباريسى لعلم النفس . وبين النور الحسّاطف فى الجلسة (التى كانت تجرى بالضرورة فى الظلام) نضداً مرفوعاً فى الهواء ولا يعتمد على أى دعامة مرئية سوى كلام إيسابيا . وقدم العلماء المختبرون تقريرهم الذى قالوا فيه إنهم عجزوا عن كشف أى احتيال ، ولم يتمكنوا من تفسير ما قامت به السيدة من عمل . ولكنهم اختتموا التقرير باحتمال القيسام بالعرض عن طريق خفة اليد أو خفة القدم . وحين جاءت مدام بلادينو إلى أمريكا سنة ١٩٠٩ فحصرها منستربرج فى هارفارد ، فلما حركت قدمها لتحدث عملية الرفع أمسكها طالب بيده - مما يدل على أن الطلبة أسرع خاطراً من الأساتذة . وفى جامعة كولومبيا اختبرها البروفسور لورد وكشف الطلبة حيلتها ، وذلك بأن التقطوا صورة فوتوغرافية على ضوء المغنيسيوم على غير توقع منها ، وبينت الصورة أن السيدة كانت ترفع المائدة بيديها . وعادت إيسابيا إلى إيطاليا عام ١٩١٠ وقد أنهارت دعواها تماماً (١) .

بول : نعم هناك كثير من الاحتيال . ومع ذلك فلو وجد وسيط من مائة وسيط أو مائة ألف وكان أميناً واتصل اتصالاً فعلياً بالموتى أصبحت قصص الاحتيال لا قيمة لها ، وثبت خلود النفس . لا ريب أنكم لا تزعمون أن شخصاً مثل أولفرلودج كان أفقاً . وعليكم أن تفرعوا ما روى ، فستجدون ظواهر بينات كثيرة يدهش لها العقل ، وإذا أبيت التسليم بها كنتم كن يضع نفسه موضع المحافظ الوجمل مثل المعارضين لدارون . وكنت أظن أن روح العلم ستدفعكم إلى الشعور بأن أى شئ ممكن فى هذا العالم المملوء بالعجائب ، وبأننا لا نملك القول كيف تحدث الأمور العجيبة البعيدة عن التصديق . ثم فلتذكروا أن معرفتنا بالعقل تكاد تبدأ .

أندرو : إننا نعرف أكثر مما يريح بالنسا . فنحن نرى أن العقل — وهو القدرة على التفكير — جزء من التطور ، كالقدرة على الحركة أو الهضم أو الإحساس . ومن الواضح جداً أن عقولنا ثمرة طبيعية كأبداننا ؛ وأن الغوي يتكرر عندنا في كل فرد من الجنين المضحك إلى قمة النضج العقلي . والآن عند أى نقطة من هذه العملية التطورية دخل عنصر الخلود ؟ إذا كان الإنسان خالداً ، فالقرد خالد كذلك . وإذا كان القرد خالداً فكذلك البرغوث الموجود في ذيله ، ولكانت الدودة باقية كالعصفور الذى يأكلها . ومن الأفكار المقلقة لنا أن تلحق بنا في الجنة جميع الحشرات التى تضايقنا في وقت الفراغ . ثم تأمل هذا أيضاً : ستكون جميع الطبقات والأجناس التى نبغضها موجودة هناك في الجنة تثقل الأجواء السماوية برائحتها . وسيلتقي الصالحون من أهل كلانز برجال من كيلارنى Killarny وسيجد الأمريكيان الصميمون الجنة سوقاً متعددة اللهجات كنيويورك . ستكون مكاناً شديد الزحام ولو كنا نحن أبناء هذا الجيل خالدين ، فكذلك كان أبناء سائر الأجيال . إن ألف ألف مليون من الأنفس تنتقل إلى العالم الآخر كل ثلاثين عاماً أو نحو ذلك . وما دام الناس قد وجدوا منذ بضع مئات من آلاف السنين فلا بد أن تبدو الجنة كبرودواى عند الظاهر .

وليم : لاشك أن مناقشتنا عقيمة لأن الاعتقاد في الخلود متأصل في الفطر الخارجية عن نطاق الحجج . وهذا الاعتقاد جزء من الدافع إلى حفظ الذات . والحياة قصيرة ، و « الأنا » حلوة . فكيف يمكن أن نفنى بهذه السرعة ؟ لقد نشأت فكرة خلود النفس في الأجواء الحارة حيث تنضج الحياة وتفسد بسرعة تجعل الاعتقاد في حياة بعد الموت يكاد يكون ضرورة لازمة لاحتمال هذه الحياة . وهناك نرى حياة الفرد بأوضح من أى مكان آخر قصيرة زائلة ، وذرة في تلك الخلية التى تسمى النوع الذى إنما هو موجة في بحر الحياة . ونحن أيضاً ، مع أن حياتنا تمتد إلى ضعف أعمارهم طويلاً ، لا نرضى بالسنين المقسومة لنا ، فنثور على الموت الذى لا مناص منه ، ونتطلع إلى شباب جديد وحب آخر . لقد كان الدين قائماً ذات يوم على الخوف ، والآن يعتمد على الأمل .

أندرو : إنه لا يزال قائماً على الخوف . إننا نشاق إلى الخلود لأننا نحب

الحياة بل لأننا نخشى الموت . وكثيراً ما نسأم الحياة ، ونضيق بما فيها من متاعب وعلل ، وحقائق وواجبات ، ونشعر مثل قيصر بأن حياتنا قد طالت إلى حد الكفاية . والحيوانات لا تخشى الموت لأنها ، فيما عدا لحظات عابرة تراه فيها يصيب حيواناً آخر ، لا تعرف الموت حتى يحل بها ، وعندئذ يكون وقت التفكير النظري قد فات . فعندما أصبحت الحيوانات بشراً ، ونمت الذاكرة ، وألقها إلى المستقبل ، عندئذ اكتشفت الموت ، واخترعت الخلود لترتاح عقولها . وأن نولد هو كما قال فكتور هوجو أن يحكم علينا بالموت مع تأجيل التنفيذ إلى أجل غير معين . والخوف من الموت هو بداية الدين .

فيليب : أما أنا فقد حصلت على إحساسى بالخلود من أننى جزء من الحياة . نحن بضعة من كل ، ويقوم خلودنا على ما نساهم به فى ذلك الكل . ليس الخلود عند أفلاطون فى السماء بل فى الذكرى العطرة للناس ، وفى الكتب التى تعلم كل ساعة ألوفاً من التلاميذ أكثر مما كان مؤلفها يعلم وهو حى . إننا نعيش فى أبنائنا وفى آثارنا ، وهذه هى بعث البدن والنفس . ولا قيمة لهذا الضرب من الخلود للفرد بعد موته ، ولكن قيمته لا تقدر بالنسبة للمجتمع ، لأن الحضارة تقوم على الاحتفاظ بأعمال الموتي . وقد يكون من الخير لنا أن نعود إلى التفكير فى الخلود كما كان الإغريق وقدماء اليهود يرونه ، لا فى ضوء ذواتنا المنفصلة بل فى ضوء الجماعة أو الجنس الذى ننتمى إليه .

كلارنس : أليس من الغريب أن نتناقش فى مسألة حلها لوكريتيوس منذ ألى عام ؟ انظروا ماذا وجدت هنا — إنها شرح مالوك الشاعرى على شرح لوكريتيوس لأبيقور . استمعوا إليه :

أيصبح الكون الأزلى كالعهن المنفوش
ويعود إلى صفحة المجهول نسياً منسياً
وأنت أيها الواهن وكنت بالأمس شعلة
تحترق فى عزلتك خالداً وحيداً خلياً

أنى أحضان الليل هيأتك لهذا المصير
الطبيعة بالقوة الغاشمة والبطش الشديد

تحمل الطفل كالملاح محطّم السفين
وتلقيه وهو يصيح على شيطان النور

ماذا هناك . إنها صيحة ، هذا كل ما هناك
لا تعرف أهى أعضائك أم أعضاء أخيك
بالأمس كان الطفل أقل من هذه الصيحة
وفى الغد سيكون الرجل أقل من هاتيك

من نسيج ألياف الوليد تبرز النفس
كوردة تفتحت ورقة ورقة فى همس
تفسد أليافه . وكما تغيب عن الماء الشمس
فينفجر فقاعه كذلك يغيب من كان بالأمس

تسكن الريشة عن الحركة فوق سطح الماء
كذلك النفس فى البدن تذوب وتبهج فى هناء
ذرات فى ذرات ، تكل وتشناق إلى الراحة
رماد فى رماد — آمال ومخاوف تطلب السلام (١)

ماتيو : كان ينبغي أن يكون كاثوليكيًا صالحًا ليضع هذا الشرح الرائع .
لاريب أنكم ترون الآن حججكم كم هى قديمة ، وكم هى مهلهلة وبالية .
كلارنس : ولكنى ظننت أن بول قد احتج بأنه ليس فى قدم الاعتقاد
شئ ضد خلود النفس ؟ أما أنا فأظن أن جميع الحقائق قديمة ، وأن الشعراء
والكذابون والمجانين هم وحدهم الذين يمكن أن يبتكروا . وإني لأذكر عبارة من
أقوال أناطول فرانس ، وهو آخر تلامذة أبيقور : « إن شمسنا تحملنا نحن وجميع
توابعها إلى برج الجاثى constellation Hercules حيث نبلغه فى بضعة ملايين من
القرون . وستموت الشمس فى هذه الرحلة ، وتموت الأرض معها » (٢) .

Mallock, W.H., Lucretius on Life and Death, pp. 19 f. (١)

On Life and Letters, 3rd Series, p. 210. (٢)

وسنموت نحن مع موت الأرض ، إذا قدر لنا أن نعيش بعدها حتى ذلك الحين .
 ألا يبدو من المضحك يا بول أن يزعم الخلود خلق مزعزع في كوكب عابر ؟
 ومع ذلك فلماذا نحرمك من إيمانك البديع ؟ إنى لأعرف أن مذهبنا يؤدى إلى نتيجة
 كئيبة ، وأن النفس المتعطشة لن تحمد مثل هذه الفلسفة السلبية .

بول : لاتخف ؛ إنك لم ترعجنى كثيراً . إن لحظة واحدة من التأمل الباطنى
 تهدم جميع ما خيل إلى حججك الظاهرة أنك مثبتة . إنى أرى العقل (بين جنبي)
 فى داخلى ، وأرى أنه شىء موضوع فوق بدنى يقابله وأسمى منه . وبدنى أداة
 مؤقتة للعقل . وأنا لا أدرى شيئاً عن العالم الآخر — وفى هذا الصدد فأنا مثلك
 لا أدرى ، غير أنى إنما أقف من المعتقدين المتكافئين الممكنين إلى جانب أكثرهما
 حقاً وتشجيعاً . إنى لمؤمن بأن ما أدركه وأشعر به — ولو أنى عاجز عن فهمه
 وعن رسم صور مادية أو هندسية تدركها عقولكم « المادية بالفطرة » — ليس
 أقل صدقاً وحقاً مما أدركه مباشرة بالحواس الظاهرة . فلو أن شخصاً عزيزاً عليك
 ممن تحبه أصابه الموت ، لأقبلت عليك فلسفة جديدة ، إذ يبدو لك أمراً غير
 معقول ، وقسوة عظيمة من « روح العالم » أن تجد وأنت إلى جوار القبر أنك
 لن ترى أبداً صديقك أو ابنك مرة ثانية . أما أنا فأعتقد أنى سأراهم ، وهذا
 الاعتقاد يغمر حياتى بضرب من السرور والصبر على المكروه لن يجد إلى قلوبكم
 الفارغة سبيلاً . إنى لأشفق عليكم حين يصاب أحدكم بفقد المحبوب .

سسيديا : أظن أنك على حق يا بول .

ماتيو : أعرف أنك على حق يا بول .

كلارنس : أرجو أن تكون على حق يا بول .

٢ — الإله الميت

إستر : لقد امتلأنا كآبة ، وأرجو أن توقفوا إلى شىء أكثر بهجة تقولونه
 عن الله .

سير جيمس : لا ينبغي أن تدهشى يا سيدتى إذا لم نستطع أن نقدم إليك
 الله الذى كنت تتوجهين إليه بصلواتك فى الطفولة . ذلك أن فكرة البشرية عن الله

في تغير دائم . حقاً يمكن أن يدون تاريخ الإنسانية في صيغ من تجسيدات الله —
 نعى الموت المتكرر لإله قديم حتى يفسح الطريق لآلهة قد تمثل أخلاقاً ومثلاً
 علياً أرقى في جنس يتطور . سيبلغ منك العجب مبلغه حين تطلع على قائمة
 الآلهة المتعددة مما كان الإنسان يعبدها بين حين وآخر على أنها أبدية (١) . فالآلهة
 الكبرى تبلغ المئات ، والصغرى تبلغ الملايين . ولو أمكن للأجيال الماضية
 أن تعود إلى ظهر الأرض لافتح أمرها حين تعلم أن آلهتها حتى القادرة على
 كل شيء والتي كانت تتقرب إليها بالصلاة إنما يعرفها اليوم علماء الأنثروبولوجيا
 فقط . وقد أول كل شعب في كل عصر الله على هواه ، وكان راغباً في الموت
 أو على الأقل في القتل للدفاع عن ذلك التصور العابر . أما المؤرخ فلا يخذعه
 هذا القتل أو هذا الاستشهاد . فهو يعرف أنه لم تظهر فكرة سخيفة إلا وضحي
 بعض الناس بأنفسهم في سبيلها ، وأنه على استعداد أن يرى الفكرة عن الله
 تتغير في الحاضر والمستقبل كما تغيرت في الماضي . وبناء على ذلك فهو لا ينزعج
 من التعريفات الجديدة للآلهة ، بل يرحب بمحاولة صوغ هذه الفكرة الأزلية
 صياغة جديدة تتسق مع معارفنا النامية . سيعتقد الناس دائماً في الله ، لأن فكرة
 القوة المرتبطة بالكمال ترضى النفس وتحركها . فمن بواعث الرضا أن تكون مع
 القدرة الكلية على وفاق .

كان إله آبائنا آخر مرحلة في حياة « يهوه Jehovah or Yahveh » وإني
 لأعجب في بعض الأحيان (ولو أن علم اللغة لا يؤيدني كثيراً) هل « يهوه »
 مثل « يوفيس Iovis » لا يرجع إلى « أبي السماء Dyaus-pitar or Sky-Father »
 عند الهنوس . ونحن نعلم أن « الأب زيوس Zeus pater » عميد أوليمبوس
 هو ترجمة « لدايوس بيتار Dyaus pitar » . وكذلك جوبيتر ، فهو
 « يوفيس باتر Iovis pater » . وقد غالى أصحاب مذهب فرويد في بيان الدور
 الذي تلعبه صورة الأب في صنع الآلهة (٢) . ولاريب أن عقل الشاب يجب

(١) لقد رتبها مستر هـ . ل . منكن ترتيباً بديعاً في أحد أجزاء كتابه الشائق المسمى « آراء
 متحيزة Prejudices » .

(٢) Cf. Freud, S., Leonardo da Vinci, p. 104 ; Jung, C.G., Analytical Psychology, p. 172. Jones, E., Papers on Psychoanalysis, p. 383.

أن يتصور العالم كبيت يرأسه أب . ولكن الأولى أن أصل فكرة الأب يرجع إلى عبادة الأسلاف ، وإلى الفكرة التي تذهب إلى أن العشائر تسلسلت عن الآلهة . وهذا التشخيص للآلهة في هيئة الذكور هو آخر إهانة على المرأة أن تنتقم لها .

وأكبر الظن أن تشبيه الإله بصورة أو شبه للإنسان راجع إلى عبادة الأسلاف . فالله كان كالإنسان ، كل ما في الأمر أنه أعظم وأقوى . وكما قال زينونان قبل ميلاد المسيح بستة قرون : « يتصور البشر الآلهة أنها تولد ، ولها كأنفسهم ثياب وأصوات وأبدان . . . وحتى آلهة الأحباش فإنها سمر الوجوه مفرطحة الأنوف ، وآلهة تراقيا ذات شعر ذهبي وعيون زرقاء . . . بل إن هو ميروس وهزيود نسباً إلى الآلهة كل شائن ومعيب بين البشر : السرقة ، والزنا ، والغش وغير ذلك من الأفعال الخارجة على القانون . . . وحتى الثيران والأسود والخيل لو كان لها أيد ترسم بها الصور لصاغت الآلهة على هيئتها وجعلت أبدان الآلهة كأبدانها » .

هذه الشكوى من خلود آلهة أوليمبوس تكشف عن العملية التي بها تموت الآلهة : فهي تتخلف عن نمو الإنسانية الخلقى . إنها تهلك بسبب عدم تغيرها الإلهي . إن آلهة قدماء الإغريق الفاسقة السارقة الكاذبة إنما خلقها قوم كان يبدو لهم مثل هذا السلوك مشروعاً ، فقد كان العصر عصر قرصنة واغتصاب وحرب ، وكانوا يتصورون الآلهة مثال الخبرة في هذه الأعمال القديمة . فلما تقدم الذوق الخلقى أنكر زينونان وأفلاطون هذه الآلهة الشريرة . إن الصورة التي رسمت لهم في العصور القديمة مما تشتمز منها المشاعر التي أصبحت أرقى عند المفكرين فيما بعد . ومن سوء حظ كل حضارة أنها تترث آلهة الهمجية .

وينبغي أن نجعل في بالنا عند النظر في ألوهيتنا الموروثة أن يهوه ، إذا شئنا أن نفهم موته ، كان قبل كل شيء رئيس الحرب وإله الجيش ، كأي إله كانت كل أمة تعينه على جيوشها سنة ١٩١٤ . وكما أن فكرة النار كانت تعكس قسوة البدائيين ورؤسائهم المتوحشين ، كذلك فكرة الله كانت تعكس قلق الحياة القبلية في عالم غير منظم يعيش فوق بركان من العداوة والأخطار في كل مكان .

فلما بما النظام الاجتماعى ، وأصبحت الحياة أكثر أمناً ، والحرب أقل شيوعاً ، وأصبح الإنسان تبعاً لذلك أقل قسوة ، أصبحت الأفكار القديمة عن إله الحرب warrior-god الذى يقضى على الملايين بدخول النار بغیضة عند ذوى العقول الناضجة . فقد تطلب التنظيم الاجتماعى من الناس ونمى فيهم العادات والمثل لأخلاق تعاونية . وتفرعت بالتدريج وأكثر فأكثر عن فكرة الإله القديم فكرة ما يجب أن يكون عليه الإنسان الكامل . ولعلكم تذكرون أن جون ستوارت مل أعلن فى شيء من المفارقة أن مثل هذه الألوهية كما صورها اللاهوت فى العصر الوسيط إذا وجدت حقاً ، فلم يكن صاحبها إلهاً ، بل شيطاناً ، وأنه « إذا استطاع مثل ذلك الموجود أن يرسلنى إلى جهنم لأننى لا أستبیه إلهاً » طيباً » ، إذن فلاذهب إلى جهنم » . لقد قلب نمو الإنسان الخلقى تصويره عن الله رأساً على عقب .

وقد نشأ هذا الرقى فى الطبيعة الإنسانية من ازدياد الأمن فى التكوين الاقتصادى والنظام السياسى من جهة ، ومن استمرار الأخلاق المسيحية مدى ألف وتسعمائة عام من جهة أخرى . لقد كان المسيح هو الذى قتل يهوہ ، فإذا بالمسيحية تقتل الإله المفروض أنه مسيحى . ولست أعتقد أن هذه الألفى السنة من التدريب الخلقى على الرغم من نزعتنا الحربية وفسادنا السياسى لم تكن عديمة الأثر فى أخلاق الإنسان . من أجل ذلك فإن ما نشهده اليوم ليس بأية حال موت المسيحية بل موت ذلك « الإله ذى اللحية القائمة » كما سماه نيتشه ، والذى نفذ إلى المسيحية من طريق غريب ، وإلى جانبه نظام خلقى فيه تمجيد لارحمة والسلام ، ولا يتفق بأى حال مع يهوہ ، بل بلغ فى النهاية من القوة الحد الذى قضى عليه . وهكذا أصبحت عقول الناس اليوم حرة لتكوين إله أفضل .

أندرو : لاريب أن أعظم مجد يبلغه الدين أن يتحطم بما يبلغه نظامه الأخلاقى من كمال . ولكن الأسباب والنتائج على حد سواء أعظم مما تصفه الآن . فنذ اللحظة التى أعلن فيها كوبرنىق أن الأرض إنما هى ذرة من تراب فى عوالم لانهاية لها ، قضى على الإيمان القديم بالإعدام . لم يعد هناك مركز ، ولا فوق أو تحت . بل فقدت الأرض كل هيبتها ، وأصبح من المستحيل الاعتقاد بأن القوة المنظمة وراء هذا الكون الشاسع إلى غير حد قد نزلت على هذا الكوكب

واتخذت صورة إنسان يتعذب ويموت من أجل خطايا لا قيمة لها لجنس لا أهمية له . فلا غرابة أن يعد أناتول فرانس هذه الثورة الفلكية : « أعظم حادث في تاريخ الفكر بأسره » ^(١) . ولم يتبين العالم دفعة واحدة نتائج استبدال الفضاء الخلاء بالسماء ، ورد الكرة الأرضية والإنسان الذى يعيش على ظهرها إلى مستوى لحظات في تاريخ النجوم . لقد أحرق برونو حياً لأنه أدرك هذه النتائج وأعلنها . ولكن « الإصلاح الدينى » مضى فى طريقه وكأن كوبرنيك وجاليليو لم يعيشا قط .

ثم جاء دارون فأتم الهدم . فكما بدد الفلكى الأرض فى غياهب الفضاء اللامتناهى ، كذلك ضيع عالم الحياة الإنسان فى لانهاية الزمان ، فى التطور الطويل الأمد للأنواع المتحولة . فقد كان يمكن أن يعتقد المرء فى التدبير الإلهى بعد ظهور كوبرنيك ، ولكن كان ذلك مستحيلاً بعد دارون . فقد أفسحت العناية الإلهية الطريق للانتخاب الطبيعى ، ونزل الحب الأزل عن عرشه للصراع الأبدى ، وأصبحت الحرب مرة أخرى « أبا كل شئ » . وكان الناس زمان بالى Paley ^(٢) يظنون أن كل عضو قد ركب بعناية للغرض الذى يقوم على تحقيقه . وكان كل حيوان ، قبل ظهور مذهب النباتين قد خلق ولا ريب لتحقيق حاجات الإنسان . ولكن دارون لم يبين أن كل هذا التدبير لا محل له فحسب ، بل كشف على غير رغبته تناقض الحياة السكونية والإنسانية التى تجرى بلا خطة . وهل يمكن أن تجد شيئاً أسخف من الطريقة التى يكتر بها الإنسان نوعه ؟ إن وجود الله ينقضه كل من الحياة والموت ، فلا يعتقد فى وجوده طبيب أو قائد . وهل يمكن الخالق عاقل أن يبدع عالماً قانون الأحياء فيه كفاح لا برحم ولا جهداً فى سبيل البقاء ، ولا يعيش فيه إلا الحمجى والمخادع والسافل ؟ إنه كفاسح فى كل مكان : الإنسان للإنسان ، والقبيلة للقبيلة ، والإمبراطورية للإمبراطورية ، والتنوع للتنوع ، — ومن يدري لعله فى المستقبل إذا تقدمنا بما فيه الكفاية ، كفاح كوكب لكوكب . بل اليوم تبدو النجوم مسوقة بعضها نحو بعضها الآخر بروح شيطاني يطرب للتخريب .

(١) On Life and Letters, 3rd Series, p. 212.

(٢) وليم بالى (١٧٤٣ - ١٨٠٥) لاهوتى وفيلسوف إنجليزى (المترجم) .

أما فيما يخص بنا ، هنا تحت موطىء قدم الإله ، وموطن ابنه المحبوب ، فإن كل اختراع تنتجه عقولنا النامية يزيد في بؤسنا ، وكل آلة تضاعف عبوديتنا . لقد تعلمنا الطيران حتى يمكن في الحرب القادمة أن تقتل غير الحارين بالملايين . وإنك ترى بيتهوفن وهو أكثر الناس حاجة إلى السمع يصاب بالصمم ؛ ونيتشه المحتاج إلى عينين يصبح أعمى ؛ والدكتور جونسون وعظمته إنما تقوم على الخطابة يفقد القدرة على الكلام ؛ ورينولدز المصور يفقد القدرة على استعمال يده . وقد رأيت ذات يوم امرأة مشلولة ترجع عثها إلى أنها منذ عشرين عاماً حين كانت في شبابه وجمالها بادرت بالعلوم مباشرة بعد أن لعبت مباراة في التنس ، فانتشلت من الماء عاجزة مدى الحياة : لقد زحف سم خبيث من مفصل إلى آخر في بدنها حتى أصبحت ترقد اليوم عاجزة عن تحريك أى عضو من أطرافها . وانتفخ وجهها من المرض ، وفسد في جسمها كل عضو ما عدا عقلها الذى بقى صافياً حاداً ليزداد عذابها . فالعالم هو ما سماه هنرى أدامز : « لوحة صورت من العذاب ، والحزن ، والموت . طاعون ، وباء ، وقحط . فيضان ، وجذب ، وصقيع . كوارث في أنحاء العالم ، وحوادث في كل ركن . قسوة ، وشذوذ ، وغباء ، وشك ، وجنون . فضيلة تولد رذيلة ، ورذيلة تعمل للخير . سعادة بلا عقل ، وأثرة بلا كسب ، وبؤس بغير سبب ، ومخاوف لا يعرف لها أصل » وتتوج الصورة بالموت جزاءً عادلاً للجميع . فالحديث عن العناية الإلهية سبة للمعذبين في الأرض (١) .

ماتيو : إنك تتحدث يا أندرو من أعماق قلبك عن الشر ، وإنى لأرجو أن تستعيد يوماً ما اعتقادك الدينى . لقد اعترفت الكنيسة دائماً بحقيقة الشرارة . لقد كتب البابا إنوسنت الثانى رسالة عنوانها « في تعاسة حظ الإنسان » On the Misery of the Human Lot . إن كل معتقد فى إيماننا يفترض أن هذا العالم مخلوق للعذاب . ألا ترى أن هذا هو السبب الذى يجب من أجله أن نؤمن ؟ كيف يمكن أن نختل العيش إذا عرفنا أن هذا العذاب لن تعوضه السعادة الأخروية ؟ إنك لم تتعلم بعد حتى درس قولتير : إذا لم يكن الله موجوداً فينبغى أن نخترعه .

أندرو : إنك يا ماتيو رجل طيب ، وعندما تتجاوز بمثل هذا الصبر عن هرطقتنا ، أكاد أسلم بكل ما تقول . ولست أفخر بمعارضتك . وهرطقى صادرة عن شخص يرجو من صميم قلبه أن يكون خصمه على صواب . ولكن كل لاهوتك يقسوم على « خطيئة » الإنسان ، وفداء المسيح إياه . وقد جعل التطور هذه العقائد بعيدة التصديق . لقد أنهار لاهوتك عندما اختفى آدم من التاريخ . الحق كاد التاريخ أن يسيء إليكم كما أساء علم الحياة ، إذ من المستحيل أن نعتبر ارتفاع الأمم وسقوطها ، وتخريب الحرب للفنون ، وانتصار اللصوص والمتعصبين والقتلة المستمر ، دون أن نستنتج مع أاناتول فرانس بأن « العالم مأساة كتبها شاعر ممتاز » — أو لعلها ملهاة من قلم « أرسطوفان الإلهي » .

كلارنس : يعجبني رد ماتيو على حملتك يا أندرو . فالشر يؤدي إلى الإيمان كما يؤدي إلى الإلحاد . فكل جندي متدين حتى يرقى إلى المؤخرة . وجميع القواد ملحدون . والعذاب الذي يدل في نظرك على عدم وجود الله ، يدل على وجوده عند صاحب النفس التي يجب أن ترتاح . وما دام الفقر أو الموت موجوداً فسيكون هناك آلهة . إن ازدياد الثروة من أهم الأسباب في تدهور الدين أكثر من أى سبب آخر ذكرته . فالثروة تقبر الزهد ، وتغرق المدن بألوان الترف والخلود . وحين يلعن الدين الترف والخلود يولى كل إنسان الدين ظهره ، ما عدا الذين لم يتمكنوا من أن يكونوا أشراراً .

بول : والآلة أهم من الثروة سبباً في الإلحاد . فقد صنعت الثورة الصناعية العجائب بالآلات ، حتى أصبح الفكر الحديث لا يملك إلا أن يقرر أن الآلة هي كل شيء . لقد رأت العصور الوسطى في الطبيعة مجد الله ، ولذلك عبدوا الطبيعة ، واجتهدوا أن يبلغوا مرتبة جمالها بالفن العظيم . والروح التجديدية modernity إنما ترى في الطبيعة كثيراً من المادة الخام تصلح للأشياء النافعة ، فهي تقتلع الأشجار لتصنع ورق الصحف ، وتسمم الهواء والترع بالمواد الكيميائية . إنها تحيل القرية الهادئة إلى جحيم ومدينة صناعية . إنها تصنع آلات جديدة ، وتسارع إلى التحكم في الأرض . إن فساد الاعتقاد يرجع إلى حد كبير إلى الصلف المطرد عند الإنسان مع شيء قليل من ادعاء القدرة على كل شيء ، فهو

يستطيع أن يصنع كل شيء بآلاته ، فلا حاجة له بذلك إلى الله . وحين كان الناس يزرعون الأرض كانوا أكثر تواضعاً ، ولعلهم كانوا أشد عمقاً ، فقد رأوا سر الحياة في كل ما ينمو على الأرض ، ولم يخطر ببالهم قط أن يسموا أطفالهم آلاتاً .

كلارنس : كان سبنسر على اتفاق معك في نصف ما تقول ، فذهب إلى أن الغيبية supernaturalism أقوى ما تكون في المجتمعات الحربية السابقة على عصر الصناعة ، حيث كان لابد من بث روح الطاعة ، ثم ضعف ذلك المذهب بظهور الصناعة التي تنمي الذكاء وتعتمد عليه . وإني أفترض أيضاً أن الصناعة تزعج الدين ، لأنها تحشد الناس معاً في المدن حيث تحتك العقائد المختلفة فتتآكل حتى تموت أخيراً من التحات . هذا إلى إن الصناعة تجلب الديمقراطية ، فيتنازل الإله الحاكم المطلق الذي كان يعكس نظام الملكية غير المسؤولة عن عرشه لديانة إله الحكم النبائي ، ثم إلى «دين الإنسانية» الذي يجلب معه عبادة الأعداد . إنك على حق يا بول : إن في عدم اعتقادنا شيئاً كثيراً من التعاضم .

أندرو : عندما تذكر أسباب إلحادنا يجب ألا ننسى التربية . إن طالب الكلية اليوم يُطرح في معامل الطبيعة والكيمياء حيث يرى العالم ينحل ثم يتركب تحت بصره ، دون أن يذكر الله أمامه . إنه يدرس علم الحياة ، فيتعلم أن «التدبير الإلهي» إنما هو «التغـيـير الملائم» favorable variation ، وأن عين الإنسان رقعة غير متقنة إلى درجة أن أي طبيب عيون ، كما زعم هلمولتز ، لن يجرم بصنع مثلها ؛ كل ذلك إذا لم يكن من سوء حظ الطالب أو من حسن حظـه أن ينتمى لولاية تقرر فيها المسائل العلمية بالافتراء أو التشريع . إنه يدرس علم الإنسان والدين المقارن ، ويقرأ كتب سير جيمس ، فيرى إيمانه وعباداته في ضوء شامل يذيب خرافاته ويضيفها إلى الآثار الباقية عن الجهل القديم . فلا غرابة أن يتهم الذين يعيشون بعقلية ما قبل الطوفان كلياتنا بأنها عشب الإلحاد . نعم إنها كذلك ، ولا حيلة لهم في هذا .

وليم : لقد نسيت جميعاً الحرب . لقد كانت تعين على التدين بين الفقراء ؛ ولكنها ولدت بين الموسرين الشك ، إذ من العسير الاعتقاد بأن عالماً يسير في طريق الانتحار كان من إبداع عقل سام خير .

فيليب : مهما تكن الأسباب فمن الواضح أن الدين قد فقد سيطرته على العالم الغربي ، وأن موجة عظيمة من التحول إلى الدنيا تجرف واحدة بعد أخرى تلك الأوجه من الحياة التي كانت تتعلق فيما مضى بالدين . هذه الكليات التي ذكرتها كانت إلى عهد قريب معاهد دينية يشرف عليها رجال الكنيسة . ولكن الصناعة وجدت أن الكليات في ظل هذا الإشراف كانت تخرج فلاسفة وشعراء وخطباء ولاهوتيين بدلا من مهندسين ومعدنين وكتبة حسابات . وارتفعت عقيرة الصناعة بالشكوى . ولما تبينت الكليات أن الشاكي صاحب مال اعترفت بعدالة شكواه ، وطردت رجال الدين ، ووضعت رجال المال في كراسي الرئاسة وضيقّت على معاهدهما الدينية حتى يتجه الأساتذة إلى الاشتغال بمنحة كارنيجي ، واستبدلوا الطبيعة والكيمياء بالأدب والفلسفة ، وأغرقت البلاد بالحاصلين على دبلومات في العلوم . لقد استولى العلم على الجامعات من الدين .

فهذا هو منبع اتجاهنا نحو الدنيا . ومن هذا الأصل أخذ المجرى يتسع حتى كاد أن يشمل جميع ألوان الحياة . فالأيام المقدسة أصبحت أيام راحة . وأهمل ونسى القديسون الذين كانوا يصفون على التقويم نوراً وكآبة . كانت الزراعة عبادة وطقوساً وهي اليوم جرارات وكيمياء . والقانون الذي كان فيما سبق أمر الله هو الآن وحى أعضاء الشيوخ والعمد . والدولة التي توحدت ذات يوم مع الدين ، وتوحد رئيسها مع الله ، أخذت تفصل نفسها أكثر فأكثر حتى من النصوص الحاوية الدالة على التقوى السياسية ، بل إن الدولة لن تتنازل حتى لتستأجر الدين كرجل الأمن (١) . إن حكومتنا مسيحية في « عيد الشكر » ، ولكنها تعوض عن ذلك بقية العام . وتفصل الجمهورية التركية عن الديانة الإسلامية ، ولا تجد إلا نصف الخرائد التركية الأمر من الأهمية بحيث يستحق الذكر (٢) .

حقاً في كثير من الجامعات وفي دوائر لاشك في تحرر عقول أصحابها ، لا تزال تعيش خرافات باطلة ومعتقدات غير معقولة ، ولكنها إلى جانب الطقوس

Adams, B., The Laws of Civilisation and Decay, p. 293. (١)

New York Times, Apr. 12, 1928. (٢)

المنكرة والمعتقدات العجيبة التي سادت في الزمن القديم معقولة ولا ضرر منها .
وازن بين أوروبا الغربية والشرق تدرك مدى إقبالنا على الدنيا . يقول جيون إن
«أوائل المسيحيين كانوا يشعرون أو كانوا يتخيلون وجود شياطين لا تنفك تهجم
عليهم ، وروى تظهر لهم ، ونبوات تهديهم ، ثم ينجون بأعجوبة من الخطر
والمرض بل من الموت نفسه بالتوسل بالكنيسة » (١) . فكم بقي من ذلك اليوم ؟
إن تاريخ الحضارة نفسه هو تاريخ الإقبال على الدنيا (٢) secularisation
إن العظات التي نسمعها لم تعد نخبرنا عن روى وشياطين ونبوات . وهجر الناس
الحديث عن النار والصراط بل والمعجزات . ذلك أن كل شيء أخذ في التعقيل ،
واللاهوت وقد أخذ يفقد حرارته القديمة أصبح مزيجاً مهذباً من الفلسفة والأخلاق .
ولكن الأخلاق التي كانت في الماضي ملك الكنيسة الخاص انحلت اليوم عن
رباط الكنيسة والدولة معاً . واضمحلت الجزاءات الأخروية القديمة ، وانعدم
الشعور بالخطيئة . لم يعد المثل الأعلى الأخلاقي الذي كنا نعتنقه في الشباب فضيلة
بل حذراً .

أندرو : معى الآن بعض الإحصاءات تناسب المقام . أولاً تقرير من
شارلس بوث يبين أن ٠.٧٥ / من سكان لندن لا يحضرون أبداً في داخل الكنيسة —
ثانياً ، يقول تين إنه حتى سنة ١٨٩٠ ، في باريس ، ومن سكانها ٢٠٠٠٠٠٠
من الكاثوليك لا يؤدى فريضة الفصح إلا ١٠٠٠٠٠ فقط ، مع أن هذه
الفريضة أقدم الواجبات الدينية مدى العام . وأنه من بين ٣٢٠٠٠٠٠٠ كاثوليك
في فرنسا لا يتقدم إلى الاعتراف إلا ٢٠٠٠٠٠٠ فقط (٣) . أصبح الدين في
الدول اللاتينية صفة جنسية ثانوية للنساء . ولا يحتفظ بالكاتدرائيات في فرنسا
من أجل العبادة بل لاستقبال السواح ، فهم الذين يعينونها مالياً لا المصلون —
ثالثاً : تبين من استفتاء أرسل إلى قراء جريدة ديلي نيوز في لندن أن ٣٠ / من
القراء ملحدون . وأن ٤٥ / ينكرون ألوهية المسيح ، وأن ٦٠ / ينكرون الصحة
التاريخية لسفر التكوين . وأرسل الاستفتاء ذاته إلى قراء جريدتي الأمة وأثينا يوم

(١) Decline and Fall of the Roman Empire, vol. i, p. 461.

(٢) Shorwell, p. 9.

(٣) The Modern Régime, vol. ii, pp. 132-3.

فى لندن فاتضح أن ٥٠ ٪ من هؤلاء المثقفين لادينون ، ومن بين ١٠٨٨ رابعا : من الذين أجابوا لم يؤمن بصحة الأسفار الخمسة إلا ٨٨ فقط (١) — رابعا : إحصاء أجرته جريدة « العالم » فى نيويورك تبين منه أن : ٧٥٠٠ متدينون ، ٢٩٢٤ لادينون ؛ ٦٢٩٢ مؤمنون بخاود النفس ، ٣٩٥٤ غير مؤمنين بخاود النفس ؛ ٦٣٢٧ مؤمنون بالصلاة ، ٤٠٦٣ غير مؤمنين بالصلاة ؛ ٥٥٥٦ مؤمنون بنزول الإنجيل ، ٤٦١٤ غير مؤمنين ؛ ٤٩٥١ يمارسون عبادات دينية خاصة ، ٥٣٨٨ لا يمارسونها ؛ ٢٦٨٤ يتعبدون مع أسرهم فى البيت ، ٧٣٢٠ لا يتعبدون مع أحد (٢) . وهذه الأرقام خاصة بمدينة نيويورك ؛ ولا ريب أن نسبة المؤمنين إلى غير المؤمنين كانت تكون أعظم إذا كان الإحصاء عاما فى جميع أنحاء البلاد ، أو كانت الإجابات من الأميين كما سئل المثقفون .

كلارنس : لقد كانت كلماتك الأخيرة القليلة أسوأ الكلمات . أما بالنسبة للمسيحية فالموقف أسوأ حتى مما تشير إليه هذه الأرقام ، لأن كثيرا من الإجابات الموافقة جاءت من فرق وشيع ليست معدودة مسيحية فى العادة ، مثل (المتصوفة الدينيين) الثيوسوفست theosophists . وفى أمريكا يوجد حول أربعين مليوناً يذهبون إلى الكنيسة ، أما الباقي فلا يبرحون الفراش حتى الظهر يوم الراحة كل أسبوع . وجميع الدلائل تدل على أن المسيحية تحتاز نفس الانهيار السريع الذى أصاب ديانة الإغريق القديمة بعد ظهور السفسطائيين و «التنوير الإغريق» . كان فولتير مثل بروتاجوراس ، وديدرو مثل ديمقريطس ، وكانط مثل أفلاطون ، وسبنسر مثل أرسطو ، وأناطول فرانس مثل إبيقور . إننا نعيش فى عصر غروب الآلهة .

٣ - وظيفة الدين

بول : إن فى صوتك يا كلارنس نغمة حزينة . إنك لا تقل تدينا عن أى واحد منا ، ولكن عقلك المفكك الذى تثق به هذه الثقة هو الذى يمنعك من الاعتقاد . أوافق أنت من أن حكم منطقك أصبح من إحساس قلبك ؟ هل علوم الفلك والطبيعة والبيولوجيا من الثقة بحيث يكون من الحكمة السماح لها بتحطيم الآمال التى أبقت على حياة الكثيرين ؟

(١) New York Sun. Sep. 13, 1926.

(٢) New York World, Dec. 16, 1926.

كلارنس : إني أعرف مقدار ما يمكن أن يكون في الإيمان من عزاء .
 لي عم شيخ يعيش في الجبل ويبلغ من العمر التسعين . كان يعمل في مزرعته
 حتى لم تعد قدماه تقويان على حمله . والآن يجلس إلى جوار الموقد في المطبخ طول
 النهار هادئاً مبهجاً يرقب الموت . وفي بعض الأحيان يقول : « لم أكن عبداً
 سيئاً ، ولو أنني ارتكبت بعض الأعمال الخسيسة مرة أو مرتين في حياتي . فليكن ،
 إن الله سيغفر لي . إنه طيب » . وتجلس إلى جواره زوجته العجوز تقرأ الكتاب
 المقدس في المساء ، وهي تلتهم بسعادة عظيمة كل كلمة للمسيح ، وكل وعد
 بالنعمة المقبلة . لم يخطر بباله أن ألقى الشكوك حول مثل هذه الآمال . لم لا يتعزيان ؟
 وفي القرية عند سفح الجبل كنيسة صغيرة يذهبان إليها — كنيسة نظيفة ، بيضاء ،
 كريمة . وأظن أن برجها المتواضع قد أخذ بيد مئات الألوف من الأنفس . وتقع
 المدافن خلف الكنيسة حيث تجد فوق كل قبر ملاكاً لطيفاً أو صليباً مرجواً ،
 وجميع الكتابات المنقوشة تبشر الميت بلقاء المسيح . انظر كيف يأمل الشعب .
 إني أسلم لك يا بول بأن العالم يكون أبدع إذا كان هؤلاء البسطاء على صواب .

أندرو : إنك عاطفي جداً يا كلارنس ، فأنت تسمح لماتيو أن يخبرك
 كم جلب الأمل في السماء للناس السعادة . ولكنك لم تذكره بالرعب الذي أنزلته
 الكنيسة على ملايين القلوب بتبشيرها بالعقاب الأبدي في نار جهنم وبئس المصير
 (هكذا يؤكد لنا الكتاب المقدس) . ولم تذكره بالمرارة التي جرعتها الدين
 لحياة الإنسان : هذه الأسر التي مزقتها التعصب والاختلافات المؤسفة ؛ الأهم
 التي سبقت إلى الحرب لنصر العقيدة ، والرجال والنساء الذين احتفل بحرقهم ،
 لثلاث ينكشف أمر الكتاب المنزل أو الكنيسة المعصومة بقليل من الحرطقة الخاصة .
 إنك تذكرني بعبارة قالها شبنجلر : الإلحاد متفق تماماً مع الرغبة التواقة إلى التدين
 الحقيقي — ومن هذا الوجه فهو يشبه مذهب الرومانسية الذي يستعيد كذلك
 ما ذهب إلى غير رجعة (١) . وقد امتلأ العقدان الأولان من هذا القرن بكثير
 من الملحنين المتدينين ، مثل أناتول فرانس ، جورج مور ، جورج سنتايانا —
 النادبون الرومانتيكيون لإيمانهم الميت . كانوا عصر انتقال ، أما أبنائهم فلا يشعرون

تألموا به ، ولن يعرف أحفادهم هذا الشوق على الإطلاق . ولو أمكننا أن
نعود البشرية نسيان فكرة الخلود جيلين أو ثلاثة أجيال لزالَت هذه الكتابة الشعرية .
ولم : لست أظن ذلك يا أندرو ، لأن الاعتقاد أمر طبيعي ، وهو ينشأ
مباشرة من الحاجات الفطرية والعاطفية — من التعطش إلى حفظ الذات ، والثواب ،
والصحة ، والأمن ، بل والخضوع . وفي بعض الأحيان يغمرنا الشكر على النعمة
حتى لنود أن يكون « لروح العالم » آذان يسمع بها آيات شكرنا . ويقول نيتشه
إن الطريقة التي تنقلب بها المصائب حظوظاً حسنة أغرته بالاعتقاد في الله (١) .
ولك أن تكتم أنفاس الدين قرناً من الزمان ، ثم اكشف عنه بعد ذلك الغطاء تجد
الدين ينمو من جديد قبل مرور عام واحد . ذلك أن الاعتقاد طبيعي أكثر من
الشك ، وهو من أجل ذلك أيسر . والشك يبعث على التوقف والضيق . والإيمان
يدفع إلى البسط ، ويحسن الشهية والدورة الدموية . وكل متشكك يشكو من معدته .
ومن ثم كان التفاؤل وهو صورة من الإيمان أكثر انتشاراً وتلقائية من التشاؤم
الذي هو صورة من الشك . ومعظم الكتاب المحبوبين كما قال نابليون « باحثون
في الأمل » . والشك مشغلة وعمل ، والإنسان كسول . ومن الناحية العقلية تؤدي
الأقلية معظم العمل أما الجماهير فطفيليات . القوى وحده هو الذي يستطيع أن
يشك ، إذ لا يُجهد أكثر من الشك .

ماتيو : هناك منبع آخر للدين نسبت أن تذكره ، وذلك هو الروح
المشعري في الإنسان . هـذا لن لم يزرع عن الموت ما فيه من ألم فقط ، بل ملأ
الحياة جمالاً بالطقوس ، والبناء ، والنحت ، والنقش ، والدراما ، والموسيقى . فقد
رفع أحداث الروتين في حياة الإنسان ، من الولادة إلى الزواج ثم الموت ، إلى
مستوى السر المقدس ، وجعل من هذه الأمور العادية تجارب مقدسة ، ومد
جذورها في النفس بالشعور ، وخيّلها للناس بالفن . لقد بدل مأساة الحياة
الحقيرة إلى رحلة شاعرية يحج فيها المرء إلى نهاية شريفة . وبغير الدين تصبح
الحياة سخيّة وضيفة كبدن بغير نفس . إن لأعجب أحياناً كيف يشعر الملاحد
مساء أيام الأحد عندما تدق أجراس الكنيسة — ألا يغمره شعور قوي بالوحدة ؟

إن يوم الأحد كأي يوم آخر بالنسبة إليك يا أندرو أنت وكلا رنس . ومع ذلك لن تغني جميع حفلاتكم الموسيقية ومسارحكم عن القداس في كنيسة سان باتريك أو سان توماس صباح الأحد .

أندرو : مرحى مرحى يا ماتيو ، أخبرنا عن الحقيقة ، إنك تتحرق شرقاً إلى الذهاب إلى الكنيسة .

ماتيو : لعلني أحياناً . ولكنني في أوقات الصفاء أعرف أن تمضية ساعة في الكنيسة تشد أزرى طول الأسبوع وتشع في حياتي ألواناً من البهجة . ومن ناحية أخرى ما أفرغ عيد الميلاد عنديكم . إنني لأذكر كيف كانت أسرتنا كلها في ليلة عيد الميلاد تركع أمام الكرسي في حجرة الطعام وهي تنلو جماعة تسايح الصلاة . لازلت أسمع أبي يقول « أبانا » و « السلام لك يا مريم » بصوت رخيم وبغير تعجل . ثم صباح اليوم التالي القربان المقدس Holy Communion ، والقداس الكبير . كنت تجدد كل شخص مشرقاً ومرحاً ، والتلج ناصع البياض ، مع رنين الأجراس ، وأشجار عيد الميلاد المتلألئة . والصغار سعداء بتلقي الهدايا ، والكبار أكثر سعادة بتقديمها . وفي عيد رأس السنة كنا نركع جميعاً أمام والدي ، الأطفال والشبان على السواء ، نطلب بركته . تلك كانت أسر في ذلك الزمان . فلا عجب أن تضمحل الأسرة ، وأن تستشري الجريمة بعد أن مات التبجيل .

كلارنس : يقول أحد أصدقائي الأعزاء إن ثمة أربع مراحل من النمو لفهم الدين : الأولى يسميها الاعتقاد العاطفي ، والثانية الاعتقاد الميتافيزيقي ، والثالثة التجرد المطلق من الوهم ، والرابعة الإدراك الذوقي (١) . إنني لأود أن أكون معك يا ماتيو في هذه المرحلة الرابعة . ولكن المشكلة هي أنك تأخذ هذا كله حرفياً .

ماتيو : يجب أن نقبلها بحرفيتها وإلا بدت كتمثيلية هزلية أليمة . وكيف يمكن أن تكون جميلة إلا تكن صادقة ؟

بول : لقد بينت وجهاً واحداً فقط من وظيفة الدين الهامة يا ماتيو . لقد تحدثت عن قيمته بالنسبة للفرد ، ولكن قيمته بالنسبة للمجتمع لا تقل أهمية . إن الاحتفال الديني بالزواج لم يعظم هذا الحادث في نظر الشريكين المرتبطين

فقط ، بل ربطهما برباط وثيق من الزواج الذى يقوم على عمق العاطفة والخشية مما يضيفه الدين على ذلك الأمر الذى بغيره إنما يكون مجرد إباحة للمضاجعة . وقد أدى الدين بهذه السبل إلى استقرار الأسرة وإلى استقرار الدولة تبعاً لذلك . وأينما وجهت نظرك فى حياة الإنسان الحارية رأيت الغرائز الفردية أقوى من الغرائز الاجتماعية . والغريزة التناسلية وهى أقواها جميعاً ليست بالضرورة اجتماعية ، وقد تؤدى إلى التفكك والفوضى كما هى الحال اليوم . ووظيفة الدين الكبرى ، بما فيه من أسرار مقدسة ، وتعاليم خلقية ، ووعود بالجنة . . .

أندرو : لا بد أن أذكرك مرة أخرى بأن تضيف الخوف من النار .

بول : . . . أن يدعم دوافع الإيثار ، أو إن شئت فقل دوافع المعاونة والتعاون ، لتقاوم دوافع الأثرة القديمة التى ربيت فى أحضان آلاف من السنين من الكفاح فى سبيل البقاء فيحارب ويظفر ويأكل ويسود . ولست أعتقد فى وجود جهنم ، ولكنى أعتقد أن الفكرة عنها قد باعدت بين كثير من الناس وبين ارتكاب الشر . والذى أراه أن الشاب حين يكشف أن جهنم لا وجود لها فإنه لا يحفل بشيء . ووظيفة الأخلاق أن تمثل الكل فى مقابل الجزء والمستقبل فى مقابل الحاضر ، وهذا بالضبط ما يسعى الدين إلى عمله . الدين كما يقول هوفدنج هو الاحتفاظ بالقيم . وبغير الجزاءات الدينية تصبح الأخلاق مجرد تقدير ، فيختفى الإحساس بالواجب ، ويقف كل شاب جميع ذكائه وعلمه على التحايل على الوصايا .

فيليب : لا ريب أن الدين كان أعظم قوة فى التاريخ هذبت توحش الإنسان قبل ظهور المدارس . وذهب بنيامين كيد K dd إلى أن جميع الحضارات قامت على أساس الجزاءات الأخروية التى قدمها الدين للأخلاق . وكان تارد يعتقد أن الحياة الشريفة عند بعض الملحين ترجع إلى الأثر المستمر لربيتهم الدينية — وهو ما سماه كارليل «النور اللاحق» Nach:che:n للمسيحية . وهذا هو الذى أشار إليه رينان حين كتب عبارته المشهورة : «إننا نعيش على ظل لظل . فعلى أى شيء سيعيش الناس بعدنا ؟» — كيف يتحكمون فى شهواتهم ، ودوافعهم إلى الكذب والسرقة والقتل حين يمتحن حتى هذا «النور اللاحق»

للعقيدة على فراش الموت ؟ . ويختتم ربنان كلامه قائلاً : « الدين وهم لا غنى عنه » ^(١) وقد كتب دستوفسكى أعظم قصص فى العالم ليعين كيف أصبح الإنسان « متلبساً » بالشياطين حين هجر الله . فلا غرابة أن الدولة حتى زمان الثورة الفرنسية والأمريكية كانت تربط نفسها دائماً بدين من الأديان ، وكانت تمنحه معونة مالية وحربية فى نظير حماية الأخلاق . ويرجع العداء الحديث بين الكنيسة والدولة إلى أن المسيحية أصبحت ديانة عالمية لا وطنية ، فأصبحت الكنيسة فى علاقاتها بالحكومات سيدة لا تابعة ، واضطرت كل دولة حديثة كى توطد سيادتها إلى أن تحارب سلطة الكنيسة . هذا الانتقال فى الحكم من مبدأ التأنيث إلى مبدأ التذكير ظاهرة نادرة أكبر الظن أن عهداً لن يطول .

يقول فلوطارخس فى بعض كتبه : « قد يكون قيام مدينة بغير أرض تملكها أيسر من قيام دولة بغير اعتماد فى الله » ^(٢) . وزعم بيل Bayle أن قيام دولة لا دينية أمر عملي تماماً ، ولكن فولتير رأى أن بيل إذا عين حاكماً على ستمائة فلاح لبشر بينهم فى الحال بالعقاب الدينى ^(٣) . وكان نابليون يظن أن أعظم معجزات المسيحية أنها حجزت الفقراء عن قتل الأغنياء ، وفى ذلك يقول : « لو لم يوجد البابا لكنت اخترعته » ^(٤) . ولا نزاع فى أن الدين المشترك يهب الأمة وحدة وحماية يجعلان من أهلها جنوداً أقوياء . ويكفى أن نتأمل المسلمين واليابانيين .

أندرو : فى ضرورة الدين المزعومة للحكومة والأخلاق كثير من الهراء . فهذا الأسقف سوينف Dean Swift الذى لا بد أنه كان يعرف الدين معرفة جيدة يقول إن عندنا من الدين ما يكفى لجعلنا نكره ، ولكن ليس ما يكفى أن يحب أحدنا الآخر . والدين يؤدى إلى الفاقة كما يؤدى إلى الوحدة ، وما عليك إلا أن تذكر انتخابات سنة ١٩٢٨ . ولاحظ أخيراً أحد الإيرلنديين — أكبر الظن بغير رخصة من الكنيسة — بأن : « الدين علة شقائنا ، فبعضنا بروتستانتى

History of the People of Israel, vol. v, p. 92. (١)

In Bluntschli, Theory of the State, p. 287. (٢)

Lange, History of Materialism, vol. ii, p. 17. (٣)

Todd, op. cit., p. 434. (٤)

والبعض الآخر كاثوليكي . ولو كنا جميعاً لادينيين لعشنا معاً كمسيحيين » (١) .
 أما الذى تسميه وحدة ، فأنا أسميه ركوداً . فالوحدة التى يعطيها الدين للناس هى
 وحدة التقاليد ، وهى طاعة لاشك فيها ، وأمثلة صورة لها عبادة الأسلاف
 فى الشرق . أما أن الدين يهذب توحش الإنسان ويؤدى إلى بناء الأخلاق فكيف
 تفسر التضحية بالإنسان فى العقائد القديمة ، والدفاع عن الرق ، والأمر الواقع
 status quo فى الكنيسة الحديثة ؟ لقد رفض هيوم منذ زمن طويل فكرة الدين
 هذه من أنها أم الأخلاق أو أساسها . فقد ظهر الدين بعد الأخلاق بزمان طويل .
 فإذا كان هناك أية علاقة بينهما فذلك أن الأخلاق لأنها تهذب بالتربية والأمن
 تؤثر فى الدين أثراً مهذباً . لقد قالها سومنر بشجاعة : « لم تكن الكنيسة قط فى
 مستوى التقاليد Mores الراقية فى أى عصر . فكل بحث نجريه يؤدى بنا لا إلى
 أن الكنيسة كانت الملهم والقائد بل إلى اختلاف رسل الحق ، وإلى التقلب العظيم
 فى التقاليد Mores » (٢) .

ماتيو : ولكن أليس من الواضح لكل إنسان أن اضمحلال الاعتقاد
 الدينى قد أدى إلى انهيار خطير فى الأخلاق ؟ انظر إلى ما عندنا من عريضة ،
 وإباحية جنسية ، وأدب مكشوف ، ومآسى العرى وحب العرض ، أتجدها
 بين أبناء وبنات الكنيسة المخلصين ، أم بين النفوس « المتحررة » ؟ لقد أدت
 الداروينية إلى الجبرية والتشاؤم وإلى أبيقورية كئيبة . يتحدث توماس هاردى
 عن « الكآبة المزمنة الآخذة فى الاستيلاء على الشعوب المتحضرة مع زوال الاعتقاد
 فى سلطة خيرة » (٣) — فأى عالم أوثق من هذا تود سوائه ؟ إنه جيل مكتئب ،
 وما فيه من بهجة إنما هو محاولة لنسيان فراغ القلب بإطعام الفم . وأنت تعرف
 القول المأثور : الدين عند مهد كل أمة ، والفلسفة عند لحدها .

فيليب : وقال نابليون : « الفيلسوف الصالح مواطن فاسد » .

ماتيو : ولا يمكن أن يكون المواطن الفاسد فيلسوفاً صالحاً ، فلا أحد
 يحب وطنه لا يحرك ساكناً فى الوقت الذى يحطم فيه علم سطحى وموقت الدين

The Arbitrator, May, 1922. (١)

Todd, p. 428. (٢)

Hardy, T., Tess of the d'Urbervilles, p. 133. (٣)

الذى شيد حضارتنا وأخلاقنا . إلى متى تستطيع أوربا اللادينية الآخذة فى الانحلال إلى دويلات محبة لذاتها — دويلات صغيرة ، طبقات ذات مصالح ، جشعية فردية — تستطيع أن تناسك إزاء شرق يتقوى بالصناعة أو يلهم بالاعتقاد الدينى ؟ كيف تستطيع أن تمنع البؤس واليأس من أن يملأ كل قلب إذا أنكرت فى تعاليمك أعز الآمال التى عرفها الإنسان ؟ اسمع : هذا كتاب يكاد يرجع إلى قرن مضى — اعترافات طفل فى هذا القرن ؛ وسترى فى بدايته سؤالاً يطرحه دى موسيه لن تجد له أى جواب :

« عندئذ قال خصوم المسيح للرجل الفقير : إنك تنتظر صابراً إلى يوم العدل : لن يكون هناك عدل . وتنتظر الحياة الآخرة لتنتقم : وليست هناك حياة أخرى . وتجمع دموعك ودموع أسرتك وصياح أبنائك وعويل نسائك وتضع هذا كله تحت أقدام الله ساعة الموت : ولا يوجد إله » .

ثم لاشك أن الرجل المسكين جفف دموعه وطلب إلى زوجته أن تكف عن نهبتها ، وأبنائه أن يلحقوا به ، ووقف على الأرض فى قوة ثور ، ثم قال للغنى : « أنت يا من ظلمتني إنما أنت مجرد إنسان » وللقسيس : « أنت يا من عزيتني ، لقد كذبت » . وكان ذلك بالضبط ما أراده خصوم المسيح . لعلهم ظنوا أن هذه هى السبيل لبلوغ الإنسان السعادة ، أن يطلقوه ليظفر بالحرية .

ولكن إذا كان الرجل المسكين قد اقتنع بأن القساوسة قد خدعوه ، وأن الأغنياء قد سرقوه ، وأن كل إنسان له حق ، وأن كل خير فهو من هذا العالم ، وأن البؤس شقاء ، وإذا اعتقد المسكين فى نفسه ووثق بقوة ذراعيه فقال لنفسه ذات يوم : « الحرب على الأغنياء . أما أنا فلا أكن سعيداً هنا فى هذه الحياة ما دامت الآخرة لا وجود لها . الأرض لى ، ما دامت السماء خلاء . هى لى وللجميع ما دام الجميع سواء » . وأنتم أيها المفكرون الأجلاء الذين قدتموه إلى هذا المصير ، ماذا أنتم قائلون له إذا انهزم ؟ (١) .

ألا ترى أن إحدى الوظائف العميقة للكنيسة هى تعزية الضعيف فى خضوعه الذى لا غنى عنه للقوى ؟ إنك تعلم الضعيف الثورة . أفلا تعرف أنه فى صراعه

مع الغنى الماهر القوى المحرر من الضمير سيكون مقضياً عليه بالانهزام ؟
إنك تنزع الله من الفقراء وتمنحهم الحرية ، ولكن كيف تنال الحرية بغير
معرفة وقوة ؟ ماذا أنت قائل لمولاء القوم حين يهزمون ، وحين تلتطخ الثورة
الشوارع بدمائهم ، وحين يجلب لهم الكفاح في سبيل العيش ، وبقاء الأقوى ،
وإرادة السلطان ، طغاة جدد بدلاً من القدماء ؟

فيليب : من الممكن جداً أن ينهار المجتمع الذى نعيش فيه بانحلال
الجزاءات الأخروية التى كانت مرتبطة بنظامها الأخلاقى . وأكبر الظن أن العلم
سيكون عاجزاً عن اتخاذ مكان ما حطمه بشدة . ولست أعرف حلاً سوى الثقة
بانتشار المعرفة .

ماتيو : ولكن قليلاً من المعرفة شئء خطر ، وليس لدى الناس من الوقت
إلا ما يكفى لهذا القليل . أما التعليم الذى وضعت فيه ثقتك فإنما هو آلة تقلب
الرجال والنساء أشراراً عامدين .

فيليب : نعم ، نحن نجتاز الآن مرحلة المعرفة القليلة ، ولكننا سنتقدم إلى
الأمم ، وسترفع المعرفة في المستقبل إلى حكمة ، على الأقل عند قادة الشعب .
وعندئذ يكون سقراط على صواب : فالأخلاق الوحيدة الثابتة ، والأخلاق
الوحيدة الآمنة من موت الأديان والعقائد المحققة ، هى أخلاق الحكمة والعقل .
وإذا لم نستطع أن نثق بالتعليم فلن نبليغ الحق فى أى شئء .

ماتيو : سيرتفع بعضكم إلى فضائل الرواقين الوثنية ، وسيأكل معظمكم ،
ويشرب ، ويطلق زوجته . ولعل البشرية بعد جيل أو جيلين ترى المصير الذى
يقوده إليها الإلحاد ، وتمتلىء الكنائس مرة أخرى — حتى كنائسك يا بول التى
تنافس الآن نياجارا — إننا ننسى أن قلة قليلة فقط هى التى تأثرت بالإلحاد ،
فيوجد حولنا فى كل مكان كثير من البسطاء الذين يعبدون الله . وحين ينتهى
أجلكم جميعاً أيها السادة ستظل الكنيسة تقوم بعملها أقوى وأبر من أى وقت
مضى ، معلمة أبناءها الرحمة والولاء ، مقوية قلوبهم بمُثل القداسة ، ومعزية
إياهم عن شرور الحياة ويقين الموت المظلم . سينساكم العالم كما نسي ديمقريطس
ونوكريتيوس ، ويرجع إلى المسيح .

كلارنس : من الراجح جداً .

٤ - الإله الجديد

بول : عندما أصغى إليك يا ماتيو أكاد أتحول إلى كنيستك . ولكنى لا أظن أن المستقبل في جانبك . فكلما رفع التعليم المستوى العقلى للجنس سيعرف الناس كيف يميزون وهم أكثر عزماً بين الجمال والحق . وإذا وجب ألا تصبح المسيحية وقفاً على تعزية الجهلاء فقط فينبغى لها أن تبني معابدها داخل العالم الذى كشف كوبرنيق ودارون . ولعل هذه السنين من البلايا التى أصابت الدين هى أعظم نعمة له ، إذ يجب أن نعيد اليوم صياغة إيماننا فى عبارات أرحب ، وأن نتصور إلهاً جديراً بالكون الحديد الذى اكتشفناه. «وسعوا الله» Elargissez Dieu هكذا قال ديدرو والملحد (١) . وقد كان على صواب ، إذ يجب أن نوسع فكرة الله .

« إن مهمة الدين العظيمة التالية » كما قال لورد مورلى « أن نخلق ديناً جديداً للإنسانية » . لن يكتفى الدين ، فسنستمر في البحث عن شىء أعظم من أنفسنا يمكن أن نعبد . سيستمر الناس في البحث عن تفسير مناسب للعالم -- وهذه هى الفلسفة ؛ وسيستمر في نفخ ذلك التفسير بالشعور ليعثوه حياً -- وهذا هو الدين . سيستمر في التطلع إلى الاتحاد والتعاون مع الكل الذين هم منه أجزاء تافهة منفصلة . وهذه النظرة الشاملة التى تكون فلسفة وحقاً حين تكون فكرية فقط ، تصبح جوهر الدين وسره حين تتغذى بعبادة الكل . وقد يمكن بمثل هذه الصياغة أن نجمع بين العلم والدين مرة أخرى في النفس الواحدة ، كما جمع بينهما ليوناردو وسبينوزا وجوته .

آرييل : أخبرنا كيف يكون ذلك يا بول .

بول : الله الذى أعتقد فيه هو أقدم الآلهة -- إنه «المانا» أو «الماتيو» عند البدائيين ، ذلك البحر من الحياة أو الروح الذى منه تستمد جميع الكائنات الحية وجودها . الله حياة . الله هو الحيوية الخالقة للعالم ، أو هو بعبارة القديس توماس « فعل خالص Actus Purus » . وحيثما تعمقت في سبب هذا الأمر وقعت على هذه القوة الحافظة المولدة -- «هى دائماً وعلى الدوام الدافع المولد في العالم» . وقد شعر كل مفكر عميق من هرقلطس إلى هافلوك إليس بحياة باطنة

Morley, J., Diderot and the French Encyclopedists, vol. i p. 128. (١)

حتى في أشد الكائنات غير المتحركة سكوناً . يقول إليس : « إنه عالم مملوء بحياة لا نهاية لها . فما الذي كشف لنا عن ذلك الأمر ؟ إنه العلم . العلم الذي كنا نظن أنه سلبنا كل خير وجميل — العلم هو الذي بيّن لنا ذلك » (١) .

نعم ، علم الطبيعة وعلم الحياة هما اللذان سيقدمان لنا الإله الجديد . علم الطبيعة الذي يجد حيوية زاهرة في كل ذرة ، وعلم الحياة الذي يبين لنا معجزة النمو الدائمة البقاء . وبعد فقد كان الدين على حق : إن أعلى حقيقة في العالم هي القوة الخالقة ، تلك الحياة التي بدونها ، كما قال سبينوزا ، لا يتصور أو يمكن أن يتصور شيء . وكان سبينوزا على حق في قوله : « كل شيء حتى بدرجة ما » . وكان شوبنهاور ونيتشه على حق في قولها : إن وراء « المادة » توجد الإرادة . وكان هيجل على حق : الله هو تلك العملية من النمو التي تتحول فيها كل مرحلة إلى نقيضة باطنة — إلى انقسام فتيلي mitotic — يؤدي إلى نمو أعظم . وكان أرسطو على حق : في كل شيء هذا الدافع الغريب إلى النمو والكمال ، وإلى تحقيق كل إمكان ملازم . وكان برجسون على حق : في الحياة والاختيار تتكشف سر الحقيقة الباطنة . ولكن برجسون كان على خطأ ، إذ ليس بين المادة والحياة عداً ، وليست المادة عداً للحياة بل صورتها وهبتها الخارجية لتلك القوة الباطنية . الحياة هي الطبيعة الخالقة *Natura naturans* التي قال بها المدرسيون وسبينوزا ؛ إنها الكمال الأول كما يقول أرسطو ، والذي به يسعى إلى بلوغ تمامه الطبيعي ؛ إنها « الرغبة *Desire* » التي تخلق في فلسفة لامارك البيولوجية عضواً بعد عضو ، وتصوغ ببطء البدن في صورة الإرادة .

العلم هو الذي يخلق ديانتى ، لأن التطور هو الذي يثبت وجود إلهي . كيف يمكن أن يكون التركيب الآلي قد تطور ؟ إن صح هذا فهو أبعد مائة مرة عن التصديق من الأساطير الموجودة في الكتاب المقدس ، ولا يمكن أن نفتديه بالدلالة الرمزية والجمال الشعري مما يجعل تلك الأساطير تكاد تكون أصدق من الحق . تأمل التطور لا كما فعل دارون (إذ أي عالم من علماء الحياة يفكر فيه كما فكر دارون ؟) بل كما رآه لامارك وشوبنهاور ونيتشه . فالتطور

ليس تكويناً للكائنات الحية بواسطة البيئة ، بل هو تعديل الأحياء للبيئة ، وجوهر هذه الأحياء هو الرغبة التي لا تعرف الشبع ، حسب عبارة سينوزا . يمكنك أن تفكر في ذلك الكفاح الطويل الصاعد للحياة من الأميا حتى أينشتين وإديسون وأنا تول فرانس دون أن ترى العالم مرة أخرى كثوب الله ؟ ألا ما أعجبنا من حيوانات . إننا نولد ونموت كالموج المترقق على صفحة النهر ؛ ونحارب وندمى ونموت في معارك العالم الاقتصادية ؛ ونكذب ونسرق ونستعمر ونطغى ونقتل ؛ ولكننا في بعض الأحيان نصنع البارثينون وكنائس كالتى بناها البابا سكستوس الرابع في الفاتيكان ، ونكتب أحياناً أمثال السمفونية التاسعة لبيتهوفن ، أو أوراق الحشيش لوالث هويتمان ، ونهب أحياناً حياتنا لأبنائنا وجنسنا . ومع ذلك فصعودنا إنما قد بدأ فقط ، فنحن في شباب ومراهقة نمونا ، وكل شيء يبرعم من حولنا وفي داخلنا ، وما قمنا به ليس إلا وقفة تَعِدُ بما بعدها . ولم يظهر حتى الآن قانون استنفد بحثنا أو وصفنا . قد تسمى هذا شعراً أو شعوراً ، ولكنى لا أستطيع أن أرى نبتة خضراء تنبت من الأرض دون أن أقول : هذا هو الله . ولا أملك حين أرى طفلاً ينمو ويفنى دون أن أقول : هذا هو الله . إن كل سيدة تحمل رضيعها تحركنى ، لا على أنها صورة للعدراء أو للإيمان ، بل كأعظم رمز لتلك القوة الخالقة التى تختبئ وراء حركة الأعضاء ، والتى تحرك كما قال دانتى الأرض وسائر النجوم .

أندرو : لقد أخذنى العجب بعض الشيء من جنس إلهك . فأن ترد الله لتوحد بينه وبين الحياة ، هو أن تسلبه من الشخصية وتجعله بغير جنس . ومع ذلك فإنك تراه — أو لعلى أقول تراه — فوق كل شيء فى الأمومة . لعلك ستقبل تحدى شو ، وتؤول إلهك على أنه من جنس الأنثى .

بول : الجنس شيء سطحي ظهر متأخراً ، والشخصية أكثر سطحية وتأخراً . والله من وراء الجنس والشخصية وهو بهما محيط . فأن تنسب الشخصية لله على المعنى الذى نستعمل نحن فيه هذه اللفظة ، فهذا تشبيه وتفاجر صبيانى . يجب أن نقرأ زينوفان مرة أخرى . والشخصية انفصال ، إنها صورة خاصة من الإرادة والخلق . ولا يمكن أن تكون مثل هذه الذات المنفصلة والمتحيزة .

الله مجموع ومنبع هذه الحيوية أو الروح العامة التي منها تجرد وتتكاثر ذواتنا وشخصياتنا قطعاً صغيرة . والشخصية قالب صغير جداً لا يسع الله وقد تبين ذلك منذ كتب كوبرنيك ودارون . قد نتحدث عن إلهي أنه لا جنس له إذا شئت ، ولو أن ذلك يكون وصفاً سلبياً لا يليق . أما أنا فستمر في الحديث عنه رمزياً باستعمال ضمير المذكر كما نتحدث عن الإنسان بالمذكر بضرب من الرخصة الأبوية . وإذا كنا نتحدث عن الشمس بضمائر المذكر ^(١) ، فحديثنا عن الله بالمذكر أدنى من المعقول (بشرط أن نعرف حدوده) حين نأخذ في بالنا أنه الأصل الشخصي الأعلى لكل شخصية .

ومع ذلك فهناك شيء كثير يمكن أن يقال في رأي شو . فالذكر عارض وأداة ، والأنثى حامل للجنس واستمرار له ، إنها التجسد المباشر للخلق الطبيعي . والعبقرية هي كفوها الوحيد كأوضح تجسد للإله باعتبار أنها أداة الخلق الروحي ، وخالقة المعرفة الجديدة والقيم الجديدة ، في الأمومة وفي العبقرية ، ومن فوقهما الله . وليست الإنسانية هي الله كما ظن كومنت ، فلا أحد يعرف الإنسانية يحفل بعبادتها . إن معظمنا مادة خام ، ومجرد أحجار وملاط في بناء لا يمكن أن نفهم السر في تصميمه . ونحن إنما نكتشف وجود شيء يتصل بالله في لحظات نادرة أئمة من حياتنا نصعد فيها إلى مراتب الاختيار ، وفي الشقاء الخالق عند العباقرة . وهذا في صورة أخرى هو التجسد والصلب . كان نيتشه ذلك الملحد التي يقول إنه حين كان يمشي مع فاجنر كان يعرف مَنْ الله ، وكان يحس بأنفاس الألوهية تهب عليه . وحرية الإرادة والعبقرية ضربان من الوهم إذا كان الله موجوداً خارجاً وقادراً على كل شيء ، أو إذا كان العالم آلة (الميكانيكية إنما هي كلفينية Calvinism ^(٢) مغلفة بالثورة الصناعية) . وتتكشف لنا لمحة من حرية الإرادة ، ويصبح بعض أثر العبقرية ممكناً إذا كان الله موجوداً معنا ، وفي الحياة

(١) الشمس مذكرة في اللغات الأجنبية ، أما في العربية فالشمس مؤنثة وفي ذلك قال المتنبي
يرى أم سيف الدولة :

فا التأنيث لاسم الشمس عيب ولا التذكير فخر للهلال (المترجم) .

(٢) كلفن (١٥٠٩ - ١٥٦٤) مصلح ديني بروتستانتي ، يقوم مذهبه على أن إرادة الله مطلقة ، وليست للإنسان إرادة ، وإن الخلاص بيد الله الخ (المترجم) .

الدائمة التى ترتقى من طاقة الذرة إلى فن فيدياس ورؤية المسيح . فأن ترى الحياة من خلال كل تنكرها المادى ؛ وأن تحس بالألوهية ، كما كان القدماء يفعلون ، فى كل شجرة ، وفى كل حيوان ، وفى كل زواج وولادة ، وفى كل عظمة للعقل والنفس حتى فى الاضمحلال والموت الذى لا يرد ؛ وأن تحكم على جميع الأشياء فى صورة خيرها لمجموع الحياة ؛ وأن « تلحق بالكل » وأن تتعاون راغياً فى النماء : هذا هو الدين . أما توقير العبقريّة ، وتوقير الأمهات والأبناء وجميع الأشياء النامية ، والولاء للحياة — فهذا هو عبادة الله .

أندرو : هذا كلام شعرى ، وقصور تبنى على الماء . فلاتخذ عن نفسك ، سيبتسم كل عالم من تأليه حياة يمكن كما قال سنتاينا أن يوضع لها حد فى لحظة واحدة بطلقة طائشة أو ارتفاع أو انخفاض فى درجة الحرارة ، أو نقص فى أكسجين الهواء . وسيضحك بمرارة كل متدين من هذا الدين الذى ينتزع الله من السماء ليضعه فى الورود والأشواك ، والكلاب والبراغيث ، والأمهات البدينات ، والرضع الذين يبللون لفائفهم ، وريتشارد فاجنر أكبر مهرج فى تاريخ الموسيقى .

بول : فلتنس فاجنر ، ولتذكر المسيح . سيكون فى دينى هذان العنصران : الله الحى ، والمسيح الإنسان ؛ لأن المسيح كما فهمه اللاهوت القديم فى صورة الرمز كان أعلى تجسد للإله . وليس أعظم خلق الحياة هو الفكر بل الحب ؛ وليس أعظم نصر للعبقرية الإنسانية تمثيلات شكسبير ولا رخام البارثينون ، بل أخلاق المسيح ، فهى بعد الرعاية الأبوية أبدع قوة لخير ظهرت من قبل فى العالم . إنى لأعرف يا فيليب أنك تعد مذهب المسيح الأخلاقى غير عملى . ومع ذلك فقد سمعتك تنقل مؤيداً آخر سطر من كتاب الأخلاق لسينوزا : « جميع الأشياء الممتازة صعبة كما هى نادرة » ولا اعتراض لى على القول بأن بعض الأشياء صعبة ، لأن وظيفة المثل الأعلى الأخلاقى أن يسمو بنا عن جميع الغرائز التى زاد كفاح العيش فى ضراوتها إلى آفاق من الاحترام والأدب تصبح معهما الحضارة والحياة المتعاونة ممكنة . وما دامت وصايا المسيح فى حدود طاقتنا المثالية فنلجأ إلى أن تحتفظ لنا بالكمال الذى يجب أن نتجه إليه فى نمائنا ، والذى نستطيع أن نجعله على الدوام نصب أعيننا . ما مذهب المسيح سوى « القاعدة الذهبية » — وهل

القاعدة الذهبية متعذرة تماماً على التحقيق؟ على العكس إنها لب الحكمة في صلاتنا بالناس . لقد اكتشفت أنني كلما دفعت العدوان بالعدوان ضاعفت المقاومة وخلقت عقبات جديدة ضدى ، وحيثما عملت حسنة جاءنى مئات أمثاله . وحيثما أحبت ظفرت . ولو كان لى أن أعرف الملحد لقلت إنه شخص غير موال للحياة ولا يحترم السماء ؛ وكنت أعرف المسيحي بأنه ذلك الذى يقبل أخلاق المسيح ويحاول مخلصاً أن ينسج على منوالها .

فيليب : هذا رائع يا بول . سأنضم إلى كنيستك في الحال إذا لم تصر على الخلود الشخصى .

بول : لم لا نختلف على بعض الأمور ونعمل معاً حيث نستطيع ؟ وبعد فاختلافنا إنما هو في ألفاظ . كانت الأجيال السابقة تعنى ما نعنيه - احترام كل حى ، والولاء للمجموع الأكبر . كل ما فى الأمر أن السلف كان يستعمل رموزاً وألفاظاً مختلفة . والآن وقد انتهت المعركة فإننا نرى كم كنا قريبين ، وكيف أننا جميعاً لا نزال أعضاء فى جسم واحد . سترحب كنيسة المثالية بكل من يقبل « القاعدة الذهبية » ، وليس ثمة أى اختبار آخر . كلكم مقبولون ، حتى فيليب الذى يظن المسيح غير عملى ، وأندرو الذى يعد نفسه آلة ، وكلاونس الذى يشك فى كل شيء ولكنه يحب كل شيء . إني لأتصور كنيسة فى سعة صدرها كمحبة المسيح فتضم الجميع ولا تطرد أحداً . كنيسة تكرم الحق والجمال كما تكرم الخير ، فتغذى كل فن ، وتجعل كل معبد وكاتدرائية حصناً لتعليم الشباب ، وتقدم للكبار الذين لا يحضرون المدارس ويرغبون فى التحصيل العلم والتاريخ والأدب والفلسفة والموسيقى والفن . ولكنها إذا لم ترع حق الأخوة كانت معارفها عقيمة ، فيجب أن تسمح بكل انقسام ، وكل شك ، بشرط أن يكون الحب فى النهاية هو رأس الحكمة .

آرييل : فلنختم حديثنا عند هذا الحد . فهنا بين هذه الكتب التى انحدرت إلينا من عباقرة مئات من البلاد قد نسلم بأننا إخوان ، وبأن الدين والأخوة يجب أن يكونا شيئاً واحداً ، وأن كونفوشيوس وبوذا ، إشعيا والمسيح ، سينيوزا وهويتان ، هم أنبياء إيمان واحد . وإذا تيسر لنا أن نتفق على ما اشترك فيه هؤلاء القوم ، فهذا يكفيننا .

سير جيمس : سيدتى ، إني أعرف دينك جيداً ، إذ هنا فى نسخة هويتان الخاصة بك أجد قصيدة أشرت إليها تصلح أن تكون المرشد لنا وشعارنا جميعاً . إنها تسمى : « إلى ذلك الذى صلب » .

آرييل : اقرأها علينا ، فلعلها تهدئ أعصابنا عقب هذه المناقشة .
(وهنا يقرأ جيمس) .

آرييل : إنها فى غاية الجمال .

ماتيو : إنها جميلة ، ولكن فيها غروراً وإلحاداً .

فيليب : إذا كانت هذه هى المسيحية ، فأنا مسيحي .

بول : لم ينفذ أحد إلى لب المسيحية بأفضل من هذا .

وليم : إنها ترضينى .

كونج : لقد فهمت الآن مسيحكم أفضل مما كنت أفهمه .

سيدا : إني أقبله بسرور كبوذى عظيم .

إستر : إني أقبله كيهودى عظيم .

كلارنس : وكعارض تمام المعارضة للقساوسة (١)

تيودور : سأقبله إذا جعلتم «أوراق الحشائش» جزءاً من الكتاب المقدس .

سير جيمس : إنه أحب الآلهة .

أندرو : أنا واثق أنه كان موجوداً . فلنذهب إلى الفراش .

الجزء التاسع

خاتمة

الفصل الرابع والعشرون

حول الحياة والموت

أيمكن أن نركّز نظرة شاملة في فصل واحد موجز عن الحياة الإنسانية ؟ هذا شيء مستحيل ، لأن الحياة في أساسها سر ، إنها نهر يتدفق من منبع مجهول ، وهي في نموها ذات حيل لا حد لها يعجز الفكر لشدة تعقدها عن معرفتها ، وهو في التعبير عنها بالقول أشدّ عجزاً . ومع ذلك فإن الظمأ للوحدة يدفعنا إلى هذا البحث . فأن نوضح هذه المجهل من التجارب والتاريخ ، وأن نصوب إلى المستقبل نور الماضي المنحرف ، وأن نكشف عن اتجاه مجرى الحياة ثم التحكم تبعاً لذلك في فيضانه ببعض التدابير : هذه الشهوة الميتافيزيقية التي لا تشبع هي مظهر من أنبل مظاهر الجنس البشري الذي هو موضوع بحثنا . وهكذا سنسعى مهما يكن هذا السعي عبثاً إلى رؤية الوجود الإنساني ككل ، من اللحظة التي قُذِفنا فيها إلى هذا العالم بغير اختيارنا ، إلى أن تُتِمَّ العجلة التي ارتبطنا بها دورتها بالموت .

١ — الطفولة

يقول والت : « وبعد المناقشة يتدفق جماعة من الأطفال بأساليبهم وأحاديثهم كترقق الماء اللذيذ على أعصابي الثائرة وبدني الفائر » .

إننا نحب الأطفال أول كل شيء لأنهم أبناءنا وامتدادٌ لأنفسنا التي نرى أنها أبدع الأنفس . ولكننا نحبهم كذلك لأنهم يمثلون ما كنا نود أن نكون عليه ولم نستطع . . . حيوانات منسقة الترابط ، تصدر عن تلقاء نفسها في بساطتها ووحدة عملها ، على حين لا يبلغ الفيلسوف هذه البساطة وهذه الوحدة في العمل إلا بعد كفاح وتحكم . نحبهم بسبب هذا الذي فينا والذي نسميه الأثرة — اتجاه غرائزهم على فطرتها واستقامتها . نحب صراحتهم البعيدة عن النفاق ، فهم

لا يتسمون لنا إذا لم يرغبوا في وجودنا . يقول المثل الألماني : « الأطفال والحاجين يقولون الحق » Kinder und Narren sprechen die Wahrheit ومع ذلك يشعرون بالسعادة في إخلاصهم .

انظر إليه هذا المولود : إنه قدر ولكنه رائع ، مضحك في الواقع ، لا نهائي في الإمكان ، قادر على ذلك السر الأقصى . . . النمو . أتستطيع أن تتصور أن هذه الحزمة العجيبة من الصوت والألم ستصل إلى معرفة الحب والقلق والعبادة والعذاب والخلق والفلسفة والموت ؟ إنه يصيح ، لقد طال سباته في رحم أمه الدافئ الهادئ . وفجأة إنه مضطر الآن إلى التنفس ، وهذا شيء يؤذيه ؛ مضطر أن يرى الضوء الذي يخزه ، وأن يسمع الضوء التي تفرعه . ويلفح البرد جلده ، فيبدو وكأنه قطعة من الألم . ولكن ليس الأمر كذلك فالطبيعة تقيه شر هذه الغارة الأولى من العالم بأن تغلفه بغلاف عام من عدم الحساسية . فهو إنما يرى الضوء باهتاً ، ويسمع الأصوات خافتة وكأنها آتية من بعيد . وينام معظم الوقت .

وتسميه أمه القرد الصغير ، وهي على صواب . فإلى أن يمشي فهو كالقرد بل أقل من ذى القدمين ، إذ أن حياته في الرحم قد أكسبت ساقيه الصغيرتين هيئة الضفدع . ولن يختلف صفة القرد وراءه حتى يتكلم ، ويشرع في النهوض مخاطراً إلى هيئة الإنسان . راقبه وانظر كيف يتعلم شيئاً فشيئاً طبائع الأشياء بحركات الاستطلاع الجزافية . العالم لغز خفي بالنسبة له ، وهذه الاستجابات العشوائية من القبض باليد ، والعض ، والرمي هي نواة المحاولة التي يقبلها على نار التجربة المجهولة المظورة . فالاستطلاع يستولى عليه ويساعد على نموه ، لأنه يهوى أن يمد يده وأن يتذوق كل شيء من « الشخصيشة » إلى القمر .

وقد يمكن أن نجعل هذا الطفل بدء فلسفتنا ونهايتها . ففي استطلاع الدائم وفي نموه سر كل فلسفة . فنحن حين ننأمله في أرجوحته ، أو وهو يحب على الأرض ، إنما نرى الحياة لا على أنها تجريد بل كحقيقة متدفقة تتخطى جميع مقولاتنا الميكانيكية وجميع قوانيننا الطبيعية . فهنا في هذه الضرورة النامية ، في هذا الجهد الصابر والبناء المثابر ، في هذا النهوض الثابت العزم من العجز إلى القوة ، ومن الطفولة إلى الشباب ، ومن الدهش إلى الحكمة ... هنا نجد « ما لا يمكن

معرفته Unknowable » الذى قال به سبنسر ، و « الشئ بالذات Noumenon » فى فلسفة كانط ، « والحقيقة بالذات Ens Realissimum » فى شروح المدرسين ، و « المحرك الأول Prime Mover » فى فكر أرسطو ، و « الشئ بالذات To ontos on » فى فلسفة أفلاطون . نحن هنا أدنى إلى أساس الأشياء من ثقل المادة وصلابتها ، أو من عجلات الآلة وروافعها . فالحياة هى ذلك الذى لا يرضى ، والذى يكافح ويبحث ، والذى يحارب إلى النهاية . ولن تستطيع أى فكرة ميكانيكية أن تفسر ما التفسير الصحيح ، أو أن تفهم نمو الشجرة الساكن وعظمتها الصامتة ، أو أن تقيس شوق الأطفال وحنانهم .

٢ — الشباب

قد يمكن أن نعرف الطفولة بأنها عصر اللعب ، ولذلك فإن بعض الأطفال لا يبلغون أبداً مرحلة الشباب ، وبعض الشباب لا يشيخون أبداً . الشباب انتقال من اللعب إلى العمل ، من الاعتماد على الأسرة إلى الاعتماد على النفس . تمتاز هذه المرحلة بشئ من القوضى والغرور ، لأن الشاب فى الأسرة كان محاب الرغبات والزوات بالحب الأبوى العارم . حتى إذا نزل الشاب إلى معترك العالم ، وقد أصبح لأول مرة حراً بعد أن كان معززاً مدللاً سنين طويلة ، غرق فى نشوة الحرية ، ونطق بلهجتها البربرية ، وتقدم لغزو العالم وتعديله .

تتميز الخطابة الحسنة كما قال ديموستين بأمور ثلاثة : الأفعال ، والأفعال ، والأفعال . وقد كان يمكن أن يصف بها الشباب كذلك . فالشباب واثق بنفسه ومجازف كإله . يحب الشباب المثيرات والمغامرات أكثر مما يحب الطعام . إنه يحب كل بديع ، ومغالاة ، وإسراف ، لأن طاقته متدفقة وتتحرق إلى تحرير قوتها . يحب الشباب اقتناء كل جديد وركوب كل خطر ، ولذلك يكون الرجل شاباً بمقدار ما يركب من مخاطر .

ويتحمل الشباب القانون والنظام متبرماً . إننا نطلب منه الهدوء ، على حين أن الضوضاء هى مجاله الحيوى . نطلب منه أن يقف سلبياً مع أن رغبته فى الحركة . نطلب منه أن يكون رزيناً عاقلاً على حين أن دماؤه ذاتها تجعله « فى نشوة

دائمة» (١). هذه المرحلة هي مرحلة الاندفاع والانطلاق ، وشعارها: «الإسراف سبيل النجاح» Pantagan . إنه لا يتعب أبداً . يعيش في الحاضر ، ولا يندم على الأمس ، ولا يخشى الغد . يتسلق في خفة ومرح التل الذي تنحني قمته الجانب الآخر . إنه مرحلة الشعور الحاد والرغبة الجامحة ، فلم تهذبه التجربة بعد بالتكرار ومواجهة الحقائق . أعظم شيء عنده أن يشبع حواسه جميعاً . كل لحظة محبوبة لذاتها ، والعالم عنده منظر جميل ، شيء يمنصه ويستمتع به ، شيء يصلح أن ينظم فيه القصائد ، وأن يشكر من أجله السماء .

والسعادة هي حرية لعب الغرائز ، وهذا هو شأن الشباب . والشباب عند معظم الناس المرحلة الوحيدة في الحياة التي يعيشون فيها . ليس أغلب الناس في الأربعين إلا ذكرى ، ورماد تلك الشعلة التي كانت متوهجة ذات يوم . إن مأساة الحياة هي أنها لا تهينا الحكمة إلا حين تسلب منا الشباب . أو كما يقول المثل الفرنسي :

«أواه لو عرف الشباب ب وآه لو قدر المشيب»

Si jeunesse savait et vieillesse pouvait.

تقوم الصحة على العمل الذي يجعل الشباب رشيقاً . فأن يشغل المرء نفسه في العمل هو سر الرشاقة ، ونصف السر في الرضا . فلنسأل الله أن يهبنا أعمالاً نوؤديها لا أملاً كآ تقطينها . وقد قال ثورو إن كل إنسان في المدينة الفاضلة هو الذي يبني بيته ، وعندئذ يعود الغناء فيغمر قلوب الناس كما يغمر العصفور بعد أن يبني عشه . فإذا لم نستطع أن نبني بيوتنا فقد يمكن على الأقل أن نمشي ونزرى ونجري ، فلا نكون من الشيخوخة بحيث نقف لمشاهدة الألعاب بدلاً من المشاركة فيها . فاللعب كالصلاة سواء في النفع ، ولكن نتائج اللعب مؤكدة .

من أجل ذلك كان الشباب حكماً في إثارة ساحات الرياضة على قاعات الدراسة ، وفي رفع منزلة لعبة «البسبول» على الفلسفة . عندما وصف طالب صيني قصير النظر الجامعات الأمريكية بأنها : «مجامع رياضية تهياً فيها بعض فرص الدراسة لضعاف الأجسام» لم تكن ملاحظته هادمة كما تصور ، بل صورت

نفسه أكثر مما صورت الجامعات . فكل فيلسوف يجب أن يكون رياضياً (Athlete)^(١) كأفلاطون ، فإذا لم يكن كذلك فلنشك في فلسفته . ولقد قال نيتشه : « إن أول ما يحتاج إليه السيد المهذب أن يكون حيواناً كاملاً » . وعلى هذا الأساس يجب أن تقوم التربية وتبنى ، ويجب أن يكون تعليم العناية بالبدن مكافئاً تثقيف العقل بالعلوم .

وفي أثناء ذلك يتعلم الشباب القراءة ، وهى كل ما يتعلمه المرء في المدرسة ، كما يتعلم أين وكيف يجد ما يمكن أن يحتاج إلى معرفته فيما بعد — وهذا أعظم فن يكتسبه في الكلية . لا قيمة لما يتعلمه المرء من الكتب إلا إذا استعمله وتحقق منه في الحياة ، وعندئذ فقط يبدأ هذا العلم في التأثير على السلوك والرغبة . فالحياة هى التى تعلم ، ولعل الحب أكثر من أى شىء آخر في الحياة هو الذى يعلمنا .

وفي أثناء ذلك تحين مرحلة المراهقة ، فإذا بالصبي يفقد فجأة المبادرة والوحدة في أعماله الحالية من التدبير ، فيغمره ظل من صُفرة التفكير . وتأخذ الفتاة تزين نفسها بعناية أكثر ، وتصفف شعرها بفن أعظم . تنفق عشر ساعات من يومها تفكر في اللبس ، وتغطي ركبتيها بقميصها مائة مرة في دلال عابث . ويأخذ الصبي ينظف رقبته ويلمع حذائه ، وينفق نصف مصروفه على الفتاة ، والنصف الآخر على ملابسه . وتتعلم الفتاة صنعة الحياء ، أما الشاب فيخطر في حضرة الجمال على مهل .

ثم يجيء النمو الفكرى خطوة خطوة مع نمو الشعور الجنسى . فتفسح الغريزة الطريق للفكر ، وتتحول الحركة فتصبح تفتحاً هادئاً . ويأخذ الشباب في اختبار نفسه والعالم من حوله ، فيطرح أسئلة لا حصر لها ويفترض نظريات ليظفر بمعنى الأشياء . إنه لا يفر من السؤال عن الشر ، وأصول الأشياء ، والتطور ، والمصير ، والنفس ، والله . ويفوز العقل بفقاعات من الأفكار ، وكل لفظة أو فكرة توحى بمئات غيرها . وينتقل الشباب إلى مرحلة يتلاعب فيها

(١) رياضى هنا بمعنى الرياضة البدنية ، وقد اشترط أفلاطون تعليمها في مدينته الفاضلة كما هو معروف ، كما اشترط تعليم الرياضة أى الحساب والهندسة (المترجم) .

الفتيان بالألفاظ والفتيات بالضحكات . ويزدهر القلب حتى الصميم بالغناء والرقص ، ويتغذى الذوق الفنى بالرغبة الفائضة ، ويتولد فيه الشعور بالموسيقى والفن .

وحين يكتشف الشباب العالم يكتشف كذلك الشر ، فيفزع حين يطلع على طبيعة الإنسان . كان مبدأ الأسرة المعونة المتبادلة ، ومساعدة القوى للضعيف ، واقتسام المنافع . أما مبدأ المجتمع الذى يكتشف الشباب أمره ، فهو التنافس ، والكفاح فى سبيل الحياة ، وإقصاء الضعيف ، والإبقاء على القوى . ويصدم الشباب فيثور ، ويطلب من العالم أن يصوغ نفسه فى هيئة الأسرة ، وأن يمنح الشباب ما كان يجده فى الأسرة من ترحاب وحماية وأخوة . وهذا هو طريق الاشتراكية . ثم ينزل الشباب رويداً رويداً إلى مقامرة هذه الحياة الفردية ، فتسرى حماسة اللعبة إلى دمائه ، ويتنبه فى نفسه حب التملك ، فيسقط كلتا يديه للظفر بالمال والسلطان . وتحمد الثورة ، ولكن اللعبة تمضى فى طريقها .

وأخيراً يكتشف الشباب الحب . كان يعرف « حب العجل » ^(١) تلك المقدمة الأثرية لسمفونية الحسد والروح المقبلة . وقد عرف ألواناً من الكفاح الوحيد للرغبة الفجة الجاهلة . غير أن ما عرفه لم يكن إلا مقدمة لا ضرر منها قد تعمق الروح وتهيئها للولاء الذى يهجر فيه الإنسان نفسه . أنظر إليهما : هذا الشاب وهذه الفتاة يحبان بعضهما بعضاً ، أ يوجد أى شرف فى هذه الحياة الدنيا يمكن أن يقابل جلال هذا الخير ؟ وإذا بالفتاة تصبح فجأة هادئة منغمسة فى التفكير كلما ارتفع مجرى الحياة فى نفسها إلى مرتبة الخلق الواعى . أما الشاب فيصبح فى أدب ورقة متحمساً وقلقاً ، عارفاً بجميع ألوان الغزل ، مشرقاً بما فى دمه من جوع ومع ذلك متعالياً إلى منزلة الحنان والولاء . هنا تجد ما قامت به قرون طويلة من الحضارة والثقافة . هنا فى هذا الحب الرومانتيكى تجد ذروة ما بلغه الإنسان أكثر مما تجده فى فتوحات الفكر أو غزوات السلطان .

لو كان الشباب حكيماً لأعز الحب فوق كل شئ آخر ، واحتفظ بنظافة البدن والروح لمستقبله ، وأطال أيام الخطوبة ووصلها بالشهور ، ثم يبيحها بزواج

(١) انظر الجزء الأول من هذا الكتاب ص ١٧٣ (المترجم) .

تحف به الطقوس الحليلة ، مخضعاً بعد ذلك كل شىء لهذا الزواج . ولو كانت الحكمة شابة لأعزت الحب ، مرضعة إياه بالإخلاص ، معمقة جذوره بالتضحية ، محيية إياه بالأبوة ، مخضعة له كل شىء حتى النهاية . ومع أننا نحترق فى سبيل الحب الذى يغمرنا بالمآسى ، ومع أنه يكسر قلوبنا بزواله ويخنى ظهورنا بهجرانه ، فليكن الحب مع ذلك فى المحل الأول .

٣ — وسط العمر Middle Age

وهكذا يتزوج الشباب ، فينتهى الشباب .
إن الرجل حين يتزوج يزيد عمره فى اليوم الثانى خمس سنوات ، وكذلك الحال فى المرأة التى تزوج . ومن الناحية البيولوجية يبدأ وسط العمر بالزواج الذى يجعل العمل والمسئولية يحلان محل اللعب الحر ، ويسلم الهوى لقيود النظام الاجتماعى ، وينزل الشعر عن عرشه للنثر . إنه تغير يختلف باختلاف العادات والأجواء : فالزواج يتأخر اليوم فى مدننا الحديثة ويطول عهد المراهقة . ولكن الزواج بين شعوب الجنوب والشرق يتم فى ذروة الشباب ويشيخ فى أعقاب الأبوة . يقول ستانلى هول : « إن شباب الشرق الذى يمارس الواجبات الزوجية فى الثالثة عشرة من العمر ينهك فى الثلاثين ويلجأ إلى استعمال الأدوية المقوية ... والنساء فى الأجواء الحارة كثيراً ما يكتهن فى الثلاثين . والراجح — بوجه عام — أن الذين يتأخر بلوغهم تتأخر شيخوختهم » . ولعلنا إذا استطعنا أن نؤخر بلوغنا الجنسى حتى يحين بلوغنا الاقتصادى ، فقد نرتفع بإطالة فترة المراهقة والتعليم إلى مستوى أعلى من الحضارة لم يعرفه الماضى من قبل .

إن كل عمر فى الحياة له فضائله وله عيوبه ، وله مهامه وله مباهجه . وكما أن أرسطو رأى الامتياز والحكمة فى الوسط الذهبى ، كذلك يمكن أن ترتب صفات الشباب والرجولة والشيخوخة ترتيباً يبين وجه العدل فى تقسيم الحياة الإنسانية . مثال ذلك :

الشباب	وسط العمر	الشيخوخة
الغريزة	الاستقراء	القياس
التجديد	العادة	التقاليد
الاختراع	التنفيذ	التعطيل
اللعب	العمل	الراحة
الفن	العلم	الدين
الخيال	الفكر	الذاكرة
النظرية	المعرفة	الحكمة
التفاسول	التحسين	التشاؤم
التطرف	التحرر	المحافظة
الاستغراق في المستقبل	الاستغراق في الحاضر	الاستغراق في الماضي
الشجاعة	التبصر	الحن
الحرية	النظام	السلطة
التذبذب	الاستقرار	الركود

مثل هذه القائمة يمكن أن تستمر إلى ما لا نهاية له . مهما يكن من أمر فإننا نخرج منها بهذا العزاء بالنسبة لوسط العمر وهو أنه عصر العمل والبناء . فالحياة تقدم بدلا من ابتهاج الشباب وحماسته الأمن الهادئ والقوة العزيزة والإحساس بالأشياء لا على أنها أمل يرجى بل حقائق تحققت . وفي الخامسة والثلاثين يبلغ الرجل ذروة خطه البياني (١) ، محتفظاً بما يكفي من أهواء السنوات الماضية ، وملطفاً إياها بالنظرة الشاملة المستمدة من التجارب الواسعة والإدراك الناضج . ولعلك تجد بعض الاتفاق في هذا الترتيب مع الدورة الخمسية التي تبلغ ذروتها في الثانية والثلاثين ، وهي الوسط بين المراهقة وسن الفضيلة . وقد بين « إليس » أن معظم العباقرة رجالا ونساء ولدوا حين كان آبائهم بين الثلاثين والرابعة والثلاثين (٢) .

وعندما نجد لنا مكاناً في العالم الاقتصادي تهدأ ثورة الشباب ، فنحن ننكر

(١) نقل هذا الجدول الثلاثي ، مع الكلمات الأولى من الفقرة الرابعة التالية أحد الصحفيين بعنوان : « يجب أن يموت الناس في الخامسة والثلاثين » وأرسله إلى كل فيلسوف أمريكي ليأخذ رأي فيه ابتداء من مستر دمبسي إلى مستر كوليدج .

Ellis, H., A Study in British Genius. (٢)

الزلازل حين نقف على الأرض . وعندئذ ننسى حريتنا المتطرفة radicalism في حرية liberalism معتدلة — فالحرية المعتدلة هي المتطرفة وقد هذبها الشعور بالمسئولية المالية . وكلما أصبحنا أكثر ملاءمة مع البيئة كلما ازداد خوفنا من ألم معاودة الملاءمة التي لا بد أن يحتاج إليها أى تغيير أساسى . فبعد الأربعين نؤثر أن يظل العالم كما هو ، وأن تتجمد صورة الحياة المتحركة إلى لوحة ثابتة .

ويرجع بعض المحافظة المتزايدة في وسط العمر إلى الذكاء الذى يرى تعقد النظم ونقائص الرغبة . ولكن بعضها الآخر هو ثمرة الطاقة المابطة ، وتتفق مع الأخلاق الطاهرة عند المهوكين من الناس . ونذكر أول الأمر ، دون أن نصديق ثم بعد ذلك يائسين ، أن خزان القوة لا يمتلئ بعد أن نفترق منه ، أو بعبارة شوبنهاور أصبحنا نعيش على رأس المال لا على الدخل . وهذا الاكتشاف يجعل الحياة مظلمة عدة سنين ، فنندب قصر الحياة الإنسانية واستحالة الحكمة أو تحقيق الأمل في هذه الدائرة المحدودة . إننا نقف على قمة التل ، ونستطيع أن نرى الموت في أسفله دون أن نجهد أعيننا . لم نكن نسلم بوجود الموت قبل ذلك ، فهو فكرة مجردة أكاديمية لا يمكن أن يفكر فيها الرجل القوى . وفجأة نجدها أمامنا بغير رحمة . ومهما نحاول البعد عنه فإننا نهبط التل ونقترب منه . ونتلفت إلى الوراء في صفحة الذاكرة إلى الأيام التي لم يسودها وجوده ، ونمرح في صحبة الصغار لأنهم يصفون علينا مؤقتاً وإلى حد ما عدم مبالاهم بالفناء .

في العمل والأبوة تجد الرجولة كما لها وسعادتها . وكلما تحول الأمل الطموح للشباب إلى عمل وصبر هادىء في وسط العمر ، تحل الحماسة للعمل المؤدى محل الحلم لغزو العالم . ذلك أن البلوغ كالحال في سانكو بانزا يؤثر جزيرة في البحر الأبيض على قارة في الطوبيا .

ووظيفة الشباب أن يكون شديد الحساسية للأفكار الجديدة باعتبار أنها وسائل تمكنه من التقدم في غزو البيئة . ووظيفة الشيخوخة معارضة الحديد في معركة لا ترحم تمتحن فيها قوة الفكرة قبل أن يخضعها المجتمع للتجربة . ووظيفة الرجولة في وسط العمر أن تجعل الفكرة معتدلة وفي حدود الإمكان

العملى والتماس الوسائل لتحقيقها . فالشباب يقترح ، والرجولة تدبر ، والشيخوخة تقاوم . الشباب يسود فى أزمنة الثورة ، والشيخوخة فى عصور التقاليد ، والرجولة فى فترات التعمير . يقول نيتشه : « إن الحال مع الناس كالحال مع غابة تشتعل لتصبح فحماً . فالشباب إنما يصبح نافعاً حين تبرد حرارته ويتفحم كهذه الأكوام . وما دام يشتعل ويتصاعد منه الدخان فقد يكون أكثر متعة ولكنه فى الأغلب أقل نفعاً وأكثر تعباً » (١) .

الشباب رومانتيكى ، وهو على حق فى ذلك لأن الخيال والشعور يتحكمان فيه . والشيخوخة كلاسيكية فى أذواقها ، فهى تحب الترتيب والحواجز أكثر مما تحب الهوى والحرية . والرجولة تتأرجح بين الاثنين ، وتنسج قيمها فى صبر على أنوال العمل . إن سنوات وسط العمر تعطينا آخر الأمر لإرادة منظمة ، ووضوح العقل الذى ينسق مطالب الرغبة . إن قاعدة المعرفة كما قال ديكارت هى أن تفكر بوضوح ، وما نفهمه بوضوح هو الحق فقط . وقاعدة السلوك هى فى الأغلب أن ترغب بوضوح ، وبهذا فقط تتحول الرغبات إلى خلق وإرادة .

فلاعتدال moderation هو أعظم صفات الرجولة فى وسط العمر . وأعظم خطر يهددها هو التفاهة mediocrity (٢) . فإلى أين يترد المرء من مشقة المجهود إلى إلف الروتين : من الحياة الرأسية إلى الحياة الأفقية . هذا الخطر موجود دائماً ، ومعظمنا يسلم له ، وقيلولة بعد الظهر رمز لهذا الخطر وبداية له . ومع ذلك فلا ينبغي أن يكون الاعتدال تفاهة أو توسطاً . فقد يكون الاعتدال هو قوة وعمق العقل الذى لا يضطرب بسهولة عند الظروف غير المواتية ، ويكون المرء ثابت العزم فى العمل كما هو مقتصد فى الرغبة والحديث . حتى المتطرف نيتشه كتب يقول : « أى هذين الأمرين العظيمين أفضل : التدبير أم الاعتدال ، هذا شيء يحسن ألا تجيب عنه ، فقليل هم الذين يعرفون قوة كل منهما وأهميتهما » (٣) .

(١) Human All Too Human, vol. i, § 585.

(٢) ليست Mediocrity بالضبط التفاهة ، وليست هى التوسط ، وإنما هى صفة الرجل أو الأمر دون المتوسط ، هى أقل من المتوسط . ولكنها أقرب إلى التفاهة منها إلى التوسط (المترجم) .

(٣) Ibid., vol. ii, ? 230.

وبصرف النظر عن مثل هذه النماذج الفلسفية فإن المتساهل Commuter هو صورة للرجل في وسط العمر . إنه يتناول طعام الإفطار وهو يقرأ عناوين الصحف ويقبل زوجته وأولاده مودعاً إياهم في سرعة . ثم يندفع إلى المحطة حيث يتبادل مع أمثاله أحاديث تافهة عن الجو على طول الرصيف ، ويعيد قراءة صحيفته ويدخن غليونه في القطار ، ثم يمشي في غير ثبات مجتازاً الفاكهة والقاذورات في « منبهاتان » ، ويتعلق كرجل غريق بحزام من الجلد وهو يترنح في القيام بعمله دون راحة . وبدلاً من اتخاذ قرارات خطيرة يجد أمامه غالباً نوعاً من « الروتين » المنوم يشتمل على تفاصيل تافهة ليس هو فيها إلا حملاً ثقيلاً زائداً على الآلة كاتبة الاختزال . ويظل يكدح في هذا العمل مخلصاً ، ويتطلع بشغف نحو الساعة التي تحجزه عن بيته ، ويفكر كم يكون ممتعاً أن ينفق مساءً مع أسرته . وفي الساعة الخامسة يركب مرة أخرى قطاره في نشاط معطل ، ويتبادل بعض الأناخاب مع أمثاله ، ويدخن ثمانية في عظمة فلسفية وهو يتأمل المآسى اليومية في اللعبة الوطنية . وفي السادسة يكون في بيته ، حتى إذا كانت الساعة الثامنة تعجب لم أسرع ذلك الإسراع .

ذلك أنه كان حتى ذلك الوقت قد ارتاد خبايا الحب إلى الأعماق ، فاكتشف ما فيه من حرب تختفي تحت قناعه اللطيف . وقد أدى الإلف والكلال إلى تبريد حمى جسده . هذا إلى أنه كيف يمكن أن يحب الإنسان امرأة في الصباح . فامراته لا تلبس له ، بل حين يكون قد انصرف ، ولم يعد له في ذهنها مكان . إنه يراها مهملة منكوشة الشعر على حين يلتقي طول النهار نساءً قد صففن شعورهن ، وتعطرن ، وارتيدين ملابس تلفت الأنظار ، حتى إذا وقع بصره على ركبهن المستديرة وفساتينهن المغرية وابتساماتهن المشجعة وعطرهن المحرك للشهوة ، طاف بخياله كل ساعة الانزلاق إلى مهاوى الخيانة الزوجية . ولكنه يحاول جهد طاقته أن يحب زوجته ، فيقبلها بانتظام وكما ينبغي مرتين كل يوم . ويغامر مرة أو مرتين ، ثم يتبين له سخف الفسق ، ويحمد ربه أن أمره لم يكتشف ، وينصرف بعد ذلك إلى نثر الحياة .

وفيما عدا ذلك فإنه ينفق وقته ينجز الحشائش في حديقته ، ويلعب البردج

والحولف ، ويثرثر هاوياً في السياسة المحلية . ولا يلبث أن يضيق بهذه التسلية الأخيرة ، إذ يكشف أن آلة السياسة مرتبة ترتيباً يخيف كل شخص أمين فيبتعد عنها ، وأنها تقتص من كل من يبذل جهداً صادقاً للسير في طريق السياسة الصحيح والكفاية . وعندئذ إما أن يتلاءم عن وعى مع قواعد هذه اللعبة السخيفة ، وإما أن يعود إلى بيته يعيش فيه رجلاً أهدأ وأعمق . ويخلص في آخر الأمر إلى هذه النتيجة وهي أن أحكم ما انطلق به اللسان أو خطه القلم ما قاله الرحالة سكارمنتادو Scarmentado : « وإذ قد رأيت حتى الآن كل نادر وجميل على ظهر الأرض فقد عزمت ألا أرى شيئاً بعد ذلك إلا بيتي . فبنيت على زوجة ، ولم ألبث حتى دخلني الشك أنها تخونني . وعلى الرغم من هذا الشك فما زلت أرى أن هذه الحال أسعد ما وجدت في ظروف الحياة » (١) .

وفي خلال ذلك تكون زوجته قد تعلمت أيضاً شيئاً من الحياة . لقد كانت في السنوات الرومانتيكية ملاكاً ، أما الآن فهي مديرة للمنزل . ويثبط هذا الاكتشاف عزيمتها . ولماذا تحتفظ بمفاتيح اللباس والزينة لرجل ينظر إليها بديلاً اقتصادياً عن خادمة ؟ أو أنها لا تطهو ولا تنظف ، بل تؤدي لها هذه الأمور والكثير من غيرها . وتترك هي خالية حرة محترمة بلا عمل طول النهار . فتتفق أوقات الصباح تزين نفسها ، وترعى بعد الظهر شؤون الطبقة الفقيرة . تقرأ في كتب الصحة والأمومة ، وتخبر الأمهات البائسات كيف يربين أبناءهن ، وإنما تريد تلك الأمهات أن يتعلمن طريقة لمنع الحمل . وتنزل الزوجة ميادين السياسة وتوزع منشورات ، وتصوت لوغد نكايه في وغد آخر . وتحضر فصولاً دراسية عالية ، وتنظم أندية ، وتصنع في صبر مدرسي لقصاصين وفلاسفة و « إنجليز » (٢) .

ثم فجأة إذا بها تصبح أمّاً . إنها تسر وتفرح . لعل حملها يؤدي إلى وفاتها . فلم تنهأ لها الفرصة الكافية لأداء الواجبات الصحية التي تصاحبها جسدياً لهذه المغامرة الكبرى . ولكنها فخورة أيضاً . وتحس بضرب جديد من البسلوغ

(١) Voltaire, The Travels of Scarmentado.

(٢) يشير المؤلف إلى ما كان جارياً في أمريكا من جهم لسماع الإنجليز لأن لهجتهم صحيحة (المترجم) .

والرشد . إنها الآن امرأة لا فتاة عاطلة ، ولا قطعة من الزينة أو مجرد متعة لتأدية الغرض الجنسي . وتجتاز محنتها بشجاعة وتدعو الله أن يكون المولود ذكراً ، حتى إذا رآته أنثى بكت لحظة ، ثم تعجب لجمال طفلتها الذي ليس له مثيل . وتعمل للمولودة في شغف تشتغل طول النهار وأطرافاً من الليل دون أن يبقى لها وقت تتطلع فيه إلى « السعادة » ومع ذلك يشع من عينيها بريق جديد من الرضا . ما أروع الطفل وهو مغمور في أشعة شمس الشتاء . وما هذا الحنان الحديد الذي يشع من عيني زوجها ! وهكذا تعزينا الطبيعة عن عبوديتنا ، وتربط بين تصحيتنا العظمى وبين سعادتنا الكبرى .

٤ — الموت

يقول صديق لا يرحم : « ينبغي أن يموت الناس في ذروة ^(١) حياتهم » . ولكنهم لا يموتون . وعندئذ يلقى كل من الشباب والموت صاحبه وهما يتجولان في الطريق .

ما الشيخوخة ؟ لا ريب أنها في أساسها شرط من شروط الجسد ، من البروتوبلازما التي تبلغ بالضرورة نهاية حياتها . إنها تراجع involution . فسيولوجي ونفسي . إنها تصلب في الشرايين وفي القوالب العقلية ، وتعطيل في الفكر والدم . يكون الرجل شيخاً بحسب شرايينه ، وشاباً بحسب أفكاره .

وتتناقص القدرة على الحفظ مع كل عقد من حياتنا ، كما لو كانت ألياف الترابط في المخ قد تكدست وثقل عليها حمل النماذج . ولا نجد فيما يظهر مكاناً لمادة جديدة ، وتزول الانطباعات الحديثة بسرعة كما تتبخر وعود الساسة أو كما تمحى ذاكرة الشعب . وكلما ازداد الاضمحلال ، فقدت الخيوط وضاعت الوحدة واضطرب التناسق ، ويقع الشيخ في نوع من الدهول العارض يضطره إلى الرجوع إلى مرضعة جوليت الثائرة ، ثم يعيش في خيال من القصص

كالتى رواها دى كوينسى ^(٢) De Quincey

(١) ذروة الحياة في نظر المؤلف عندما يبلغ الخامسة والثلاثين ، كما ذكر من قبل (المترجم) .

(٢) دى كوينسى (١٧٨٥ - ١٨٥٩) كاتب إنجليزي ، وأشهر مؤلفاته « اعترافات آكل آفيون » (المترجم) .

ثم كما كان نمو الطفل أسرع فكان أصغر ، كذلك الحال بالشيخ تمر سنواته أسرع كل يوم . وكما كان الطفل تحميه عدم الحساسية عند دخوله إلى الدنيا كذلك الشيخوخة ييسر أمرها فتور في الإحساس والإرادة ، وتدبر الطبيعة رويداً رويداً نوعاً من التخدير العام قبل أن تسمح لمنجل الزمان بتتمة أعظم عملياته .

وكلما تناقصت حدة الإحساسات اضمحل الإحساس بالحياة فتفسح الرغبة في الحياة الطريق لعدم الاكتراث وللانتظار الصابر . ويمتزج الخوف من الموت بالرغبة في الراحة . ولعله عندئذ إذا كان الإنسان قد عاش عيشة راضية وعرف المعنى الكامل للحب وارتشف كأس التجارب حتى التأملة فقد يمكن أن يموت الإنسان راضياً مخلياً مكانه في المسرح لتمثيلية أفضل .

ولكن ما الحال إذا لم تكن التمثيلية أفضل أبداً ، بل تدور على الدوام حول العذاب والموت ، وتقص إلى غير نهاية نفس القصة السخيفة ؟ فهناك المضايقة ، والشك الذى يأكل قلب الحكمة ويسمم العمر . ها هي ذى السيارة التى ذهبنا فيها في العام الماضى من ولاية كليفلند إلى إليريا ، ألا ما أغرب أن تتم هذه الرحلة حين لا نكون فى حاجة إليها . سينتهى أمرها سريعاً . ويحل محلها رحلة أخرى . ويموت الركاب ويحل محلهم آخرون . هنا باستمرار طلاب جدد ، وعربات جديدة ، والنهاية واحدة . هنا فسق بلا حياء ، وقتل مدبر وحشى . نعم لقد كانوا على الدوام كذلك ، ويظهر أنهم سيظلون دائماً كذلك . هنا فيضان يجرف أمامه آلاف الأحياء وعمل أجيال . هنا ثكالى وقارب محطمة ومرارة الحب الضائع . وهنا لا تزال توجد أثقال المنصب وإهمال القانون . رشوة فى مجلس القضاء ، وعجز فى كراسى الحكم . هنا العبودية ، والعمل الشاق الذى يخرج أجساماً قوية ونفوساً صغيرة . هنا وفى كل مكان كفاح فى سبيل العيش بعد أن تعقدت الحياة بالحروب . هنا التاريخ الذى يبدو دائرة تافهة تتكرر إلى مالا نهاية له . وهؤلاء الشباب ذوو العيون المتطلعة سيرتكبون نفس الأخطاء التى ارتكبتها ، ويفضلون عن الطريق بنفس الأحلام . سيتعذبون ، ويدهشون ويستسلمون ، ويشيخون .

أعظم مأساة للشيخوخة أن تتلفت إلى الوراء بعين خيالية ، فلا ترى إلا عذاب البشرية . ومن العسير أن نمدح الحياة حين تهجرنا الحياة . وإذا كنا نتكلم عنها بنخبر حتى عند الموت ، فإنما ذلك لأننا نأمل أننا سنجد لها ثانية ، في ثوب أجمل ، وفي عالم من الأرواح غير المجسدة والباقية .

إن هذه الأبراج التي تتجه في كل مكان إلى أعلى متجاهلة الألم ومقوية الأمل ، وهذه الأبنية الشاخنة في المدن أو الكنائس البسيطة في التلال — إنها ترتفع في كل خطوة من الأرض إلى السماء ، ففي كل قرية في أى أمة على ظهر الأرض تجدها تتحدى الشك وتدعو القلوب المنكسرة إلى العزاء . أهذا كله وهم باطل ؟ — ألا يوجد شيء بعد الحياة سوى الموت ، ولا شيء بعد الموت سوى الفناء ؟ لا يمكن أن ندري . ولكن ما دام الناس يتعذبون فهذه الأبراج ستظل قائمة .

ومع ذلك فما الحيلة إذا كان لابد لنا من الموت من أجل الحياة ؟ الحق أننا لسنا أفراداً ، ولأننا نظن أنفسنا كذلك يبدو الموت شيئاً لا يغتفر . نحن أعضاء مؤقتون في جسم الجنس ، وخلايا في بدن الحياة . إننا نموت ونختفي لعل الحياة تظل في شبابها وقوتها . ولو أننا عشنا إلى ما شاء الله ، لحمد النماء ولم يجد الشباب له مكاناً على ظهر الأرض . والموت كالأسلوب هو حذف النفاية واستئصال الزائد . ونحن عن طريق الحب نصوغ حيويتنا في صورة جديدة من أنفسنا قبل أن تموت الصورة القديمة . وعن طريق الأبوة نملاً الفجوة بين الأجيال ، ونهرب من عدوان الموت . وهنا ، حتى في فيضان النهر ، تولد الأطفال . وهنا ترضع الأم طفلها منعزلة في شجرة ومحوطة بالماء الفائر . في قلب الموت تجدد الحياة نفسها في خلود .

وهكذا قد تأتى الحكمة كهدية للعمر ، فترى الأشياء في مواضعها ، وترى كل جزء في صلته بالمجموع ، ولعلها تبلغ تلك النظرة الشاملة التي يغفر فيها الإدراك الحسن كل شيء . وإذا كان من وظيفة الفلاسفة أن تخلع على الحياة معنى يقلل من قيمة الموت ، فستبين الحكمة أن الفساد إنما يصيب الجزء ، وأن الحياة نفسها لا تموت حين نموت .

ومنذ ثلاثة آلاف سنة مضت ظن رجل أن الإنسان قد يطير ، فصنع لنفسه أجنحة ، وثق بهما ابنه إيكاروس^(١) Icarus وحاول أن يطير فستقط في البحر . وحملت الحياة هذا الحلم ببسالة . ومرت أجيال ثلاثون وجاء ليوناردو دافنشي الذي صنع الجسد بالروح ، فخطط حول رسومه (وهى رسوم تبليغ من الجمال جداً يهر الأنفاس عند رؤيتها) تصميمات وحسابات لآلة تطير ، وترك في مذكراته عبارة صغيرة يرن جرسها في صفحة الذاكرة ، وقد سمعت : « ستكون أجنحة » . وأخفق ليوناردو ومات ، ولكن الحياة حملت الحلم . ومرت أجيال وقال الناس : لن يطير الإنسان أبداً ، لأن هذه ليست إرادة الله . ثم طار الإنسان . فالحياة هى تلك التى تستطيع أن تثبت بالغرض ثلاثة آلاف سنة ولا تستسلم أبداً . الفرد يخفق ولكن الحياة تنجح . الفرد يموت ولكن الحياة التى لا تكل ولا تثبط همها تمضى فى سبيلها ، متعجبة ، متطلعة ، مدبرة ، محاولة ، متسلقة ، بالغة ، ثم لا تزال تتطلع .

ها هنا رجل شيخ على فراش الموت يزعه أصدقاء لا حيلة لهم ، وأقرباء يولولون . ما أفزع هذا المنظر — هذا الهيكل الرفيع وقد اكتسى بلحم رخو معروق ، هذا الفم الأرد في وجه مصفر ، هذا اللسان العاجز عن الكلام ، وهاتان العينان العاجزتان عن الإبصار . على هذا المعبر مر الشباب بكل آماله ومحاولاته . وعلى هذا المعبر اجتازت الرجولة بكل عذابها وعملها . وعلى هذا المعبر مرت الصحة والقوة والمنافسة البهيجة . هذه الذراع ، لقد أنزلت ضربات عظيمة وحاربت للنصر فى ألعاب كبيرة . وعلى هذا المعبر مرت المعرفة والعلم والحكمة . لقد جمع هذا الرجل المعرفة بالألم والمشقة سبعين عاماً . وأصبح مخزناً لتجارب متنوعة ، ومركزاً لآلاف الحيل الفكرية والعملية . وتعلم قلبه من العذاب الرقة كما تعلم عقله الإدراك . مرت به سبعون عاماً ، فما من حيوان إلى إنسان قادر على البحث عن الحقيقة وخلق الجمال . ولكن المنية قد أنشبت فيه أظفارها ، فسمحه الموت وخنقه ، وجمد دمه ، وقبض قلبه ، وفجر مخه ، وحشرج حلته . لقد انتصر الموت .

(١) فى الأسطورة الإغريقية أن إيكاروس ابن ديدالوس طار مع أبيه من جزيرة كريت ، ولكن الابن أذاب الشمع الذى يشيل أجنحته فوق فى البحر (المترجم) .

وفي الخارج تترقز العصافير على فروع الأشجار ، ويغنى الديك للشمس
أنشودته . ويفيض النور على الحقول ، وتنتفتح البراعم ، وترفع سوق
النبات رؤوسها في ثقة إلى أعلى . ويتصاعد العصير في الشجر . هنا أطفال :
ماذا يجعلهم بهذا المرح ، يحرون في جنون فوق الحشائش الندية ، ضاحكين ،
صائحين ، مطاردين ، هاربين ، لاهئين ، لا يصيهم كلال ؟ أى نشاط ، وأى
روح ، وأى سعادة . ماذا يعينهم من الموت ؟ سيتعلمون وينمون ويحبون
ويكافحون ويخلقون ، ولعلمهم يرفعون الحياة إلى أعلى خطوة صغيرة قبل أن
يصيهم الموت . وحين يموتون سيغشون الموت بالأطفال ، وبهذه العناية الأبوية
التي تجعل خلفهم أبداع من أنفسهم . وهناك في الحقائق يمر المحبون في غسق
الليل وهم يحسبون أن أحداً لا يراهم . إن حديثهم الخافت يختلط بهمهمة الحشرات
وهي تنادى ذكورها . إن الظلم القديم ينطق من خلال الشغف والعيون الناعسة ،
ويتنقل جنون شريف خلال الأيدي المتعانقة والشفاه المتلامسة .

إنها الحياة تنتصر .

مراجع هذا الكتاب

Books marked with a * are recommended to the reader.

- Adams, Brooks, *The Law of Civilization and Decay*. London, 1895.
- * Adams, Henry. *The Education of Henry Adams*. Boston, 1919.
- *Mont St. Michel and Chartres*. Boston, 1926.
- Adler, Alfred. *The Neurotic Constitution*. New York, 1917.
- Allen, Grant. *Evolution of the Idea of God*. New York, 1897.
- Angell, A.R. *Psychology*. New York, 1908.
- Anon. *The Wisdom of Confucius*. Harper & Bros., no date.
- Babbitt, Irving. *Democracy and Leadership*. Boston, 1922.
- Bacon, Francis. *Philosophical works*, ed. J.M. Robertson. London, 1905.
- Barnes, H.E. *The New History and the Social Sciences*. New York, 1925.
- Beard, Charles. *The Economic Basis of Politics*. New York, 1923.
- * — ed. *Whither Mankind ?* New York, 1928.
- Bergson, Henri. *Matter and Memory*. London, 1911.
- Berkman, A. *The Bolshevik Myth*. New York, 1925.
- * Bertaut, J. *Napoleon in His Own Words*, Chicago, 1916.
- Bluntschili, J.K. *Theory of the State*. Oxford, 1911.
- Bolsche, W. *Love-Life in Nature*. 2 vol. New York, 1926.
- Bosanquet, B. *History of Aesthetic*. London, 1904.
- Bradley, F.H. *Appearance and Healthy*. London, 1920.
- *Principles of Logic*. London, 1883.
- * Brandes, Georg. *Main Currents in Nineteenth Century Literature*. 6 vol. New York, 1905.
- Brousson, J.J. *Anatole France en Pantouffles*. Paris, 1924.
- * — *Anatole France Himself*. New York, 1926. (Translation of preceding).
- Brown, Brian. *The Wisdom of the Chinese*. New York, 1921.
- Buckle, H.T. *Introduction to the History of Civilization*. 4 vol. New York, 1913.
- Burke, Edmund. *Reflections on the French Revolution*. Everyman Library.

- Bury, J.B. *The Idea of Progress*. London, 1920.
- Carlyle, Thomas. *Chartism*, New York, 1901.
- *Heroes and Hero-Warship*. New York, 1901.
- Carpenter, E. *Towards Democracy*. London, 1911.
- Cassirer, E. *Substance and Function*. Chicago, 1923.
- Chamberlain, H.S. *The Foundations of the Nineteenth Century*.
2 vol. New York, 1912.
- Chesterton, G.K. *Short History of England*. New York, 1917.
- Clemens, S.L. ("Mark Twain"). *What is Man ?* New York.
1917.
- Condorcet, M.J.A., Marquis de. *A sketch of a Tableau of the
Progress of the Human Spirit*. New York, 1796.
- Groce, Benedetto. *History : Its Theory and Practice*. New
York, 1921.
- Crozier, J.B. *Sociology Applied to Practical Politics*. London, 1911.
- Crozier, J.B. *Sociology Applied to Practical Politics*. London, 1911.
- * Darwin, Charles. *The Descent of Man*. A.L. Burt, New York,
no date.
- Dewey, John. *Experience and Nature*. Chicago, 1925.
- Disraeli, Benjamin. *Tancred*. London, 1924.
- Doane, T.W. *Bible Myths and Their Parallels in Other Religions*.
New York, 1882.
- Drever, J. *Instinct in Man*. Cambridge University Press, 1917.
- Driesch, Hans. *Science and Philosophy or the Organism*. Uni-
versity of Edinburgh Press, 1908.
- Durant, Will. *Philosophy and the Social Problem*. New York, 1917
- * Eckermann, J. *Conversations with Goethe*. New York, 1852.
- Eddington, A.S. *The Nature of the Physical World*. New York, 1929
- Ellis, Havelock. *The Dance of Life*. Boston, 1923.
- * — *Studies in the Psychology of Sex*. 6 vol. Philadelphia, 1910-11.
- *A Study in British Genius*. London, 1904.
- Eltzbacher, Paul. *Anarchism*. New York, 1908.
- Emerson, R.W. *Representative Men*. Philadelphia (McKay), no date.
- Encyclopaedia Britannica*. 11th ed.
- Fisher, I. *National Vitality*. Government Printing Office, Washington,
1908.
- * Flaubert, Gustave. *Works*, 4th ed. New York (W.J. Black), 1923.

- * France, Anatole. *The Garden of Epicurus*. New York, 1908.
- * — M. Bergeret in Paris. New York, 1921.
- * — On Life and letters. Four series. New York, 1914-24.
- * — Penguin Isle. London, 1924.
- * — Thais. London, 1909.
- * Frazer, Sir James. *The Golden Bough*. 4th ed. New York, 1925.
- Freud, Sigmund. *Interpretation of Dreams*. New York, 1913.
- Leonardo da Vinci. New York, 1916.
- Three Contributions to the Theory of Sex. New York, 1918.
- Fuller, Sir B. *Man as He Is*. London, 1916.
- Gallichan, W.M. *The Great Unmarried*. London, no date.
- * Gibbon, Edward. *Decline and Fall of the Roman Empire*. 6 vol. Everyman Library.
- Gobineau, Count A. de. *The Inequality of Human Races*. New York, 1915.
- Godwin, W. *Political Justice*. London, 1890.
- * Goethe, J.W. von. *Faust*. Tr. Martin. New York, 1902.
- * — *Truth and Fiction*. New York, 1902.
- Goldberg, I. Havelock Ellis. New York, 1925.
- Gomperz, T. *Greek Thinkers*. 4 vol. New York, 1901.
- Gorki, Maxim. *Reminiscences of Tolstoi*. New York, 1920.
- Gourmont, Remy de. *The Natural Philosophy of Love*. New York, 1922.
- Grant, Madison. *The Passing of the Great Race*. New York, 1916.
- Grote, G. *History of Greece*. 12 vol. Everyman Library.
- Haldane, J.B.S., *Possible Worlds*. New York, 1928.
- Haldane, J.S. *Mechanism, Life and Personality*. London, 1921.
- Hall, G.S. *Adolescence*. 2 vol. New York, 1905.
- Hammond, J.L., and B. *The Town Labourer, 1760-1832*. London, 1917.
- * Hardy, Thomas. *Tess of the d'Urbervilles*. New York, 1892.
- *Jude the Obscure*. New York, Harper & Bros.
- Headlam, J.W. *Bismarck*. New York, 1899.
- Hegel, G.W.F. *Philosophy of History*. New York, 1910.
- Heine, Heinrich. *Memoirs*. 2 vol. London, 1910.
- Herder, J.G. von. *Outlines of a Philosophy of the History of Man*. London, 1800.
- Hobhouse, L.T. *Morals in Evolution*. London, 1915.

- Hoernle, R.F.A. *Studies in Contemporary Metaphysics*. New York, 1920.
- Holmes, S.J. *Studies in Evolution and Genetics*. New York, 1923.
- Holt, E. *The Concept of Consciousness*. London, 1912.
- Howard, C. *Sex Worship*. Chicago, 1909.
- Huxley, H.T. *Evolution and Ethics*. New York, 1886.
- * Inge, Dean R.W. *Outspoken Essays*. Second Series. New York, Longmans, no date.
- James, William. *The Meaning of Truth*. New York, 1909.
- Jennings, H.S. *Behavior of the Lower Organisms*. New York, 1923.
- Johnson, R.M. *The Corsican*. Boston, 1910.
- Jones, Sir E. *Papers on Psychoanalysis*, London, 1913.
- *Analytical Psychology*. New York, 1916.
- Jung, C.G. *Psychology of the Unconscious*. New York, 1916.
- Kallen, H. *Why Religion*. New York, 1927.
- * Kellogg, J.H. *The New Dietetics*. Battle Creek, 1927.
- * Keyserling, Count Hermann. *Europe*. New York, 1928.
- * — *Travel Diary of a Philosopher*. New York, 1925.
- *The World in the Making*. New York, 1927.
- Kisch, E.H. *The Sexual Life of Woman*. New York, 1910.
- Klausner, J. *Jesus of Nazareth*. New York, 1926.
- Kihler, W. *The Mentality of Apes*. New York, 1925.
- Krafft-Ebing, R.F. von. *Psychopathia Sexualis*. New York, 1906.
- Kropotkin, P. *Mutual Aid as a Factor in Evolution*. New York, 1902.
- Langdon-Davis, J. *The New Age of Faith*. New York, 1925.
- Lange, F. *History of Materialism*. New York, 1925.
- * La Rochefoucauld, François de. *Réflexions*. London, 1871.
- Lea, H.C. *History of the Inquisition of Spain*. 4 vol. New York, 1922.
- Le Bon, G. *The Evolution of Forces*. New York, 1914.
- *The Evolution of Matter*. New York, 1914.
- Leuba, J.H. *Belief in God and Immortality*. New York, 1916.
- Loeb, J. *Comparative Physiology of the Brain*. New York, 1900.
- *The Organism as a Whole*. New York, 1916.
- Lubbock, Sir. J. (Lord Avebury). *The Origins of Civilization*. London, 1870.
- * Lucretius. *On the Nature of Things*. Tr. Munro.
- Ludovici, A.M. *A Defense of Aristocracy*. London, 1915.

- Maine, Sir. Henry. *Popular Government*. London, 1886.
- * Mallock, W.H. *Lucretius on Life and Death*. New York, 1900.
- Marshall, H.R. *Instinct and Reason*. New York, 1898.
- * Martin, E.D. *The Meaning of a Liberal Education*. New York, 1926.
- *The Mystery of Religion*. New York, 1924.
- Marx, Karl. *Critique of Political Economy*. New York, 1904.
- McCabe, J. *The Evolution of Mind*. London, 1910.
- * McCollum, E.V. *The Newer Knowledge of Nutrition*. New York, 1918.
- McDougall, W. *Social Psychology*. 13th ed.
- Mencken, H.L. *Prejudices*. Four Series. New York, 1919-24.
- Merdith, George. *Ordeal of Richard Feverel*. Boston, 1888.
- Mill, J.S. *The Subjection of Women*. London, 1911.
- Moll, A. *The Sexual Education of the Child*. New York, 1913.
- * Montesquieu, C. de. *Spirit of Laws*, 2 vol. New York, 1900.
- * Morley, J. *Diderot and the Encyclopedists*. 2 vol. London, 1923.
- * — *Voltaire*. London, 1878.
- Muirhead, J.H. *Contemporary British Philosophy*. London, 1924.
- Murray, Gilbert. *Four Stages of Greek Religion*. New York, 1912.
- Musset, Alfred de. *Confessions of a Child of the Century*. New York, 1905.
- Nietzsche, Friedrich. *Antichrist*. New York, 1915.
- *Beyond Good and Evil*. New York, 1914.
- *Dawn of Day*. London, 1911.
- *Human All Too Human*. 2 vol. London, 1911-15.
- *The Joyful Wisdom*. London, 1910.
- * — *Thus Spake Zarathustra*. New York, 1906.
- *The Will to Power*. 2 vol. London, 1913-14.
- Nordeau, Max. *The Interpretation of History*. London, 1910.
- Paine, Thomas. *The Rights of Man*.
- Pellissier, G. *Voltaire Philosophe*. Paris, 1908.
- Petrie, Flinders. *The Revolutions of Civilization*. London, no date.
- Pirandello, Luigi. *Three Plays*. New York, 1922.
- * Plato. *Works*. Tr. Jowett. 4 vol. Jefferson Press, New York, no date.
- * Plutarch. *Lives*. New York (Hurst), no date.
- Powys, J.C. *The Religion of a Sceptic*. New York, 1925.
- Pringle, H.F. Alfred E. Smith. New York, 1928.

- Reinach, S. *Orpheus, a History of Religions*. New York, 1909.
- Renan, E. *History of the People of Israel*. 5 vol. Boston, 1886-96.
- Ribot, T. *Psychology of the Emotions*. London, 1906.
- Ripley, W.Z. *The Races of Europe*. London (Kegan Paul), no date.
- Rivers, W.H. *Psychology of Politics*. London, 1923.
- Rockow, L. *Contemporary Political Thought*. London, 1925.
- Ross, E.A. *Changing America*. New York, 1912.
- Rousseau, J.J. *Social Contract ; Discourses*. Everyman Library.
- Royden, A.M. *Woman and the Sovereign State*. London, 1917.
- Russell, Bertrand. *Analysis of Matter*. London, 1927.
- * — *Education and the Good Life*. New York, 1926.
- *Philosophy*. New York, 1927.
- *Sceptical Essays*. New York, 1928.
- *What I believe*. New York, 1925.
- * Salter, W. *Nietzsche the Thinker*. New York, 1917.
- * Santayana, George. *Reason in Society*. New York, 1905.
- *The Sense of Beauty*. New York, 1896.
- Schopenhauer, Arthur. *The World as will and Idea*. 3 vol. London, 1883.
- Sellars, R. *The New Step in Democracy*. New York, 1916.
- Semple, E.C. *Influence of Geographic Environment*. New York, 1911.
- Shotwell, J.T. *The Religious Revolution of Today*. Boston, 1913.
- * Siegfried, A. *America Comes of Age*. New York, 1927.
- Simkhovitch, V. *Toward the Understanding of Jesus*. New York, 1921.
- Sinclair, May. *The New Idealism*. New York, 1922.
- Smith, Adam. *The Wealth of Nations*. 3 vol. Everyman Library.
- Smith, W.R. *The Religion of the Semites*. 2 vol. New York, 1889.
- Spencer, Herbert. *Principles of Biology*. 2 vol. New York, 1910.
- *Principles of Psychology*. 2 vol. New York, 1910.
- *Principles of Sociology*. 3 vol. New York, 1910.
- * Spengler, Oswald. *Decline of the West*. 2 vol. New York, 1926-8.
- * Spinoza, Benedict. *Ethics*. Everyman Library.
- Stirner, Max (Caspar Schmidt). *The Ego and His Own*. Modern Library.
- * Sumner, W.G. *Folkways*. New York, 1906.
- Sutherland, A. *Origin and Growth of the Moral Instincts*. 2 vol. London, 1898.
- * Symonds, J.A. *The Renaissance in Italy*. 7 vol. New York, 1900.

- * Taine, Hippolyte. *The French Revolution*. 3 vol. New York, 1878-85.
- * — *History of English Literature*. New York (Hurst), no date.
- * — *The Modern Regime*. 2 vol. New York, 1890.
- Tarde, G. *The Laws of Imitation*. New York, 1903.
- Thomas, W.I. *Sex and Society*. Chicago, 1907.
- Thompson, F. Shelley. Girard, Kan. Little Blue Book Series.
- Thompson, H.B. *Mental Traits of Sex*. Chicago, 1903.
- Thorndike, E.L. *Individuality*. Boston, 1911.
- *The Original Nature of Man*. New York, 1913.
- Thorndike, L.A. *Short History of Civilization*. New York, 1926.
- Todd, A.J. *Theories of Social Progress*. New York, 1922.
- Tocqueville, Alexis de. *Democracy in America*. 2 vol. New York, 1912.
- Vico, G.B. *Principi di Scienza Nuova*. Milano, 1831.
- * Voltaire, F.M.A. de. *General History (Essay on the Morals and Character of the Nations)*. St. Hubert Guild ed. 22 vol. New York, 1901.
- Walsh, J.J. *Cures*. New York, 1923.
- * Watson, J.B. *Behavior*. New York, 1914.
- Weininger, O. *Sex and Character*. New York (Putnam), no date.
- Westermarck, E. *History of Human Marriage*. London, 1894.
- Weyl, W. *The End of the War*. New York, 1918.
- Whitehead, A.N. *Science and the Modern World*. New York, 1926.
- Wilde, O. *The Soul of Man under Socialism*, in *Works*, 1909.
- Williams, E.T. *China Yesterday and Today*. New York, 1927.
- Williams, H.S. *The Science of Happiness*. New York, 1909.
- Willoughby, W.W. *Social Justice*. New York, 1900.
- Xenophon. *Memorabilia*. Everyman Library.
- Zimmern, A. *The Greek Commonwealth*. Oxford, 1915.

ثبت بالمصطلحات

A

Ability	قدرة
Abiogenesis	التولد الذاتي
Abnormal	شاذ
Absolute	مطلق
Abstraction	تجوريد
Academic	أكاديمي
Accident	عرض
Accidental... ..	عرضي
Acquired	مكتسب
Acquisition	اكتساب
Adaptation	تكيف - ملاءمة
Adornment	زخرفة
Aesthetics	علم الجمال
Affinity	تألف
Agnostic	لا أدري
Agnosticism	لا أدريّة
Altruism	إيثار - غيرية
Analysis	تحليل
Analytical	تحليلي
Anarchism	الفوضوية
Ancestor-worship	عبادة الأسلاف
Animism	أنيمية - أنيمزم
Animistic	أنيمي
Anthropomorphism	تشبيه
Appearance	ظاهر
Appetite... ..	شهوة
Apriori	أولي - قبل التجربة
Apriorism	أولية - المذهب الأولي
Appreciation	تقدير
Argument	حجة - دليل

Aristocracy	أرستقراطية
Art	فن
Artificial	صناعي
Artisan	صانع - صانع يدوي
Artist	فنان
Ascetism	زهد
Aspect	مظهر
Association	ترابط
Association of ideas	ترابط المعاني - تداعي المعاني
Associationism	الترابطية
Assumption	افتراض - زعم
Atavism	ارتداد - ردة
Atheism	لا دينية - إلحاد
Atheist	لا ديني - ملحد
Attraction	جاذبية - جذب
Attractiveness	جاذبية
Attention	انتباه
Average	متوسط
Aversion	نفور
Authority	سلطة
Axiom	بديهية

B

Barbarism... ..	بربرية - همجية
Beauty	جمال
Behaviorism	السلوكية - المذهب السلوكي
Behaviorist	السلوكي
Being	كائن
Belief... ..	اعتقاد
Birth control	تحدد النسل
Blame	لوم
Brain	مخ

C

Category	مقولة - قالب
Cause	سبب - علة ...
Causality	سببية
Censure	ذم
Certain	يقينى
Certainty	يقين
Chance	صدفة - اتفاق
Change	تغيير
Character	خلق
Chastity	عفة
Chauvinism	نصرة وطنية
Chronology	حوليات
Civilisation	حضارة
Clarity	وضوح
Classification	تصنيف
Code	قانون - شريعة
Coherence	تماسك
Cohesion	التحام
Common sense	العقل السليم
Commercialism	المذهب التجارى
Community	جماعة
Companionate marriage	زواج المتعة
Competition	تنافس
Composite history	التاريخ المركب
Concept	تصور - مفهوم
Conflict	صراع
Conscience	ضمير
Consciousness	شعور
Conservation of energy	بناء الطاقة
Conservatism	المحافظة - التقليدية
Conservative	محافظ
Consistent	متناسك - متين

Consolation	عزاء
Constitution	تأمل
Contemplation	دستور
Continuity	اتصال
Contradiction	تناقض
Convention	اصطلاح - عرف
Coordination	تنسيق - توافق
Copulation	نكاح
Corporeal	جسماني
Cosmic	كونى
Cosmology	كوسمولوجيا (علم الكونيات)
Cosmos	كون
Creation	خلق
Creative	خالق
Criterion	ميزان - معيار
Criticism	نقد
Cubism	التكعيبية (مذهب فى الفن)
Culture	ثقافة
Curiosity	استطلاع
Custom	عرف - عادة
Cynics	الكليية
Cynicism	الكلييون

D

Decoration	زخرفة
Decorative	زخرفى
Deduction	استنباط قياس ، استدلال قياسى
Deductive	قياسى
Deferment of marriage	تأخير الزواج
Deity	ألوهية - آلهة
Deliberation	روية
Delusion	وهم
Democracy	ديمقراطية
Destiny	مصير - قدر

Determinism		حتمية
Development		نمو
Dialectic		جدل - جدلي
Differentiation		تمايز
Discernment		تمييز
Discretion		فطنة
Disgust		تقزز - نفور
Divine		إلهي
Divine Will		الإرادة الإلهية
Divorce		طلاق
Dogma		عقيدة
Dogmatic		دجماطيقي - (جازم)
Dogmatism		دجماطية - (جزمية - قطعية)
Doubt		شك
Doubt (Methodic doubt)		شك منهجي
Dualism		ثنائية

E

Early marriage		زواج مبكر
Ecstasy		نشوة
Education		تربية
Ego		الأننا
Egoism		الأنانية - الأثرة
Emancipation		تحرير
Emancipated woman		امرأة متحررة
Empiricism		تجريبية
Endogamy		الزواج من داخل القبيلة
Energy		طاقة
Enlightenment		عصر التنوير
Enslavement		استعباد - استرقاق
Environment		بيئة
Epiphenomenon		ظاهرة ثانوية
Epistemology		إبستمولوجيا (نظرية المعرفة)
Epistemology		أصحاب المعارف - إبستمولوجيون
Equality		مساواة

Eros		الحب (الجنسي)
Erotic imagery		تصورات شهوانية
Essence		ماهية - جوهر
Essential		جوهري
Esoteric		مستور
Eternal		أزلي - أبدي
Eternal recurrence		الدورة الأزلية (مذهب نيتشه)
Eternity		الأبدية - الأزلية
Ethics		علم الأخلاق
Event		حادثة
Evidence		الوضوح
Evolution		تطور
Existence		وجود
Exogamy		الزواج من خارج القبيلة
Exoteric		منشور
Experience		تجربة
Experiment		تجربة علمية
External world		العالم الخارجي

F

Fact		واقعة - حقيقة
Factor		عامل
Faith		إيمان
Fallible		غير معصوم - قابل للخطأ
Family		أسرة
Fatalism		الجبورية - القضاء والقدر
Freedom		الحرية
Free love		الزواج الحر
Feudalism		الإقطاع
Form		صورة - شكل
Formula		صيغة - قانون
Formulation		صيغة
Foundation		أساس

G

General		عام
Generalisation		تعميم

Genius	عبقرية
Ghost	شبح
Good	الخير
Group	جماعة
Guilt	ذنب
Guilty	مذنب

H

Habit	عادة
Harmonious	مؤتلف
Harmony	اتسلاف
Heredity	وراثة
Heresy	هرطقة - زندقة
Homosexuality	الشذوذ الجنسي
Hypnotism	تنويم مغناطيسى
Hypothesis	فرض (علمي)
Hypothetical	فرضي

I

Idea	فكرة - المثال (الأفلاطوني)
Idealism	المثالية
Imagination	الخيال
Imaginative	خيالي
Immaterial	لامادي
Immortality	الخلود - خلود النفس
Immortal	خالد
Immorality	اللاأخلاقية
Impulse	دافع
Indestructivity of matter	عدم فناء المادة
Individual	فرد
Individualism	الفردية
Industrialisation	تصنيع
Industrial Revolution	الثورة الصناعية - الانقلاب الصناعي
Inequality	تفاوت
Inert	خامد

Inert matter	مادة خامدة
Infallible	معصوم
Infallibility	معصمة
Inference	استدلال
Infinite	لانهاى
Infinity	اللانهاية
Initiative	المبادأة
Insecurity	قلق
Insight	استبصار
Inspiration	إلهام
Instinct	غريزة
Institution	نظام - منظمة
Instruction	تعليم
Instrument	أداة - آلة
Instrumentalism	الأدائية
Integration	توحيد
Intellect	عقل
Intellectual	فكري
Intellectualism	المذهب الفكري
Intelligence	ذكاء
Interpretation	تأويل - تفسير
International	دول
Introspection	تأمل باطنى - استبطان
Intuition	حدس - بصيرة
Intuitionism	الحدسية

J

Justice	العدالة
Justification	تبرير - تسويق

K

Knowledge	معرفة
-----------	-------

L

Law	قانون
Leadership	قيادة - رياسة
Legend	أسطورة

Life	حياة
Logic	منطق
Logical	منطقي
Loyalty	ولاء

M

Machine	آلة - جهاز (معنى سياسى)
Magic	سحر
Magic formulas	عزائم سحرية
Majority	أكثرية

Manipulation	التحسس - القبض باليد
Mankind	البشرى
Marriage	الزواج
Material	مادى

Materialism	المادية
Materialist	مادى
Matter	مادة
Mechanic	ميكانيكى - آلى

Mechanism	الميكانيكية - الآلية
Mediocrity	تفاهة - توسط
Mediumistic inspiration	وساطة روحية
Mental	عقل - ذهنى

Mental set	الهئية الذهنية
Metaphysics	الميتافيزيقا - ما بعد الطبيعة
Method	منهج - طريقة
Scientific method	منهج علمى

Mind	عقل
Mind-matter	العقلامادة
Minority	أقلية
Modesty	العفة - التواضع

Moderation	الاعتدال
Modernism	مذهب التجديد - الروح العصرية
Modernity	التجديد
Monist	واحدى - موحد
Monism	واحدية

Monistic vitalism (مذهب)	الحوية الواحدة (مذهب)
Monogamy	الزواج من واحدة
Morals	الأخلاق
Morality	الأخلاقية

Moirra	القضاء
Mystery	سر - لغز
Mysticism	تصوف
Myth	قصة خرافية - خرافة

N

Nationalise	يؤم
Nationalised machines	آلات مؤمنة
Natural	طبيعى
Naturalism	المذهب الطبيعى

Nature	طبيعة
Need	حاجة
Negative	سلبى
Negativism	السلبية

Nothing	العدم
Notion	فكرة
Nominalism	الاسمية
Nominalists	الاسميون

Neutral stuff	المادة المحايدة
Nihilism	العدمية

O

Object	موضوع - شىء
Objective	موضوعى
Objectivity	موضوعية
Obsceneness	فحش

Observation	ملاحظة
Obscurantism	الجهالية (مذهب من يريد البقاء فى الجهل) - مذهب الظلام
Obscurity	الغموض
Obsession	التلبس

Omnipotence	... القدرة على كل شيء
Omniscience	... العلم بكل شيء
Opinion...	... رأى
Origin	... أصل
Order	... ترتيب - نظام
Organisation	... تنظيم - منظمة

P

Pagan	... وثني
Paganism	... الوثنية
Painting	... النقش
Panpsychism	... مذهب وحدة النفس
Parallelism	... مذهب التوازي
Psychological parallelism	... التوازي النفسي
Perception	... إدراك حسي
Personality	... شخصية
Personification	... تشخيص
Perspective	... النظرة الشاملة
Physico-chemical	... طبيعياى
Perversion	... انحراف (جنسى)
Pessimism	... التشاؤم
Philosophy	... فلسفة
Philosophy of history...	... فلسفة التاريخ
Philosophy of mind	... فلسفة العقل
Philosophy of religion	... فلسفة الدين
Plastic	... مجسم
Plastic art	... فن مجسم
Pleonasm	... اللغو
Pointillism	... النقطية (مذهب فى الفن)
Politician	... سياسى
Politics	... السياسة
Polygamy	... تعدد الزواج
Polytheism	... تعدد الآلهة
Positive	... موجب - إيجابى

Positivism	... الوضعية (المذهب الوضعى)
Possibility	... إمكان - احتمال
Post-marital	... بعد الزواج
Potency	... قوة
Potential	... بالقوة
Power	... سلطة - قوة
Practice	... العمل
Pragmatism	... البرجماتية - البراجاتزم
Praise	... مدح
Predestination	... العناية الأزلية
Preestablished harmony	... التناسق الأزلى (مذهب ليبنتز)
Prejudice	... تحيز
Premarital	... قبل الزواج
Premise	... مقدمة (فى المنطق)
Primitive	... بدائى
Principle	... مبدأ
Probability	... رجحان - احتمال
Problem	... مشكلة
Profane	... دنيوى
Progress	... تقدم
Progressive	... متقدم
Proletariat	... طبقة عاملة - بروليتاريا
Proportion	... نسبة - تناسب
Proposition	... قضية (فى المنطق)
Promiscuity	... إباحية
Professional promiscuity	... بغاء
Providence	... العناية الإلهية
Provincialism	... النزعة الإقليميه
Psychology	... علم النفس
Psycho-physical	... نفسطبقى
Puritanism	... التطهيرية (الزمت)
Puritan	... بيوريتان (متطهر)

Q

Quantity	كم
Quality	كيف
Quantum	الكوئمية - الكوئمة (كوانتوم)

R

Rational animal	حيوان ناطق
Rationalisation	تعقيل
Rationalism	المذهب العقلي
Rationality	التعقل
Reaction	رد فعل
Reactionary	رجعى
Real	واقع - حقيقى
Realisation	تحقيق
Realism	الواقعية
Realist	الواقعى
Reality	حقيقة - الواقع
Reason	عقل
Reasonable	عاقل - معقول
Reasoning	استدلال
Reflection	تفكر - تأمل
Reformation	الإصلاح الدينى
Regularity	انتظام
Relativity	النسبية
Reliability	صالح للاعتماد عليه
Religion	دين
Religious	متدين - دينى
Renaissance	عصر النهضة
Reproduction	تناسل
Restraint	حرمان
Resurrection	بعث
Response	استجابة
Rites	طقوس - شعائر
Right	حق

Rule	قاعدة - حكم (فى السياسة)
Rythm	وزن
Rythmic	موزون

S

Sacred	مقدس
Sanction	جزاء
Savagery	همجية - توحش
Scarification	تنديب
Scatophilia	عشق القذارة
Sculpture	النحت
Scepticism	مذهب الشك - الشكية
Sceptic	شاك
Science	علم
Scholastic	مدرسى
Scholasticism	المدرسية
Secondary	ثانوى
Sect	فرقة - شيعة
Security	أمن
Sensation	إحساس
Sense of beauty	حاسة الجمال
Separation	انفصال
Sex	جنس
Sexual	جنسى
Sensitivity	حساسية
Social order	نظام اجتماعى
Socialism	اشتراكية
Society	مجتمع
Soul	نفس
Solidarity	تضامن
Solitude	عزلة
Spatial	متحيز
Space	مكان
Space-time	زمكان
Spirit	روح

Spiritualism	الروحية
Spontaneity	تلقائية
Speculation	النظر
Stage	مرحلة
Static	ساكن
Statesman	رجل حكم
Statesmanship	فن الحكم
Statistics	إحصائيات
Standardization	توحيد
Stimulus	مؤثر
Structure	تركيب - هيئة
Stock	سلالة
Stoics	الرواقيون
Stoicism	الرواقية
Subject	ذات - شخصي
Subjective	ذاتي - شخصي
Subjectivity	الذاتية - الشخصية
Sublime	رائع - جليل
Submission	خضوع
Substance	جوهر - مادة
Substantial	جوهري
Suggestion	إيحاء
Superficial	سطحي
Superfluous	زائد
Superman	إنسان أعلى
Supernatural	علوي
Supernaturalism	الغيبية
Superstitions	خرافات
Syllogism	قياس (في المنطق)
Symmetry	تماثل
Synthesis	تركيب
Synthetic	تركيبى

T

Taste	ذوق
--------------	-----

Taboo	محرم
Technical	فني
Technology	صناعة - تكنولوجيا
Temperament	مزاج
Tension	توتر
Test	مقياس - اختبار
Tender emotion	انفعال الحنان
Theology	لاهوت
Theologist	لاهوتي
Theory	نظرية
Theoretical	نظري
Thing-In-Itself	الشيء بالذات (في فلسفة كانط)

Thinker	مفكر
Thought	فكر
Time	الزمان
Truth	الحق
Total	كلي
Totem	طوطم
Traditions	التقاليد
Traditional	تقليدي
Transcendent	متعالى
Transcendental	أولى شرطي
Tyranny	استبداد

U

Ugly	قبيح
Ultimate	نهائي - أقصى
Ultimate good	الخير الأقصى
Unconsciousness	اللاشعور
Unknowable	ما لا يمكن معرفته (في فلسفة سبنسر)

Unit	وحدة
— Social unit	وحدة اجتماعية

Unity...	...	...	...	...	وحدة
Universe	...	...	...	...	كون
Universals	...	...	...	...	الكليات
Unreality	...	...	...	...	اللاحقيقة
Unreliability	...	...	...	...	اللائقة
Utility	...	...	...	...	منفعة
Utopia	...	...	...	...	مدينة فاضلة - طوبيا

V

Vacuum	...	...	...	...	الحلاء
Validity	...	...	...	...	ثقة
Value	...	...	...	...	قيمة
Vice	...	...	...	...	رذيلة

Virtue	...	...	...	...	فضيلة
Vision	...	...	...	...	رؤية
Vitalism	...	...	...	...	الحوية (المذهب الحيوى)
Vitality	...	...	...	...	حيوية
Veracity	...	...	...	...	صدق
Voluntary	...	...	...	...	اردى

W

Whole	...	...	...	...	كل
Will	...	...	...	...	إرادى
Wisdom	...	...	...	...	حكمة
Worship	...	...	...	...	عبادة

كانت الفلسفة لغة الخاصة وشُغل فريق من الناس، وعُدت زمناً بين
التعاليم السرية والمضنون بها على غير أهلها... ويراد بها اليوم أن
تنزل من سمائها وتعيش مع عامة الناس على أرضهم، وتنقل من
أرستقراطية الفكر إلى ديمقراطية البحث السهل الطليق... وقد اضطلع
ديورانت بهذا العبء وشاء أن يقيم فلسفة متماسكة للحياة... فجاء
عرضه شيقاً جذاباً، يؤذن باطلاع واسع، وإلمام تام بالفلسفة والتاريخ
والعلم والأدب...

من مقدمة الدكتور إبراهيم مذكور